نفحات الرحمن
في
رياض القرآن

تأليف الشيخ

محمد بن ابراهيم سعيد كعباش

الجزء الثاني عشر

نشر جمعية النهضة
العطف - غرداية - الجزائر

نفحات الرحمن

في رياض القرآن

تأليف فضيلة الشيخ

محمد بن إبراهيم سعيد كحيلش

الجزء الثاني عشر

نشر جمعية النهضة

العطف- غرداية- الجزائر

طبع: المطبعة العربية، نهج طالبي أحمد - غرداية

تخريج الأحاديث، الفهرسة والتنسيق الفني:

أ. قاسم بن عمر حاج احمد

أ. عبد الله بن موسى ابن عيسى

حقوق الطبع محفوظة

1433هـ / 2012م

المطبعة العربية

11 نهج طالبي احمد - غرداية

الهاتف / فاكس : 53 .36 .88 (029)

النقطة الصناعية : 34 .34 .87 (029)

الإيداع القانوني 3276/2012

ردمك: 5-58-845-9947-978 I.S.B.N:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة ص: آية 29)

صدق الله العظيم

سورة الزمر، مكية، وآياتها ٧٥

بين يدي السورة الكريمة:

الزُّمَرة هي الجماعة من الناس تجمع على "زُمَر"، ولم ترد هذه الكلمة إلاّ في أواخر هذه السورة، ولذلك سميت بها اتفاقاً، إلا ما نقله القرطبي عن وهب بن منبه، أنه يقال لها: "سورة الغرف"، إذ قال: من أحبّ أن يعرف قضاء الله عزّ وجلّ فليقرأ سورة "الغرف"، وقد ذكر فيها هذا اللفظ بتلك الصيغة دون "الغرفات".

وهي كلها مكية عند الجمهور، إلا ما روي عن ابن عباس من نزول قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ (٥٣) إلى الآيات الثلاث، أنها نزلت بالمدينة، وهي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب النزول نزلت قبل سورة غافر وبعد سبأ، وهي التاسعة والثلاثون في ترتيب سور المصحف الشريف. ويحاول المفسّرون إيجاد التناسب بين السورتين السابقة واللاحقة، أي بين سورتي ص والزمر، فقالوا إن بينهما مناسبة من وجهين:

الأول: نجد في آخر "ص" وصفاً كريماً للقرآن وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (ص: ٨٧). وفي مفتتح الزمر قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، فالذكر هو الكتاب المنزل الثاني.

الثاني: وردت قصة آدم في آخر سورة "ص"، وفي أوائل سورة الزمر ذكرت أحوال الخلق من المبدأ إلى المعاد، وهي متصلة بخلق آدم.[1]

١- التحرير والتنوير: ٢٣/٢٣٨.

ب)- محاور السورة وأغراضها:

المحور الأساسي هو تركيز أسس العقيدة الإسلامية من وحدانية الله مع بيان الأدلة والبراهين، وصدق النبوة والرسالة، والبعث والجزاء.

أ)- فعن الأساس الأول، تعرّضت السورة لظواهر طبيعية من خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، وإنزال الأمطار وتفجير الينابيع في الأرض وإنبات النبات، مع التنديد بالمشركين في عبادة الأوثان، وطبيعتهم في السراء والضراء.

ب)- وعن الأساس الثاني: أشادت بعظمة القرآن وبينت تأثيره على قلوب المؤمنين، وكيف تضمّن أمثالا حكيمة ومواعظ مؤثرة، غير أنّ الكافرين تنقبض نفوسهم عند سماعه، وقد أطالت السورة في التنويه بشأن القرآن، ومما جاء فيها قوله تعالى:

- ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (١-٢).

- ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٢٣).

- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٧-٢٨).

- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (٢).

- ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ (٥٥).

ج)- وفي الأساس الثالث: ذكر أحوال يوم القيامة، وأنه تعالى يبعث أرواح

الخلائق كلها، يتوفى بعضها في آجالها ويترك الأخرى إلى أجل مسمّى، وأن الرسول سيموت كغيره من الخلائق.

وصف ما يظهر على وجوه المشركين من الكآبة والحزن حين يرون العذاب، وتمنيهم الفداء منه.

وتختم السورة بتصنيف الناس إلى فريقين: فريق الكفار الهالكين وكيف يساقون إلى جهنم، وفريق المؤمنين كيف يدخلون الجنة تحيّيهم الملائكة ويحمدون الله حين يشاهدون نعيم الجنة، ويحلل ذلك وعد الله بغفران الذنوب جميعا للذين أسرفوا على أنفسهم.

التنويه بشأن القرآن والأمر بإخلاص العبادة لله.

أ) - النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيمِ﴾: ﴿تنزيلُ الكتابِ﴾: مبتدأ و﴿من

الله﴾ خبره. ويجوز أن يكون: ﴿تَنزِيلُ﴾ خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هذا تنزيل. وقرئ بالنصب على الإغراء نحو: الزموا. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾: الخطاب للرسول، وإعادة لفظ الكتاب للتنويه بشأنه. ﴿بِالْحَقِّ﴾: الباء للملابسة، حالا من الكتاب. ﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾: أي ممحضا له الدين. ﴿مُخْلِصًا﴾: حال، و﴿الدِّينَ﴾: مفعول به. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾: و﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: يقولون ما نعبدهم، ويجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع لفعل مقدر: وقال الذين. ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾: في موضع نصب بـ"يقولون". ﴿زُلْفَىٰ﴾: أي منزلة القرب، اسم مصدر منصوب على المفعولية المطلقة أي قربا شديدا. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾: المراد بهم الذين اتخذوا من دونه أولياء، والتعبير بـ"من" الموصولة لإفادة الإيماء إلى علة الفعل، أي لا يوفقهم الله إلى الهداية. ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾: أي لو كان الله متخذا ولدا لاختار من خلقه ما يشاء فكان هذا إبطالا لما تضمنه قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، ويسمّى اللغويون "لو" هذه "لو الصهيبية"، مأخوذة من الأثر المشهور: "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه".

ج)- البيان والتفسير:

روى النسائي عن عائشة ﷺ أنها قالت: **«كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر»**[1]، وبنو إسرائيل هي سورة الإسراء.

١- رواه النسائي في السنن الكبرى من حديث عائشة، رقم (٥٤٨ - ١)، ٦/١٧٩.

قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾.

الابتداء بمصدر: ﴿تَنزِيلُ﴾ مضافا إلى ﴿الْكِتَابِ﴾ بأل العهدية، وتعني القرآن العظيم المنزل على قلب رسول الله، هذه الافتتاحية في أول السورة هي للتنويه بشأن القرآن العظيم المنزّل من الله العزيز الحكيم، فالكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنزله العزيز الذي لا يغلب ولا يقهر، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الحكيم في تدبير شؤون خلقه، يضع الأشياء في مواضعها المناسبة فهو يعلم فيم أنزله ولماذا أنزله؟ كما قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾. التوكيد بـ"إن" والإتيان بنون العظمة هو للاهتمام بالخبر للتعريض بالذين أنكروه.

﴿بِالْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، وقد تكرر ذكر الكتاب، فقيل: للزيادة في التنويه بشأنه، على اعتبار "أل" للعهد الذهني في كلا اللفظين. وذهب بعض المفسرين إلى التفريق بين اللفظ الأول والثاني وقالوا: إن الأول لجنس الكتاب، فيشمل الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل، والثاني للعهد يخص القرآن. غير أن الوجه الأول أنسب لموضوع السورة الذي يركّز على أسس العقيدة -كما تقدم-، وأساس الحق الأول الذي أنزل به الكتاب هو تقرير وحدانية الله والتدليل على ذلك بمختلف الأدلة التي تثبت ذلك، ولما كانت وحدانية الله المطلقة تستلزم من خلقه أن يخلصوا العبادة له فقد فرّع الله على تلك القضية الأمر لرسوله بأن يعبد الله مخلصا له الدين، والإخلاص في اللغة هو الإخلاص وعدم الشوب بغاير، والمعنى: ممحضا لله العبادة غير خالط بعبادته غيره.

ينقل الدكتور أحمد الشرباصي في كتابه القيّم (موسوعة أخلاق القرآن) في فصل "الإخلاص" ينقل عن تفسير المنار قوله: "إن إخلاص الدين لله هو أن يتوجه

الإنسان بدينه إلى ربّه وحده، لا يدعو من دونه أحداً، ولا يدعو معه أحداً لا يكشف ضرّاً ولا يجلب نفعاً، ولا يتخذ من دونه أولياء يجعلهم وسطاء عنده، بل يكون كلّ ما يتعلّق بالدّين والعبادة خالصاً له وحده، لا تتوجّه فيه النفس إلى غيره، ولا يسأل اللّسان سواه، ولا يستعان -فيما وراء الأسباب العامة- بمن عداه".[1]

قلت: إذا كان الخطاب لرسول الله -وهو منزّه عن عبادة غير الله-، فإنّ المقصود هو أن يكون في ذلك قدوة لغيره مما يدعو إليه الناس، حتى يكون ذلك منهجاً لحياتهم ولذلك جاء تركيد هذا المعنى بصيغة القصر في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه وافتتاح يؤتى بها لإعلان ما هو مهمّ من إفراد العبادة لله كما تقدّم الأمر بذلك؛ لأنّ تقرير تلك القاعدة الكلّية من إخلاص الدّين لله هو الغرض الأسمى للسورة، فإذا كان الدّين هو المعاملة كما جاء في الحديث، فإن الإنسان قد تطرأ على معاملته نوازع الرياء وحبّ الحمدة، وغير ذلك مما ينتفي مع الإخلاص، ولذلك قال بعض الأعراب للنبي بعد نزول الآية: يا رسول الله إنا نبذل أموالنا طلبا للثناء والذكر فقال لهم: إنه شرك لا يقبله الله، وقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.[2]

وإتماما للفائدة في هذا العمل القلبي الحسّاس أنقل ما أورده الإمام ابن عاشور في الخطرات القلبية التي لا تملك. قال: "وفي (جامع العتبية) في ما جاء من أنّ النية الصحيحة لا تبطلها الخطرة التي لا تملك، حدّث العتبي عن عيسى بن دينار عن ابن وهب عن عطاء الخراساني أنّ معاذ بن جبل قال لرسول الله ﷺ: «ليس من يبقى

١- تفسير التنوير: ٢٤/١٧٤.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٥/٢٣٢.

سلمة إلاّ مقاتل فمنهم من القتال طبيعته، ومنهم من يقاتل رياء، ومنهم من يقاتل احتسابا، فأي هؤلاء الشهيد من أهل الجنة؟. فقال: يا معاذ بن جبل، من قاتل على شيء من هذه الخصال أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا فقتل فهو شهيد من أهل الجنة»[1] قال ابن رشد في شرحه: هذا الحديث فيه نصّ جليّ على أن من كان أصل عمله لله، وعلى ذلك عقد نيته لم تضرّه الخطرات التي تقع في القلب ولا تملك"[2]

قلت: إن مثل تلك الخطرات مزلق خطير، وهي من وسوسة الشيطان يسعى للمؤمن أن يدافعها ما استطاع حتى لا تفسد عليه عمله.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾:

لما ركّز الله على معنى الإخلاص في العبادة، وأنه نفي لجميع أنواع الإشراك، وعلم أنّ واقع الوثنين من العرب في معتقداتهم كان يشوبه كثير من الانحرافات في اتخاذ الشّركاء لله، عطف على ما سبق بيان ما ابتدعه أولئك الذين اتخذوا من دون الله أولياء، وقالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. والزلفى: اسم مصدر من زلف إليه بمعنى دنا إليه وقرب منه، فهؤلاء يقرّون بوجود الله ويعترفون بالخالقية له، ولكنهم لسوء تصوّرهم لمعنى الألوهية ابتدعوا أسطورة بنوة الملائكة لله - حاشاه- ورمزوا لهم بتماثيل كما رمزوا بذلك لكثير من صلحائهم فيما يزعمون، وتلك طريقة لم يسلم منها كثير ممن يدّعي الإسلام اليوم بتمسّحهم على قبور بعض الأولياء واتخاذها مزارات تقام لها الوعدات، وتقدّم لها القرابين، فهؤلاء

١- رواه البخاري نحوه من حديث أبي موسى الأشعري، كتاب (٦٠) الجهاد والسير، باب (١٥) من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم ٢٦٥٥: ٣/٣٤، ١.

٢- التحرير والتنوير: ٢٣/٣١٨-٣١٩.

وأولئك يتعللون دائما بأنهم لا يعبدون تلك المقدسات لذاتها، وإنما يتقربون بها إلى الله لتشفع لهم عنده، وهو ادعاء جدلي لا يقوم على برهان من الله، ولا على أثارة من علم. ولذلك جاء الرد الإلهي حاسما بما يقضيه بين أهل المعتقدات الدينية في ما كانوا فيه يختلفون؛ ذلك لأن البشر قد تفننوا في ابتداع تلك الانحرافات حتى أصبحت مثار خلاف بينهم، يؤدي بهم -أحيانا- إلى الصراع والتناحر، والله وحده يقضي بينهم بحكمه يوم القيامة، فليس على رسل الله إلا أن يبينوا للناس طريق الهدى بالوسائل الإقناعية، وإلى الله الحكم والفصل. وأما حالهم في الدنيا فقد رضوا لأنفسهم طريق الضلال والكفر بعد أن بين الله لهم على أيدي رسله طريق الهدى فنبذوه بكفرهم على الله وبقوا على كفرهم، لأن هداية الله تكون جزاء على التوبة والأناة والإخلاص لله تعالى.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾: ورداً على شبهة اتخاذ الولد لله -حاشاه- في زعم من جعلوا الملائكة بنات الله، كما روي ذلك عن ابن عباس ﷺ في أن الآية نزلت في ثلاثة أحياء وهم: خزاعة، وكنانة، وبنو سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون: الملائكة بنات الله، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾.

ورداً على هؤلاء، ذكر هذا الفرض الجدلي بـ"لو الشهيرة" لتصحيح فساد ذلك التصور، فقال: لو شاء الله اتخاذ ولد -كما تزعمون- لاختار من جملة مخلوقاته الكثيرة ما يشاء، كيف وهو الله الخالق تنزهت ذاته العلية عن الوالد والولد وعن الصاحبة كما ورد في سورة "الإخلاص"، وهو موضوع هذه الآيات. فكل موجود في هذا الكون في علويه وسفليه هو مخلوق له. فهو الواحد في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، وهو القهار الغالب، لا يند عن قبضته شيء في الأرض ولا في السماء، والله أعلم.

أدلة الوحدانية ومعاني القهارية.

أ) - النص:

خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ﴾: اختيار المضارع: ﴿يُكَوِّرُ﴾ للدلالة على التجدّد والتكرار، والتكوير في اللغة: اللفّ واللّيّ للشيء، وهو استعارة تمثيلية يقول عنها الإمام ابن عاشور: "وهو تمثيل بديع قابل للتحزئة بأن تشبه الأرض بالرأس، ويشبه تعاور الليل والنهار عليها بلفّ طيات العمامة، وما يزيده إبداعا مادة التكوير الذي هو معجزة علمية من معجزات القرآن".[1]

قلت: ومن الألفاظ التي استعملها القرآن في تلك الظاهرة الطبيعية: الإيلاج والغشيان والسلخ. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: تسخير

---

١ - التحرير والتنوير: ٢٣/٢٢٨.

الشمس والقمر هو تسيرهما على ذلك النظام الدقيق، كلٌّ في مداره. والأجل المسمّى هو الأجل المقدّر عند الله لفناء العالم. ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: النفس الواحدة هي آدم عليه السلام، خلقه من غير أب وأم، وزوجها هي حواء عليها السلام، و﴿منها﴾ أي من جنسها، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي. ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾: الإنزال في الأصل اللغوي نقل الجسم من علوّ إلى أسفل، وهو هنا بمعنى التذليل والتمكين. والأزواج جمع "زوج"، وهو كل واحد معه آخر من جنسه، والمراد بها هنا: الإبل والبقر والغنم والمعز، لكل منها ذكر وأنثى. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ﴾: ﴿خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾: إشارة إلى أطوار الجنين في بطن أمه كما فصّل الله ذلك في سورة المؤمنون. والظلمات الثلاث: هي ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وهي غطاء من جلد يخلق مع الجنين محيطاً به. ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾: اسم الجلالة خبر عن اسم الإشارة. و﴿رَبُّكُمْ﴾ صفة، ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾: خبر ثان. وجملة: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ بيان لجملة القصر: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾. ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾: جملة اعتراضية بين الشرطين. ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾: لا يتحمل أحد إثم أحد غيره، بل كل نفس بما كسبت رهينة.

ج) ـ أوجه القراءة:

﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾: قرأ الجمهور بضمّ الهمزة وفتح الميم في حالي الوصل والوقف. وقرأه حمزة في حال الوصل بكسر الهمزة اتباعاً لكسرة نون ﴿بُطُونِ﴾، وبكسر الميم اتباعاً لكسر الهمزة. وقرأه الكسائي بكسر الميم في حال الوصل مع فتح الهمزة. ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، ويعقوب بضم الهاء من غير صلة. وقرأها ابن كثير، وابن ذكوان، والكسائي، وابن وردان، وخلف بضم الهاء

مع الصلة، وقرأها السوسي، وابن جماز بإسكان الهاء: ﴿وَرْضَهْ لَكُمْ﴾.

د)- البيان والتفسير:

بعد التذييل بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ لتنزيهه على أن يكون له ولد أعقب ذلك ببيان الأدلة الدالة على وحدانيته وقاهريته، بأنه هو خالق السماوات والأرض بالحق، ومسخر الشمس والقمر، وأنّ كلاً منهما يجري لأجل مسمّى. وأنه هو خالق الإنسان مع زوجه، وكيف تعاقب منهما النسل البشري. كما خلق ثمانية أزواج من الأنعام، أي الإبل والبقر والغنم والمعز، مما يستوجب له الشكر والحمد والثناء فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

للتدليل على وحدانيته وقاهريته تعالى بدأ بذكر الأدلة التي نشاهدها في العالم العلوي من خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحقّ، فالباء للملابسة، أي خلقهما بالحقّ والميزان الثابت، لأنه تعالى يتنزّه عن اللّهو واللعب، فلا شيء في خلقه ينذّ عن حكمته ولا عن حسن تدبيره ونظام تسييره، مما يوحي بوحدة الإرادة الإلهية الخالقة المدبّرة، فلا يزال العلم يكتشف في الآفاق القوانين الثابتة التي تنتظم الكون كلّه من أصغر ذرّاته إلى أضخم أجرامه، وهي في حركة مستمرة دائبة، على أنّ الكثير الكثير من أسرار كوكبنا الأرض الذي نعيش عليه ما يزال محجوباً عنّا، فكيف بما في السماوات من الفضاء الكوني الواسع. ومما يلفت النظر من ظاهرة اختلاف الليل والنهار ذلك التعبير الفريد من نوعه من اختيار فعل: ﴿يُكَوِّرُ﴾، وهو بلا شكّ من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم قبل أن يهتدي الناس إلى كروية الأرض بزمن طويل، فقد جاء التعبير في الآيات الأخرى تارة بـ"يولج"، وأخرى

بـ"يغشى"، وبالتمثيل بسلخ جلد الشاة، كلّ ذلك وفق المشاهدة البسيطة لتلك الظاهرة الطبيعية المحيية، أمّا النظرة العلمية الثابتة اليوم من كروية الأرض ودورانها حول نفسها وهي متّجهة نحو الشمس، لأنّ التكوير هو لفّ الشيء على جهة الاستدارة، وهل أدق من هذا التعبير القرآني في تصوير هذه الظاهرة.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾: فللشمس مدارها -كما تقدم بيان ذلك في سورة يس- على خلاف ما كان يعتقده العلماء أن الشمس ثابتة، فإذا كان مدار القمر محدّدا معلوما عند البشر فاستطاعوا بتحديد ذلك المدار أن يرحلوا على سطحه، فإنّ مستقرّ الشمس الذي تجري إليه ما يزال مجهولا، غير أنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ لكلّ من الشمس والقمر في حركتهما الدائبة أجلا محدّدا في علم الله ينتهيان إليه يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات، ولا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾: لهذه الآية وقعها المزيد من نوعه وهي توسط أدلة العالم العلويّ والعالم السفليّ لبيان قدرة الله وعظمته، فهي تتضمّن وعدا ووعيدا باعتبار الصّفات المختارة للذات العليّة، ثمّ إنّ تصديرها بـ"ألا" المنبهة يدلّ على الاهتمام بمدلولها.

فصفة: ﴿الْعَزِيزُ﴾ كناية عن القوة والغلبة والقهر، فلا تحدي الكافرين عزهم ولا تقربهم لآلهتهم إذ لو شاء الله لعجّل لهم بالعذاب.

وأما صفة: ﴿الْغَفَّارُ﴾ فهي صريحة في استمالتهم إلى دعوة الإسلام والمبادرة بالتوبة والإنابة إلى الله، قبل انتهاء الأجل، وبذلك يفتح الله باب الرجاء للذين أسرفوا على أنفسهم.

ثم ينتقل السياق إلى الاستدلال بآيات الله في العالم السفلي إذ قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

الخطاب لكلّ الناس يلفت الله أنظارهم إلى أصل خلقتهم على تباينهم في الجنس واللون واللغة والطبائع والأمزجة...إلخ. فالمخلوق الأوّل الذي أوجده الله من تراب بدون أب ولا أم، خلقه فسوّاه، ونفخ فيه من روحه، ذلك المخلوق الأول هو أبونا آدم عليه السلام، فقد أودع في جسمه كلّ الخصائص المادّيّة التي يبنى بها الجسم ويستقيم، كما أودع في ذلك الجسم الخصائص النفسية التي هي نفحة من روحه تميّزه بالعاطفة والإدراك وكمال العقل.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: العطف بـ"ثم" للتراخي الرتبي لا الزمني، وقوله: ﴿مِنْهَا﴾، أي من نفسها، أو من جنسها للوفاق والتطابق، وهي أمّنا حوّاء، وكلتا النفسين آدم وحواء، تحملان -بقدرة الله- من الخصائص البشرية المادية والروحية ما جعل ذلك ينتقل بطريق التناسل عبر الملايين من البشر الذين قدّر الله وجودهم على ظهر الأرض إلى قيام الساعة، كما امتن الله به علينا في سورة النساء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١).

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾: عطف الله على خلقنا نحن إنزال الأنعام، واختيار فعل "أنزل" بدل "خلق"، للدلالة على مصدر الخلق والإيجاد وهو الله العليّ ذو القدرة المكين، يلاحظ فيه معنى الرفعة وعلوّ المنزلة، والأنعام: هي الإبل والبقر والغنم والمعز. لكل منها ذكر وأنثى فحصل بذلك ثمانية أزواج.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾: أي إن عملية الخلق وتقدير أطوارها في بطون الأمهات لكلّ الحيوانات الثديية تكون متدرّجة متابعة، وذلك ما تدلّ عليه صيغة المضارع: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ وتشمل غير العاقل على سبيل التغليب. وقد فصّل الله تلك الأطوار في سورة المؤمنون -كما تقدم-، كما أجملها في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح: ١٣-١٤). وفي قوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾: هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة غشاء الجنين، وقد وصفه الله بالقرار المكين في قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ، فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (المرسلات: ٢٠-٢٣). وكون تلك الخلية الصغيرة المتخلقة من حيوان منويّ من الذكر وبويضة الأمّ ترعاها عين الله في تلك الظلمات المتراكمة، فيه تنبيه على إحاطة علم الله بما هو أخفى، وعلى نفوذ قدرته في ما هو أدقّ من مخلوقاته، مما يدلّ على أنّ المتفرّد بالتصرّف والتدبير لشؤون خلقه وحده لا شريك له، وأنه المستحق للعبادة وحده فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

تذييل مناسب عقب بسط تلك الأدلة الواضحة القنعة، واختيار اسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مع الإتيان بلفظ الجلالة: ﴿اللَّهُ﴾ ووصفه بالربوبية: ﴿رَبُّكُمْ﴾ كلّ ذلك لزيادة البيان مراعاة لحال المخاطبين ممن لا يرتقون في تصوّرهم لمعنى الألوهية والربوبية الحقّة، والذي له الملك الحقيقي وحده. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: فلا معبود بحقّ سواه في الوجود.

وكان المفروض أن يذعن أولئك المتردّدون الشاكّون إلى نصاعة تلك الأدلّة على جلال الألوهية وعظمتها، ولكنّهم في الواقع لا تزيدهم إلاّ ابتعادا ونفورا. ولذلك فرّع الله على تلك الأدلّة قوله بصيغة الاستفهام الإنكاري

النحيّ: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾، أي كيف تنعدون عن تدبّر تلك الحقائق فتؤمنون بأنه لا إله إلا هو المعبود الحقّ، حتى لكأنهم منقادون إلى أئمة الضلال والكفر طيّعين.

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾:

الخطاب لكلّ البشر مؤمنهم وكافرهم يفهمهم الله أمام مسؤولية أنفسهم من بعد بيان تلك الأدلّة الواضحة للوحدة الإلهية المطلقة وقدرته الكاملة، فتكون الخلائق كلّها في مفرق الطريق بين الشكر والكفر، وهم على أتمّ وعي بما يختارون ويعرفون غاية الرّحلة في كل حالة، وما ينتظرهم بعد ذلك من حساب يتولاّه الذي يعلم السّرّ وأخفى. والإنسان في معمر حياته الأول يقع في محكّ الاختبار كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٢-٣).

وما الدعوة للإيمان بالله وما ينتج عن ذلك في سلوك الإنسان من العمل الصالح إلاّ مظهر لرحمة الله وفضله بعباده ليشملهم برعايته وعنايته دنيا وأخرى بما يوفّر لهم الحياة الطيبة الهنيئة، ولعلّ الكثيرين يعتقدون أنّ الإيمان بالله وشكره على نعمه، أو الكفر به والجحود لنعمه ينفع الله أو يضرّه في شيء فبيّن أنه غنيّ عن العالمين، وقد تكرّر هذا المعنى في كثير من آي القرآن، وكما ثبت ذلك في الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم: «**لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم**

وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا».[1]

ذلك هو قدر الله الأزلي في خلقه كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (التغابن:٢). ففي هذه الآية بيان لقضايا أساسية يقوم عليها الفكر الديني من شأنه تقويم سلوك الإنسان إن هو آمن بها والتزمها في حياته:

أ)- الأول: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾، فلا تنفعه طاعتهم ولا تضرّه معصيتهم، وقد تكرر هذا المعنى في آيات أخرى. فقد جاء في سورة لقمان:

- ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان:١٢).

- ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت:٦).

- ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٤٠).

ب)- الثانية: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾: فالله لكماله المطلق في ذاته وصفاته لا يرضى لعباده الكفر والجحود والعصيان، بل ويكره ما دون الكفر من الكبائر، ومن كلّ ما يدنّس النفس من صفات النقص، إذ مكّن الإنسان

١-رواه مسلم من حديث أبي ذر، كتاب (٤٥) البر والصلة والآداب، باب (١٥) تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧: ٤/١٩٩٤.

من ذلك بما منحه من الإرادة الحرّة، ومن التّمييز العقلي بين الحقّ والباطل وبين الشّرّ والخير، كما قال تعالى بعد نهيه عن التّكبّر والاختيال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (الإسراء: ٣٨).

ج)- الثالثة: قوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: فقد قابل الله الكفر بالشكر لأنّ حقيقة الشكر هو الإيمان بالله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وليس هو مجرّد النّطق باللّسان بالحمد والثّناء لله، وإن كان ذلك من مشمولات الشكر، ثمّ إنّ الرّضى والسّخط انفعال نفسي، والله منزّه عن ذلك، وإنّما المقصود منهما لازمهما من الثواب والعقاب.

د)- الرابعة: قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وتقرّر هذه الآية المسؤولية الفردية لكلّ شخص، فهو مأخوذ بعمله وحده، فلا يحمل أحد ذنب غيره كما يعتقده المسيحيون في أنّ عيسى عليه السلام قد تحمّل بصلبه خطايا بني آدم. وكما قال الكافرون للذين آمنوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (العنكبوت:١٢).

وقد أكد الله هذه القضية بنفس العبارة في سورة الأنعام وفاطر والإسراء وقال في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ، وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰٓ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ، ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ، وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ (٣٦-٤٢).

ه)- الخامسة: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: المرجع والمنتهى إلى الله، فلا مهرب ولا ملجأ إلا إليه، والعطف بـ"ثم" للتراخي الزمني، ذلك لأنّ الحياة الأولى للإنسان مهما قصرت أو طالت فإنّ النّهاية الحتمية هي الموت لانتظار الحياة الثانية ليوم

الحساب والجزاء الذي توضع فيه موازين القسط، فيحاسب كلّ إنسان على ما كسبت يداه في جميع مراحل القول والفعل من الدوافع والنوايا السيّئة التي تتبلور عنها تلك الأعمال القبيحة. أمّا حديث النفس الذي لا أثر له في الخارج فإنّ الله يتجاوز عنه؛ لأنه مما لا يملكه الإنسان، والله أعلم.

تذبذب الكفّار، وثبات المؤمنين.

أ) ـ النصّ:

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

ب) ـ التحقيق اللغوي:

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾: ﴿الإِنسَانَ﴾: "ال" فيه للجنس العرفي، وهم فريق الكفار. ﴿ضُرٌّ﴾: أي كلّ ما يكرهه. ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾: أي توجّه إلى ربّه بالدعاء راجعا إلى ربّه، أي لا يعرف ربه إلا في وقت الشدة. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾: ﴿خَوَّلَهُ﴾: من التخويل، وهو الإعطاء والتمليك، نسي الضرّ الذي كان يدعو ربّه أن يكشفه عنه، لأن النعمة قد أبطرته. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: أي أشباها ونظراء يعبدهم من دون الله. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾: التمتع الانتفاع الموقت. ﴿بِكُفْرِكَ﴾: الباء للملابسة، ومتعلّق التمتع محذوف، التقدير: تمتّع بالسلامة، وصيغة الأمر للإمهال

والتهديد. ﴿قَلِيلاً﴾: نائب عن المفعول المطلق أي تمتعا قليلا. ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾: ﴿أَمَّنْ﴾: الاستفهام تقريري على القراءة بتخفيف ﴿مَنْ﴾، ويقدّر له معامل محذوف تقديره: أمَن هو قانت أفضل أم هو كافر، و"من" اسم موصول مبتدأ، والخبر محذوف مع معادله. والقانت هو القائم بواجب الطاعات وبتطوع العبادات. ﴿ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾: أي ساعاته، منصوب على الظرفية. ﴿سَاجِدًا﴾: حال. ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾: الاستفهام لإنكار التسوية بين الفريقين. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾: لإفادة الحصر. ﴿أُولُوا الأَلْبَابِ﴾: أصحاب العقول.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِيُضِلَّ﴾: قرأ الجمهور بضم الياء، أي يضلّ الناس بعد أن أضلّ نفسه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء، أي ليضلّ هو. ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾: قرأ نافع وابن كثير وحمزة بفتح الميم دون تشديد، فالعبارة مؤلفة من همزة استفهام و"من" اسم موصول. وقرأها باقي القراء: ﴿أَمَّنْ﴾ بفتح الميم مع التشديد، على أن العبارة أصلها "أم مَن".

د)- البيان والتفسير:

بعد التدليل على قدرة الله، وأنه تعالى غنيّ عمّا سواه من المخلوقات، ثمّ إنه حمّل المسؤولية الفردية لكلّ إنسان، فذكر هنا تقلّب الكفّار وتناقضهم برجوعهم إلى الله في وقت الشدّة والإعراض عنه في وقت الرّخاء، ونوّه بشأن المؤمنين في تأهبهم واستقامتهم بالاستزادة من نوافل العبادات وطلبهم للعلم فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾.

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾، وهي بيان لحال التقلّب والتناقض عند الكفار؛ لأنّ التعبير "بالإنسان" في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾، يُراد به الجنس العرفي لفريق من الناس وهم المشركون الذين يجعلون لله أندادا كما وصفهم الله. ويبدو تقلبهم وتناقضهم في اختلاف مواقفهم من السراء والضراء فهم عند إصابتهم بأدنى ضرّ من خوف أو مرض أو غيرهما من المصائب الأخرى تضرّعوا إلى الله والتجأوا إليه وحده لكشف ذلك الضرّ عنهم، تائبين إلى الله مستغيثين به لتفريج كربتهم وإنقاذهم مما هم فيه من بلاء، ولكنّهم بمجرّد شعورهم بالأمن والطمأنينة باندحار ذلك الضرّ عنهم، أو بحصولهم على نعمة يرجونها، فإنّهم سرعان ما ينسون ذلك التضرّع وتلك الاستعانة بالله، بل ويعودون إلى ضلالهم وإضلالهم باتخاذ الأنداد من دون الله يعبدونها ويتقرّبون إليها كأن لم يكونوا يدعون الله من قبل إمعانا منهم في الإضلال عن سبيل الله وصدّ الناس عنه. ذلك لأنّ الإنسان إذا أعطاته الهداية والتوفيق فإنّه يغترّ بقدراته ويطغى بما توفّر لديه من أسباب القوة والرفاهية.

ويلاحظ في مبنى الآية قوله تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾، فلم يقل مثلا: نسي من كان يدعوه من قبل. ولذلك يكون المعنى:

- نسي ذلك الدعاء والتضرّع الذي كان يدعو به إلى الله من قبل، لأن "ما" لغير العقلاء.

- والاحتمال الثاني: نسي ربّه الذي كان يدعوه من قبل مبتهلا متضرعا، فيكون استعمال "ما" لتهويل وتعظيم ذلك النسيان في حقّ الله.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾: اللام للعاقبة، فيها معنى التعليل لجعله أندادا لله، فهو إمّا ضالّ بنفسه أو مضلّ لغيره بسوء سلوكه.

وفي كلتا الحالتين جاء التهديد الرباني بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، الخطاب لرسول الله، وإفراد الضمير في قوله: ﴿تَمَتَّعْ﴾ على اعتبار لفظ الإنسان، والأمر للإمهال والتهديد، والتمتع القليل على اعتبار متاع الدنيا بأنه قليل بالقياس إلى ما ينتظر المجرمين من العقاب المقيم في الآخرة، وكفى بالموت مقللا لمتاع الدنيا مهما كان واسعا، وكفى بالنار مصيرا لأولئك الجاحدين المخلدين فيها. وقد تكرر في القرآن الكريم معنى هذه الآية بأساليب وبأمثال مختلفة، أشهرها قوله تعالى:

- ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٢).

- ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾ (الإسراء:٦٧).

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾: تتضمن السورة الكريمة كثيرا من المقابلات بين أصناف الناس توضح سرائرهم وتبين وجهاتهم وتقدمت أولاها في قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

وفي هذه الآية مقابلة ثانية حذف معادلها إذ هو مفهوم من السياق، وكثيرا ما يحذف تلك المعادلة لغرض بياني في الأداء البليغ، والمعادل مفهوم مما سبق من صورة ذلك الإنسان الكنود الجحود لنعم ربه المتقلب في اتجاهاته. في مقابل ذلك تأتي هذه الصورة الوضيئة للنفس المؤمنة القانتة.

وقد اختلفت القراءة في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ﴾، اختلفت بين تخفيف الميم وتشديدها، وبالتالي تكون الهمزة لإنكار التسوية بين الصنفين، كما جعلوا الهمزة للنداء فتكون: ﴿مَنْ﴾ منادى، ويراد به رسول الله الموصوف بتلك الأوصاف الأربعة، والقانت هو العابد المتذلّل لربّه بصفة عامّة أي بأدائه الفرائض والواجبات، وبتطوّعه بأنواع النوافل سيما قيام الليل، إذ يبيت في ساعات منه ساجدا وقائما وما بين ذلك من الركوع، يصلّي لربّه خاشعا متذلّلا، وهو بين الخوف والرجاء. الخوف من أهوال الآخرة، وهو صمام الأمن من المعاصي والذنوب، ورجاء ما عند الله من المغفرة والثواب، وهو الدافع إلى السعي للحصول على المرجو، وتلك هي حال رسول الله في قيامة الليل، ويقتدي به المؤمنون الأوفياء ممن وصفهم الله بالإحسان فقال:

- ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات: ١٧-١٨).

- ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السجدة: ١٦).

وروي عن رسول الله أنه قال: «**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد**»[1].

ويجب الموازنة بين الخوف والرجاء بكيفية دقيقة حتى لا يقع المؤمن في القنوط أو الغرور، ويقول العلماء: إن كان الرجاء والخوف يجتمعان في قلب

---

١ - رواه الترمذي من حديث أبي أمامة، كتاب (٤٩) الدعوات، باب (١٠٢) في دعاء النبي ﷺ، رقم ٣٥٤٩: ٥/٥٥٢.

للمؤمن، إلا أن الرجاء يكون عند الاحتضار أقوى، كما قال حذيفة بن اليمان: "اللهم إنك أمرتنا أن نعدل بين الخوف والرجاء، فالآن الرجاء فيك أمثل".

ثم يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، تكرر أمر الله لرسوله بالقول للاهتمام بما يقال بعده، وجيء بـ"هل" لإثبات عدم المساواة بين العلماء والجهلاء، فلا يستوي الفريقان كما لا يستوي الصنفان الأولان؛ لأنّ العلم الحقيقي هو الذي يؤدي إلى معرفة الله، وبثر البصيرة، فتنسجم مع الوجود كله في الخضوع لله والتطلع إلى رحمته وفضله واستشعار الحذر والخوف من الآخرة، فهذا هو العلم الأصلي الذي يؤدي إلى خشية الله وطاعته كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨). وأمّا العلم الذي يقتصر على معرفة ظواهر الأشياء، ويتهي عند التجربة المشاهدة دونما تعمّق إلى معرفة الحقائق الكونية الكبرى، فهو العلم السّطحي الذي لا ينير بصيرة ولا يستحيش عاطفة، وهو الذي قال الله في شأنه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧).

والذي يرجح هذا المعنى للعلم المراد من الآية هو التعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، أي أنهم يدركون بعقولهم حقائق الأشياء وتجري أعمالهم وتصرفاتهم وفق ما يعلمون، فهؤلاء لا يستوون مع الذين لا يعلمون، فهم يخبطون خبط عشواء، وتختلط عليهم الأشياء، فلا يهتدون إلى مراقي الكمالات الإنسانية، بل يقعون في الدّركات المنحطّة من الزيغ والضلال، وحسبهم من ذلك ما يتوهمونه في الحجارة من نفع أو ضرّ، وقد وصف الله هؤلاء بالجهل المطبق وإن كانوا على دراية ببعض المعلومات السطحية فقال تعالى مخاطبا رسوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾، فالعلم الحقيقي صنو الإيمان؛ لأنّ كلاً منهما نور على طريق الحقّ والرّشاد يهتدي به

السالكون، والجهل والكفر ظلمة وموت معنوي، قال الشاعر:

الجهل لا تحيا عليه جماعة كيف الحياة على بدي عزريلا؟.

فاللهم اجعل لنا القرآن العظيم إماما نقتدي به ونورا نهتدي به وعلما ننتفع به في الدنيا والآخرة، والله أعلم.

نصائح، ووعد للمؤمنين، ووعيد للمشركين

على لسان رسول الله.

أ) - النص:

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ ۚ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: ﴿حَسَنَةٌ﴾: مبتدأ، والجار والمجرور خبر، وحسنة الدنيا التي يستحقونها هي موالاة الله لهم وثناؤه عليهم. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: أي بهاجر في أرض الله من تعسّر عليه تطبيق دينه في وطنه، والاحتمال الثاني للأرض هو الجنة. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يكون الصبر متعدد الأوجه، فصبر على أداء الطاعة، وصبر على ترك المعصية، وصبر على البلاء والشدائد. أمّا كون الأجر بغير حساب، أي بغير تقدير بمكيال أو ميزان، وقيل: بغير متابعة ولا مطالبة، والأول أوجه. ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾: قدّم لفظ الجلالة للاهتمام والحصر، وهو منصوب بـ﴿أَعْبُدُ﴾. ﴿مُخْلِصًا﴾: منصوب على الحال. ﴿دِينِي﴾: مفعول لاسم الفاعل. ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾: الأمر للتعبير عن قلة الاكتراث بفعل المخاطب. ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾: ﴿الَّذِينَ﴾: في موضع الرفع خبر لـ"إن". ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾: معطوف على: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾، منصوب بالياء، أي خسروا بالضلال في أنفسهم وبالإضلال لغيرهم. ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾: ﴿ظُلَلٌ﴾ جمع ظُلّة، وهو ما بقي من الحرّ، وهي استعارة للتهكم منهم، ومن تحتهم ظلّة، أي النار مطبقة عليهم من كل جانب. ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾: المقصود بالعباد كلّ الخلق المؤمنين ليثبتوا ويزدادوا إيمانا والكافرين ليرتدعوا ويؤمنوا. ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾: ﴿الطَّاغُوتَ﴾: مصدر أو اسم مصدر من "طغا" على وزن "فعلوت" وهو وصف للمسرف في الكفر أو الظلم، كما يطلق على الأصنام. ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾: بدل اشتمال من: ﴿الطَّاغُوتَ﴾. ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة خبر: ﴿وَالَّذِينَ﴾. ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾: جملة شرطية والهمزة للإنكار. ﴿حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ

﴿الْعَذَابِ﴾: أي قضاء الله بذلك، وهناك محذوف دلّ عليه الكلام تقديره: أأنت تملك أمر الناس؟. ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾: وقيل: الجواب هو قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: ﴿لَٰكِنِ﴾ للاستدراك، الجملة تدلّ على بشارة الذين اتقوا ربهم. وهم الذين اجتنبوا الطاغوت، جاءت مكررة لتأكيد الفارق بين حال المؤمنين وحال المشركين. ﴿لَهُمْ﴾: اللام للاختصاص. والغرف: جمع غرفة، وهي أطباق بعضها فوق بعض، تقابل ظلل النار من فوق ومن تحت، وجريان الأنهار من كمال حسنها. ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾: ﴿وَعْدَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، أو على الحال من: ﴿غُرَفٌ﴾. و﴿الْمِيعَادَ﴾: مصدر ميمي بمعنى الوعد.

ج) - أوجه القراءة:

﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾، ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾: قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بفتح ياء المتكلم، وقرأ باقي القراء بإسكانها. ﴿يَا عِبَادِ﴾: قرأ الجمهور بحذف ياء المتكلم وصلا ووقفا، وقرأه رويس بإثبات ياء المتكلم وصلا ووقفا. ﴿فَاتَّقُونِ﴾: قرأ الجمهور بحذف ياء المتكلم وصلا ووقفا. وقرأه يعقوب بإثبات ياء المتكلم وصلا ووقفا. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾: قرأ العشرة: ﴿عِبَادِ﴾ بكسر الدال دون ياء للتخفيف، وقرأه السوسي بياء بعد الدال مفتوحة في الوصل، وساكنة في الوقف. ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لَٰكِنْ﴾ بإسكان النون وتكسر في الوصل لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو جعفر بتشديدها.

د) - البيان والتفسير:

بعد ثناء الله على المؤمنين القانتين وعدلهم في أنفسهم بين الخوف والرجاء ونفي المساواة بين العالمين والجاهلين، أمر الله تعالى رسوله بأن يوجّه

المؤمنين بعض الصالح للاستزادة من التقوى والثبات على الطاعة، والإخلاص في الدين مبيّنا أنّ من أفدح الخسارة خسارة الأهل والأولاد إذا كانوا من أهل جهنّم، ثم أردف ذلك بذكر مقابلة بين جزاء المتقين الأبرار، في جنّات تجري من تحتها الأنهار، وبين جزاء المجرمين الأشرار، كيف يتقلبون في ظلل من النار على طريقة أسلوب القرآن في الوعد والوعيد فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أمر الله رسوله بأن ينادي عباده المؤمنين، وإدخال عنصر النداء في مقول رسول الله هو للتنبيه وإظهار الاهتمام بالموضوع، وإلا فإنّ المنادي الحقيقي هو الله تعالى، لأنّ الرسول لا يقول: ﴿يَا عِبَادِ﴾، وإنما هو مبلّغ عن الله، وفي المنادى: ﴿عِبَادِ﴾ إضافة تشريفية تدلّ على حساسية الموضوع، وفي الأمر بالتقوى بعد الوصف بالإيمان دليل على أنّ مجرّد الإيمان بالقلب وادّعاء الإسلام بدون عمل لا يكفي لنجاة المؤمن، وتتمثّل التقوى في تلك الصورة الوضيئة التي رسمها الله للفئات المتهجّد والقائم في طاعته لله على الخوف والرجاء، إنها شعور مرهف وإحساس لطيف في قلب المؤمن يستشعر به خشية الله ويتقي به غضبه وسخطه.

وأمام ضعف الإنسان وقصور الكثيرين عن بلوغ مقامات الإحسان، يتبع الله أمره لعباده بالتقوى وعده لهم بالجزاء الجزيل، ويذكر لذلك حسنة الدنيا يخصّصها لهم جزاء إحسانهم، وجاءت كلمة: ﴿حَسَنَةٌ﴾ نكرة للتفخيم والتعظيم، ويجوز أن تكون الجملة كلّها في مقام التعليل للأمر بالتقوى. ويتردد متعلق قوله: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ أن يتبع قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾، فتكون: ﴿حَسَنَةٌ﴾ هي ما يلقاه المتقون في نعيم الجنة، وإمّا أن يكون للمتعلّق هو: ﴿حَسَنَةٌ﴾ فيكون المعنى: لهم في هذه الدنيا حسنة. والذين قالوا هذا التفسير ذكروا أنها الصحة والعافية، ويرجّح

المحققون الاحتمال الأول؛ لأنّ ذلك هو ما يليق بكمال الآخرة ودوامها، وأمّا الدنيا فمتاعها قليل ومنقطع، ولأن نعم الدنيا قد يناطا الكفار والأشرار.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ معطوف على الجملة السابقة، وفيه إيحاء بالهجرة في الأرض لأولئك الذين فتنوا في دينهم، وإن كانت الجملة جرت مجرى المثل، فإنّ فيها تحريضا واضحا على الهجرة في سبيل الله تمهيدا لأمر رسول الله بالهجرة من مكّة إلى المدينة المنوّرة، علما بأنّ السّورة مكية وأنّ المسلمين يعانون من أذى المشركين ومكرهم ما يجعل الكثيرين منهم تقصر همّته عن مقامات الإحسان، ليتحمل مفارقة الأهل والأوطان، فالأمن ورغد العيش ليس مقصورا على مكان معيّن، والهجرة دأب الأنبياء والصالحين، وليس من شأن المؤمن أن يقيم على الضيم ويرضى بالمهانة في دينه، وقد ندّد الله على المستضعفين في الأرض بعدم هجرتهم إلى أرض أخرى حيث تستقيم عبادتهم وتتضاعف حسناتهم فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء:٩٧).

ولأبي مسلم توجيه آخر للآية إذ قال كما نقل الفخر الرازي: "لا يمنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية الله، ثم بيّن أن من اتقى فله في الآخرة حسنة وهي الخلود في الجنة".

ثم يعقب عليه الإمام الرازي بقوله: "والقول الأول عندي أولى، لأن قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، لا يليق إلا بالأول".[1]

قلت: إن هذا التذييل هو أنسب بالقول الأول لما تنطلبه الهجرة من قوة الصبر والاحتمال، فهذا رسول الله -وهو المثل الأعلى للصابرين- قد عبّر عما يجده في نفسه الشريفة وهو يودع مكة فيقول: «**أنت أحبّ بلاد الله إليّ، ولولا أن**

١- التفسير الكبير: ٢٥/٢٥٣.

قومي أخرجوني ما خرجت».[1] وعلق العسر في قمة الأخلاق كلها لما ينجرّ عنه من هدوء البال، وسكون النفس عند نزول المصائب، وجاءت الصفة على عمومها دون ذكر المتعلق ليشمل كل أنواع الصبر، وتوفية الأجر عليه تكون بإعطائه وافيا كاملا، وكونه: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كناية عن الوفرة والعظمة بحيث لا يقاس بمقدار، إذ لا يمكن للعقل البشري أن يتصور نعيم الجنة على حقيقته لقوله ﷺ: «إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».[2]

والنوع الثاني من النصائح التي أمر الله رسوله بتوجيهها إلى المؤمنين قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

إذا تعيّن أن يكون الأمر بالتقوى في الآية السابقة لجميع المسلمين، فإن الأمر الإلهي لرسوله في هاتين الآيتين التاليتين يكون فيها احتمالان:

أ)- أنه موجّه للمشركين من خلال رسول الله في أمر الله له بالإخلاص في العبادة لله وحده، لتضمين معنى اللوم والعتاب للمشركين بعبادتهم للأوثان على أسلوب: إياك أعني واسمعي يا جارة.

ب)- ويجوز أن يكون موجها إلى المسلمين بعد أن أذن الله لهم بالهجرة إلى الحبشة، على أن يبقى الرسول مقيما في مكة لتبليغ رسالة الله، وأنه القدوة في إخلاص العبادة لله، والإخلاص في الدين لا يتحقق إلا بأن تكون الأعمال خالصة صافية من شوائب الشرك والرياء. وحين يعلن الرسول ذلك الإعلان، ويقف في

١- رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث ابن عمر، رقم ١٢٦٦٦: ١٠/٤٩٥.

٢- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، باب (٦٣) بدء الخلق، باب (٨) ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٠٧٢: ٣/١١٨٥.

عبوديته لله ذلك الوقف فإنه يجسّد بذلك عمليًا صفة الوحدانية لله التي يدعو الناس إليها، فليس للمشركين مساومة له في ذلك.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾، للإمام ابن عاشور ملحظ جيّد في تكرار فعل: ﴿أُمِرْتُ﴾، يقول عنه: "وعطف ﴿وأمرت﴾ الثاني على ﴿أمرت﴾ الأول للتنويه بهذا الأمر الثاني، ولأنه غاير الأمر الأول بضميمة قيد التعليل، فصار ذكر الأول لبيان المأمور، وذكر الأمر الثاني لبيان المأمور لأجله، ليشير إلى أنه أمر بأمرين عظيمين: أحدهما يشاركه فيه غيره وهو أن يعبد الله مخلصا له الدين. والثاني يختصّ به، وهو أن يعبد كذلك ليكون بعبادته أوّل المسلمين".[1]

قلت: والأوّلية ليست أوّلية الشرف والأفضلية بل هي أولية الإمامة والسبق لتجسيد الإسلام والإخلاص في العبادة لله كما فصّلت هذا المعنى آية سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣). وكلنا يتضمن هذا الإعلان كونه رسولا من عند الله وأنه أعرف الناس بالتكاليف والشرائع التي يبلغها، وقطعا لكلّ مساومة من طرف المشركين لمحاولة التي أن يبادلهم المتابعة في بعض طقوس دينهم كما ثبت ذلك في السيرة النبوية، فإنّ الله أمره أن يجري هذا الحكم على نفسه، أي حكم جريان العقاب عليه إن هو عصى الله وحاشاه من ذلك، وإنما المقصود هو المبالغة في زجر الغير عن المعاصي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

فإذا كان الرسول المعصوم، لا ينفلت من عقاب الله إن قصّر في واجبه، فكيف بمن دونه من خلق الله؟. ولا يخفى ما في هذا الأمر من التعريض والتهديد إذ

١- التحرير والتنوير: ٢٣/٢٥٨.

يسفه بذلك دعاوي المشركين في عبادتهم للأوثان بأنها تقربهم إلى الله زلفى، وبالتالي يقضي على مخلفات الجاهلية، وعلى غلوّ أهل الكتاب في مبالغتهم لتقديس الأشخاص، ولو كانوا أنبياء أو صلحاء، وما اتخاذ الأنداد وعبادتهم من دون الله إلا أثر لتلك العاطفة الجامحة في تقديس الأشخاص أو الأشياء يرفعها إلى مقام الألوهية كما فعل النصارى بالمسيح واليهود بعزير، وما الأصنام التي عبدها المشركون إلا رموز للملائكة أو لبعض زعمائهم، ففي إعلان الرسول على خوفه من عقاب الله تحميد لمعنى الإخلاص مرة أخرى فقال: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾.

قدّم لفظ الجلالة مفعولا به على عامله: ﴿أَعْبُدُ﴾ لإفادة الحصر، تأكيدا للإعلان السابق في تركيز معنى الإخلاص في العبادة لله وحده، وليفرّع عليه قوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾، الأمر للتفريع والتهديد بعد أن بلغ الأمر بالإخلاص في عبادة الله منتهاه، وكلّهم الله إلى أنفسهم في ما يختارونه، غير أنه سدّ الأبواب أمامهم لكلّ مساومة يحاولونها مع رسول الله، فهو تاركهم إلى ما اختاروه عن هوى وضلال.

غير أنه تعالى أردف على ذلك بيان العاقبة السوأى على ذلك فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

قل أيها الرسول لأولئك الذين اختاروا طريق الكفر والضلال: إنكم وقعتم في أعظم خسارة، إذ خسرتم أنفسكم أولا بتعريضها إلى العذاب الأبدي وخسرتم أهليكم ثانيا، إذ حرمتم الأنس بهم لأنهم إمّا أن يكونوا من أهل الجنة، فهم لا يكونون معكم، وإن كانوا من أهل النار مثلكم فسيبرءون منكم ويكونون لكم

أعداء لقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧).

وللتأكيد على فظاعة ذلك الخسران قال تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، صدّرت الجملة الاسمية بأداة التنبيه ﴿أَلَا﴾ داخلا على اسم الإشارة وبعده ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ المفيد للقصر مع تعريف المسند والمسند إليه، فدلّ بذلك على أنه خسران عظيم.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾: الظلل: جمع ظلّة، وهو ما ظلل وستر، وهي استعارة لطبقة النار التي تعلو أهل النار، وكون ظلل النار من فوقهم ومن تحتهم يراد به إحاطة النار بهم من كل مكان، وهذا نظير قوله تعالى:

- ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٥٥).

- ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف:٤١).

وأفظع تصوير لشقاء أهل جهنم هو قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (إبراهيم:١٧).

وإذا كان هذا هو عذاب الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وقد صوّره الله بتلك الفظاعة، فما هو الغرض من ذلك؟. وكان الجواب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾.

الإشارة إلى ما وصف من العذاب المتقدّم في ذلك المشهد الرهيب يخوّف الله به عباده، وهم ما يزالون على محكّ الاختبار والتكليف في الحياة الدنيا ليقيم الحجة

عليهم لعلهم يرتدعون، فيناديهم جميعا بالوصف الذي لا يستطيع أحد منهم إنكاره في أنه عبد لله، حتى من الكفّار، إذ يعترفون بالخالقية لله، فيفرّع على ذلك النداء أمره لهم بالتقوى حتى يتفادوا ذلك العذاب. ويرى البعض أنّ النداء خاصّ بالمؤمنين ليثبتوا على إيمانهم.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾:

في مقابل الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة يذكر الله الصنف الفائز وما تقدم لهم من البشارة. فالجملة إما معطوفة على قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾. وكلمة: ﴿الطَّاغُوتَ﴾ أطلقت في القرآن الكريم على تجاوز الحدّ في الطغيان فيشمل كلّ ما عُبد من دون الله، فيشمل الكاهن والساحر والشيطان ورؤوس الضلال.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾: أي أعرضوا عن عبودية كلّ ما سوى الله ورجعوا إليه بالتوبة والاستغفار، لهم البشرى وهي الإخبار بحصول الخير والنفع، وتقديم المسند يفيد القصر، يبشرهم ملائكة الرحمة بما ينتظرهم من النعيم والروح والريحان في كلّ موقف عصيب، سواء عند الموت أو في القبر أو عند البعث والحشر، وقد تكون للصلحاء والأولياء حتى في الحياة الدنيا مما يسمّى عرفا بالكرامات.

وزادهم الله تشريفا وتكريما بأن أمر رسوله أن يبشرهم فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، فهؤلاء البشرون يمتازون بصفات الكمالات الإنسانية، ومن أخصّ تلك الصفات التي تدلّ على رجاحة عقولهم وصفاء سريرتهم، أنهم يستمعون ﴿الْقَوْلَ﴾، هكذا على العموم، أي مما يدعو إلى الحق والبرّ، أو مما يدعو إلى عكس ذلك من الشرّ والضلال، غير أنهم يوازنون بين

الأقوال فيميزون بين طيبها وخبيثها، فيتجاوبون مع الطيب منها اتباعا وتطبيقا لما يرضي الله ورسوله، وينبذون ما كان منها باطلا، وبناء على ذلك فإنه تعالى قال في شأنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

جيء باسم الإشارة إليهم للاهتمام بالحكم الذي يستحقونه عند الله ولبيان أنهم أحرياء بذلك أي:

أ)- باستحقاقهم هداية الله، لأنهم سلكوا لذلك السبيل الأقوم بالاستماع إلى أحسن القول، وقد بيّنه الله في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣).

ب)- لأنهم يتصفون برجاحة العقل وسداد الرأي.

ويستمرّ السياق في ذكر المقابلات بين أصناف الخلق فقال تعالى في المقابلة الرابعة: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ، لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

بعد أن أثبت الله الهداية للذين اتقوا ربهم وأنهم أصحاب العقول النيّرة، أثبت ذلك بصيغة الحصر، فرّع عنه قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾، عطفا لرسول الله وتسلية له في حزنه لإعراض قومه، صدّرت الجملة بالاستفهام الإنكاريّ، ومعنى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أي تحقّقت في الواقع كما كانت مقدّرة في علم الله، فيكون المعنى: الذين حقّت عليهم كلمة العذاب، أنت لا تنقذهم من النار.

فقد أفادت الآية أنّ هذا الفريق من المشركين ميؤوس من إيمانهم، فلا يستطيع الرّسول أن يجنّبهم عذاب النّار مهما كان حرصه على ذلك، فيستخلص من ذلك أن وظيفة الدّاعي تنحصر في البلاغ، وليس عليه من هداية الخلق شيء.

وفي مقابل عذاب الكافرين ذكر الله جزاء المتقين تأكيدا للمقابلة السابقة فقال: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

الجملة تفصيل وبيان لبشرى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، صدرت بحرف الاستدراك: ﴿لَٰكِنِ﴾ للإشعار بتضادّ الحالين، فالذين اتقوا ربّهم هم الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله، هؤلاء لهم في جنة الخلد ﴿غُرَفٌ﴾، جمع غرفة، وهي البيت العالي الممتاز، الذي يخصّص للسادة الكبراء، فهي أطباق من غرف منسقة تشرف على مناظر طبيعية تحيط بها وتجري من تحتها الأنهار، فهي لهم خاصّة يتمتّعون بها، وهي في مقابل تلك الظّلل من النّار للمشركين.

وهذا الوصف الرائع لتصوّر الجنّة وهي ملء الفضاء الطبيعي من أشجار وأنهار هي ما يتنافس في امتلاكه الزعماء والأثرياء من متاع الدنيا، غير أنّ المؤمن الوفيّ المخلص وإن ضاقت يداه عن مثل ذلك في دنياه فهو يعيشه بقلبه وإحساسه وإيمانه ويقينه بوعد ربّه ليوم يستعدّ له بإخلاص العبادة لله والوفاء لدينه.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾: ولا شكّ أنّ وعده يتناول جزاء الفريقين، لأن القرآن قد استعمل كلمة الوعد في الخير والشر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٤)، والله أعلم.

ضرب المثل للحياة الدنيا، واختلاف أحوال الناس.

أ) - النص:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام للتقرير، والخطاب لكلّ من يصلح له، ﴿أنزل﴾: من الإنزال، يعبّر به عن كل ما هو آت من النعم من قبل الله، و﴿السَّمَاءِ﴾: هو ما تشاهده فوق رؤوسنا. ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾: جعله سالكا، أي داخلا في الأرض، والينابيع جمع ينبوع، وهو العين المتفجرة بالماء. ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾: جمع لون، وهو الصفة اللائحة على ظاهر الجسم في الضوء، ويراد بها الأنواع والأصناف. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾: يقال هاج الزرع، إذا جفّ ويبس فيصفرّ لونه، الحطام: أي للكسور المفتت. ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أصحاب العقول النيرة.

ج) - البيان والتفسير:

نحن بأزاء مثل رائع تكرّر ضربه في القرآن في كثير من الآيات لبيان حال الدنيا في سرعة تقلبها وزوالها، وأحيانا يأتي للتدليل على قدرة الله وبديع صنعه في تدبير شؤون الكون، وأنه تعالى قادر على أن يحيي الموتى، وقد يأتي ضربها لهدي

القرآن وبيان اختلاف الناس تجاه تدبّره والانتفاع به، وهو مثل إنزال الماء من السماء، وآثار ذلك على وجه الأرض زهوا واخضرارا ثم يبسا واصفرارا، فزوالا وفناء.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾: الخطاب موجّه للرسول ولكل من يصلح له ممن يتلو القرآن ويتدبّره مصدّرا بالاستفهام التقريريّ لمشاهدة ظاهرة طبيعية نعيشها ونشاهدها تتكرّر على وجه الأرض، بإنزال ذلك الغيث المبارك من السماء بكيفيات مختلفة من أمطار وعواصف من ثلوج وبَرَد على الكميات المقدرة وبالكيفيات التي يريدها الله تعالى، وإلا مدرارا، أو طَلًّا رذاذا، ونحن لا نملك تخزين تلك الكميات الهائلة بوسائلنا الضعيفة، ولكنّه تعالى يخزّنها في باطن الأرض فتفجر عيونا تسقى بها الأرض لتزهو بالنبات والزروع المختلفة الأصناف والألوان.

ويلاحظ إسناد الأفعال إلى ضمير الجلالة، وإن يكن للإنسان يد في ذلك الزرع، لأنّ عنصر الحياة التي تدبّ في ذلك النبات وذلك الزرع إنما هو من صنع الله وقدرته وحده وهو القائل: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ، لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (الواقعة: ٦٣-٦٧)، أي لو شاء الله لما بلغ ذلك الزرع فترة نضجه حبوبا وثمارا لأوان الحصاد، والزرع مهما اكتملت أطوار نضجه فإن مآله إلى اليبس والتهشيم، ثم تعود الأرض إلى يبسها، وإن في تأمّل ذلك لعبرة وموعظة لأولي العقول يدركون من خلالها عظمة الله وقدرته في الخلق والإيجاد، وفي الإماتة والإفناء، ومن ثمّ فهم لا يخرون بمتاع الدنيا مهما فتنتهم زينتها، إذ تتفتح قلوبهم لهدي القرآن فيتجاوبون مع توجيهاته وإرشاداته التزاما وتطبيقا.

فهذا النصّ مزدوج الغرض في مناسبته لما سبق، إذ هو فذلكة لما بدئ من أول السورة وتمهيد لقوله تعالى بعده: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾.

والله أعلم.

هداية القرآن، وأثرها في القلوب المؤمنة.

أ) - النصّ:

أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾: الاستفهام للتقرير، ﴿مَن﴾: موصولة مبتدأ، والخبر محذوف مقدر، أي مثل الذي قسا قلبه، وشرح الصدر: انبساطه وتجاوبه مع هدي الإسلام، وضدّه: ضيق الصدر، لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾

(الأنعام: ١٢٥). ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: ﴿وَيْلٌ﴾: دعاء بالعذاب، ﴿لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾: من فعل: قسا يقسو الجسم، إذا صلب، ﴿قُلُوبُهُم﴾: فاعل لاسم الفاعل، عُدّي بـ"من"، بمعنى "عن"، لتضمينه معنى امتنع ونفر. ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ أي القرآن الكريم، ﴿كِتَابًا﴾: منصوب على البدلية. "متشابهاً"، "مثاني" صفتان لكتاب. ومعنى متشابه أي أجزاؤه متماثلة متشابهة في النظم والإعجاز وفي دقة المعنى، ﴿مَّثَانِيَ﴾: جمع مُثْنى، بضم الميم وتشديد النون، أو جمع مَثْنى بفتح الميم وتخفيف النون، أي جعل العدود أزواجا اثنين اثنين، كُنّي به عن التكرير، أي تكرر فيه الأغراض من الوعد والوعيد وغيرها. ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾ جملة وصفية لـ"كتاب"، ترتجف وترتعش تأثرا وخوفا من الوعيد، ثم تطمئن وتسكن إلى ذكر الله لوعده ورحمته. ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى مجمل صفات القرآن المتقدمة مبتدأ، ﴿هُدَى اللَّهِ﴾: خبر، أي القرآن هو الجامع لأسباب الهداية. ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: الاستفهام إنكاريّ والجواب محذوف تقديره: كمن هو في النعيم؟. ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: ﴿قِيلَ﴾: جيء به بصيغة الماضي وهو واقع في المستقبل لإفادة تحقق الوقوع، ﴿ذُوقُوا﴾: الذوق الإحساس باللسان، وهو الأنسب، أي جزاء ما اكتسبوه في الدنيا باختيارهم. ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: كذبت الأمم الخوالي رسلها في ما أنذروها به فجاءهم العذاب من الجهات التي لا تخطر لهم على بال، وفي ذلك تعريض بمشركي مكة. ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: عذاب الخزي من الذل والقتل والأسر والهوان، وغير ذلك.

ج- البيان والتفسير:

بعد تلك الجولة القيّمة في التحريض على التقوى والإخلاص في العبادة لله وما يدعو إلى الإقبال على الآخرة، وبعد ذلك التمثيل الرائع في الانتفاع بنزول القرآن، كما ينزل الماء من السماء فتزهو به الأرض وتخضرّ، أعقب الله على ذلك هنا، تفريعا على ما سبق، فبيّن كيف تختلف القلوب في تلقيها لهدي القرآن، فمنها ما ينشرح ويفتح له بعونه وتوفيقه، ومنها ما ينغلق ويقسو فلا هادي له من بعد الله، ثم يفصّل مدى تأثير آيات القرآن في قلوب المؤمنين منوّها بشأنه، ويعرض ما ينتظر أهل الضلال يوم القيامة فقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

الاستفهام للتقرير و"من" مبتدأ والخبر محذوف مقدّر وهو المعادل في هذه المقابلة، أي بتقدير يدل عليه قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾. وخلاصة المقابلة: أتكون القلوب المنشرحة للإسلام مثل القلوب القاسية بالكفر. فشرح الصدر كناية عن انفتاح القلب وتقبّله لهدي الإسلام وتشرّبه لنوره بتوفيق من الله فيشرق ويستضيء وينعكس ذلك على الجوارح وعلى سائر الجسد عبادة وإخلاصا لله كما صوّر ذلك الحديث الشريف: «ألا وإن في الجسد مضغة»[1]. وكما قال البوصيري:

وإذا حلّت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء

١- رواه البخاري من حديث النعمان، كتاب (٢) بدء الخلق، باب (٣٣) فضل من استبرأ لدينه، رقم ٥٢: ١/٢٨.

وقد سئل الرسول عن معنى الشرح فقال: «**إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح، قلنا: يا رسول الله، وما علامة ذلك؟. قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**».[1]

وفرّع الله على الصدور المشروحة للإسلام كونها على نور من ربّها، والنور استعارة لهدى الله الذي يحلي طريق الحق، وتقيد ﴿عَلَىٰ﴾ معنى التمكن من ذلك النور الذي جاء من عند الله، وهو يعلم الخير في هذه القلوب والقابلية لتلقيه والتجاوب معه، فيوفقها إلى ذلك، وأما الذين قست قلوبهم وتحجّرت فهم لا يتأثرون بسماع آيات الله ولا تنبسط قلوبهم للذكرى، بل تشمئز وتنقبض، فهؤلاء لهم الويل بالعذاب الشديد، وهم في حركات الضلال والكفر تائهون لا يخفى ذلك على أحد، ونظير معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

ولبيان تأثير القرآن في قلوب المؤمنين، وكيف كانوا يتلقونه ويتجاوبون معه قال تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾.

هذه الآية تكميل لما ورد من أول السورة في التنويه بشأن القرآن العظيم لبيان موقعه من أحوال القلوب المتضادة كما تقدم في المقابلة السابقة، وتصدّرت الجملة بلفظ الجلالة: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ لزيادة التعظيم وللتأكيد على أنه من عند الله. وقد وصف الله كتابه المنزل بعدة أوصاف كلها تنويه وتعظيم:

١- رواه ابن أبي شيبة في مصنفه من حديث عبد الله بن مسعود، رقم ٣٥٤٥٦: ١٣/٢٢١.

- ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾: وقد تكرر وصفه بالحديث في عدة آيات مثل قوله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ (الواقعة:٨١)، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦).

فهو بذلك مميّز عما سواه من فنون الأحاديث التي عرفها الناس شعرا أو نثرا، فلا يوجد في ما تحدّث به الناس مألوفا أو مكتوبا قديما أو حديثا، إلاّ وكلام الله هو أحسن الحديث، وأحسن القول يستمع له أولو الألباب.

ب)- ﴿كِتَابًا﴾: جعله الله كتابا بنظم سوره وآياته بترتيب توقيفي على رسول الله بعد ما تلقّاه بسمعه وقلبه منجّما، فأمر الله صحابته على جمعه، ثم جمع في مصحف جامع على عهد الخليفة الثالث، وزعت نسخ منه على الأمصار فبقي كتاب الله محفوظا مرتّلا كما أنزله الله ومهما حاول أعداء الإسلام تحريفه فإنه تعالى حفظه.

ج)- ﴿مُّتَشَابِهًا﴾: أي أن القرآن متماثل الكمال والحسن في مبناه ومعناه وفي عناصر إعجازه فلا تناقض فيه ولا اختلاف مما ليس في مقدور البشر أن يأتوا بمثله كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

د)- ﴿مَّثَانِيَ﴾: وهو جمع مُثْنى، بضمّ الميم وتشديد النون، أو جمع مَثْنى بفتح الميم وتخفيف النون، ويرى كثير من المفسّرين أن معنى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أنه مكرّر الأغراض من الأمر والنهي، والخاصّ والعام، والوعد والوعيد، والقصص والأمثال، وفي ذلك توسعة على الخلق في فهم مقاصده، والتدبّر في أحكامه ومواعظه. وليس المراد بالمثاني هنا ما ورد في سورة الحجر من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧)، إذ هي هناك

بمعنى سورة الفاتحة كما يرى ذلك كثير من المفسّرين على اعتبار أنها أمّ الكتاب تلخّص مجمل ما في القرآن الكريم.

هـ)- ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾: والقشعريرة هي تغيّر وانكماش يحصل في جلد الإنسان فتأخذه رعدة بمشاعر الخوف في النفس، وتلك حالة تعتري المؤمن حين يسمع القرآن بتدبّر وإمعان، فيمرّ بما يدلّ على جلال الله وعظمته، أو يمرّ بآيات فيها ترهيب ووعيد إذ تتجاوب قلوبهم وتنفعل بمشاعر الخشية والخوف، وتظهر آثار ذلك على جلودهم لما يتركز فيها من أعصاب الإحساس؛ لأن مشاعر الخشية من عذاب الله وسخطه تثور في قلوبهم حين تتوارد عليها سوابق معاصيهم لربهم ولكنّهم عندما تسكن نفوسهم بذكر الله ورجاء رحمته ومغفرته فإنّ الطمأنينة تغمرهم فيزدادون إيمانا ويقينا بربهم فتلين بذلك جلودهم وتطمئن قلوبهم، ذلك لأنّ القرآن كلام الخالق العظيم.

ولمكانة القائل في نفس السامع أثر بليغ في التأثير، فالقائل هو الله، والواسطة جبريل عليه السلام، والمبلّغ هو الرسول المعصوم، والمستمع مؤمن وفيّ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال:٢).

وختم الله التنويه بشأن القرآن بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، في الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ احتمالان: إمّا أنها إلى قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، أو إلى قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أي تأثر المؤمنين بهدي القرآن، لأنه تعالى جعله سببا لذلك التأثر بما يحمله من وسائل الهدى، فيكون التوفيق من الله وفق توجّه المؤمن واختياره، ومن

جعل قلبه قاسيا بالكفر والعناد واختار سبيل الضلال فإن تعالى يحكم عليه بذلك فلا هادي له بعد الله.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: فرّع الله على قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ هذا الاستفهام الإنكاريّ الذي يفيد التقريع لمن ضلّ فاختار سبيل الكفر إذ يواجهه عذاب جهنم فلا يكاد يتقيه إلا بوجهه الذي هو واجهة الحواس لدى الإنسان، وهو مظهر عزه وكرامته، والناس يتصاونون بصباحة وجوههم، إذ تنعكس على صفحتها بواطن نفوسهم وطبائع أمزجتهم كما قال الشاعر:

لا تسأل المرء عن خلائقه ... في وجهه شاهد من الخبر

ومن عادة الإنسان أنه يصون وجهه بيديه عند تعرضه لإذاية ما، فإذا عجز الكافر عن اتقاء سوء عذاب جهنم بسائر جسده، فإنه أعجز أن يتقيه بصفحة وجهه، فالتعبير في الآية كناية عن العجز في اتقاء عذاب جهنم سيما وأيديهم مغلولة، ولذلك قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٤).

وهذه مقابلة أخرى طوي معادلها وتقديره: كمن هو آمن في دار النعيم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت: ٤٠).

ومع قساوة العذاب الماديّ لنار جهنم فهم يتعرضون للعذاب المعنويّ بأن تقول لهم ملائكة العذاب: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، فذلك الجزاء هو بما اكتسبوه بظلمهم في الدنيا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾:

ثم بيّن الله أنّ أهل مكّة المكذّبين برسول الله ليسوا بمعزل عن نقمة الله عليهم، فهم وإن اغترّوا بقوتهم ومناعتهم، فإنّ العذاب يأتيهم من حيث لا يشعرون كما فعل بالأمم الخالية التي كذّبت رسلها إذ أخزاهم الله بعذاب الدنيا مقرونا بالذلّ والهوان غرقا وخسفا وصعقا، أو قتلا وأسرا، وقد تحقّق وعيد الله لقريش بما نزل عليهم من القتل والأسر، وما لحقهم من الذلّ والهوان بعد عزّهم وكبريائهم. ولعذاب الآخرة أشدّ وأنكى لو كانوا ممن يتدبّر ويبصر في عواقب الأمور، والله أعلم.

ضرب الأمثال في القرآن.

أ) - النصّ:

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: تأكد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق: ﴿وَلَقَدْ﴾. ضرب المثل: ذكره ووصفه. ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: التنوين للتعظيم. ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: ﴿قُرْآنًا﴾: حال مؤكدة،

﴿عَرَبِيًّا﴾: نعت، ﴿غَيْرِ ذِي عِوَجٍ﴾: ﴿غَيْرَ﴾: منصوب على النعت، والعوج بكسر العين، أي لا اختلاف فيه مبين ومعنى. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾: أي مختلفون، من شكس يشكس فهو شكس، ﴿وَرَجُلًا﴾: بدل من ﴿مَثَلًا﴾، و﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾: نعت لـ﴿رَجُلًا﴾، وهو مثل حال المشرك في تشتت فكره بين آلهة كثيرة. ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: ﴿رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾: هو خالص له وحده لا شركة فيه لغيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: منصوب على التمييز، والاستفهام للتقرير أو للإنكار. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي، والضمير في ﴿أكثرهم﴾، لكفار قريش لا يعلمون ما ينتظرهم من العذاب. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾: الخطاب للرسول: إنك تموت وإنهم يموتون، فلا شماتة في الموت. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾: إثبات للبعث خطابا للذين ينكرونه، والاختصام عند الله كناية عن الحكم بينهم في موقف الجزاء.

ج)- أوجه القراءة:

﴿سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾: قرأ الجمهور: ﴿سَلَمًا﴾ بفتح السين وفتح اللام بعدها ميم، وهو اسم مصدر لـ: سَلِم له، إذا خلص، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿سَالِمًا﴾: بصيغة اسم الفاعل، وهو من سلم، إذا خلص، ومؤدى القراءتين واحد.

د)- البيان والتفسير:

في معرض التنويه بشأن القرآن، وبعد بيان الصفات المتقدمة لأحسن الحديث نزّله الله على قلب رسول الله، أتمّ الله هنا ذكر عوامل أخرى للقرآن في الإرشاد والتذكير مما يضرب الله فيه من الأمثال، ومما يمتاز به من استقامة في

المبنى والمعنى، وقد تعرّض إلى تسفيه أحلام المشركين في عبادتهم لآلهة متعددة وتكذيبهم بالقرآن فقال جلّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، ليتمّم ذكر خصائص القرآن، فتصدّرت بلام القسم و"قد" المفيدة للتحقيق، وذلك مراعاة لمكرمي صدق القرآن، وللتنويه بشأنه جاء التعبير بنون العظمة: ﴿ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ أي لجميع الخلائق؛ لأن الرسول مبعوث للناس كافة، والمثل في القرآن يُؤتى به لإبراز المعنى في صورة حسّية مؤثرة، وقد وردت في القرآن أنواع من الأمثلة بيّنها وفصّلها كثير من العلماء قديما وحديثا في كتب قيمة، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي هي من أبرز الأمثال وأشرفها تأثيرا وإفادة ليكون لها ذلك الأثر البليغ في نفوس المتذكرين لتقويم سلوكهم وتهذيب نفوسهم.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: وصف الله القرآن بأوصاف ثلاثة تميزه عن غيره، فقال:

أ- ﴿قُرْآنًا﴾: وإن كان لفظ: "القرآن" قد صار علما لكتاب الله المنزل على قلب محمد ﷺ فهو في الأصل اللغوي مصدر الفعل: قرأ يقرأ، أي تلفظ ونطق بكلماته، أي جعله الله ميسّرا للذكر والتلاوة، يتلى على مسمع الزمان غضّا طريّا محفوظا من كل تغيير أو تبديل إلى قيام الساعة.

ب- ﴿عَرَبِيًّا﴾: وقد تعدّد هذا الوصف للقرآن، أي هو منزل بلسان عربيّ مبين في قمة الفصاحة والبلاغة يتحدّى بإعجازه الناس أجمعين، وفي مقدمتهم العرب الذين نزل بلسانهم، وفي هذا الوصف تأنيب للمشركين إذ تلقوه كمن تلقى كلاما بلغة لا يفهمها.

ج- ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: أي هو مستقيم المعنى، والمعنى غير متناقض، بل هو قيم مستقيم، كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا، قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾(١-٢). والتذييل هنا بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لأن التقوى تحرّ عن حسن التذكر والتدبّر، أي ليتقوا ما ينذرهم به من عذاب الله.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: بعد التنويه بشأن القرآن لاستقامة أغراضه واحتوائه على كثير من الأمثال المفيدة، ضرب الله مثلا ليبان حال المشرك وحال الموحّد بعد أن قابل في أسلوب مؤثر بين من شرح الله صدره للإسلام وبين من قسا قلبه عن ذكر الله، والمثل المضروب هنا مأخوذ من واقع البيئة الاجتماعية التي كانت عليها أغلب المجتمعات قبل بعثة الإسلام التي كفلت الحرية لجميع الناس. يضرب الله المثل للمشرك المذبذب في توجّهه بين عدّة آلهة، برجل قد يكون عبدا أو أجيرا أو عاملا تابعا لعدّة شركاء متنافرين متخاصمين، يتوزع بينهم فيبقى حائرا أيهما يطيع في ما يكلّفه، فإن رضي عنه أحدهم غضب الآخر، فلا يستقيم له عمل ولا يقرّ له قرار، بينما يكون عبد آخر لسيّد واحد أو لربّ عمل واحد، يأتمر بأوامره، ويعرف ما يكلّفه به، فهو واضح في عمله، مستقرّ في توجّهه فهل يستوي الرجلان في الراحة النفسية وفي الاستقرار العاطفي؟.

إنهما لا يستويان أبدا، وذلك ما يصوّر وضعية المشرك في حيرة أمره واضطراب نفسه بين آلهة متعددة وتبدّد طاقته في ما لا يجلب له نفعا ولا يدفع ضرّا، وأما المؤمن الموحّد فهو مطمئن القلب في توجّهه إلى ربّ واحد هو مصدر وجوده وكافل رزقه وراعيه في رحلة حياته على هذه الأرض يستمدّ منه وحده العون والتوفيق يأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه، ويأنس بقربه في البأساء والضراء.

وبعد هذا المثال الحيّ الرائع يعقب الله بالحمد والثناء لذاته العلية إذ منح لعباده المؤمنين السكينة والطمأنينة بنور الإيمان. ثم بصيغة الإضراب الانتقالي بحرف "بل" حكم بالجهل للأكثرية المشركة الذين أعماهم التقليد والإتباع لساداتهم، فهم لا ينتفعون بضرب هذه الأمثال.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾: بعد تلك الجولة المركزة على إبطال الشرك بمختلف الأدلة المقنعة، ودعوة المشركين إلى حسن التدبّر في القرآن لعلهم يهتدون، وتفصيل حال المؤمنين في تجاوبهم مع هديه، وبعد حكم الله على الكافرين بأنّ أكثرهم لا يعلمون، ختم الله تلك الجولة بما يعتبر تسلية لرسول الله والمؤمنين معه بإحالتهم مع خصومهم على حكم الله يوم القيامة.

وبما أن الموت هو أول خطوة في الرحلة الأبدية لكل الخلائق أخبر الله بصيغة التأكيد بأنّ الناس كلّهم صائرون إلى الموت، ولا يستثنى أحد من ذلك مهما غلا شأنه، والموت هو خير ما يذكر به المفتونون بالحياة الدنيا، وقد بدأ الله الإخبار بموت رسول الله وثنّى بموت بقية الخلائق بصيغة التأكيد: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، فالمقصود بالنسبة للمسلمين هو دفع إيهامهم بأنّ الرسول لا يموت مغالاة منهم في فرط حبّه وتعظيمه، وأمّا بالنسبة للمشركين فهو للتعريض بهم إذ كانوا يتمنون موت الرسول ويقولون: ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ (الطور: ٣٠). وحثّ لهم على المبادرة إلى الإيمان قبل فوات الفرصة، لأنّ الموت قضاء مبرم من الله على جميع الأحياء في هذه الدنيا؛ لأنها حياة امتحان واختبار، ومن ثم فهي معبر حتمي لحياة البقاء والخلود، ولكن الله عطف بـ"ثم" لقيام الناس ليوم البعث والنشور للفاصل الزمني بين الموت والبعث فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾. أي يخاصم بعضكم بعضا، وليس ذلك خاصا بالمؤمنين

والكافرين بل يشمل كل أنواع المخاصمات بين الخلائق، فيخاصم رسول الله قومه ويحتجّ عليهم، فلا يجدون ما يردّون به عليه، وإن كان الأصل في معنى الآية أنه تخاصم أهل الإيمان والشرك، إلاّ ما ورد في السنة، فالرسول وسّع في ذلك المفهوم حين قال: «**والذي نفسي بيده إنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحا**».[1]

والله أعلم

وعد المصدقين، ووعيد المكذبين، وتسفيه عبدة الأصنام.

أ)- النص:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

١- رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة رقم (٩٠٦٠: ٢/٣٩٠).

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾: ﴿أَلَيْسَ﴾: الاستفهام للتقرير أو للإنكار، أي إنكار النفي لتأكيد الإثبات، ﴿مَثْوًى﴾: اسم مكان للفعل ثوى يثوي وهو في موضع رفع اسم "ليس"؛ والجملة مبنية لمضمون جملة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾. ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: ﴿وَالَّذِي﴾: في موضع رفع بالابتداء وخبره: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: هو رسول الله جاء بالصدق أي القرآن. ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: هم الصحابة. فالمقصود بـ"الذي" الثاني "الذين". والقرينة هو قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾: أي إن الله ادخر لهم من نعيم الجنة ما يريدون وعدا من الله. ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾: المشار إليه هو: ﴿مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: قابل الأسوأ بالأحسن، ويجوز فيهما البقاء على معنى للفاضلة، كما يجوز سلب الفاضلة عنهما، وفي كلا الاحتمالين، فالآية تدل على أنهم يحصلون على الثواب الأوفى. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾: الاستفهام لإنكار النفي. ﴿عَبْدَهُ﴾: مفعول لاسم الفاعل. ﴿عَبْدَهُ﴾: هو رسول الله يخوفه المشركون أن تصيبه أصنامهم بسوء و﴿الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾: هي الأصنام. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾: الاستفهام تقريري. ﴿عَزِيزٍ﴾: صفة، مشتق من العزّ أي القوة والغلبة. والانتقام: المكافأة على الشرّ بشرّ ويقال: بلى. بعد نوع هذا الاستفهام لأن المقصود به الإثبات. ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾: الاستفهام إنكاري، ﴿ما تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: مفعول أول لـ"رأيتم"، وأما المفعول الثاني، فقد سدّ مسدّه جواب

الشرط: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ﴾ و﴿كَاشِفَاتُ﴾، على صيغة اسم الفاعل. ﴿ضُرِّهِ﴾ و﴿رَحْمَتِهِ﴾ إما مجروران بالإضافة، وإما منصوبان على المفعولية إذا نوّن اسم الفاعل. ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾: بمعنى الله كافيني في كل جلب نفع أو دفع ضرّ. ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: اعملوا على طريقتكم وحالكم وأنا أعمل على طريقتي. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾: تهديد للكفار بما سيحلق بهم من الخزي والعار كما حدث لهم يوم بدر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾: قرأ الجمهور: ﴿عَبْدَهُ﴾ بصيغة المفرد، وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف: ﴿عِبَادَهُ﴾ بصيغة الجمع، أي النبي والمؤمنين معه. ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾، ﴿مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾: قرأ الجمهور بإضافة الوصفين إلى الاسمين، وقرأ أبو عمرو ويعقوب بتنوين الوصفين ونصب: ﴿ضُرَّهُ﴾ و﴿رَحْمَتَهُ﴾، وهو اختلاف في لفظ تعلّق الوصف بمعموله، والمعنى واحد. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: قرأ الجمهور بصيغة المفرد، وقرأ أبو بكر عن عاصم بصيغة الجمع: ﴿مَكَانَاتِكُمْ﴾.

د)- البيان والتفسير:

كثرت المقابلات في السورة بين فريقين من الناس تختلف توجهاتهم، فبعد ضرب الله المثل على الموحّد والمشرك ونفي التسوية بينهم، وبعد الإخبار عن قضائه بين الناس يوم القيامة في ما كانوا فيه يختلفون، وبما أن الحديث في الآية السابقة قد تركز على رسول الله وخصومه في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، فقد جاء التفريع هنا لبيان سوء معتقدات المشركين في الله وتكذيبهم بالقرآن والحكم عليهم بأفدح الظلم، وتوعدهم بنار جهنم فقال

تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

جيء بالحكم عليهم في صيغة الاستفهام الإنكاري وصيغة التفضيل: ﴿أَظْلَمُ﴾ للحكم عليهم بأن لا أحد أظلم منهم إذ كذبوا على الله بادعائهم شركاء له في ربوبيته -حاشاه- وبتكذيبهم للذي جاء بالصدق أي الرسول الكريم الذي جاء بالقرآن، وهو الصادق الأمين الذي لم يجرّبوا عليه كذبة قطّ.

وقوله: ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ يدلّ على أنّ التكذيب وقع مباشرة بعد سماعهم للقرآن دون أن يتدبّروا ما جاء فيه، وعلى هذين الكذبين العظيمين تفرّع أكاذيب أخرى يستحقون بها عذاب جهنم حيث يكون مثواهم ومستقرهم.

وفي قوله: ﴿مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ تعليل للذلك الاستحقاق، والتعريف في: ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ للجنس يشمل من كان منهم في وقت التنزيل ومن يكون على شاكلتهم إلى يوم القيامة.

وفي مقابل هذا الصنف الشقي يذكر الله الصنف الفائز بوعد الله وبشراه الندية السنية فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ، لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ، لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الجملة معطوفة على ما قبلها، صدّرت بالموصول: ﴿الَّذِي﴾ في موضع رفع مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. وقد قابل الله بين فريقين من الكذبين في الآية السابقة بفريقين من المصدقين في هذه الآية فقال:

١- ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: وهو رسول الله جاء بالقرآن الكريم يبلغه عن الله بأمانة ونزاهة وهو الصادق المصدوق، ويندرج معه في هذه الصفة كل

الرسل والأنبياء، وحملة الرسالات من بعدهم في الدعوة إلى الله وفي النصح والإرشاد.

ب)- ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: وهي جملة أخرى لموصول محذوف إيجازا تقديره: "والذي صدّق به"، أي الذين صدّقوا بما جاء به رسل الله فآمنوا بهم واتبعوهم، وصف الله الفريقين بالمتقين، وجيء باسم الإشارة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ لتميزهم عن غيرهم وبضمير الفصل لإفادة الحصر، والوصف بالتقوى هو شارة الفوز والنجاة من عذاب الله لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأنعام:٤٨).

ولا شك أن المتقين هم أولئك الذين صدّقوا بما أنزله الله في القرآن والتزموا بتطبيق أحكامه وتوجيهاته كما أمر الله، وقد بيّن جزيل ثوابهم بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي يعطيهم ربّهم كل ما يطلبون من نعيم الجنة، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ زيادة على ما في هذه الإضافة من التشريف لهم لما في معنى "الرّب" من الرعاية والتكريم، فإن القيد: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فيه معنى الالتزام بتحقيق الوعد.

ونظرا لأهمية ذلك الوعد الإلهي قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أثنى الله عليهم بوصف الإحسان زيادة عن وصف المتقين تنويها بشأنهم ورفعا لدرجاتهم؛ لأن مرتبة الإحسان هي العليا في درجات القرب عند الله، وهي كمال التقوى لقوله ﷺ في تفسيره للإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».[1]

١- رواه البخاري من حديث عمر، كتاب (٢) الإيمان، باب (٣٦) سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم ٥٠: ٩٧/١.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: هذه الجملة تعليل لقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والتقدير: وعدهم الله بذلك ليكفّر عنهم، وقوله: ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ يجوز أن يكون معنى التفضيل في: ﴿أَسْوَأَ﴾ فيكون معناه الشرك مما كانوا يعبدونه في الجاهلية من دون الله، فيكون ما دون الشرك أولى بالتكفير، وإن سلب: ﴿أَسْوَأَ﴾ معنى المفاضلة فيحمل على الكبائر كلها، وهو أعمّ، وهذا في الموقف السلبي من الجزاء، وأما الموقف الإيجابي فهو في قوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي تكون نوعية جزائهم على كلّ الصالحات التي قدّموها من نوع الجزاء المقرّر لأحسن الأعمال وبذلك تضاعف حسناتهم عند الله فضلا منه ومنّة كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: ٢٦). وطبعا فإنّ صحابة رسول الله هم في طليعة هؤلاء المحسنين الذين صدّقوا وآمنوا بما جاء به رسول الله.

وبما أنّ للمشركين حميّة على آلهتهم فيمتلكهم الغيظ عندما يسفّهها رسول الله، ويدعوهم إلى نبذها وترك عبادتها، فكانوا يحذّرونه من أن تصيبه بسوء إن تمادى على تحقيرها وتسفيهها، وذلك هو شأن الكافرين مع رسلهم، وشأن المشعوذين والدّجالين فقال تعالى مطمئنا رسوله بأنه يكفيه شرّهم ويمنع عنه مكايدهم فقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

الاستفهام للتقرير، تقرير الاستهانة بالذين يدبّرون المكايد، ويخوّفون رسول الله بأن تصيبه آلهتهم الباطلة بسوء فإنّه تعالى هو الرّاعي لعبده وحافظه من كل مكروه، وما أروع الالتفات من ضمير الغيبة: ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ لفائدة إبراز شخصية النبي في مواجهة ذلك التهديد، وعبّر عن المعبودات الباطلة بضمير العقلاء: ﴿بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ ليشمل

بذلك كلّ أنواع المعبودات الباطلة، ويكون الجواب مثل هذه الصيغة من الاستفهام بـ"بلى" لإنكار النفي مبالغة في الإثبات.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ. وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾: وهكذا فإن الواقع التاريخي مما ثبت في السيرة أنّ بعض الصحابة ممن كلّفهم الرسول هدم بعض الأصنام كما فعل خالد بن الوليد بالعزّى، وعمرو بن العاص بسواع، فقد نفذوا مأموريتهم دون أن يلحق بهم أذى، وذلك قبل فتح مكّة وهدم ما كان حول الكعبة من الأصنام.

وقبل أن يدلّل الله هذا الغرض بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾، بيّن مدى قدرته وسلطانه في تدبير شؤون خلقه، ومع القدرة والسلطان العدل والحكمة، فهو يقضي بحكمه في الهدى والضلال بحسب واقع المحكوم عليه من اختياره وكسبه الحرّ فمن سار على سبيل الضلال والكفر، فلا يملك أحد أن يهديه إلى سبيل الرشاد، ومن وفّقه إلى الرّشد والإيمان فلا مضلّ له من ذلك أبدا، فهل من منكر بعد ذلك لعزّة الله وغلبته على خلقه، ينتقم ممن عصاه ويحمي من لجأ إليه واستنصر به؟.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾:

تأتي هذه الآية خلال الحجج المتتالية لردّ شبهات المشركين وبيان سفاهتهم في اتخاذ الشركاء لله، وقد استدرجهم الله للإقرار بانفراده تعالى بالخالقية عندما يسألون عمن خلق السماوات والأرض وعمن خلقهم ومن رزقهم، فهم لا ينسبون الخالقية والرازقية لآلهتهم الباطلة، ولا أصدق من شهادة الله على ذلك، فقد

فرّع الاستفهام الإنكاريّ على ذلك الإقرار، ليلزمهم الحجة بأنّ تلك الآلهة الباطلة التي يعبدونها لا تملك لهم نفعا ولا ضرا. ولذا أمر الله رسوله أن يتحداهم بأن تكشف آلهتهم عنه ضرا أراد الله أن يصيبه، أو تمسك عنه رحمة أراد الله إغداقها عليه، ومقابلة الضرّ بالرحمة بدلا عن النفع هو أشمل وأجمع لأنّ الرحمة هي الأنسب بحق الربوبية، وتقديم كشف الضرّ في هذا التحدّي عن إمساك الرحمة هو لمراعاة ما يهددون به رسول الله من إصابته بسوء من طرف آلهتهم، وهم إذ عجزوا عن الإجابة على ذلك التحدّي أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

و"حسبي الله" بمعنى هو كافيني وراعيني في كل الأحوال، فالرسول إذ يعلن هذا الشعار في مثل تلك المواقف الحرجة فهو بذلك يعلّم أمته كيف تلتجئ إلى ربها في الظروف العصيبة تستمدّ منه العون والتوفيق وذلك على اعتبار أن الجملة: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ من جملة مقوله، وإذا كانت من كلام الله -ويحتمل ذلك- فتكون الجملة تعليلا للأمر بالقول الأول: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾:

نادى الرسول قومه نداء إشفاق وترقّق لما أصبحوا عليه من الإصرار على العناد والكفر، وبعد أن أقام عليهم الحجة في النصح والإرشاد فلا محيد بعد ذلك عن المتاركة والمفاصلة كما تنتهي الخصومات الكبرى عندما يفشل الحوار بين الطرفين. وقوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ بمعنى ابقوا على حالكم واستمرّوا على طريقتكم في الإصرار والعداوة، وأنا أعمل على شاكلتي في ما أدعو إليه من الحق والرشاد.

وقد حذف متعلق: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ليعمّ كل ما يصلح من واجبات الدعوة وأحكامها وأنه ﷺ ماض في تبليغ رسالته لا يثنيه عن ذلك إعراضهم، فالكلّ يعمل على شاكلته.

وفي نهاية المطاف يتبين لذي عينين مآل الذين اختاروا لأنفسهم الذلّ والخزي في الحياة الدنيا، فيُمعنون بذلك في حيالهم كما يحلّ عليهم العذاب المقيم يوم القيامة بالخلود في النار. فالتعبير يدل على التمكن واللازمة. نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

والله أعلم.

الاستدلال على قدرة الله وتصرفه في الأحوال، وتوضيح فساد مذاهب المشركين مع تهديدهم.

أ) - النص:

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ

وَالشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾: الفرق بين قوله في أول السورة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (٢)، وبين قوله هنا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ لأنّ الغرض من الآية السابقة التنويه بشأن النبي، وأما هنا فللتنويه بشأن القرآن بأنه نزل بالحقّ -وهو حال من الكتاب- لأجل الناس. ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، أي إنّ فائدة الاتباع أو الإعراض ترجع إلى ذات الإنسان، وليس على الرسول إلا التبليغ. ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾: تقديم اسم الجلالة لإفادة تخصيصه بمضمون الخبر، أي هو الذي يتوفى لا غيره. والتوفّي: الإماتة، أي يقبض الله روحها حين تمام وبتوفّى غير النيّة وقت النوم. ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي يمسك الروح فلا يعود إلى البدن، فيموت صاحبها، ويرسل الروح إلى النفس النائمة لتستيقظ وتبقى إلى وقت موتها. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾: ﴿أَمِ﴾ للإضراب الانتقالي والاستفهام الذي تشعر به هو للإنكار، أي اتخذ المشركون الأصنام شفعاء لهم عند الله. ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾: اللام للملك، قدم الخبر: ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ: ﴿الشَّفَاعَةُ﴾ لإفادة الحصر، و﴿جَمِيعًا﴾: حال من الشفاعة يفيد الاستغراق. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

مقابلة بين ذكر الله بالوحدانية وبين ذكر الأصنام. وبين الاشمئزاز والاستبشار. فالاشمئزاز هو شدة الكراهية والنفور، ضده الاستبشار: شدة الفرح والسرور. ﴿إِذَا﴾: الأولى والثانية ظرفان متضمنان لمعنى الشرط. ﴿وَإِذَا﴾: الثالثة تعيد المفاجأة. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ﴿اللَّهُمَّ﴾: معنى يا الله ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ﴾: ﴿فَاطِرَ﴾: خالق، منصوب، لأنه نداء مضاف. ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: أي أنت لا غيرك هو الحاكم بين العباد يوم القيامة، والجملة خبر مستعمل في معنى الدعاء. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: بمعنى لو أن ذلك كان ملكا يوم القيامة ومثله معه لحاولوا أن يفتدوا به أنفسهم من عذاب النار. ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: أي تعرض عليهم صحائف أعمالهم فيحيط بهم الجزاء العادل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾: قرأ الجمهور بناء الفعل للفاعل ونصب الموت، وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ﴾ ببناء الفعل للنائب، ورفع الموت، وهو على مراعاة نزع الخافض، والتقدير: قضي عليها بالموت. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: قرأه الجمهور بالبناء لما لم يسمّ فاعله، وقرأه يعقوب بالبناء للمعلوم، وبين القراءتين تكامل، أي يُرجعهم الله تعالى فيرجعون مطاوعين.

د)- البيان والتفسير:

جاء الحديث عن القرآن والتنزيه بشأنه متتابعا في السورة، بدءا من مفتتحها، وما عدّد الله له بعد ذلك من الأوصاف الكريمة، وفي مفتتح هذا

النصّ الكريم يسلّي الله رسوله بإنزال هذا القرآن على قلبه الشريف بالحقّ ليهدي الناس به، وكفاه تبليغا إليهم، وما عليه من تبعة في ضلالهم، ثم بيّن الله الأدلّة على قدرته وتفرّده بالتصرّف في أحوال الخلائق. ثم ندّد بمواقف المشركين من قضية التوحيد، وتوعّدهم بسوء العواقب في موقف الحساب يوم يحاولون لأنفسهم فدية، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

يأتي الإخبار الربّاني بنون العظمة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا﴾، والمخاطب رسول الله بشعره ربه بمكانة القرآن المنزل عليه لأجل هداية الناس تبشّرهم وتنذرهم وتبعث في نفوسهم دواعي اختيار الطاعة ونبذ المعصية، وقد نزّل من ربّ العالمين ملتبسا بالحق مقرونا به في كلّ بياناته وإرشاداته بما يريده الله من عباده، وبما ينالون به مرضاته إن هم اتبعوه، وهو تعالى يقرّر للمسؤولية الشخصية لكلّ فرد، فإن اهتدى بهدي القرآن وسلك طريق الحقّ الذي جاء به فيعود نفع ذلك إلى نفسه، ومن أعرض وحاد عن طريقه كفرا وضلالا، فيعود وبال ذلك -أيضا- إلى نفسه، وما أنت أيها الرسول بموكول عليهم في ذلك، إنما أنت مبلّغ لرسالة ربّك، وهم محاسبون على ما يختارون، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (١٠).

وقد تقدم التنويه بشأن القرآن بذكر بعض خصائصه الإعجازية في المبنى والمعنى مما يعدّ من أدلّة قدرة الله وحكمته في تدبير شؤون خلقه، ومن دلائل تلك القدرة بيان أحوال أنفس المخلوقات بين الموت والنوم فقال جلّ من قائل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

عن بأزاء دليل قاطع على قدرة الله على الإحياء والإماتة، وذلك في ما يعترونا من النوم واليقظة في حياتنا، وقد سمّى كلاً من النوم وفاة، ومن اليقظة بعثا في سورة الأنعام فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦٠).

وقد أبان الله في هذه الآية من سورة الزمر بتفصيل أكثر تلك الظاهرة العجيبة التي اعتبرها الله من آيات قدرته ومن مظاهر رحمته بنا في اختلاف الليل والنهار، فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقد صدّرت الجملة بلفظ الجلالة لتعظيم شأن قدرته، ولإفادة تخصّصه بمضمون الخبر، وأصل مادة توفّى، يتوفّى ومشتقاتها هو بمعنى استيفاء المقدار المحدّد للشيء، فمعنى: ﴿يَتَوَفَّى﴾ يميت، فالوفاة تحصل للنفس بالموت الكلّيّ، أو بالنوم فيكون الموت جزئيا، فتموت النفس موتا كليا عندما تستوفي أجلها المقدّر في الحياة، إذ يقبض الله الروح إليه، فتنفصل عن الجسد ويتحقق بذلك الموت النهائي، كما يقبض الروح إليه قبضا جزئيا فتنام النفس وتسلب عنها الحركة الإرادية ثم يرسلها إلى النفس التي لم يبته أجلها ويفكّ عنها قيد النوم فتصحو وتستيقظ لتمارس نشاطها الحيوي إلى الأجل المقدر لها، فالنوم موت مؤقت باعتبار عمر البشرية، وقد قال الشاعر:

العيش نوم والمنيّة يقظة والمرء بينهما خيال سار

وقال آخر:

الأماني حلم في يقظة والمنايا يقظة من حلم

فسبحان المدبّر الحكيم إذ قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١).

ويأتي التذييل المناسب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي في تلك الظاهرة الطبيعية العجيبة لآيات واضحة على قدرة الله وحكمته في تصريف أحوال شؤون خلقه، وعلى إتقانه البديع في كل ما خلق، ولكن إدراك ذلك لا يتأتى إلا لقوم يتدبّرون ذلك بعقولهم وتفكيرهم. ومن توجيهات الرسول لما ينبغي للمسلم أن يدعو به عند نومه، ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربّي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[1].

ثم ينتقل السياق إلى التنديد بالمشركين لاتخاذهم شفعاء من دون الله، وهي لا تعقل ولا تنفع ولا تضرّ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ، قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿أَمْ﴾ تفيد الإضراب الانتقالي، أي الانتقال من الحديث السابق إلى اللاحق، وتشعر بالاستفهام الإنكاري، وقد تقدم في أول السورة اعتذارهم الواهي في اتخاذهم الأصنام إذ قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(٣)، وذلك هو معنى الشفاعة، ولكن ربّ عذر أقبح من ذنب كما يقال، إذ اعتذروا

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٨٣) الدعوات، باب (١٢) التعوذ والقراءة عند النوم، رقم (٥٩٦١): ٥/٢٣٢٩.

على منكر تمنكر أشنع منه. ولذلك أمر الله رسوله أن يقطع لهتافهم هذه الإجابة الحكيمة: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

واختيار لفظ: ﴿شَيْئًا﴾، نكرة في سياق النفي، هو لإفادة العموم، إذ هو نفي من أن تملك الأصنام أي شيء على الإطلاق بله الشفاعة التي هي أمر معنوي لا يمارس إلا مع صاحب السلطة، فأنى للأصنام الجامدة أن تدرك أو تعقل تلك الأمور المعنوية. ولما كانت السلطة والملك لله وحده أمر رسوله بأن يقول في مقابل عموم ذلك النفي: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، أي إن الله وحده هو مالك جميع أنواع الشفاعات، فيجب لمن شاء من الشفعاء الحقّ إذنا وقبولا: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾.

وجملة: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لإفادة انفراده تعالى بالتصرّف الكامل في تدبير شؤون ملكه، ومن ذلك مؤاخذة المخلوقات على سوء تصرّفاتها في حياة الابتلاء والاختبار، ولذلك جاء التعقيب بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للإشارة إلى إثبات البعث وأنه مالك يوم الدين كما كان له ملك الدنيا.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

يتواصل الحديث على حماقة المشركين وتناقضهم في مواقفهم، فهم إذ مردوا على الكفر والشرك، لا يستطيعون الصمود أمام الحجج المقنعة التي يواجههم بها الرسول إلا بادّعاءات باطلة، فبعد قولهم في معبوداتهم الباطلة أنها شفعاء لهم عند الله، فهاهم يكشفون عن حيث نواياهم وسوء طبعهم حين يذكر الرسول والمؤمنون بأن الله وحده لا شريك له، أي إذا قيل لهم: لا إله إلا الله، انقبضت نفوسهم وانفاظوا لذلك وشعروا بالاشمئزاز والنفور؛ لأنهم لا يؤمنون بوحدانية الله ولا يقدّرونه حق قدره، وبالتالي فهم لا يؤمنون بالبعث والحساب، فقوله: ﴿ذُكِرَ

الله وَحْدَهُ﴾ بمعنى أفرد الله بالذكر وحده، ولم يذكر معه اسم من أسماء أصنامهم كاللات والعزى.

ومعنى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، أي في مقابل ذلك الذكر المقدس المعظم لذات الله العلية هم يستبشرون ويسرّون إذا ذكرت أصنامهم بوصف الإلهية، ذلك بأنهم يعتقدون باطلا بأنّ لآلهتهم تأثيرا في أحوالهم، فهم -إذن- متناقضون أنها شفعاء لهم عند الله.

فما حيلة رسول الله في إقناع مثل هؤلاء إلاّ أن يدعو الله منزّها عن قلبه الشريف ما يجده من الحزن والأسى على قومه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

فمثل هذا الدعاء يشعر الداعي إلى الله بكمال الاطمئنان وهو واثق من قدرة الله وعظمته: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وواثق من كمال علمه في تدبير شؤون عباده دنيا وأخرى، فإذا كان الاختلاف بين الناس من سنة الله في خلقه: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٩)، وأنهم في الحياة الدنيا على محكّ الاختبار والامتحان، قد يؤمنون ويقبلون، وقد يكفرون ويعصون، فأنت يا خالقي العظيم ويا عالم الغيب والشهادة، تحكم بينهم في يوم الجزاء لتجزيهم على ما قدّموه من أعمال ثوابا أو عقابا.

وقد أخرج مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله إذا قام من الليل، افتتح صلاته بقوله: اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه

يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».[1]

وبعد هذا الدعاء النديّ من الاحتكام إلى الله في الفصل بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر والشرك بيّن الله الحكم على المشركين المتطلعين في مقرّر قويلي شديد إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

عطف الله على الدّعاء السابق من طرف النبي للمحاكمة بينه وبين أعدائه المشركين، عطف الله قراره بأنّ الحكم القاسي سيكون على الذين ظلموا، وزيادة في التهويل بيّن الله أنهم لو كانوا يملكون كلّ ما في الأرض من خيرات وكنوز في ذلك الموقف الهول لفتدوه فداء لأنفسهم من ذلك العذاب، والتعبير يمثل رهيب للحال التي هم عليها، إمعانا في التيئيس والإحباط، لأنهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾: والاحتساب هو المبالغة في الحساب عندما يوكل أحدنا في الظنّ، فهؤلاء الظلمة لا يعدمون التلفيق والتأويل لسوء تصرّفاتهم فيرون أنّ ما هم عليه من المعتقد أو السلوك هو الحقّ والصواب أو يلتمسون المبرّرات لسيّئاتهم مثل التمسّك بالشفاعة أو الاكتفاء بالنطق بالشهادتين تمسّكا بمهاترات علم الكلام إلى غير ذلك من أنواع الظنون التي تكشف لهم في صحائفهم يوم القيامة.

١- رواه مسلم، كتاب (٦) صلاة المسافرين وقصرها، باب (٢) الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧٠: ١/٥٣٤.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: قد يقصّر المكلّف في واجباته الدينية كسلا وتهاونا، ولكنه في قرارة نفسه يعلم أنه قد أخلّ بواجب، فهو يتمنى ويطلب الهداية من الله، فمثل هذا قد ترجى منه التوبة والرجوع إلى الله في يوم من الأيام. وأما الذي يتهاون ثم هو يسخر ويستهزئ بأوامر الله وتوجيهاته، كما يفعل الملاحدة من الشباب المسلم اليوم، وكما أنشد الأخطل الكبير يوما بحضرة عبد الملك بن مروان ساخرا بتعاليم الإسلام قال:

ولست بصائم رمضان يوما ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائم في الصبح أدعو كمثل العبد حيّ على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح

فالجمع بين التفريط والاستهزاء هو من أعظم ما يحاسب عليه المرء في موقف القيامة. واختيار فعل: ﴿كَسَبُوا﴾ يدلّ على مسؤوليتهم في كسب تلك السيئات التي تحيط بهم فتحرّهم إلى عذاب النار وبئس المصير، واختيار صيغة الماضي لتحقق الوقوع، والله أعلم.

فزع الإنسان إلى الله عند البأساء، وغروره عند النعماء.

أ)- النصّ:

فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾: ﴿فَإِذَا﴾: الفاء للتفريع على قوله: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ لبيان التناقض في الموقف. و﴿الإِنسَانَ﴾: المراد به كل مشرك. فـ"ال" للجنس. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: ﴿خَوَّلْنَاهُ﴾: أعطيناه، ينصب مفعولين: الضمير مفعول أول و﴿نِعْمَةً﴾ مفعول ثان. ﴿أُوتِيتُهُ﴾: الضمير يعود إلى: ﴿نِعْمَةً﴾. وتذكير الضمير، لأن المراد الشيء المشاهد من تلك النعمة. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: أي بسبب علم، أي بفطنته وذكائه. ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾: ﴿بَلْ﴾: للإضراب الإبطالي. ﴿فِتْنَةٌ﴾: أي امتحان ليشكر أم يكفر، أي تلك النعمة فتنة له. ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي قد قال تلك الكلمة: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الذين من قبلهم من القوم الكافرين كقارون وأمثاله. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾: أي حلّ بهم العذاب فلم يستطيعوا دفعه، وكان ذلك جزاء ما عملوا. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾: يوسّعه، و﴿يَقْدِرُ﴾: يضيق فيه، وبينهما طباق.

ج)- البيان والتفسير:

نحن في سياق ذكر تناقضات المشركين وكشف قبائحهم، إذ نجدهم يفزعون إلى الله لكشف الضرّ عنهم إذا أصابهم، بينما كانوا يشمئزّون من ذكر اسم الله وحده، وهل أغرب في التناقض والتذبذب من هذه الأحوال؟، وقد بيّن الله تعالى أنه وحده مصدر النعم التي قد يغترّ بها الإنسان في وقت الرّخاء، وأنه تعالى يوسّع الرّزق على من يشاء ويضيّقه على من يشاء بحكمته وتدبيره، فليس وفرة الثروة تأتي بعلم الرجل وكياسته، ولكن بفضل الله وتيسيره. قال

تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

تقدّم نظير هذه الآية في أوّل السّورة مع التفنن في تغيير بعض الكلمات، وجاء التفريع هنا بالفاء: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾، لورود هذا الإخبار في سياق بيان غرابة مواقف المشركين في تعاملهم مع الله، إذ يشمئزون من ذكر وحدانيته، ثم لا يلبثون أن يفزعوا إليه بالدعاء إذا ما أصابهم مكروه، لأنهم في تلك الحالة يستمعون إلى نداء الفطرة، وهي تعلم أن لا ضارّ ولا نافع إلا الله، وخير مثال يضربه الله على ذلك النداء الفطريّ في القرآن هو ركوب البحر، وما تتعرض إليه الفلك -أحيانا- من أهواله، والمراد بالإنسان في قوله: ﴿إِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ كل المشركين لأن "ال" للجنس، ولكن ذلك المتضرّع الداعي لله في وقت الشدّة ينقلب إلى مزهوّ مغرور بعلمه وحذقه بمجرّد أن يتفضّل الله عليه بنعمة من النعم ويمكّنه من الاستمتاع بها برهة من الزمن مدّعيا أنه اكتسب تلك النعمة. فجاء الردّ الإلهي بقوله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾.

فما أبلغ هذه الجملة القصيرة المصدرة بـ"بل" التي تدلّ على الإضراب الإبطالي لنفي تلك المزاعم، وإقرار أنّ تحويل تلك النعمة لأحد من خلق الله إنما هو اختبار له من الله أيكون من الشاكرين أم الكافرين؟، كما قال سيّدنا سليمان -وهو الرسول الملك- الذي أفاض الله عليه نعمة من العلم والملك والنبوءة فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ (النمل: ٤٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك، والضمير عائد إلى الناس المفهوم من السياق، حكم الحمل على الأكثرية، فيدخل فيها كل من يغفل عن تلك الحقيقة ولو كان مؤمنا.

ثم يذكّر الله بمصارع الغابرين ممن ركبهم ذلك الغرور وفتنتهم الدنيا، وظنوا أنهم المسيطرون عليها، وقالوا مثل ما قال هؤلاء: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾:

الضمير في: ﴿قَالَهَا﴾ يرجع إلى المقولة: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، والذين من قبلهم هم غير المتديّين السّابقين ممن تفضّل الله عليهم بأنواع من النّعم فكفروا وجحدوا -ومنهم قارون- ومنهم صاحب الجنتين..إلخ، وكانوا ممن حسر في الامتحان، إذ انتقم الله منهم جزاء ما كسبت أيديهم، فما نفعهم ذلك المال ولا ذلك الذكاء ولا تلك المهارة التي اغتروا بها، كالخسف الذي حاق بقارون وبأمواله وكالجائحة التي أصابت الجنتين مما حكاه القرآن الكريم.

وبما أن مشركي مكة قد وقعوا في مثل ذلك الغرور بأموالهم وأولادهم إذ قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥). فقد فندهم الله بقوله مدمجا في هذه الآيات: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، فالإشارة إلى مشركي مكّة ومن يكون على شاكلتهم بعد وقت التنزيل، يصيبهم شرّ ما كسبوه من الأعمال المنكرة في الدنيا كما أصاب من قبلهم، وليسوا بمعجزي الله على ذلك ولا منفلتين من قبضته في الدنيا والآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: لمّا حكم الله على أكثرهم بعدم العلم بحقيقة الابتلاء في الدنيا عطف الله على ذلك بصيغة الاستفهام الإنكاري توبيخهم على عدم إعمال نظرهم

في حكمة الله وعدم تدبّرهم لآيات القرآن التي تذكّرهم بمشيئة الله في توسيع الرزق لمن يشاء من عباده وتضييقه على من يشاء، وأنّ ذلك التصرّف من خصوصيات الله وحده، وهو أعلم بمن خلق، فيعطي ويمنع وفق ما يناسب كلّ عبد من عباده ابتلاء واختباراً، وفي كلّ ذلك تذكرة وعبرة لمن هم متهيّئون بإعدادهم للفهم والإدراك لحكمة الله وهيمنة سلطانه، والله أعلم.

أرجى آية في مغفرة الذنوب،

وبيان حال المشركين والمؤمنين يوم القيامة.

أ) - النص:

قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾: هذه الإضافة

تجيء في عرف القرآن خاصة بالمؤمنين تشريفا لهم. ﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾: الإسراف: الإفراط في الشيء، عُدِّيَ بـ"على" لإفادة المضرّة. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾: لا تيأسوا من مغفرته التي تحيكم من النار. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾: الجملة تعليل للنهي عن القنوط، وأظهر لفظ الجلالة في مقام الإضمار للدلالة على الكرم والفضل. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿الذُّنُوبَ﴾، فلا معصية تخرج عن الآية إذا تاب صاحبها. ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾: ﴿وَأَنِيبُوا﴾: من الإنابة، أي الرجوع إلى الله بترك المعاصي. ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾: والفرق بين التوبة والإنابة كما قيل: تكون التوبة بالخوف من عقاب الله، وأما الإنابة فمبعثها الاستحياء من جلال الله وعظمته، وأمّا الإسلام له فتمّ بإخلاص العبادة له. ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾: أحسن ما أنزل هو القرآن لقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ (الزمر:٢٣). ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: ﴿بَغْتَةً﴾: فجأة. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: في موضع نصب حال. ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾: الجملة تعليل للأوامر السابقة، التقدير: كراهة أن تقول نفس، فـ"أن" وما بعدها في موضع نصب مفعول لأجله. ﴿فَرَّطتُّ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾: أي حسرتي على ما قصّرت في جنب الله أي في أداء حقه. ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: ﴿لَوْ﴾: للتمنّي. ﴿كَرَّةً﴾: أي رجعة إلى الحياة الدنيا، فأكون من المحسنين بالإيمان والعمل. ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾: ﴿بَلَىٰ﴾: حرف لإبطال منفي، فهي جواب لقول النفس: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾: اسوداد الوجوه علامة على سوء مصير أصحابها لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران: ١٠٦). ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾: مبتدأ وخبر، في موضع الحال من جملة: ﴿كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾. لأنّ: ﴿تَرَى﴾ هنا بصرية تنصب مفعولا واحدا. ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ﴾: المفازة: إما مصدر

مبني للفور، والباء للملابسة، أو السببية، أو هي اسم مكان للفوز، أي الجنة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَا عِبَادِيَ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإسكانها. ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾: قرأه الجمهور بفتح النون، وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾. ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ﴾: قرأها الجمهور بالألف المقصورة، وقرأها ابن جماز وابن وردان: ﴿يَا حَسْرَتَايَ﴾ بفتح الياء، وقرأها ابن وردان مع المدّ المشبع، وقرأها رويس بالهاء الساكنة وقفا. ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾: قرأه الجمهور بالتضعيف، من فعل: نجّى. وقرأه روح برفع الياء وسكون النون من فعل: أنجى. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: قرأ الجمهور بالإفراد، وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف: ﴿بِمَفَازَاتِهِمْ﴾ بصيغة الجمع.

د)- البيان والتفسير:

بعد الإفاضة والإطناب في بيان آيات الوعيد للكافرين والجاحدين لأنعم الله إفاضة من شأنها بعث الرهبة والخوف في النفوس مما قد يؤدي بها إلى اليأس من رحمة الله فأعقب الله ذلك هنا ببعث الرجاء في النفوس، بالدعوة إلى التوبة والإنابة إلى الله وإسلام الوجه له، سواء في ذلك الكافر الجحود أو المؤمن العاصي، لأنه تعالى يغفر الذنوب جميعا بالتوبة والإنابة إليه فقال جلّ من قائل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

الخطاب لرسول الله وهو قدوة الدّعاة في مراعاة أحوال المدعوين رأفة ولينا ومحاولة للتأثير والاستجابة، ونحن نعلم مدى حزنه على إعراض قومه خشية أن

بحق لهم غضب الله وكيف كان الله يسلّيه ويرشده أن يفوّض الأمر إليه في الحكم بينهم، فكان هذا النداء الربّاني لعباده من خلال أمره لرسوله من شأنه أن يفتح باب الرجاء ويخطّ مسالك النجاة لأولئك الذين أثقلتهم وطأة الوعيد، فيواسيهم وينعش في نفوسهم الأمل، ولعلّ ما روي من أسباب النزول لهذه الآية يوضّح تلك الحالة النفسية التي كان عليها المخاطبون، فقد روى الشيخان البخاري ومسلم عن ابن عباس: **أن أناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة، يعني بعد أن سمعوا آيات الوعيد لمن يعمل تلك الأعمال، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا -آخر﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ (٦٨-٧٠) من سورة الفرقان. ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾.**[1]

والمنادى بصفة العبودية المضافة إلى ضمير الجلالة تأتي في القرآن -غالبا- للمؤمنين، ويبدو أن المراد الأصلي به هنا هم المشركون لما ورد في سبب النزول، وإن كان يشمل العصاة من المسلمين، لأن منهم من يتمعن في المعاصي ويسارع في التوبة حتى يؤدي به ذلك -أحيانا- إلى اليأس من رحمة الله، فنهاهم الله عن ذلك بقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، أي لا تيأسوا من مغفرته وعفوه.

ثم علّل ذلك النهي بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ما أروع إظهار لفظ الجلالة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ في مقام الإضمار لما يثيره من الشعور بهيبة الله وجلاله، وزيادة القيد: ﴿جَمِيعًا﴾ ليشمل كلّ أنواع الذنوب كبيرها وصغيرها، أي بشرط

١- رواه البخاري، كتاب (٦٥) التفسير، باب (٢٩٦) ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾، رقم ٤٥٣٩: ٤/١٨١١، ورواه مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب(٥٤) كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، رقم ١٩٣: ١/١١٢.

التوبة، خلافاً للمرجئة الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان شيء. يقول قطب الأئمة: "والتوبة شرط كما شرطت في مواضع من القرآن، والمطلق يحمل على المقيد".

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: الجملة تعليل لسابقتها، أكّد الصفتين: غفور، ورحيم، بـ"إنّ" وضمير الفصل، وتعريف طرفي الإسناد، ليدلّ على القصر، أي هو وحده المتصف بالمغفرة والرحمة.

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾:

قيّد الله المغفرة بشرطين فقال:

أ)- ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: والإنابة إلى الله تتضمن التوبة النصوح باستكمال شروطها، فإن الرجوع الحقيقي إلى الله يستلزم التعهّد بعدم الرجوع إلى المعصية بعد الانقلاع عنها.

ب)- ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾: بإخلاص العبادة له وفق ما شرعه الله في القرآن وطبقه رسول الله.

وفي قوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، فالعذاب للمجرمين الضالين والعصاة الغافلين آت -لا محالة- ومنه عذاب الدنيا الذي يحصل للمشركين إن هم تمادوا على غيّهم، فلا واقي من ذلك العذاب إلا حصول التوبة والإنابة إلى الله وإسلام الوجه له، بالالتجاء إليه مباشرة، لأنّ أبواب رحمته مفتوحة، فالعاقل هو من لا يفوّت الفرصة على نفسه، ثم إن ففي التصوير وعطفه بـ"ثم" يدلّ على شديد الحكمة في المبادرة للتوبة رحمة من الله لخلقه.

ثم أضاف الله أمره للمخاطبين باتباع أحسن ما أنزل إليهم، وهو القرآن الكريم بناء على ما تقدم فيه من الأوصاف المؤهلة بشأنه في ما سبق في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ (٢٣).

وقد كرّر التحويف بإتيان العذاب بزيادة قيد: ﴿بَغْتَةً﴾ لمزيد من التحذير والتخويف، والخطاب للمنيبين إلى ربهم مشركين أو عصاة، ففي القرآن ما يأخذ بأيديهم إلى مرضاة الله والحصول على مغفرته ورحمته.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

جاءت هذه الآيات تعليلاً للأوامر السابقة، يحذّر الله تعالى فيها من التعلّق بالأماني الكاذبة، أو التحسّر على التقصير والتسويف في وقت لا ينفع فيه ذلك.

فيكون المعنى: بادروا إلى التوبة والإنابة إلى الله، واحذروا أن تقول نفس قصرت في التوبة: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾، والحسرة هي شدّة التلهف والحزن والندم على ما فات، ولا شكّ أنّ المصرّح بحسرته يتنفّس عما في نفسه من ضيق الندم على ما اقترفه.

والتفريط في جنب الله -أي في حقه وشأنه- مما يجب له من الطاعة والإخلاص.

قوله: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ بيان لدوافع ذلك التفريط وأنه السخرية والاستهزاء بما جاء به الرسول من عند الله، وتفريط الساخر هو أدعى لغضب الله وسخطه، وبها ما ندّد القرآن بالساخرين والمستهزئين كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ،

ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ والغاية: ٣٤-٣٥.

أو تقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، أي يتمنى المجرم حين يرى العذاب لو أن الله هداه في الدنيا ليكون من المتقين الناجين، أي يتفضل من تبعته الشخصية اعتمادا على قدر الله، وهي مغالطة أجاب الله عنها بعد ذلك.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: أي يتمنى رجعة إلى الدنيا لتحسين عمله حتى يكون من المحسنين، ويتضمن ذلك اعترافا بأنه كان من المسيئين.

ويبدو أن رده تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ﴾، يبدو أنها للآية الثانية في قول المجرم: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، لإقامة الحجة عليه بأن الله أنزل الكتاب وبعث الرسول ليهتدي بهما إلى سبيل المتقين، ولكنه كذب واستكبر واختار سبيل الكفر والضلال، وعلى فرض رجوعهم إلى الدنيا فإن ذلك لن يغير من سلوكهم الذي عاشوا عليه لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (الأنعام: ٢٨).

ثم تأتي مقابلة أخرى بين حال المكذبين المستكبرين وحال المتقين الفائزين في استقبال كل منهم مصيره: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وبعد ذلك النداء الرباني الندي إلى ساحات الرحمة والمغفرة، وبعد التحويف والتحذير من التقصير والغفلة، يأتي هذا المشهد الرهيب من مشاهد القيامة، والخلائق في موقف الحساب والجزاء، فتفصح الوجوه عما في النفوس

من الحسرة والندم والحزن، أو من البشر والفرح والسرور، وقد جاء تصوير ذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران:١٠٦) وفي قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس:٣٨-٤٢).

وهنا يصف وجوه المكذبين المتكبرين بالاسوداد انعكاسا لما في نفوسهم من غم وحسرة، وبتوقدهم بالنار في نار جهنم، وفي مقابل هؤلاء، فريق المتقين المنيبين إلى الله، وهم في أتم سرور وهناء، إذ فازوا بدار النعيم، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، والله أعلم.

دلائل التوحيد، وإجماع الرسل على الدعوة إليه.

أ)- النص:

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: الوكيل المتصرف في الشيء و﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾: تعني عموم تصرفه جميع الموجودات. ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

﴿مَقَالِيدُ﴾: جمع إقليد، كناية عن الخزائن التي تحفظ المدخرات، فيها استعارة، شبه فيها خيرات الأرض وكنوزها وكواكب السماوات وما فيها، شبهها بمدخرات تحفظ في الخزائن، واستعار لها لفظ المفاتيح التي هي بيد الله يتصرف فيها كيف يشاء. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: و﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: هي دلائل قدرته ووحدانيته وصف الذين كفروا بها وجحدوها بالخاسرين. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: مبتدأ. ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ ثان خبره: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾. و﴿هُمُ﴾ والجملة خبر: ﴿الذين﴾. ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾: الاستفهام للإنكار. ﴿غَيْرَ﴾: منصوب بـ: ﴿أَعْبُدُ﴾، أي أعبد غير الله؟، وإنما منصوب بـ: ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ لأنه يقتضي مفعولين، الثاني منهما حرف جر، كقولك أمرتك الخير أي بالخير. ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: اللام لام جواب القسم. والحبط: البطلان والمحق، والمقصود بالعمل العمل الصالح. ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾: ﴿بَلِ﴾: للإضراب، ﴿اللَّهَ﴾: منصوب بـ﴿اعبد﴾، والفاء للتفريع على التحذير السابق. ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: أي ما عظموه وما قدروه قدره الحق، فيكون قوله: ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، فانتصب: ﴿حَقَّ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق. ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾: مبتدأ وخبر و﴿جَمِيعًا﴾: حال من الأرض، والقبضة: المرة من القبض. ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾: وطيّ السماوات تمثيل واستعارة لاضمحلال أجرامها وزوال التئامها. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي تنزه الله وتعاظم عما يشركون به من الأنداد.

ج) - أوجه القراءة:

﴿تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾: قرأ نافع: ﴿تَأْمُرُونِي﴾ بنون واحدة خفيفة على حذف

واحدة من النونين اللتين هما نون الرفع ونون الوقاية على الخلاف في المحذوفة وهو كثير في القرآن كقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ (الحجر: ٥٤). وفتح نافع ياء المتكلم للتخفيف والتفادي من المدّ. وقرأ الجمهور: ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ بتشديد النون إدغاما للنونين مع تسكين الياء للتخفيف. وقرأ ابن كثير بتشديد النون وفتح الياء، وقرأ ابن عامر: ﴿تَأْمُرُونَنِي﴾ بإظهار النونين وتسكين الياء.

د]- البيان والتفسير:

لقد كان من سفاهة المشركين أن ساوموا رسول الله في أن يعبد آلهتهم الباطلة ليستجيبوا دعوته إلى عبادة إله الواحد، فبعد أن بيّن الله دلائل عظمته وقدرته وأنه خالق السماوات والأرض والمتصرّف في كلّ شيء ندّد على الكافرين محاولتهم من رسول الله أن يعبد أصنامهم، وبيّن أنّ الدعوة إلى توحيد الله هو ما دعا إليه جميع الرسل. غير أنّ الكافرين باتخاذهم لله أندادا لا يقدرون الله حقّ قدره.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ، لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

جاء هذا الاستئناف الابتدائي لبيان الحقيقة الوجودية الكبرى التي يتحاوب معها كلّ شيء في أرجاء الكون الواسع بأنّ له خالقا مبدعا أوجد كلّ شيء في ثناياه وزواياه من العدم على غير مثال سابق، فما يملك أحد غير ذلك الخالق العظيم أن يدّعي أنه قد شاركه في ذلك الخلق. فهو المالك الحقيقي لكلّ تلك المخلوقات أيا كان نوعها وحيثما كان مستقرّها ومستودعها يتصرف فيها كيف يشاء، وهو القائم على حفظها وتدبير شؤونها بحكمة وميزان وتقدير، لا يطرأ عليهما خلل، وعلى ذكر أن الله هو المالك المتصرف جيء بجملة: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ

والأرض﴾ لاستكمال صورة ذلك التصرف بأنه يملك خزائن السماوات والأرض فهو ينزل منها ما يريد، وينفق منها على مخلوقاته وفق ما تقتضيه حكمته ورحمته خلقه كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: وعطف الجملة على ما سبق من صفات الجلال والكمال لله تعالى يتمّ على معنى التقابل بين صفات الذات العليّة من الجلال والكمال، وصفات هؤلاء الكافرين من الخسران والضلال، أو هو مقابلة بين غاية المتقين الحاصلين على الفوز في دار النعيم، وبين الكافرين المعاندين بأنهم هم الخاسرون الحقيقيون في الدنيا والآخرة، هكذا بصيغة الحصر.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾: وبعد تقرير تلك الحقيقة الوجودية الكبرى والتي كانت تمهيدا لما يلقنه رسول الله ليقوله لمعارضيه، وقد ساوموه في إمكانية استجابتهم لدعوته في عبادتهم لإله الواحد أن يعبد هو آلهتهم في بعض الوقت كفرا وإمعانا في الضلال، فبعد إنذارهم على مخالفتهم لما تقتضيه تلك الحقائق جاء التفريع بصيغة الاستفهام الإنكاري لتوجيه الخطاب إلى المشركين المساومين في وحدانية الله وإفراد العبودية له.

وللملاحظ في هذا النصّ الكريم تركيز العقيدة الصحيحة في القلب بأساليب مختلفة يؤمر فيها الرسول الداعي بالضغط عليها ليئيس الكفّار من محاولتهم الخسيسة في مساومته لعبادة أصنامهم. كما نجد ذلك التركيز في أوائل السورة على إخلاص العبادة لله بنفس الأسلوب -أي من خلال الخطاب لرسول الله- وهذا يعكس مدى المواجهة العنيفة التي كانت محتدمة بين معسكري الإيمان والكفر في مكة المكرمة، فبعد الاستفهام الإنكاري التوبيخي للمشركين على تلك المساومة،

بنادبهم بوصف الجاهلين بعد أن وصفهم بالخسران في ما سبق، والجهل يحتمل نفي العلم أو نفي الحلم، وعلى أي الاحتمالين اعتبرنا هذا الوصف، فإنّ الكفّار هم أحرياء به، لتدنيهم إلى حضيض السفاهة في عبادة ما لا ينفع ولا يضرّ.

فإذا كان رسول الله قد استعصى عليهم في محاولتهم إبعاده عن دينه الحق، وكان ذلك من تمام جهلهم بعصمة الرسول وزكاء نفسه، فإنه تعالى بين لهم بأن مبدأ التوحيد هو سنة الرسل جميعهم، وأن أي إشراك لله في عبادته محبط للأعمال ومعرّض للخسران فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

أكّد الله الإخبار باللاّم المشعرة بالقسم وبـ"قد" المفيدة للتحقيق مراعاة لحال الخاطبين الكافرين.

وقد بيّن الله مضمون ما أوحى به إلى رسوله محمد ﷺ وإلى جميع الأنبياء من قبله، بيّن ذلك المضمون بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

والحبط للأعمال هو إبطالها وإفسادها، فإنّ المشرك قد يقوم بأعمال خيرية مختلفة -كما تقوم به اليوم كثير من المؤسسات العالمية-، سيما في وقت الضوائق والكوارث، حتى يغترّ الكثير منّا بوصفهم بأنهم المسلمون الحقيقيون، غير أنّ الله في إخباره المؤكد بهذه الآية يحكم بأنّ لا قبول للأعمال مهما كانت خيرية إلاّ إذا كانت قائمة على أساس التوحيد لله وإسلام الوجه له، كما أخبرنا عن شأن أعمال المشركين في فصل القضاء فقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان:٢٣).

والمقصود بناء الخطاب في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ إمّا للرّسول وحده، فهي بيان لقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، أو هي لكلّ نبي أوحي إليه فيكون بيانا لقوله: ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾، وفي كلّ حالة هي للتعريض بالمشركين؛ لأنّ الإشراك لا يتوقع من الأنبياء، فإذا أصبح العمل غير ذي قيمة تعود على صاحبه بفوز وربح فهو من الخاسرين.

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾، وللتأكيد على إخلاص العبادة لله جيء بأداة الإضراب "بل" لإبطال محاولة المشركين والتحذير منها، وجاء الأمر الإلهي بصيغة الحصر بتقديم المعمول.

﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾: عطف الأمر بالشّكر على عبادة الله يقتضي أن يكون الشكر أخصّ من العبادة، وهو يتمثّل في العمل الصالح الذي يرضي الله في مقابلة نعمه بما تستحقه من الشكر للمنعم.

وبعد أن نعى الله على المشركين محاولتهم الخسيسة مع رسول الله، وبيّن فساد تصرّفهم محرّضا رسوله بأن يعبد الله وحده، بيّن هنا مبلغ جهلهم بقدر الله وعظم شأنه، إذ لو أنهم عرفوا الله حق معرفته لما قاموا بتلك المحاولة، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

هذه الجملة -وإن كانت معطوفة على ما سبق من الآيات التي تبيّن قدرة الله وعظمته في قوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾- فإنها أيضا تصلح أن تكون مقدّمة لمشاهد يوم القيامة التي تختم بها السورة الكريمة.

وبعد أن بيّن الله خسران الذين كفروا بوحدانية الله ووصفهم بالجهل ذكر هنا بأنهم ما قدروا الله حقّ قدره، فهم -وإن كانوا يعترفون بوجود الله ويقرون له

بالخالقية والرازقية- فإنّ الباعث على إشراكهم به هو نقص إدراكهم لمدى عظمة الله وقدرته، اغترارا بحظوظهم الدنيوية -كما تقدم-؛ لأن المعرفة الظاهرية للشيء لا تعمق النظرة التقييمية له، وفي هذا المجال يتفاوت إدراك الناس لقيمة الأشياء البسيطة، فما بال إدراكهم لعظمة الخالق، وهم أسراء الواقع المشاهد وحبيسو الشهوات المادية المحدودة.

فقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾، فقد جاء التعبير التمثيلي لقوة الله وهيمنته وبسطة سلطانه على ما في الكون كلّه، علويّه وسفليّه، جاء التعبير بالقبضة واليمين، وهي الجارحة المعروفة للإنسان والتي يعمل ويبطش بها، فالقبضة تصوير للتمكّن والقهر، كما أنّ اليمين كناية على الملك والاستحواذ، فلله الملك والقهر والغلبة في الأرض بكلّ ما عليها ومن عليها وفي السماوات بجميع أطباقها وبكلّ من وما عليها. له ذلك في الدنيا والآخرة.

والقيد بيوم القيامة لا يعني -حاشاه- أن ذلك غير متحقّق له في الدنيا، وإنما جاء التعبير وفق فساد التصوّر عند الناس الذين يظنّون أنّهم المالكون في الدنيا والقادرون عليها. عندما يقول أحدهم: هذا عبدي، وهذه داري أو حماري، وعندما يطاول ملوك الدنيا فيقولون: رعيتي أو شعبي...إلخ.

فقد أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه. ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»**.[1]

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٨٨) التفسير، باب (٢٩٥) تفسير سورة الزمر، رقم: ٤٥٣٤: ٤/١٨١٢.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: وهذا التنزيه للذات العلية عن كل أنواع الإشراك هو تأكيد جملة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

فاللهم اجعلنا ممن آمن بك فهديته، وتوكل عليك فكفيته، وسألك فأعطيته، وتضرع إليك فكفيته، اللهم اجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين، والله أعلم.

النفخ في الصور ليوم الفصل، ومصير المكلفين.

أ) - النص:

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ﴾: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: هو ميقات قيام الساعة، والصور في الأصل اللغوي: بوق ينادى به البعيد للتفرق. والمراد به هنا نداء الخلق لحضور الحشر. ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾: أي بموت الأحياء من شدة الفزع، والمقصود بالاستثناء: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ﴾ الملائكة والأرواح. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾: فالنفخة الأولى للصعق، والنفخة الثانية للبعث. ﴿فَإِذَا﴾: للمفاجأة، وهي تدلّ على سرعة الحصول. وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ للدلالة على عودة الحياة إليهم كاملة. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾: ﴿الْكِتَابُ﴾: "ال" للجنس، والمراد به صحائف أعمال العباد، ومجاء بالأنبياء ليشهدوا على أممهم، و﴿الشُّهَدَاءِ﴾: جمع شهيد، أي الشاهد على الأعمال، وهم الملائكة الحفظة. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾: التوفية: إعطاء الشيء وافيا بدون نقص، أي تحصل كل نفس على جزاء ما قدمت إن خيرا أو شرا. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾: ﴿سِيقَ﴾: من السَّوْق، وهو السير بعنف وإزعاج بقصد الإهانة والتحقير. ﴿زُمَرًا﴾: جمع زمرة، أي أفواج متتابعة من الناس، ويصنفون بحسب مراتبهم في الضلالة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾: ﴿فُتِحَتْ﴾: جواب ﴿إِذَا﴾ المتضمن للشرط، أي وقع فتح الأبواب في وقت مجيئهم، وكانت قبل مغلقة. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾: الخزنة: جمع خازن، وهو الوكيل المكلف بالمال، والمقصود هم زبانية العذاب. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾: الاستفهام للتقريع والتوبيخ. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: ﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾: هي وعيد الله على ألسنة الرسل، أي تحقق علينا حكم الله بالعذاب. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: المثوى:

مكان الثواء أي الإقامة، ﴿فَبِئْسَ﴾: للذم، والمخصوص بالذم محذوف مقدّر، أي: بئس جهنم مثوى المتكبرين. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾: ذكر السوق للمتقين على سبيل المشاكلة اللفظية؛ لأنه تعالى قال في شأنهم بسورة مريم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (٨٥-٨٦). وقوله تعالى في شأن أبواب الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، فالواو هنا للحال، والمعنى أنهم جاؤوها وقد فتحت أبوابها كما يستقبل أهل العز والكرامة. ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾: الإيراث: استعارة، تشبيها للإعطاء بالتوريث، أي من غير عناء اكتساب. و﴿الْأَرْضَ﴾: مستعار للجنة، بدليل قولهم: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ﴾، والتبوّؤ: هو النزول في المكان، ويقال لمكان النزول: المباءة. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: ﴿نِعْمَ﴾: فعل للمدح، والمخصوص بالمدح مقدّر أي الجنة. ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾: حفّ: يحفّ بالشيء: يحدق ويحيط به. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: الجملة في موقع النصب بالحال، أي قضى الله بين خلائقه بالعدل لينال كلّ جزاءه. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: القائلون الملائكة والرسل وأهل الجنة، يحمدون الله على عدل قضائه.

ج- أوجه القراءة:

﴿بِالنَّبِيِّينَ﴾: قرأ الجمهور بياء مشدّدة بعد الباء، جمع: النبيّ، وقرأه نافع بهمزة مدّ بعد الباء جمع: النبيء. ﴿فُتِّحَتْ﴾: قرأ الجمهور بتشديد التاء للمبالغة في الفتح، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف التاء على أصل الفعل. ﴿فَبِئْسَ﴾: قرأه الجمهور بإسكان الهمزة، وقرأه السوسي وأبو جعفر بإبدال الهمزة ياء في الوقف والوصل.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيان عظمة الله من خلال ملكه في السماوات والأرض وهيمنته عليها في يوم لا ينازعه فيه أحد في تلك الملكية، وكيف جاء التعبير التصويري بالقبضة وباليمين في الآية السابقة كتمهيد بديع لذكر مشهد رهيب من مشاهد القيامة يبدأ بالنفخة الأولى للصعق وينتهي بفصل القضاء وسوق الذين كفروا إلى النار، وسوق الذين آمنوا إلى دار النعيم وهم يتوجهون إلى الله بالتسبيح والتحميد متحاورين مع الوجود كله، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

لا شكّ أنّ الحياة الأخرى في كلّ مراحلها هي من الأمور الغيبية التي نؤمن بها إيمانا جازما يقينيا، كما تفصح عنها النصوص القطعية في القرآن الكريم، وفي العوالم الغيبية أشياء وحركات ومشاهد لا تملك -نحن البشر- إدراكها بحقائقها كما هي في علم الله، ولا يمكن الإخبار عنها إلا من خلال تعابير تقهمها، وفي صور تقرب المعنى إليها، لأن الحياة الأخرى هي نشأة أخرى كما قال الله عنها، وأننا لا نعلمها. قال تعالى:

- ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦٠-٦١).

- وقال: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ، مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾ (النجم: ٤٥-٤٧).

والنفخ في الصور، النفخة الأولى هو للإعلان عن قيام الساعة الكبرى، يوم تموت الخلائق كلها في الأرض وفي السماوات، ومع الموت همود وسكون،

وقد اعتاد الناس في دنياهم سماع ذلك الصوت المدوّي عند الفزع لخطر داهم، أو لتجميع حاشد، أما عن حقيقة ذلك الصور في شكله أو كيفية أداء مهمته بل حتى عن النافخ فيه من هو فليس هناك ما يعتمد عليه من بيان نبويّ، وكذا المستنون من الصعق لا يدرى من هم، وقبل هم عِلية الملائكة: جبريل، ومكائيل، وإسرافيل.

وعطف الله النفخة الثانية للبعث بـ"ثم" الدالّة على التراخي الزمني، والله أعلم بمدته. غير أن اختيار "إذا" الفجائية في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، والضمير: ﴿هُمْ﴾ عائد إلى من في السماوات ومن في الأرض فيه دلالة على سرعة القيام من القبور، وهم كاملو الخلقة، وفي كامل الوعي. وقد عبّر القرآن عن النفخة بالصيحة فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ (ق:٤٢)، كما عبّر عنها بالناقور فقال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ، فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (المدثر: ٨-١٠).

ثم تحوّل المشهد إلى موقف الحشر في الحكمة الإلهية لفصل القضاء فقال: **﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾**.

طوى النصّ مشهد تجميع الخلائق لموقف الحشر واختلاف أحوال الخلائق أمام تلك الأهوال، وكيف تمّ الشفاعة الكبرى لرسول الله فتنطلق عملية الحساب، ولكن المشهد هنا يبدأ في جلال وخشوع بذكر بعض الأحوال.

١- ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾: أشرقت الأرض، أي أرض المحشر، يصفها الله تعالى بأن لا عوج فيها ولا أمتا، ويصفها بالساهرة، أي النفية الصافية.

﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾: الإضافة تشريفية، أي تستنير أرض المحشر بنور الحق والعدل الذي نوّر الله، وهو النور الذي وصفه الله للذاته العلية في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور:٣٥)، فليس ثمة ظلمة من ظلم ولا باطل، كما قال تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ (غافر:١٧).

ب)- ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾: "ال" في الكتاب للجنس، أي تحضر كتب وصحائف أعمال العباد وتوضع بين يدي أصحابها وهم يتناولونها باليمين أو بالشمال ومن وراء الظهر كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (الإسراء: ١٣).

ج)- ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾: أي يحضر الأنبياء إلى الموقف ليشهدوا على أممهم بما بلغوه لها لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٤١).

أما الشهداء، فمجموع شهيد، وهو الشاهد على غيره، وهم الملائكة الحفظة الموكلون بالعباد لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾(ق:٢١)، وكذا المسلمون الذين يشهدون على الأمم الأخرى لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وكذلك جاء بالذين استشهدوا في سبيل الله لما لهم من المنزلة عند الله.

د)- ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الأرجح أن يتناول الضمير: ﴿بَيْنَهُم﴾ كلّ الخلائق ممن في السماوات والأرض، يقضي الله بينهم بالحق، واختيار صيغة الماضي: ﴿جِيءَ﴾، ﴿قُضِيَ﴾ لتحقق الوقوع، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ (الأنبياء:٤٧).

هـ)- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: هذه الآية هي بمعنى قوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧). والتذييل بقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، أي إنه تعالى مطّلع على أفعال عباده في حياتهم الدنيا وهم على محك الاختبار، وليس هو في حاجة إلى تسجيل تلك الأعمال ولا إلى الشهادة عليها، وإنما كان ذلك لإقامة الحجة على خلقه وقطع أعذارهم، ففضاؤه وحكمه عليهم أو لهم يتمّ بكامل علمه تعالى.

وبعد فصل القضاء الإلهي العادل يتمّ جزاء كل فريق بما يستحقه من الثواب أو العقاب قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿سِيقَ﴾: من السَّوْق، الحثّ على السير من خلف بعنف وشدة، و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم الذين ماتوا على الكفر، فهم يبعثون كذلك ليوم الحساب وبعد أن يفصل القضاء الإلهي بحكمه العادل في شأنهم يسوقهم زبانية العقاب وعلى رأسهم خازن النار "مالك"، يساقون إلى أبواب جهنم وكانت مغلقة الأبواب، وهم كانوا يسمعون زفيرها قبل أن يقفوا على أبوابها، حتى إذا وصلوها تفتحت تلك الأبواب على فيح جهنم. وعندها يخزيهم الملائكة بسؤال توبيخي يزيدهم مهانة وإذلالا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾. والسؤال لمزيد إقامة الحجة عليهم والإقرار على أنفسهم بالتقصير والتكذيب، إذ كان جوابهم: ﴿بَلَىٰ﴾، لإثبات إدانتهم، وبأنّ كلمة العذاب قد

حقت عليهم لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة:١٣).

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: وقد عبّر القرآن عن جماعات الكفار بالزمر في هذه الآية كما عبّر عنها بالأمة في سورة الأعراف في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (الأعراف:٣٨). وعبّر عنها بالفوج في سورة الملك وص: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الملك: ٨-٩). وبعد إقرارهم بأمرهم الربانية بدخول جهنم توصد عليهم أبوابها فلا مناص لهم منها ولا خروج: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ (الهمزة: ٨-٩). ويزيدهم عذابا أنهم خالدون فيها أبدا، فبئس القرار جزاء للمتكبرين على الله وعلى رسله.

وفي مقابل ذلك دار النعيم للمتقين الأبرار، كيف يحاطون بالتكريم والتسليم من الملائكة الأطهار: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

أطلق فعل السّوق هنا على المتقين على سبيل المشاكلة اللفظية التي هي من محسنات البديع، وإلاّ فهم مبجّلون يستقبلون جماعات متمايز بعضها على بعض وفق مراتبهم عند الله من الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وقد فتحت أبواب الجنة قبل أن يصلوا إليها، كما يحتفى بأصحاب المعالي في الدنيا -ولله المثل الأعلى-، فخزنة الجنّة هم ملائكة الرحمن الأطهار يسلّمون عليهم من كلّ باب ويشهدون بالطيبة: ﴿طِبْتُمْ﴾، ثم يرقّون إلى دار النعيم كما ترف العروس

إلى زوجها فلا يتمالكون من رفع أصواتهم بالحمد والثناء لله تعالى شكرا له على ما أنعم به عليهم تصديقا لوعده لهم بذلك، إذ آمنوا برسله وشهدوا بوحدانيته، وها هم يرثون أرض الجنة إرثا خالصا لا ينازعهم فيه أحد فهم يتصرفون فيه تصرّف الوارث الشرعي.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: إقرار منهم بالجزاء العادل من ربهم.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: الضمير في: ﴿تَرَى﴾ إمّا لرسول الله خاصّة تشريفا له بدنوّه من العرش، أو هي لكلّ مؤمن سعيد كان ثوابه الجنة. و﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾: أي محيطين به محدقين، وذلك -والله أعلم- هو مثوى ثوابهم، وأنّ التحميد والتسبيح لله تعالى هو مجلى ذلك الثواب؛ لأن ذلك مغروس في أصل خلقتهم إذ قالوا لربّ العزة في بدء الخليقة لآدم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(البقرة: ٣٠).

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾: الجملة حالية من سابقتها، والأرجح أن المقصود من: ﴿بَيْنَهُم﴾ البشر أجمعون، أي بعد أن ينال كلّ فريق جزاءه من الجنة أو النار، وقد أتمّ الله القائل في آية الختام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ للدلالة على أن الوجود كلّه بكلّ ما فيه ومن فيه يلهج بالحمد والثناء لله ربّ العالمين؛ لأنّ ذلك إقرار من كلّ الوجود للذات العلية بالصفات الإلهية. ولذلك سنّ أن تكون خاتمة كل حديث أو عمل ذي بال: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كما أنبت الله ذلك لأهل الجنة في قولهم: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ١٠). والله أعلم.

تمّت

سورة غافر، مكية، وآياتها ٨٥

بين يدي السورة الكريمة:

سميت السورة الكريمة بـ "غافر" من صفات الله الحسنى التي افتتحت بها السورة لقوله تعالى: ﴿حم، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، وتسمى أيضا في كتب السنة بسورة "المؤمن" لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون، وقد يقال: "حم المؤمن"، وهي أول السور السبع المبدوءة بحرفي "حم"، تجمع على "الحواميم"، قال ابن مسعود: "آل حم القرآن". وهي كالزمر حافلة بدلائل التوحيد مؤثرة في المشاعر الإنسانية، وفي صلتها بسورة الزمر أكثر من مناسبة، يقول عنها الشيخ المراغي:

١)- أنه ذكر في سابقتها ما يؤول إليه حال الكافر وحال المؤمن، وذكر هنا أنه غافر الذنب ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عن الكفر.

٢)- إنه ذكر في كل منهما أحوال يوم القيامة، وأحوال الكفار فيه، وهم في الحشر وهم في النار.[1]

وينقل الدكتور الرحيلي عن الإمام السيوطي قوله عن ابن عباس مما رواه عنه جابر بن زيد في ترتيب السور: أن الحواميم نزلت عقب الزمر، وإنما نزلت متتالية كترتيبها في المصحف: المؤمن، ثم السجدة، ثم الشورى، ثم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف. ولم يتخللها نزول غيرها، وذلك مناسبة لوضعها

١- تفسير المراغي: ٨/٤١.

مكيّة.[1]

وسورة غافر مكيّة اتفاقاً، وعدد آياتها خمس وثمانون آية، إلاّ ما ثبته بعض الروايات الضعيفة والشاذة، وهي السبع في ترتيب نزول السور نزلت ما بين سورة الزمر وفصّلت، أمّا في ترتيب سور المصحف الشريف فهي الأربعون.

وفي فضلها ذكرت روايات عن رسول الله ﷺ، نعتزي برواية البزار عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ آية الكرسيّ، وأول حم المؤمن، عصم ذلك اليوم من كلّ سوء»**.[2]

- التنويه بشأن القرآن الكريم في مفتتحها بأنّه تنزيل من الله المتّصف بصفات الكمال، مازجت بين الترهيب والترغيب، كما تخللتها آيات تدلّ على وحدانية الله وعظمته، شأنها في ذلك شأن السّور المكية في التركيز على إثبات أسس العقيدة الإسلامية.

- التنويه بالمشركين في جدالهم وتكذيبهم بالقرآن عنادا وحسدا، حيث تكرّر التنويه بذلك الجدال خمس مرات في السورة.

- وصف مهام ملائكة العرش، وأنهم يستغفرون للذين آمنوا ويطلبون لهم من الله الرحمة والهداية.

- وفي الاعتبار بإهلاك الأمم الغابرة الظالمة تعرّضت بصفة مجملة في مفتتحها إلى قوم نوح ومن جاء بعدهم، ثمّ فصّلت القول في قصّة موسى مع فرعون وهامان وقارون، وما دار بينهم من جدال مع إدراج موعظة مؤمن آل فرعون بأسلوب مؤثر فيه نموذج رائع لأخلاقيات الدعوة إلى الله.

١- التفسير المنير: ٢٤/٦٨.

٢- رواه البزار في مسنده من حديث أبي هريرة، رقم ٨٥٧٣: ١٥/١٩٠.

- التذكير بنعم الله على الناس وحثهم لشكرهم لتلك النعم.

- تثبيت الرسول ودعوته إلى الصبر ووعده بالنصر لهذا الدين، إن في حياته أو بعد مماته.

- ختمت السورة بوجوب الاعتبار بمصارع الظالمين وأن الإيمان حين نزول العذاب لا ينفع كما جرت بذلك سنة الله في خلقه.

التنويه بشأن القرآن، وبيان حال المجادلين في آيات الله.

أ) - النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ
مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ
﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ
وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿حم، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾: وردت في إعرابه عدة أوجه، ولعلّ أقربها إلى الصواب - كما أورده الإمام الرازي - أن يكون: ﴿حم﴾ اسم السورة، فهو مبتدأ، وقوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبره. ويجوز أن يكون ﴿تَنزِيلُ﴾ مرفوعا بالابتداء، والخبر: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾: إما نعوت أو بدل، ويجوز النصب على الحال،

و﴿غَافِرِ﴾: بمعنى ساتر لذلك الذنب فلا يؤاخذ عليه، ﴿قَابِلِ التَّوْبِ﴾: أي يقبل التوبة من الذنب، والتوبة الرجوع عن المعصية إلى الطاعة. ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: أي صاحب الفضل على عباده وبأني الطول بمعنى القدرة. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: لا ربّ غيره في الوجود إليه مرجع الخلائق كلها حاسبتهم ومجازاتهم. ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾: المجادلة: المخاصمة الكلامية، وآيات الله هي القرآن، أي يخاصم الذين كفروا بالطعن في القرآن وإظهار الباطل عليه، فلا تغترّ أيها الرسول بإمهال الله لهم، وتقلّبهم آمنين في تجارتهم. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: الأحزاب: جمع حزب، الجماعة من الناس الذين اتحدت توجهاتهم، ويراد بهم من جاء من بعد نوح كعاد وثمود وغيرهم. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ﴾: أي دبرت كل أمّة ما تقضي به على رسولها. ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾: أي خاصموا بالباطل ليحاربوا به الحق، ولكن الله أخذهم بالهلاك والعذاب. ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي ثبت حكم الله وقضاؤه بالعذاب للذين كفروا، ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: بدل من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿عِقَابِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف، وقرأ يعقوب: ﴿عِقَابِي﴾ بإثباتها في الوقف والوصل. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد.

د)- البيان والتفسير:

سورة غافر أو المؤمن هي أوّل السّور السّبع المبدوءة بحرفي "حم"، وهي تجمع على "حواميم"، وهي تفتتح كالزّمر بالتنويه بشأن القرآن المنزل من عند الله

الذي وصف ذاته العليّة بستّ صفات تشيد بعزّته وعلمه، وتجمع بين الترغيب والترهيب، ثم تندّد على الكافرين لمجادلتهم في آيات الله بالباطل، وتهدّدهم بعذاب النار فقال جلّ من قائل: ﴿حم، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

﴿حم﴾: يقال في حرف: ﴿حم﴾ ما قيل في الحروف المقطّعة في أوائل السور الأخرى في التنبيه على إعجاز القرآن وسحر بيانه، وتحدّي المشركين أن يأتوا بمثله، مع أنّ نظمه كان من حروف اللّغة العربية التي ينطقون بها، وإذ عجزوا عن الإتيان بمثله فذلك دليل على أنّه منزل من عند الله، ولم يفترِه الرسول من عنده، وتنزيله من لدن العزيز العليم، فالتنزيل يكون من الأعلى إلى من هو دونه، ومن دلائل علوّ شأنه أنّه تعالى القويّ الغالب الذي لا يقهر والعليم الذي يعلم الذرة وما هو أصغر.

ثم وصف الله ذاته العلية بصفات ستّ جمعت بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب تمهيدا للتنديد على الكافرين لمجادلتهم في آيات الله بالباطل، فبدأ بصفتي الترغيب، فقال: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، تمشيا مع أخلاقيات الدعوة في بعث الأمل لنفوس القانطين ليُقبلوا على الله الذي يغفر الذنوب جميعا بعد التوبة والإنابة إلى الله لكلّ من استعدّ لتدارك أمره، ومن فضله تعالى أن جمع هنا بين المغفرة للذنب وقبول التوبة من الذنب حتى يكون كمن لا ذنب له، وحتى يبقى العبد المؤمن بين الخوف والرجاء أردف صفتي الترهيب والوعيد فقال: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾، والعقاب الجزاء على الذنب، ويكون شديدا تبعا لحجم المعصية، غير أنه تعالى قد يرأف بعبده فيخفّفه، ولذلك زاد فقال: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾، أي صاحب إنعام وتفضّل على عبده، ويطلق الطّول على القدرة، والمراوحة بين الوصفين هو للتحذير من عقاب الآخرة، ومن عذاب الدنيا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي هو المعبود الحق المتفرّد بالألوهية وإليه المصير، فيه تقديم للجار والمجرور للاهتمام بقضية البعث والجزاء، والمصير هو المرجع والمنتهى لأمر الخلائق كلها.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾: المجادلة هي المحاورة الكلامية على فكرة ما لإثباتها أو نفيها. وقد تكون لتقرير الحق وبيان نصاعته لنشره وتركيزه كما يفعل الأنبياء وللمصلحين في دعواتهم، وذلك مطلوب ومشروع، وقد يكون الجدال في نصرة الباطل والتشويش على الحق، لمحاولة طمسه، وهو ما يقوم به المشركون وأصحاب الأهواء في كل زمان ومكان، وهو المقصود هنا.

والمقصود بآيات الله هو القرآن الكريم إذ جحدوا صدقه ووصفوه بكل نقيصة، تارة بالسحر، وتارة بأنه من قول البشر، ولا شك أن كل مُمَارٍ في القرآن كافر لقوله ﷺ: «لا تماروا في القرآن، فإن المراء فيه كفر»[1] ولقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ (البقرة:١٧٦).

وبما أنّ أهل الكفر كثيرا ما يتطاولون بأموالهم وحظوظهم على المؤمنين المستضعفين، كما كان الوضع في مكة، فقد فرّع الله على مضمون الآية السابقة قوله للرسول ولكلّ متمعّن في أحوال البشر: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، والغرور: هو ظن الحسن في شيء وهو بضدّه، والتقلب في البلاد: يراد به تصرف الكفار في أحوال تجارهم وما هم عليه من رفاهية ونعيم، فإنه تعالى يملي لهم ويمهلهم بمقتضى سننه في خلقه، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

---

١ ـ رواه ابن أبي شيبة في المصنف بنحوه من حديث سعد مولى عمرو بن العاص، كتاب (٢٤) فضائل القرآن، باب (٤١) من نهى عن التماري في القرآن، رقم ٣٠٠٧٩: ١٠/٥٢٨.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٩٦-١٩٧).

ثم ذكر الله ما جرى للأقوام السابقين على ما كانوا عليه من قوة وبطش وذلك بعد أن جنوا في الجدال والعناد، وآذوا رسلهم فأخذهم الله بذنوبهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

الضمير في: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ يرجع إلى المتحدث عنهم في الآية السابقة، أي الذين كفروا، لأنّ الجدال بالباطل يكون بدافع التكذيب لقضية ما، فقد عيّن من أولئك المكذبين السابقين قوم نوح، لأنّ نوحا الطفة أوّل رسول نهى عن عبادة الأوثان ثم أشار إلى من جاء بعدهم بكلمة "الأحزاب" لتحزّبهم ضدّ رسلهم، وهم قوم هود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم، وكلّهم تربّص برسوله وهمّ بقتله طغيانا وكفرا، وكلّهم جادل بالباطل لدحض الحق الذي جاء به الرسل من وحدانية الله والإيمان باليوم الآخر.

وقد فصّل الله تلك المحاولات الباطلة في كلّ قصة، وكان من نتيجة ذلك أن أخذهم الله بالهلاك الشديد وهو المعبّر عنه في الآية بالأخذ، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (القمر: ٤٢-٤٣).

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾: أي فانظر أيها المتدبّر للقرآن، كيف كان مصيرهم، والاستفهام للتعجيب، أي هو عذاب لا يعلم كنهه إلا الله، وإن كانت آثاره بادية للناظرين.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ

النار﴾: المشار إليه: ﴿وكذلك﴾ هو الأخذ في قوله: ﴿فأخذتهم﴾، أي مثل ذلك الأخذ الشديد حقّت كلمات ربك على الذين كفروا من قومك ومن على شاكلتهم في كل زمان ومكان، تحقيقا لما أخبرهم به من الوعيد عن طريق الوحي، لأنهم أصحاب النار، والله أعلم.

التنويه بشأن المؤمنين باستغفار أشرف الملائكة لهم.

أ) - النص:

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم﴾: ﴿الذين﴾: استئناف ابتدائي، للثناء على المؤمنين بعد ذكر وعيد الكفار، ﴿الذين﴾: مبتدأ، ومن حوله معطوف عليه، خبره: ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾. وحملة العرش: هم أشرف الملائكة وأكرمهم عند الله، والعرش: خلق وصفه الله بالعظمة في قوله: ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ (التوبة:١٢٩). الله أعلم بحقيقته. ﴿ومن حوله﴾: هم الملائكة الحافين به، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ (الزمر: ٧٥). ﴿ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا﴾: فالملائكة

مؤمنون فهم يطلبون من الله المغفرة للذين آمنوا من الإنس والجن، مما يدلّ على المشاركة الإنسانية، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾: أي وسعت رحمتك ووسع علمك كل شيء، واستعمال التمييز أبلغ. ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾: ﴿قِهِمْ﴾: دعاء للوقاية أي الحفظ، وليس المقصود بالسيئات هنا الذنوب، إذ تقدم طلب المغفرة عنها، والمقصود هنا هو كل ما يسوء المؤمن يوم القيامة من ضيق القبر وأهوال البعث والحشر، على معنى قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (النمل:٨٩).

ج)- البيان والتفسير:

لقد أبدع الإمام الرازي في تمهيده لهذا النصّ حين قال في تفسيره الكبير: "اعلم أنه تعالى لما بيّن أنّ الكفار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين بيّن أنّ أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش والحافّون حول العرش، يبالغون في إظهار المحبّة والنصرة للمؤمنين كأنه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الأراذل يبالغون في العداوة فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم ولا تهتم لهم ولقاء، فإن حملة العرش معك، والحافّون من حول العرش معك ينصرونك".[1]

قلت: وهذا على معنى قول ربيعة العدوية لرجل:

إذا صحّ منك الودّ فالكلّ هيّن وكلّ الذي فوق التراب تراب

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ

١- التفسير الكبير: ٢٧/٣١.

﴿لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

لقد اقتضى ذمّ الذين يجادلون في آيات الله من الذين كفروا أن يقابل هنا بالثناء على المؤمنين، وبا للون الشاسع بين أتباع الكفر والباطل وبين أولياء الله من المؤمنين الأوفياء، فإذا كان الفريق الأول المثال لضيق الواقع الأرضي بكل ما فيه من شرّ وضلال وافتتان بمتاعه القليل الزائل، فإنّ الفريق الإيمانيّ المشرّف عند الله هم امتداد وذكر وتشريف عند الملإ الأعلى في أعظم مقاماته من العرش العظيم.

ولا شكّ أنّ حملة العرش هم في القمّة العليا من خلق السماء، وهم من عند الله المخلصين المقرّبين، فنحن وإن كنّا لا نعرف حقيقة العرش ولا كيف يحمله الثمانية المختارون من الله، ولا كيف يكون الذين هم حوله، لأنّ ذلك كلّه من الغيب الذي تكل فيه الأمر إلى الله، ولكنّا لا نختار في إدراك تلك الحقيقة التي يقرّرها هذا النصّ الكريم. حقيقة التكريم والتشريف التي تجعل للمؤمنين بالله على صلة وثيقة بين الأرض والسماء، فالكلّ يشترك في التسبيح والتحميد لله، والكلّ يؤمن به حقّ الإيمان بصفة دائمة ومستمرة.

ووصف الملائكة بأنهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هو للتنويه بشأن الإيمان بأنه سمة المخلوقات المشرّفة عند الله والذي تقتضيه الفطرة السليمة، وللقطب -رحمه الله- ملحظ دقيق في ذلك إذ جاء في تيسيره: "واعتقاد أهل الحقّ أنّ الله موجود ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا يحويه مكان ولا زمان ولا العرش ولا الكرسيّ، ولا تراه الملائكة الحاملون العرش ولا غيرهم، ألا ترى أنهم موصوفون بالإيمان والإيمان إنما هو في غير ما يشاهد، وإذا كان فيما يشاهد فلا مزيّة في شأنه، كالرسالة للنبي المشاهد ﷺ".[1]

١- تيسير التفسير: ٣٢٤/١٢.

والمهمة الثالثة لحملة العرش ومن حوله هي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فطلب المغفرة من الله للمؤمنين مع ذكر صيغة ذلك الاستغفار هو لمزيد التشريف والتثبيت لكلّ من هو موصوف بالإيمان سواء منهم المعهودون في عهد رسول الله أو من يأتي بعدهم كما يشمل الإنس والجن. وجاء الخبر مطلقاً في سورة الشورى بقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ (*)، فمن المفسّرين من يرى حمل المطلق من سورة الشورى على المقيّد في سورة غافر، فيقصر استغفار الملائكة على الذين آمنوا تشريفاً لهم، ومنهم من يرى لكلّ خبر مناسبته في النصّ الذي ورد فيه فيرى أن الاستغفار للكافر يكون بمعنى طلب الرزق وجلب المنافع ودفع المضارّ.

ثم بيّن الله صيغة ذلك الدعاء الملائكي للمؤمنين فقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، والجملة في موضع النصب بالمفعولية لفعل محذوف تقديره: يقولون. بدأ الملائكة دعاءهم بحسن التوجّه إلى الله ووصفه بسعة الرحمة والعلم وهما الصفتان المناسبتان للذّات العليّة في هذا المقام فيهما إيماء إلى صدق إيمان المستغفر لهم وفق ما هو ثابت في علم الله، والتعبير بـ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ يشمل كلّ موجود في ملكوت الله. وما أروع هذا الأدب الدّعائي مع الله تعالى، لما فيه من مناجاة الله وتعظيم شأنه.

ثمّ يتفرع عن ذلك ما هو المتوسّل إليه بقولهم: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، فقد طلبوا المغفرة من الله للتائبين الثابتين على نهج الله، وتحقّق التوبة بالإقلاع عن المعاصي، وتكون خصوصاً باتباع سبيل الله بالإتيان بما أمرهم به واجتناب ما نهاهم عنه وبذلك يكونون قد اتخذوا أسباب الوقاية من عذاب الجحيم، وبعد تحقيق تلك التّحلية من مسببات

الشقاء، وأعظمها الشرك بالله، يرتقي الملائكة في دعائهم للمؤمنين بطلب الجنة لهم إنجازا لوعده الصادق، وإلحاق الصلحاء من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

يعتبر مجرد الدخول إلى الجنة دار الإقامة والاستقرار، يعتبر ذلك فوزا عظيما لقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران:١٨٥).

والجنة درجات متفاوتة في السعادة والنعيم وأعلى الدرجات فيها هي الفردوس الأعلى للمقربين من عباد الله، ولا شك أن التحاق الصالحين من الأهل بذويهم هناك يعتبر من أعظم الجزاء وأكبر فوز يناله المتقون الأبرار، ولا ينال هذه المنزلة إلا الصالحون من الأهل، بل لا يعتبر من أهل المؤمن إلا الصالح من أولاده، كما قال تعالى لسيدنا نوح عليه السلام في ولده المشرك الغالي: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود:٤٦).

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: تذييل مناسب في وصف الله بالعزة والحكمة من طرف الملائكة استدرارا لرحمة الله ورغبة في إجابة الدعاء.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: هو دعاء مكمل لسلامة المؤمنين من كل ما يسوءهم يوم القيامة إن في القبر أو في موقف البعث والحشر، لأن "ال" في: ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ للجنس، فهي تشمل كل ما يسوء من أهوال يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الإنسان:١١).

وأي فوز هو أعظم من ذلك الفوز؟. جعلنا الله من الفائزين المقربين، والله أعلم.

توبيخ الكفار، واعترافهم بذنوبهم، والتذكير بقدرة الله.

أ)- النص:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: ينادي بهم ملائكة العذاب. و﴿لَمَقْتُ﴾: أشدّ البغض، واللام للابتداء وهو مبتدأ. ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: خبر. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾: ﴿إِذْ﴾: ظرف زمان عامله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾. أو ﴿مَّقْتِكُمْ﴾. والتقدير: لمقت الله إياكم في الدنيا حين دعيتم إلى الإيمان فكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم. ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾: الإماتة الأولى: هي حالة الجنين في بطن أمه قبل

أن ينفخ فيه الروح بعد مائة وعشرين يوماً، والإماتة الثانية هي الموت عند انقضاء أجل كل شخص، والإحياء الأول هو الخروج إلى الدنيا من بطن الأم، والإحياء الثاني هو إحياء البعث. ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾: الاستفهام للتمني. ﴿مِن﴾: زائدة للتوكيد، يطلبون أيّ خروج كان وبأيّ وسيلة كانت. ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾: ﴿ذَٰلِكُم﴾: الإشارة إلى العذاب الذي هم فيه، وهو في موضع رفع بالابتداء، والتقدير: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه هو بسبب أنكم إذا دعيتم للإيمان بالله كفرتم. ﴿فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: مفرع عن قوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾. ﴿مُخْلِصِينَ﴾: منصوب على الحال، ﴿ٱلدِّينَ﴾: منصوب على المفعولية. ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ﴾: أي الوحي يختار له من يشاء من عباده. ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: أي يخوّف الرسول الملقى إليه الوحي، يخوّف الناس يوم المحشر حين تتلاقى الخلائق كلها ليوم الحساب. ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾: ﴿هُم﴾: مبتدأ و﴿بَٰرِزُونَ﴾ خبره أي ظاهرون؛ لأنهم يكونون على أرض مستوية لا يخفى فيها أحد. ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾: ينادي مناد: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾: السؤال تقريري، أي ليشهد الطغاة الجاحدون على ما كانوا عليه من افتتان وغرور بمتاع الدنيا، إذ يسمعون الجواب بحصر الملك لله. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾: أي تتم محاسبة الخلائق بالعدل الكامل. وتكرار لفظ: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ثلاث مرات معرفا بـ"أل" هو للاهتمام والتركيز على الإيمان به.

ج) - أوجه القراءة:

﴿وَيُنَزِّلُ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتضعيف، من فعل: نزّل، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿وَيُنْزِلُ﴾: بالفعل المهموز، والقراءتان متكافئتان. ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: كتب ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ في المصحف بدون ياء، قرأ نافع وأبو عمرو في

رواية عنه بكسره بدون ياء. وقرأ الباقون بالياء؛ لأنه وقع في الوصل لا في الوقف، فلا موجب لطرح الياء إلا معاملة الوصل معاملة الوقف.

د)- البيان والتفسير:

في مقابلة تكريم الملائكة حملة العرش للمؤمنين وتبشيرهم بنعيم الجنة بأبي التوبيخ والتقريع للمشركين بما يناديهم به ملائكة العذاب فيعترفون بذنوبهم ويتمنون الرجوع إلى الدنيا، ولكن هيهات، إذ يواجهون بما يوجب لهم ذلك العذاب الشديد، ثم بيّن الله تعالى ما يدلّ على كمال قدرته بإظهار آياته، وأن من تمام رحمته أن ينزل الوحي على من يختار من رسله لإنذار خلقه بما ينتظرهم من الجزاء بعد يوم الحساب، يوم يتمحّض فيه الملك لله الواحد القهّار فقال جلّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

بعد استحقاق الذين كفروا العذاب جهنم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، بيّن الله بعض الأحوال الأليمة من العذاب النفسي، كيف يمقتون أنفسهم مما تعرض إليه من العذاب، فيناديهم الزبانية تبليغا عن الله بأنّ غضبه عليهم حينما يدعوهم رسل الله إلى الإيمان فيكفرون هو أشدّ وأعظم من مقتهم لأنفسهم، إذ أنهم تسببوا لأنفسهم ذلك المقت بحرمانها من الإيمان وتدسيسها بالكفر، فقد أثبت الله بغضه الشديد للذين كفروا على لسان ملائكته. مما يستلزم إثبات ضدّه للذين آمنوا من حبّه تعالى لهم بما يتحقّق لهم من مغفرة لله ورحمته، وهما مظهر حبّه تعالى لقوله في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (٣١).

ثم تأتي الإجابة عن النداء الذي نودوا به بقولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

نادوا الله بصفة الربوبية تذللا واستعطافا واعترافا في موقف العذاب بربوبيته تعالى، وبصيغة الماضي ذكروا ما تعرضوا إليه من موتتين وحياتين، وقد ضمّنوا في اعترافهم بحياتين اعترافهم بالبعث الذي كانوا ينكرونه في حياتهم الدنيا، والمقصود بالموت موتتين -في ما ذهب إليه أغلب المفسرين- أن يكون الموت الأول باعتبار خلقة آدم الأولى، خلقه الله من تراب ثم سواه ونفخ فيه من روحه، أو باعتبار نفخ الروح في الجنين بعد الأطوار الخمسة من النطفة إلى العظام بالنسبة لكلّ شخص، وأمّا الموت الثاني فهو الوفاة بعد الأجل المحدّد للحياة الدنيا، وأمّا الحياتان فهما الحياة الدنيا والحياة عند البعث، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (٢٨).

﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾: لما كان الاعتراف بذنوبهم في ذلك الموقف ظنّا منهم أنه نوع من التوبة التي تنفعهم يومئذ، فرّعوا على ذلك الإخبار الاستفهام الاستعطافي لرفع العذاب عنهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾. هم يطلبون أي نوع من الخروج بأيّ وسيلة كانت للتخفيف من العذاب الذي هم فيه، ولكنّهم لم يحصلوا على إجابة بالسلب أو الإيجاب، بل جاءت الإجابة بذكر سبب وقوعهم في ذلك العذاب فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾.

الإشارة: ﴿ذَٰلِكُم﴾ إلى ما هم فيه من العذاب، بيّن الله أنه بسبب كفركم بوحدانية الله، كلما دعيتم إلى ذلك باستمرار فتهافتون على كلّ ما هو شرك وضلال مما نصبتم من أوثان أو قدمتم من رؤساء وزعماء أطعتموهم من دون الله.

واليوم لا حكم إلا لله العليّ الكبير، وحكمه الحق، وقضاؤه العدل فلا أعلى منه ولا أكبر في رفعة مقامه وقوة عظمته، سبحانه وتعالى عما يشركون.

وقد أتبع الله ذلك بما يدل على عظمته وكبريائه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

الخطاب للرسول ولأمة الدعوة كلها، بأنه تعالى لا تخفى دلائل قدرته وعظمته كما وصف بذلك ذاته العلية، فهو يدلّ عليها ويلفت أنظار خلقه إليها إن في خلقة الأنفس أو في أرجاء ملكوته إذ قال في سورة الذاريات: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢١-٢٢).

وفي هذه الآية يقول: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، والإنزال يكون من العالي إلى الأدنى، وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرار، والتعبير بإنزال الرزق من السماء على اعتبار أسباب توفره للمخلوقات من الماء والشمس والهواء المخصبة لتراب الأرض. وكون تلك الأرزاق لنا في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم﴾ هو للدلالة على فضل الله ومنه علينا، ولكن ذلك لا يتذكره ولا يشعر بجزيل فضله إلا من هو دائم التوبة والرجوع إليه، بإدمان النظر والتفكير في دلائل قدرته وعظمته.

ثم صرّح الله عما هو المطلوب من عباده المؤمنين، فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

التفريع على ما سبق معناه: إذا كنتم أيها المحافظون ممن يتدبرون آيات الله، ويشكرون الله على ما أفاض عليهم من أرزاق، وعلى أنهم المرحومون للتذكر والإنابة إلى الله، إذا كنتم كذلك فأخلصوا عبادتكم لله وحده، وتوجّهوا بالدعاء إليه، والدعاء هو مخّ العبادة كما جاء في الأثر، فيجب على المؤمن أن يدعو ربه إثر

كل عبادة توجّه بها إلى الله من صلاة أو صوم أو غير ذلك، لأن الدعاء إلى الله هو الثمرة التي تجنيها المؤمن من تلك العبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ يقع موقع الحال من فاعل: ﴿ادْعُوهُ﴾، أي المطلوب هو إدمان الدعاء لله في كل الأحوال حتى تلك التي يكرهها الكافرون، فلا تلتفتوا إليهم وإن غاظهم ذلك منكم، وكان رسول الله يردّد ذلك في دعائه كما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن الزبير: «أنّ **رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون**».[1]

ثم ذكر الله تعالى صفات أخرى لعظمته وجلاله فقال:

أ- ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾:

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾: من إضافة الصفة إلى فاعلها أي درجاته رفيعة، وهو ما يناسب وصف العليّ الكبير، فالرفع في المكانة وعلوّ الشأن لا في المكان -حاشاه- فهي صفة ذاتية لله تعالى، وهو صاحب العرش العظيم خصّه الله بالذكر لأنه أعظم مخلوقات الله في الكون. وقد صوّر الرسول عظمته بالنسبة للسماوات فقال: «**كحلقة في فلاة**»[2].

١- رواه مسلم من حديث أبي الزبير، كتاب (٥) المساجد ومواضع الصلاة، باب (٢٦) استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم ٥٩٤: ١/٤١٥.

٢- عزاه البغوي في تفسيره إلى أبي هريرة، ٦/٣١٣، وكذا السيوطي في الجامع الكبير.

والذي يملك ذلك الخلق العظيم هو من الرفعة والسّموّ والكبرياء ما لا يعلمه إلا هو.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: والروح بمعنى الوحي الذي ينزله على من يختار من عباده الأنبياء والرسل. ينزله من أمره، أي بأحكام شرائعه لخلقه وفق ما تقتضيه حكمته من ذلك التشريع في ما ينظم شؤون معاشهم ومعادهم.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: بيان لمهمة الرسل في إنذار الناس بعقاب يوم القيامة في موقف المحشر.

س) - ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾: أي في يوم التلاقي تكون الخلائق كلّها في أرض مستوية لا جبال فيها ولا بناءات ولا حواجز تخفي أحدا من الخلق، بعد أن يخرجوا من قبورهم مهطعين إلى الداعي لموقف المحشر، وهم على أتمّ بروز لا يخفى على الله منهم شيء من ظواهرهم أو بواطنهم؛ لأنّ التعبير: ﴿شَيْءٌ﴾ يدلّ على العموم ليتناول كلّ الأحوال ما ظهر منها وما خفي، والله وحده أعلم بالكيفية التي يبعث عليها الناس، إذ صحّ في الحديث أنّهم يبعثون وفق خواتم أعمالهم ومعتقداتهم فينعكس ذلك على الوجوه كما وصفها الله وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٨).

ويومئذ تقرّ الخلائق كلّها بأنّ الملك والسلطان لله وحده، وإيراد تلك الحقيقة في صيغة سؤال والإجابة عنه هو أشدّ تأثيرا لدى السّامعين، فالسائل هو الربّ تعالى، وقد خشعت الأصوات ودانت الرّقاب لجلاله فلا يجيب أحد خوفا وهيبة، فيجيب تعالى نفسه في عزّة وعظمة: لله الواحد القهار.

والاستفهام للتقرير، ليشهد الطّغاة والجبابرة على أنفسهم بالخطأ والضلال في ما كانوا يزعمونه لأنفسهم أو لمعبوداتهم الباطلة من الملك والطمأنينة في الدنيا.

وكان الإقرار بالملكية لله وحده في ذلك اليوم العصيب يكون بمثابة الإعلان لموقف الحساب، وكيف يتميز عمّا ألفه الملوك والجبابرة في الدنيا من الشرّ والظلم والطغيان، فجاء بيان الصفات الرّبانية من العدل والرحمة والسرعة في فصل القضاء، فقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

تكرر لفظ: ﴿الْيَوْمَ﴾ ثلاث مرات بـ"أل" العهدية، أي يوم الحساب، فهو يوم جزاء وثواب، وفق ما قدّمته كلّ نفس من خير أو شرّ، إذ توزن الأعمال بموازين القسط، فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل، وقد جاء في الحديث القدسي: «**يا عبادي، قد حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه**».[1]

والتذييل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ لأنه تعالى يحيط علمه بكل ما اكتسبه خلقه فهو ليس في حاجة إلى بيانات وشهود، فهو يحاسب جميع الخلائق كما يحاسب نفسا واحدة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر: ٥٠). حين جاء في الأثر: "أنه إذا بدأ الحساب فإنّ أهل الجنة يقيلون في الجنّة، وأهل النار يقيلون في النار".

١- تقدّم تخريجه، ص ١٩.

وأمّا طول الانتظار الذي تضيق به الخلائق في ذلك اليوم الذي وصفه القرآن بأنه يجعل الولدان شيبا، فهو الذي يكون قبل حصول الشفاعة العظمى لرسول الله ﷺ كما صحّ ذلك في الحديث، وقانا الله شرّ ذلك اليوم، وجعلنا فيه من الآمنين، والله أعلم.

التخويف من عذاب الآخرة، والتحذير من عذاب الدنيا.

أ) - النص:

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۖ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۖ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾: ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾: هو يوم القيامة من أزف الأمر يأزف، إذا قرب، قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ، لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم:٥٧-٥٨). ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾: بدل من: ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾. و﴿الْقُلُوبُ﴾: مبتدأ، ﴿لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾: خبر، ﴿كَاظِمِينَ﴾: حال و﴿الْحَنَاجِرِ﴾: جمع حنجرة أي الحلقوم، أي تحاذر القلوب أماكنها في الصدر صاعدة إلى الحناجر من شدة الخوف، كما قال تعالى في سورة الأحزاب:

﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ (١٠). ﴿كَاظِمِينَ﴾: من كظم فهو كاظم إذا حبس الشيء. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾: الحميم هو القريب، أي ليس للظالمين من يشفع لهم يوم القيامة، المقصود نفي وجود الشفيع أصلا. ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾: أي نظرات الخيانة، كالنظر إلى محاسن النساء وإلى كل محرّم من الاطلاع على أسرار الناس، وما تخفي القلوب من الهواجس الشيطانية أو العدوانية. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾: الاستفهام تقريري، ﴿فَيَنظُرُوا﴾: إما منصوب على جواب الاستفهام، أو مجزوم عطفا على: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾. ﴿كَيْفَ﴾: في موضع نصب خبر لـ"كان"، واسمه: ﴿عَاقِبَةُ﴾. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾: ﴿أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أهلكهم بعذاب الاستئصال. ﴿مِنْ وَاقٍ﴾: ﴿مِنْ﴾: زائدة للتوكيد. ﴿وَاقٍ﴾: من الوقاية، يدفع عنهم السوء.

ج)- أوجه القراءة:

﴿تَدْعُونَنِي﴾: قرأ نافع وهشام عن ابن عامر بتاء الخطاب على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأ الجمهور بياء الغيبة على الظاهر. ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿مِنْهُمْ﴾ بضمير الغائب، وقرأه ابن عامر ﴿مِنْكُمْ﴾ بضمير الخطاب على طريقة الالتفات. ﴿رُسُلُهُم﴾: قرأ الجمهور بضمّ السين، وقرأ أبو عمرو بإسكانها، وهما لغتان فصيحتان.

د)- البيان والتفسير:

على ذكر مهمّة الرسل بإنذار الناس يوم التلاقي في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾، أردف الله هنا أوصافا أخرى وهيبة ليوم القيامة تخويفا للكافرين

مما يكونون عليه في ذلك اليوم من شدّة الخوف، وأن لا منقذ لهم من هوله، ثم حوّفهم من عذاب الدنيا كما أهلك الأمم الماضية بعد أن كذبت برسلها وكانت أشدّ منهم قوة. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

الإنذار هو الإخبار بعواقب غير سارة للتحويف منها، والخطاب لرسول الله، ومن خلاله لكلّ داعية إلى الله، والضمير للذين كفروا في وقت التنزيل، ومن يكون على شاكلتهم في كل زمان ومكان، ويوم الآزفة هو يوم القيامة، وصف بالقرب لأنّ الناس يستعبدونه كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج: ٦-٧). ذلك بالنسبة للأحياء يغفلون عنه بانشغالهم في الجري وراء متع الدنيا، وأما الأموات فهم لا يحسّون بالزمن في فترة البرزخ ولذلك فهم يقولون عند البعث من قبورهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ (المؤمنون:١١٣).

فإذا كان المؤمنون يعتون آمنين من ذلك الفزع الأكبر فإن الذين كفروا وكذّبوا برسل الله يشتدّ عليهم الخوف والهلع حتى ترتفع قلوبهم إلى حناجرهم حرفا من المصير الذي ينتظرهم وهم كاظمون لآلامهم وعذابهم داخل صدورهم، وذلك أدعى لشدّة المعاناة والعذاب النفسي، إذ أنّ المكروب من الناس إذا بكى أو صاح فإنه يجد متنفّسا لهمّه في ذلك، وهم مع ذلك لا يجدون لهم مساعدة من قريب ولا وساطة من شفيع تقبل شفاعته إذ لا شفيع يومئذ إلا لمن ارتضاه الله من أوليائه.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: الضمير يرجع إلى لفظ الجلالة المتقدم في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، فبعد أن أيأس الله الكافرين من أية مساعدة أو شفاعة تنقذهم مما هم فيه زاد هنا تيئيسهم من توهّم إخفاء شيء من دوافع نفوسهم أو من أعمالهم الدنيئة على الله، لأنه تعالى يعلم ما تسرقه الأعين من

النظر المختلس إلى كلّ ما حرّم الله بالاطّلاع على عورات الناس، وعلى حرمات النساء كما ذهب إلى ذلك ابن عباس؛ لأن النظر المحرم هو بريد الزنى كما يقول العلماء، وحتى المروءة تقتضي عدم اختلاس النظر إلى حرمة غيرك، يقول عنترة في هذا الشأن:

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

ويعلم الله ما تخفي الصدور من خواطر النفس خيرها وشرّها، جليلها وحقيرها، وتتفاوت تلك الخطرات بحسب أثرها في النفس ومفعولها على تكييف العمل، ويعلم ما تخفيه السرائر تمهيدا لمجازاة عليها، فإن تكن في الخير والصلاح فلا إشكال، وأما إن كانت في الشرّ والباطل، فإن الرسول ﷺ قال: «**إنّ الله تجاوز عن أمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تتكلّم به أو تعمل**».[1] ولا نأخذ هذا الحديث على إطلاقه، إذ هناك من خواطر النفس ما هو منهي عنه، كالكفر الذي يخفيه المنافق، والرياء الذي يخفيه المرائي، والغلّ والكراهية التي يخفيها المشاحن...إلخ، ولذلك قسّم العلماء حديث النفس إلى درجات هي:

أ)- الهاجس: وهو ما يقع في القلب أوّل مرة.

ب)- الخاطر: إذا تمكن الخاطر وبدأ يتحرّك في القلب.

ج)- حديث النفس: إذا طال أمد الخاطر وراح يتردّد بين أخذ وردّ، حتى لكأن في القلب شخصان يتحدّثان.

د)- الهمّ: أي بعد الإقدام والإحجام على فعل الشيء يترجح أحد الطرفين.

ه)- العزم: هو آخر درجات الفكر وأوّل درجات العمل.

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة كتاب (٧١) الطلاق، باب (١٠) الطلاق في الإغلاق والكره والسكران...، رقم ٤٩٦٨: ٥/٢٠-٢٠.

ويقول العلماء: "لا إثم في الأربعة الأول؛ لأنها لا مفرّ منها في حديث النفس، ولكنك إذا عزمت على العمل فهناك يكون الحساب حتى وإن منعه مانع أو عاقه عائق".[1]

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: لما نفى الله أي حميم أو شفيع في موقف الحساب للظالمين، ونبّهنا إلى علمه الشامل المحيط حتى خلجات نفوسنا، عطف على ذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾، أي يجازي كلّ نفس بما تستحقّه بالعدل وموازين القسط إن خيرا أو شرّا. وإظهار لفظ الجلالة في أول الجملة عوضا عن الضمير هو لاستحضار صفات الكمال للذات العلية لدى السامع بما فيها العدل في القضاء.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾: زيادة تحقير وتسفيه للآلهة الباطلة، بأنها لا تملك شيئا ولا تقدر على شيء، وبالتالي لا تملك أن تقضي على شيء بالحقّ أو بالباطل، لأنها لا تعلم شيئا، وإنّ الله السميع العليم والعادل في حكمه على عباده هو وحده المستحق للطاعة والعبادة.

وما أروع اختيار صفتي السمع والبصر، بصيغة المبالغة وبضمير الفصل، ما أروع اختيار ذلك للمعبود الحقّ في مقام الحساب وفصل القضاء بالحقّ، وفي نفي ذلك عن الآلهة الباطلة التي يدعون بها من دون الله تسفيه لها بأنها لا تسمع ولا تبصر، فكيف تستحق العبادة؟!.

ثم ينتقل السياق من التخويف بعذاب الآخرة إلى التحذير من عذاب الدنيا، بأخذ العبرة من الأمم المكذّبة برسلها كيف كانت عاقبة أمرها فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ

١- في رحاب القرآن: ١٥/٩٦. (بتصرف)

أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الجملة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ معطوفة على ما سبقها من التخويف بعذاب الآخرة، وبما أنّ المشركين المخاطبين بها يومئذ لا يؤمنون بالآخرة، فإن الأنسب لمقتضى حالهم أن ينبّهوا إلى ما يجدون فيه الشواهد والآثار على عبرة التاريخ، وهم ركبون الأسفار. والواقع أنّ التاريخ البشري حافل بالعبر، وسنّة الحياة وقوانينها لا تتخلّف، وفي تدبرها والاعتبار بها إرشاد للحائر، يقول الشاعر:

وإذا فاتك التفات إلى الماضي فقد غاب عنك وجه التأسّي

وقد تكرّر في السورة الأمر بالسير في الأرض مرتين، ففي المرّة الأولى هنا جاء الأمر بذلك قبل الدخول في تفاصيل قصّة موسى مع فرعون وما تخلّلها من دفاع مؤمن آل فرعون على قضية الإيمان والتوحيد، والاستفهام في أوّل الجملة تقريري، والمقصود بالضمير هم كفّار قريش الذين كان لهم ذلك السّير في الأرض، ومرّوا بتلك الخرائب التي تشهد لأصحابها بما كان لهم من القوة هي أشدّ مما عليه مشركو مكّة وأوسع عمرانا منهم، ومع ذلك لم تمنعهم قوّتهم من عذاب الله حين نزل بهم فدمّرهم واستأصل شأفتهم كما قال تعالى: ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾(سبأ:١٩).

ثم بيّن الله سبب ذلك العذاب الذي حلّ بهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾، الإشارة إلى أخذ الله إياهم بعذاب الاستئصال. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء للسببية. واختيار المضارع بدخول "كان" عليها: ﴿كَانَتْ تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ للدلالة على تكرار إتيان الرسل، أي

مرّة بعد مرّة، أي إنّ كلّ أمّة منهم كان يأتيها من الله رسول ليقيم عليها الحجّة، ولكن الجميع كفروا وكذّبوا الرسل وكان من نتيجة ذلك أن أهلكهم الله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الاسراء: ١٥).

﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: فقوّة الله هي الغالبة، فلا تعجزه قوة خلقه مهما تجبّروا وطغوا بها، وعذابه حين يتزله على قوم فهو أليم شديد، يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. فاللّهم إنا نعوذ بك من سوء نقمتك وعذابك، اللّهم لا تؤاخذنا بذنوبنا ولا بذنوب غيرنا، ولا بما كسبت أيدينا، ولا بما فعل السفهاء منّا، إنّك على كل شيء قدير، والله أعلم.

من الأمم الهالكة التي لم يشهد العرب آثارهم

فرعون وقومه مع موسى عليه السلام.

أ) – النص:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

ب) – التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: التوكيد في أول الآية:

﴿لَقَدْ﴾ لمراعاة حال المشركين المكذبين. ﴿بِآيَاتِنَا﴾: هي المعجزات التسع التي أيد الله بها موسى. ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾: تعني الحجة الواضحة. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾: أسماء معارف ممنوعة من الصرف للعلمية والأعجمية، فرعون لقب لملك مصر، وهامان وزيره الذي يدير شؤون الدولة، أما قارون فهو من بني إسرائيل، ولكنه كان فاحش الثراء فبغى على دعوة موسى. ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾: جمعوا بين صفتي السحر والكذب، على اعتبار تنوّع الآيات التي جاء بها موسى بين مادية كالعصا واليد، وبيانية كالتوراة. ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾: معطوف على قولهم: ﴿قَالُوا اقْتُلُوا﴾، والقائلون هم جميع من كان في مجلس فرعون. والضمير في قولهم: ﴿اقْتُلُوا﴾، و﴿اسْتَحْيُوا﴾ خاطبوا به فرعون على وجه التعظيم، وهذا القتل هو غير القتل الأول، قبل ميلاد سيدنا موسى، واستبقاء النساء على قيد الحياة ليكنّ خادمات في بيوت الأقباط. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾: ﴿أَقْتُلْ﴾: مجزوم في جواب الأمر. ﴿وَلْيَدْعُ﴾: مجزوم بلام الأمر، ﴿ذَرُونِي﴾: تعبر عن الرغبة ولو لم يكن ثمة معارض، وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾: فيه نوع من مرافقة الخوف الذي يشعر به في داخله، لأن الوثنيين يؤمنون بتأثير الدعاء عند آلهتهم. ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾: ﴿عُذْتُ بِرَبِّي﴾: العوذ بالله هو الالتجاء إليه، واختيار صفة الربوبية لمعنى الحفظ والرعاية والعطف برب للمخاطبين لتحريضهم على الإيمان وعدم الخوف من فرعون.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَأَنْ يُظْهِرَ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر: ﴿وَأَنْ﴾ بواو العطف، وقرأ غيرهم: ﴿أَوْ أَنْ﴾ بـ"أو" التي للترديد، أي لا يخلو سعي موسى عن حصول هذين. ﴿يُظْهِرَ﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر بضم ياء ﴿يُظْهِرَ﴾، ونصب ﴿الْفَسَادَ﴾، أي يبدل دينكم

ويكون سببا في ظهور الفساد، وقرأه ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بفتح الياء ورفع الفساد، على معنى أنّ الفساد يظهر بسبب ظهور أتباع موسى، أو بأن يحتوي غيره على مثل دعواه بأن تنزل حرمة الدولة.[1]

د)- البيان والتفسير:

بعد الإشارة المجملة إلى عاقبة الأمم السابقة المكذّبة برسلها، وما في ذلك من الوعيد لمشركي مكّة، ومن التسلية لرسول الله وأصحابه، اختار نموذج قصة موسى مع فرعون وملائه لما فيها من وجه المشابهة في العناد والمكر وفي الثبات والصبر فقال جلّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

قصة فرعون مع موسى عليه السلام هي الأنسب للمقدّمة المجملة في الأمر بالسير في الأرض للاعتبار والاتّعاظ، لأنه تعالى وصف الأمم الهالكة بأنها أكثر قوّة وآثارا في الأرض، فلم يمنعهم ذلك من الخراب والدّمار الذي حلّ بهم، وكان فرعون في المرتبة الأولى من تلك القوّة، ومن عظمة الآثار التي تركها فقد قال تعالى في شأنه: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١٠-١٣).

ثم إنّ تلك الآثار المصرية مما لا يشهدها العرب في رحلاتهم التجارية، ولكن لهم اهتمام خاص بقصّة موسى لاحتكاكهم بأهل الكتاب وتطاول هؤلاء عليهم، أكّد الله إرساله لموسى باللام الشعرة بالقسم و"قد" على اعتبار حال المخاطبين في الشك والارتياب. والآيات: هي التسع المشار إليها في

١- التحرير والتنوير: ٢٤/١٢٦.

سورة الإسراء، وفي مقدمتها العصا واليد، والسلطان المبين هي الحجة الواضحة والبرهان القوي لما يدعو إليه من الإيمان بوحدانية الله، والمرسل إليهم هم: فرعون وهو ملك مصر، وهامان وزيره الأول وهو من الأقباط، أما قارون فهو إسرائيلي مقرّب إلى فرعون، وكان شديد الثراء، استكبر واستعلى على قومه وجعل نفسه في خدمة الملك، وخصّص الله هذا الثالوث بالذكر، لأنهم الرؤساء المتجبّرون، وغيرهم تابع لهم، واجهوا دعوة الحقّ من جانب موسى الرسول، واجهوها بقولهم: ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ إذ هم أمام معجزتين: مادية ومعنوية، ففي المادية قالوا: ساحر، إذ كان السّحر له الصدارة العلمية عندهم، وفي المعجزة المعنوية البيانية اتهموا موسى بالكذب على الله، وذلك هو ما فعلته قريش مع رسول الله وما فعلته الأمم الخوالي مع رسلها، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (الذاريات: ٥٢-٥٣).

ويطوي النص قصّة السّحرة ومبارزتهم مع موسى وكيف كانت نهايتهم بعد إعلان إيمانهم، قتلا وصلبا، ومع استعلاء الحقّ على يد موسى عليه السلام وإيمان كثير من بني إسرائيل برسالته، حتى فرعون من انبهار قومه بمعجزات موسى وإمكانية اتباعه، فقرّر هو وملؤه اللّجوء إلى العنف والبطش شأن الجبابرة والطّغاة في كل زمان ومكان: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

الضمير في: ﴿جَاءَهُم﴾ يعود إلى فرعون وحاشيته الخاصّة، قرّروا أن يعودوا مرة ثانية إلى قتل كلّ من يؤمن برسالة موسى، أي قتل الذكور منهم وترك النساء على قيد الحياة ليبقين خادمات في بيوت الأقباط، ويلاحظ أنّ الأمر الأول بقتل الذكور دون الإناث كان قبل ميلاد موسى، وكان مطلقا عامّا في شأن بني

إسرائيل، بينما الأمر الثاني قيدوه بالإيمان بموسى، ولكنه تعالى أحبط كيدهم في كل مرة إذ قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾. هكذا بصيغة الحصر وبالإظهار مكان الإضمار لإفادة التنديد بالكفر، وأنه مصدر كلّ شرّ، وأن النصر للحق والإيمان.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾: يبدو أنّ لفرعون رأي آخر في حسم قضية موسى، إذ فضل أن يقطع الرأس حتى يقضي على الدعوة من أساسها، غير أن العطف بالواو لا يفيد ترتيب الأحداث، فقد يأخذ القوم في تنفيذ قرارهم بالقتل الجماعي، وأنهم لبسوا على رأي فرعون في قتل موسى إذ يصبح بطلا مقدسا يذكي غيرة الأتباع ويلهب حماسهم أكثر، وهذا ما يفيده قول فرعون لهم: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، فـ﴿ذَرُونِي﴾ يفيد أن هناك نوعا من الممانعة عند الأتباع في أمر القتل لموسى، وهذه الخطة كثيرا ما يطبّقها المستبدّون الطغاة عندما يستشعرون معارضيهم شبه أموات في سراديب لا يرون فيها النور خشية أن يصبحوا أبطالا مقدّسين تنصب لهم التماثيل لو أعدموهم.

فلله ما أروع بلاغة القرآن في تشخيص طبائع الاستبداد منذ أقدم العصور، وقول فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ فيه نوع من التظاهر بالجراءة أمام أتباعه، إذ شاهدوا تلك المعجزات الباهرة فهم في باطنهم ومعهم فرعون كانوا يخشون انتقام الرّب مما يفعلون. وقد علل فرعون ميله إلى قتل موسى بأمرين:

أ- ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾: فما أوقع هذا الطاغية وما أبرعه في قلب المفاهيم وتشويه الحقائق، وتلك هي الطريقة المعتادة لدى الطغاة المتجبّرين في تسخير أبواقهم لإعلان الشعارات الضخمة الكاذبة التي تدعم مواقفهم وتسند سلطتهم، فرعون الكافر الوثني والمتأله على شعبه يخشى على دينه الباطل أن

يتبدل، ويخشى من رسول الله الذي جاء للإصلاح والتغيير إلى ما هو حقّ وعدل يخشى منه أن ينشر الفساد في رعيته. إنه منطق الطغيان والجبروت أمام الحقّ الناصع ونوره الساطع، ولله درّ المعرّي حين قال في مثل تلك الأوضاع المتردية:

إذا وصف الطائي بالبخل مادر ... وعيّر قسّا بالفهاهة بكلْ

وقال السّها للشمس أنت خفيّة ... وقال الدّجى للصبح لونك حائل

فيا موتُ زُر إنّ الحياة ذميمة ... ويا نفس جدّي إنّ دهرك هازل

أما موسى عليه السلام فلا يملك أزاء ذلك التهديد إلا أن يلوذ بربّه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. ولما شاع تهديد فرعون بقتل موسى خاطب قومه ليحرّضهم على الصبر والثبات بقوله: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي التجأت إليه بدعائي أن يحفظني من كيد كلّ متكبّر طاغ. والعوذ: هو اللجوء إلى ما يعصم من الشرّ، وليس غير الله من عاصم لأوليائه من شرور أعدائهم. وزيادة صفة: ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ عوضا عن الإيمان بالله؛ لأنّ عدم الإيمان باليوم الآخر هو كفر بعظمة الله وقدرته وكفر بصدق الرسالة، وما يتحرّ المتحرّون إلاّ بعدم إيمانهم بيوم الحساب، والله أعلم.

قصّة مؤمن آل فرعون، ومرتكزات دفاعه عن موسى عليه السلام.

أ) - النصّ:

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن

مُصْرِنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا
سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ
دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ۖ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ
بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ
اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾: ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾: هم قرابته وحاشيته، وقيل: إنه صاحب شرطه، كان يخفي إيمانه بدعوة موسى، والتعبير بالمضارع: ﴿يَكْتُمُ﴾ يدلّ على استمراره على ذلك تقية من فرعون، لأنه أمر أن يقتل كل من آمن بموسى. ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾: ﴿أَتَقْتُلُونَ﴾: الاستفهام إنكاري، ﴿أَنْ يَقُولَ﴾: مجرور بلام التعليل المقدر. ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾: حمل موسى بين احتمالين لا ثالث لها، ﴿وَإِنْ يَكُ﴾: حذفت النون من: ﴿يَكُ﴾ لكثرة الاستعمال، أو أنها نون الإعراب حذفت للجزم. ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾: ﴿ظَاهِرِينَ﴾: أي غالبين قاهرين لبني إسرائيل، منصوب على الحال. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: أي أرض مصر، أي من يمنعنا من عذاب الله؟ وانتقاله من ضمير الخطاب إلى المتكلم حتى لا يستفزّ حفيظة قومه. ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ

يَوْمِ الأَحْزَابِ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾: أطلق القرآن كلمة: ﴿الأَحْزَابِ﴾ للأمم الكافرة السابقة، هكذا بصيغة الجمع، لاختلاف صور كفرهم، وأمّا المؤمنون برسلهم فهم حزب واحد. ﴿يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾: مراد به الجنس؛ لأنّ لكل حزب يومه، أي في العذاب والإهلاك. ﴿مِثْلَ دَأْبِ﴾: الدأب والعادة وهو منصوب على البدلية. ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾: هو يوم الحساب والحشر، لأنّ الخلق يتنادون يومئذ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على البدلية. ﴿يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾: أي تفرّون خائفين من عذاب النار، وجملة: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: في موقع الحال، والعاصم هو الحافظ والمانع: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: أي من عذابه. زيدت: ﴿مِنْ﴾ للتوكيد. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: يوسف بن يعقوب عليهما السلام، جاء من قبل موسى إذ كان على خزائن مصر. جاء بالبيّنات: الباء للملابسة. ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: الدلائل الواضحة الدالة على اصطفائه من الله. ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾: ﴿حَتَّى﴾: للغاية. ﴿هَلَكَ﴾: بمعنى مات. ﴿قُلْتُمْ﴾: بمعنى قال أسلافكم يومئذ: لا يبعث الله في المستقبل رسولا. ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾: إما بدل من قوله: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم الذين. ويرى بعض المفسرين أنه مبتدأ وخبره قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾. ﴿كَبُرَ﴾: ملحق بأفعال الذم، مثل: ساء. ﴿مَقْتًا﴾: تمييز. والمقت: أشدّ البغض.

ج) - أوجه القراءة:

﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾: قرأ الجمهور بدون ياء في الوصل والوقف، وهو غير منوّن، ولكن عومل معاملة المنوّن لرعاية الفواصل، وقرأ ابن كثير: ﴿يَوْمَ التَّنَادِي﴾ بإثبات

الياء، على الأصل اعتبارا بأن الفاصلة هي قوله: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾. ﴿مِنْ هَـادٍ﴾: قرأ الجمهور بدون ياء، واتفقوا على التنوين في الوصل، وقرأ ابن كثير ﴿مِنْ هَادِي﴾ بالياء في الوقف. ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: قرأ الجمهور بإضافة قلب إلى متكبّر، وقرأ أبو عمرو وحده وابن ذكوان عن ابن عامر بتنوين ﴿قَلْبٍ﴾، على أن يكون: ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ و﴿جَبَّارٍ﴾ صفتين لـ﴿قَلْبٍ﴾، ووصفه بذلك مجاز عقلي.

د) - البيان والتفسير:

بعد عرض لقاء موسى بفرعون وملئه، وبيان ردود الفعل من طرفهم على دعوة موسى، وعوذه بالله أن يحفظه من تهديدهم إياه بالقتل، ذكر الله في هذا النصّ كيف قيّض له من آل فرعون رجلا آمن بدعوة موسى فشرع يدافع عنه بلباقة وكياسة في مجلس القوم لإخماد الفتنة وردّ الشرّ عنه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

يمثل هذا الرجل المؤمن النموذج الرائع لما وصفه رسول الله بأنه أكبر الجهاد، عندما قال: «أكبر الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر»[1]، أو كما قال.

وأيّ سلطان هو أطغى من فرعون، فقد توعّد موسى بالقتل جهرة أمام جلسائه، وكون الرجل المؤمن من آله فلا بد أن يكون على دراية بما كان يتآمر عليه ضدّ موسى، وقد قيّضه الله للدفاع عنه، وكان كتمان إيمانه بدعوة موسى تقيّة

١- رواه الترمذي من حديث أبي سعيد، كتاب (٣٤) الفتن، باب (١٢) ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم ٢١٧٤: ٤/٤٧٩.

من بطش فرعون، فبدأ في مجلس الشورى لفرعون، بدأ ناصحا أمينا متدرعا بأسلوب اللباقة والكياسة حتى لا يستثير حفيظة القوم، وهو يستعطفهم بقوله في كل نصح: ﴿يَا قَوْمِ﴾، ويبني دفاعه على مرتكزات أحسن تصنيفها والتدرّج معها واحدة تلو أخرى فبدأ:

أ- باستنكار قتل موسى بمجرّد أن قال: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾، مستندا على بينات واضحة تدعم معتقده، ثم هو لا يجوز لكم أن تؤمنوا به.

ولتحويل مستمعيه إلى أسلوب المجادلة والحوار وزرع الشكّ في نفوسهم وضع موسى بين أمرين لا ثالث لهما، إمّا أن يكون كاذبا في ما يدعو إليه، وإمّا أن يكون صادقا، وفي كلتا الحالتين فهم المستفيدون، ففي حالة الكذب تكونون حجة عليه، إذ يوصف بالكذب، وتكونون أنتم في منجاة مما توعدكم به، وفي حالة صدقه، يكون هو حجة عليكم فيصيبكم بعض ما توعّدكم به. والتعبير: ﴿بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي تلاحظون بوادر ذلك الشرّ المتوعّد به فتحاولون اتقاءه بتصديقه واتباعه.

وجاء التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، يحتمل أن يكون من تعليل الرجل المؤمن لكلامه، ووجه التعليل واضح، ويحتمل أن يكون من كلام الله، فيكون شهادة منه على تقوى الرّجل وصدقه، لأنه تعالى لا يهدي من هو مسرف مرتاب.

ثم تدرّج الرجل المؤمن إلى التحذير من مغبة الظلم والطغيان فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾.

نلاحظ تنويع الأسلوب من الخطاب إلى التكلّم، فبينما يصفهم مخاطبا إياهم بالقوة والغلبة وامتلاك السلطة في أرض مصر، يعتبر نفسه واحدا منهم عندما

حذرهم من نقمة الله إن هم استمرّوا في تكذيبهم لرسوله، وبذلك يظهر أمامهم بمظهر الناصح الأمين الذي يريد لهم الخير.

ولكن فرعون أحسّ بقوة تأثير الرجل المؤمن في نفوس جلسائه، فقاطعه مراوغا أصحابه بأنه يخلص لهم النصح ويدلّهم على سبيل الرشاد: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. لقد أحدثته العزّة بالإثم، فقطع على أصحابه سبيل التأمّل الواعي، وقد أحسّ بحرارة النصح عند الرّجل المؤمن، فأراد أن يحصر رأيهم في قتل موسى في ما يراه هو من أنّ قتله هو سبيل النجاة والإنقاذ لملكهم، وهكذا شأن الطغاة في تكميم الأفواه وخنق الأنفاس، يقول تعالى في شأن هذه المعاملة الفرعونية لقومه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥٤).

ويتابع الرّجل المؤمن نصحه لقومه بعد أن نجح في جعلهم يتريّثون في قرارهم قتل موسى، فرأى من واجبه أن يتابع نصحه ويصدع بالحقّ الذي يعتقده، وربما أصبحوا يحسّون بإيمان الرجل، فتحوّل إلى الإنذار المباشر والتخويف من عذاب الدنيا بالفات نظرهم إلى مصارع من سبقوهم من الأمم المكذبة برسلها فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.

لقد أطلق القرآن كلمة: ﴿الْأَحْزَابِ﴾ على الأمم الكافرة عبر التاريخ البشري، كما أطلقها على أعداء رسول الله في حصارهم للمدينة المنوّرة، والتذكير بمصارع المكذّبين يهزّ القلوب المتحجّرة مدفوعة بحبّ البقاء، وكان قوم فرعون على معرفة بما حدث لتلك الأمم، ولا بدّ أن لين قلوبهم بما يتذكرونه من تلك المصائر المشؤومة لأولئك الأقوام حتى أصبحوا أحاديث للموعظة والعبرة جزاء ما اختاروه لأنفسهم من الكفر والعناد، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم

يظلمون.

ولم يكتف الرجل المؤمن بتحذير قومه من العذاب العاجل بل أضاف التحذير من العذاب الآجل في يوم القيامة فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

سمّي يوم القيامة بيوم التنادي لأنّ أصناف الخلائق تنادي بعضها بعضا في صور شتى، ما بين أصحاب الجنّة وأصحاب النار، وما بين أصحاب الأعراف وهؤلاء، كما تنادي الملائكة على المبعوثين لموقف المحشر في صخب وتصايح، ولا شكّ أنّ الطّغاة المستكبرين والمكذّبين برسل الله هم من شدّة الفزع مرتبكون، يحاولون الفرار من عذاب الله ولا عاصم لهم من ذلك ولا معيث، وفي تعبيره بالخوف عليهم من عذاب الدنيا والآخرة نوع من الإشعار بإخلاص النّصح لهم بدافع واجب القرابة والرّحم، ولكنّه في اختيار صفة الضلالة بقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، في ذلك إيماء إلى رجحان جانب الضلالة في موقفهم، وأنّ الله قضى لهم بذلك على حدّ قول نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(هود:٣٤). والله وحده يعلم طبائع خلقه وقابليتهم للحق والباطل، فيعطي كلّ واحد منهم ما اختاره لنفسه.

ثمّ ارتقى الرجل المؤمن في موعظته ليذكّر قومه بموقفهم من يوسف عليه السلام وأنهم من شريته وقد جاءهم موسى بمثل ما جاء به يوسف لآبائهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

ذكّرهم بموقف آبائهم من يوسف عليه السلام، ذكّرهم بصيغة الخطاب على اعتبارهم أمّة واحدة، من الآباء والأجداد إلى الأبناء والأحفاد، فقد تكرّر في الأجيال نفس الموقف من الشك والارتياب بما جاء به الرسولان: يوسف وموسى، وذلك على الرغم من وضوح دلائل صدقهما وبراهين رسالتهما، وقد كان من أماني الأحفاد أن يموت يوسف فلا يأتي من بعده رسول إذ كانوا يضيقون بما كان يفيده من أحكام عادلة بموقعه في السلطة، وها أنتم تجدّدون نفس السيناريو مع موسى، فلا تريدون أن يضايقكم أحد في سلطتكم بالقصر الفرعوني، وهكذا توالى التكذيب والارتياب في أجيالكم.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾: أي ذلك الواقع في حياة البشر عندما يستشري الفساد، ويتمكن الاستبداد من رقاب الناس، أن يمكّن الله للظالمين الطغاة ويملي لهم حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وإذا اعتبرنا الجملة الأخيرة من كلام الله، وذلك ما رجّحه بعض المفسّرين، فيكون قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ بدلاً مما سبق، وإذا اعتبرناها تكملة لكلام الرجل المؤمن فتكون جملة: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ مبتدأ.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: على أي الاحتمالين، فإنّ هذه الآية هي تعريض بمشركي مكّة مع رسول الله أن يضلّهم الله كما أضلّ قوم فرعون، وأن يستدرجهم مثلهم إلى هلاكهم المحتوم، وهي تأكيد لما تقدّم في أوّل السورة من التنديد بهم، وقد تكرر التنديد بالجدال العقيم والمكابرة والتعامي عن الحق، تكرّر في السورة عدّة مرات، إذ كان من الواقع المعيش أن تتذرع كلّ نزعة باطلة أو سياسة قمعية بمجادلة مضلّلة ودعاية مغرضة تتعب دعاة الحق وتعرضهم -أحيانا- للأذى، ولكن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا ويرزقهم

الثبات والصبر حتى ينتصر الحق، فيلحق مقت الله ومقت الذين آمنوا بالجادلين المتكبرين ممن طبع الله على قلوبهم بداء الكبر والجبروت، وما أوتي العالم مما فيه من شرّ وفساد إلا من عظرسة المتكبرين وظلم الجبارين. وقد ورد في الأثر: إذا أراد الله بقوم شرًا سلّط عليهم الجدل ومنعهم العمل. وليس الجدال بغير حق من سمات عباد الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان:٦٣). ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ (القصص:٥٥). والله أعلم.

تطاول فرعون على موسى، ومتابعة الرجل المؤمن لنصح قومه.

أ) - النص:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: الصرح: البناء الشامخ العالي كالأبراج وناطحات السحاب اليوم، أسباب: جمع ســـ، الوسائل الموصلة إلى مطلوب ما كالطرق ووسائل النقل، و﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾: منصوب على البدلية، ﴿فَأَطَّلِعَ﴾: والاطلاع هو النظر إلى الشيء لمشاهدته من ارتفاع اعتقادا منه أن الإله لا يكون إلا في السماء. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾: أي يظن موسى كاذبا في دعوته، قال فرعون ذلك تمويها على قومه ليقطع البحث في قضية دعوة موسى في قصره ليوجه أنظار قومه إلى خارجه. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾: اعتبر الله حملة فرعون في طلب بناء الصرح مكرا وكيدا يؤول به إلى الهلاك والخسران. ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾: أي أدلكم على طريق الفوز والسداد في الرأي. ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ﴾: نصب مفعولين، وهو مجزوم في جواب الطلب، و﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾: أي الطريق الموافق للحق والصواب، ولعل الرجل المؤمن في هذه النصيحة قد أظهر إيمانه لقومه. ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾: المتاع: ما ينتفع به في وقت ما ويكون مصيره إلى الزوال والفناء، ﴿هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾: أي دار الاستقرار الدائم في ظروف حسنة. ﴿هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾: يفيد القصر، والمتاع: ما ينتفع به مؤقتا، والجملة مبينة لجملة: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: ﴿مَنْ﴾: شرطية، جوابها: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾؛ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: جملة حالية، وكذا قوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي دون أن يكون خاضعا لحساب في مقابل الأعمال. ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾: ﴿مَا لِيَ﴾: استفهام تعجبي. جملة: ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾: جملة حالية،

يقدر لها مبتدأ، أي: وأنتم تدعونني. ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾: جملة تفسيرية لجملة: ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾: ﴿لَا جَرَمَ﴾: أصل معنى الجرم القطع فهي بمنزلة حقًا، لا شك، لا محالة، لتوكيد الكلام وتوثيقه. ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾: قال القطب في تفسيرها: "(لا) عند البصريين نافية لما قبلها، أي لا يثبت ما ذكر من الإشراك أو لا يمتنع". و﴿جَرَمَ﴾: بمعنى ثبت وحقّ. و﴿أَنَّ﴾ وما بعدها في تأويل مصدر فاعل: ﴿جَرَمَ﴾، أي ثبت انتفاء ثبوت دعوة في الدنيا والآخرة لما تدعونني إليه. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾: أي أكل شأني وشأنكم معا إلى الله فيجزي كل فاعل بما فعل. ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: ﴿النَّارُ﴾: بدل من سوء العذاب. ﴿يُعْرَضُونَ﴾: حال.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَأَطَّلِعَ﴾: قرأ الجمهور بالرفع تفريعا على "أبلغ"، وقرأ حفص عن عاصم بالنصب، على جواب الترجّي لمعاملة الترجّي معاملة التمني. ﴿وَصُدَّ﴾: قرأ الجمهور بفتح الصاد، وهو يجوز اعتباره قاصرا الذي مضارعه "يصيد"، بكسر الصاد. ويجوز اعتباره متعديا الذي مضارعه "يصُدّ"، بضمّ الصاد، وقرأه حمزة والكسائي وعاصم بضمّ الصاد. ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾: قرأ الجمهور بفتح الياء، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بضمّها وفتح الخاء. ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾: قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص وأبو عمرو ويعقوب: ﴿أَدْخِلُوا﴾ بهمزة قطع وكسر الخاء، وقرأ الباقون بهمزة وصل وضمّ الخاء، على معنى أنّ القول موجّه إلى آل فرعون، وأن: ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ منادى بحذف الحرف.

د)- البيان والتفسير:

بعد أن شعر فرعون بأنّ دعوة الرجل المؤمن قد أخذت تجد مسرعها إلى

قلوب قومه، وهو ما يزال مصرًا على التحدّي والتنكر لدعوة موسى، فركن إلى الحيلة والمراوغة ليجد لنفسه متنفسا جديدا بدعوى التثبت والتحقق من تلك الدعوة فقال لوزيره الأول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

ما كان فرعون في دهائه ومكره يعتقد بأنه يمكن أن يطّلع على إله موسى بتلك الوسيلة التي طلبها من وزيره، ولا كان من مراده البحث عنه لإمكانية التصديق به والإيمان به، ولكنه الاستخفاف والاستهزاء بدعوة الحق التي يتيقن أنها ستهزّ أركان دولته إن هي وجدت سبيلها إلى نفوس أتباعه، ومن أساليب المراوغة والمناورة التظاهر بشيء من الإنصاف بتحوّله من الجزم إلى الظنّ بكذب موسى في دعوته مما حدا به إلى ذلك التثبت والتحقق، ولكنه في الواقع كان مصرًا على عناده وتبجّحه، فقد زيّن له سوء عمله مما لا مطمع معه لقبول أية دعوة منصفة، ولو كانت من أخصّ أقربائه. فهو في جميع أحواله محجور عن سبيل الله سبيل الهدى والرشاد.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾: والكيد: هو التدبير للإضرار بالغير، والتباب: الخسران والهلاك. ويتمثل كيد فرعون في محاولة قتل موسى والرجل المؤمن ولكن الله تعالى أحبط كيده فأهلكه هو وجنوده في اليمّ.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

لقد أصرّ الرّجل المؤمن على إبلاغ دعوته التي أصبحت جزءا من كيانه، وهو متلطّف مع قومه في دعوته، إذ كرّر نداءه لهم في كل مرّة: بـ﴿يَا قَوْمِ﴾، فبعد دعوته إياهم إلى الإيمان بدعوة موسى بصفة عامّة، وبعد أن احتال فرعون في إبعاد الدّعوة عن قصره بتدبيره تلك الحيلة مع وزيره الأول، رأى الرجل المؤمن أن من واجبه أن يتابع دعوته في قومه وهو في هذه المرّة يعلن عنها بصراحة ويبيّن مرتكزاتها مفصّلة ويمهّد لها بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، وإفصاحه باتّباع سبيل الرشاد هو تحدّ صارخ لإعلان فرعون في قومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، وأيّ رشاد يكون في التّألّه على الله وفي الكفر والضلال. وإنما الرّشاد الحقيقي في ما يدعو إليه رسل الله من الإيمان بوحدانية الله، والإيمان بيوم البعث والجزاء، فقد حذّرهم من الافتتان بالحياة الدنيا ورغبهم في نعيم الآخرة واستقرارها فقال: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

فمن معالم سبيل الرّشاد معرفة حقيقة الدّنيا بأنّها متاع زائل مهما فتن به النّاس لأنّه ينتهي بالموت المحتوم لكلّ كائن حيّ، ومن ثمّ فهو متاع قليل بالنسبة لحياة الآخرة التي هي دار الاستقرار والخلود، إمّا في النّعيم وإمّا في الجحيم -والعياذ بالله-

ثم بيّن كيفية المجازاة وقاعدة الحساب في تلك الدار فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

إنه فضل الإله وعدله أن تضاعف الحسنات هناك بعشر أمثالها وأكثر، فالمثلية الجزائية عن السيّئة هو مقتضى العدل الإلهي، فلا يُجزى عن العمل السيئ بالخير، ونرى مؤمن آل فرعون في بيان جزاء الحسنة لم يهمل عنصر الإيمان، لأنّه هو قارب

النجاة. وقوله في جواب الشرط لعمل الحسنة: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يفيد بأنّ الجزاء على الحسنة يضاعفه الله بغير حساب أي تقدير، كما في جزاء السّيئة.

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِيَ إِلَى النَّارِ، تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

تُرى، من أين استخلص الرّجل المؤمن هذه البيانات التوضيحية لأسس العقيدة الصحيحة؟. طبعا إنّه كان يتعلّمها ويتلقّاها من دعوة موسى عليه السلام فيتجاوب معها ويحاول إبلاغها إلى قومه، وهو لا يقصّر في التبليغ والإرشاد، كما يدلّ على ذلك فعلا: ﴿أَدْعُوكُم﴾، ﴿تَدْعُونَنِي﴾ بصيغة المضارع، فقد قابل بين دعوته لهم إلى حقائق الدين الصحيح التي تنجيهم من عذاب الله وبين دعوتهم له إلى البقاء على دينهم الوثني الذي لا يعتمد على حقائق صحيحة مفهومة، إذ الأسماء التي يعبدونها لا مسمّيات لها حقيقية، ولذلك قال: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾. وقد قال تعالى في أمثالها: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (النجم:٢٣).

وشتّان بين الدعوتين: دعوة تدعو إلى الكفر والضلال وتهدي إلى النار، ودعوة تدعو إلى العزيز الغفّار.

وعبارة: ﴿مَا لِيَ أَدْعُوكُم﴾ تدلّ على التّعجب والإنكار، فالله الذي أدعوكم إلى الإيمان به هو المتّصف بالعزّة والغلبة، وله السلطة الحقيقية التي تلاحظون آثارها في كل ما حواليكم، وهو الغفّار الرّحيم، يعفو عن ذنوبكم

ويعفو عن سيّئاتكم.

﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: ﴿لاَ جَرَمَ﴾: تكون بمعنى "حقا" وقد جعلها البعض في قوة القسم، وقد نفى عن معبوداتهم الباطلة أن يكون لها أي دعاء بالعبادة أو الالتجاء إليها؛ لأنها لا تملك أيّة إجابة لمن يدعوها، وهذا العموم مستفاد من النكرة في سياق النفي.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ﴾: أي رجوعنا إلى الله الذي له الدعوة وحده، مرجعنا إليه في الدنيا بالتوجّه إليه والاستغفار والدعاء، وفي الآخرة بفصل القضاء والجزاء.

﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: المسرفون هم من تجاوزوا الحدود في الكفر أو في الكبائر والمعاصي حتى ماتوا على غير توبة، فهؤلاء هم أصحاب النار خالدين فيها وبئس القرار.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: لقد استفرغ الرجل المؤمن ما في نفسه وأراح ضميره بإخلاص التبليغ والنصح لقومه، ولعله لم يجد منهم الاستجابة المطلوبة فختم حديثه بهذه العبارات التي ضمّنها شيئا من التهديد بما ينتظرهم إن هم تربّصوا به مستقبلا، إذ استعمل حرف "السين" التي تدلّ على التنفيس، هدّدهم بأنه سيأتي عليهم يوم يذكرون فيه تلك النصائح، يوم يرى فيه كل واحد منهم مقعده من النار ويومئذ لا ينفعه الندم، ولا يجد من فرعون وغيره معينا ولا ناصرا.

وبذلك أنهى الرجل المؤمن نصيحته، وفوّض أمره إلى الله أن يردّ عنه كيدهم وهو عليم بأحوال خلقه بصير بما يدبّرون ويكيدون، فقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ

سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

والعبارة المفرّعة عما سبق توحي بأنّ القوم أرادوا الكيد به وبكلّ من آمن بموسى كما توّعدوا بذلك. ولكن الله حفظه من مكرهم وردّ كيدهم في نحورهم، فأنجاه الله كما أنجى موسى ومن معه من المؤمنين، ولم يبيّن الله كيفية إنجائه ولكنه ختم القصة بما سلّطه على فرعون من نقمة الغرق والهلاك، ثم استأنف الله بيان حالتهم في البرزخ قبل قيام الساعة فقال: **﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.**

إنه عذاب القبر الذي قال فيه رسول الله: «**القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**»[1]، وقد تقدم أن لفظ: ﴿النَّارُ﴾ إمّا أن يكون بدلا من: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾، فتكون الجملة تتمة لسابقتها، وإمّا أن تكون: ﴿النَّارُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف على أن تكون الجملة مستأنفة بيانا، فكأنّ سائلا عن نوعية سوء العذاب فجاء الجواب بقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، وقد ورد ذكر البرزخ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٠).

والبرزخ هو الفترة التي يقضيها كلّ ميّت في قبره من حين موته إلى يوم البعث، وبالنّسبة للخلق كلّه فهي الفترة ما بين النفختين: أي قيام الساعة والبعث، فقد أثبتت هذه الآية، وتسندها أحاديث عن رسول الله أنّ الميّت إمّا سعيد منعّم في قبره وإمّا شقي معذّب طيلة مكثه في قبره وذلك ما يفيده قوله تعالى: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم: ١١). وهما طرفا النهار يراد بهما -والله أعلم- دوام الوقت، أمّا عن كيفية حصول ذلك للميّت فهو من أمور الغيب التي نكل

١- رواه الترمذي من حديث أبي سعيد، كتاب (٨٠) صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٢٦)، رقم ٢٤٦٠: ٤/٦٣٩.

فيها الأمر إلى الله، وقد قال تعالى في شأن الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩). وقد ثبت عن رسول الله أنه كان يستعيذ بالله من عذاب القبر.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، إنها النهاية الأبدية للشقاء والعذاب يتكفّل به زبانية جهنم بأمر من الله، بطرح آل فرعون وبكلّ الطغاة إلى قعر جهنم -والعياذ بالله-، والله أعلم.

أحوال أهل النار في التّخاصم والمحاجّة.

أ)- النصّ:

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾: ﴿إِذْ﴾: بمعنى "حين". والتقدير: وحين تقوم الساعة يقال. ويجوز أن يكون ﴿إِذْ﴾ متعلقا بمحذوف بمعنى: أذكر إذ. ﴿يَتَحَاجُّونَ﴾: التحاجّ هو الجدال والتخاصم بين اثنين فأكثر. ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: أي فريقان يختصمون، الضعفاء هم عامّة الناس من الأتباع الذين لا شأن لهم في أمور السلطة. و﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: هم سادة

القوم من الكبراء، ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: التبع اسم لمن يتبع غيره، يستوي فيه الواحد والجمع، وقيل: هو جمع. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾: الاستفهام للوم والعتاب، ﴿مُّغْنُونَ﴾: اسم فاعل من فعل: أغنى عنه، أي أجزى، أي حمل عنه كذا. والنصيب من الشيء: أي الحصة منه، وهو مفعول لاسم الفاعل: ﴿مُّغْنُونَ﴾. ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾: ﴿كُلٌّ﴾: مرفوع بالابتداء، ﴿فِيهَا﴾: خبره، والجملة من المبتدأ والخبر خبر ﴿إن﴾. والتنوين في ﴿كُلٌّ﴾ عوض عن المضاف إليه، التقدير: إنّا كلّنا في النّار. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾: جمع: خازن، وهم الزبانية المكلفون بما تحويه جهنم من النار، وبشأن المعذبين فيها. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾: ﴿يُخَفِّفْ﴾: مجزوم بعد الأمر بالدعاء، ﴿يَوْمًا﴾: منصوب على المفعولية وهو كناية عن القلة. ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى﴾: الاستفهام للتقرير. ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: الحجج الواضحة، ﴿قَالُوا بَلَى﴾: أي أقروا بدعوة الرسل إياهم إلى طريق الحقّ. ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾: أي قال خزنة جهنم للكفار: أدعوا أنتم وتولّوا أمر أنفسكم.

ج- البيان والتّفسير:

بعد تخصيص آل فرعون بأشدّ عذاب جهنّم عمّم الله بذكر شأن من شؤون أهل النار وهم فريقان يختصمون: المستكبرون الطغاة والضعفاء الأتباع، بيّن الله كيف يتحاجون ويتلاومون فقال تعالى: **﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَآءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾**.

﴿إِذْ﴾: ظرف للزمان الماضي متعلق بمحذوف يقدّر بـ: اذكر أيها المبلغ عن الله، اذكر لقومك ما عساهم يتعظون به من محاجّة أهل النار، وهم على فريقين

يختصمون سادة كبراء طغوا وحادّوا الله ورسوله، وأتباع مستضعفون عليهم ضغوط من سادتهم في البقاء على الكفر والضلال، ويتحاجّون بمعنى يدلي كل بحجته لإثبات دعواه، فينحي الضعفاء باللائمة على الذين استكبروا بتخليهم عنهم في ذلك الموقف، وقد كانوا لهم أتباعا في الدنيا، فهم يطلبون منهم التخفيف من عذاب النار، يطلبون ذلك منهم على وجه اللوم والتوبيخ بعد أن تبيّن عجزهم عن تحقيق ذلك لأنفسهم، وقد تكرّر في القرآن مثل ذلك التلاوم بين أهل النار، موعظة للمشركين، وفي جواب المستكبرين تأنيس لأتباعهم بأنهم لا يملكون لهم في ذلك الموقف شيئا: ﴿قَالَ الذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

في هذه الإجابة نوع من دفع المسؤولية من طرف أولئك الكبراء بأنهم أصبحوا مع أتباعهم في النار أذلاّء مقهورين لا يتميّزون عنهم بشيء، فكيف يستطيعون تحقيق مطلبهم وقد حكم الله باستوائهم في العذاب، وحكم الله شامل لكلّ أصناف خلقه، وهو حكم نهائي لا تعقيب عليه ولا استئناف، وهو قائم على موازين القسط، وتأكيد الجملتين بـــ"إنّ" هو للاهتمام بمضمونهما، لما في ذلك من العبرة والموعظة لكلّ من تحمّل قسطا من مسؤولية التدبير والتسيير للشؤون العامّة.

وتحت وطأة العذاب الشديد يلتمس أهل جهنم وسائل أخرى لطلب التخفيف ولو لفترة قصيرة، فيتجهون إلى خزنة جهنّم الموكّلين بالتعذيب يستعطفونهم بأن يدعو الله لهم بشيء من التخفيف: ﴿**وَقَالَ الذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ، قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ**﴾.

خزنة جهنّم هم الملائكة المكلّفون بتعذيب أهل النّار، جاء وصفهم في القرآن بأنهم غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وجاءت تسميتهم

بالزبانية، وهي ما اصطلح عليه اليوم من تسمية أنواع الجلاّدين الموكلين بالتعذيب في السّجون والمعتقلات، هذا الصنف من ملائكة العذاب يعلم بهم أهل النار، وأنّ لهم حظوة عند الله، فيستعطفونهم بطلب الدّعاء إلى الله وصفا للذات العلية بالربوبية تغليبا لجانب العطف والرحمة أن يخفف عنهم مقدار يوم من العذاب، أي ولو لمدة يسيرة بمقدار يوم واحد. ولكنّ ملائكة العذاب يجيبونهم بما يكرّس اليأس، ويسدّ أبواب الرجاء بقولهم: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

بمثل هذا الاستفهام التقريري أجاب خزنة جهنم؛ وهو يتضمّن دفع الكافرين إلى الإقرار بالتضييع والتقصير في ما دعا إليه رسل الله من توحيد الله والإيمان باليوم الآخر، مستندين في دعوتهم إلى الحجج والأدلة الواضحة، والتعبير: بـ﴿تَأتِيكُمْ﴾ يدلّ على توالي ذلك واستمراره عبر التاريخ البشري كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١٦٥).

وبعد أن أقرّ أهل جهنم بذلك بقولهم: ﴿بَلَى﴾ قال لهم ملائكة العذاب تحقيرا وتهكما: ﴿فَادْعُوا﴾، أي أدعوا الله أنتم بأنفسكم إن كان لكم مطمع في الإجابة من بعد كفركم وضلالكم، ولذلك جاء تعقيبهم تيئيسا من كلّ شفاعة إذ قالوا: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ (الرعد:١٤). ومع الضلال الخيبة والخسران، ويحتمل أن يكون هذا التعقيب من كلام الله تعالى فيقتضي العموم بعدم قبول دعاء الكافرين في الدنيا ولا في الآخرة، ولعل الإظهار مكان الإضمار يرجّح الاحتمال الثاني، وهو ما ذهب إليه الجمهور.

يقول الإمام ابن عاشور تعليقا على ما ورد في هذه الآية: "وقد يتوهّم في بعض الأحوال أن يدعو الكافر فيقع ما طلبه، وإنما ذلك لمصادفة دعائه وقت إجابة دعاء غيره من الصالحين، وكيف يستجاب دعاء الكافر وقد جاء

عن النبي ﷺ عن أبي هريرة: «**ذكر رسول الله رجلا يطيل السفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ، يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب له**».[1]

ولهذا لم يقل الله: فلما استجاب دعاءهم، وإنما قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ (لقمان:٣٢). أي لأنه قدّر نجاتهم من قبل أن يدعوا، أو لأنّ دعاءهم صادف دعاء بعض المؤمنين"[2]، والله أعلم.

طمأنة الرسول والمؤمنين بالانتصار، وحثّهم على الصّبر والاستغفار.

أ)- النصّ:

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب (١٢) الزكاة، باب (١٩) قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم ١٠١٥: ٢/٧٠٣.

٢- التحرير والتنوير: ٢٤/١٦٦-١٦٧.

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾: الجملة مؤكدة بـ"إن" والجملة الاسمية واللاّم المزحلقة للخبر، واختيار صيغة المضارع: ﴿نَنصُرُ﴾ بالنسبة لمن سبق من الرسل هو لاستحضار حالات نصرهم الداعية للاعتبار، وأمّا بالنّسبة لرسول الله فهي لما يترتب من النّصر المحقّق في الدنيا والآخرة، و﴿الْأَشْهَادُ﴾: جمع شاهد، وهم الرسل والملائكة والمؤمنون يشهدون للرسل بالإبلاغ، وعلى الكافرين بالتكذيب. ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ بدل من الأول، والمعذرة اسم مصدر اعتذر، وهي الحجة التي يستظهرها المجادل، و﴿اللَّعْنَةُ﴾: الطرد من رحمة الله و﴿سُوءُ الدَّارِ﴾: أي عذاب جهنم. ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ، هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾: المفعول الأول والثاني لأورثنا. ﴿الْكِتَابَ﴾: أي الشريعة التي في كتاب التوراة، ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾: حالان: من الكتاب، ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أي أصحاب العقول النيّرة. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: تفريع على قوله: ﴿إنا لننصر﴾، ووعد الله هو تحقيق النصر لرسوله، فالجملة في موقع التعليل للأمر بالصبر. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾: أمر الله رسوله بالاستغفار لاستدامة حالة العصمة التي تقتضيها النبوءة وهو بذلك في مقام الأسوة لمن دونه من المؤمنين، و﴿الْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾: طرفا النهار، والمقصود بهما أوقات الصلوات الخمس. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾: تكرر التنديد على المجادلين في آيات الله بغير حجة ولا برهان، والمقصود بهم بالأولى مشركو مكة، ﴿إِن﴾: نافية، ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿كِبْرٌ﴾: مبتدأ. والجملة: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ خبر ﴿الَّذِينَ

يُجَادِلُونَ﴾. والكبر: مرض قلبي يشعر الإنسان أنه أعظم من غيره، أي إن دافع المشركين في المجادلة هو الكبر الذي يملأ قلوبهم. ﴿مَا هُم بِبَالِغِيهِ﴾: أي هم محبطون في ما يقصدون لا يبلغون فيه مرادهم. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾: أي التجئ إلى الله ليحفظك من شرّهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿رُسُلَنَا﴾: قرأ الجمهور بضمّ السين، وقرأ أبو عمرو بإسكانها. ﴿لاَ يَنفَعُ﴾: قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بالياء التحتية؛ لأن الفاعل "معذرة" غير حقيقي التأنيث، وللفصل بين الفعل وفاعله. وقرأ الباقون بالتاء الفوقية، على اعتبار التأنيث الحقيقي.

د)- البيان والتّفسير:

تأتي هذه التّسلية لرسول الله والمؤمنين معه بتحقيق نصر الله لهم في الدنيا والآخرة، تأتي في هذا النّصّ الكريم تعقيبا واستخلاصا للعبرة بعد تلك الجولة من ذكر الأحداث الماضية للرّدّ على جدال الذين كفروا في آيات الله، والتهوين من شأنهم في تظاهرهم بالعزّة والقوّة، وهو يقول لرسوله: ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾. وكان آخرها نصر الله لموسى ولمؤمن آل فرعون، وكيف كانت عاقبة الطغاة الظالمين، فقال جلّ من قائل: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ، يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾.

جملة مستأنفة مؤكدة بـ"إن" واللام، واستعمال نون العظمة مع الإضافة التشريفية للرسل معطوفا عليهم المؤمنون بهم على اعتبار متابعتهم لمنهج الرسل في

نصرة دعوة الحقّ، واختيار صيغة المضارع لأحداث ماضية هو لاستحضار تلك الحالات التي ترويها القصص القرآنية بذلك العرض الفني الرائع لاستخلاص العبر، ولم يخصّص الله أيّ نوع من النصر، ليشمل كلّ الأنواع المرغوب فيها لاستكمال أسباب القوّة كما يغطّي الحياتين في الدنيا والآخرة، فأمّا في الدنيا فيتحقّق النصر بزجر الأعداء وقهرهم والتغلّب عليهم بعد مجالدتهم ومواجهتهم بالقراع والنزال أو بالمحاجة والجدال، وقد يتمّ ذلك بالحرب السّجال كما حدث لرسول الله مع أعدائه.

ومهما انتعش الباطل وطال أمد الصراع فإنّ الغلبة للحقّ وأعوانه في نهاية المطاف كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة:٢١). ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصّافات:١٧١-١٧٣).

وقد لا يتحقّق النّصر في حياة الداعية، إمّا بسجنه أو قتله -كما حدث لكثير من الأنبياء-، ولكن دعوتهم تأخذ مجراها في الأجيال حتى يكتب لها النصر، كما قال تعالى لرسوله في الآيات اللاحقة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾. والذين يفوتهم النّصر المادي من الرسل والدعاة إلى الله في حياتهم الدنيا، فإنهم منتصرون -لا محالة- بالنّصر المعنويّ بحسن الذكر وطيب الأحدوثة، كل ذلك في عاجل الدنيا، وأما في الآخرة فيقول عنها تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ، يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

و﴿الأَشْهَادُ﴾ جمع شاهد، وهم الملائكة والأنبياء والمؤمنون من هذه الأمّة كما فصّل الله ذلك في الآيات، وقيل: هي الجوارح تشهد على أصحابها، والقول الأول أنسب بجلال الموقف، وقد افتضح فيه الظالمون، وتقطعت بهم الأسباب، فلا

يقبل منهم اعتذار، بل لا يؤذن لهم في ذلك إطلاقا، وهم مطرودون من رحمة الله ولهم سوء الدار في عذاب جهنم، بينما المؤمنون ترفع درجاتهم، وهم مكرّمون بصحبة الأنبياء والأبرار في جنات النعيم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ، هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: وكعينة مباركة ونموذج طيّب لنصر الله في الدنيا ذكر الله موسى وكيف حباه بهدي النبوّة وما أنزل عليه من أحكام الشريعة التي توارثها قومه من بني إسرائيل لتكون لهم هداية وتذكرة من بعده، يتدبّرها أهل العقول منهم جيلا بعد جيل.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾: فرّع الله على ما تقدّم من تحقيق النصر لرسله، فرّع عليه الأمر لرسوله بالصبر، هكذا مطلقا ليشمل كل أنواع الصبر، وعلل الأمر بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾، أي إنّنا سننصرك كما نصرنا من قبلك من الرسل، فإنّ العاقبة للمتّقين، ووعد الله هو الحقّ واليقين.

ثم أمر الله رسوله ليتزوّد في ملازمة الصبر بقوله:

أ)- ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾: ولا ينافي ذلك عصمة الرسل ولا قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح:٢). لأنّ الأمر بالاستغفار تقتضيه عصمة النبوءة وزيادة الثواب لأداء حقّ الشكر لله، ولأنّ الرسول في مقام القدوة لغيره من المؤمنين.

ب)- ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾: قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ يراد به الأوقات كلها، فبعد التحلّي بالاستغفار يأتي التحلّي بحمد الله وتسبيحه، وذلك هو الزّاد الرّوحي الذي يحصّن المؤمن من الاضطرابات النفسية

التي تنحرّ عن فتنة الابتلاء حتى يعيش المؤمن في فيوض أنوار السماء.

وبما أن السورة الكريمة قد ندّدت بشدّة على المجادلين بالباطل وأنكرت عليهم عنادهم واستكبارهم، فقد تكرر ذلك التنديد عدّة مرّات خلال السورة بدءا من قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللهِ إِلاَّ الذِينَ كَفَرُوا﴾، وفي هذه الآية يبيّن تعالى الدوافع النفسية لجدالهم بغير علم فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ اَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾.

ولا شكّ أنّ المقصود بهؤلاء هنا هم نفس المتحدّث عنهم في أوّل السورة من طغاة قريش، فإنّهم في الواقع لا يقومون بذلك تكذيبا لرسول الله، لأنّهم لا ينكرون صدقه ولا أمانته، وإنّما يفعلون ذلك بدافع الحسد والغيرة والكبر من أن يكونوا تبعا ليتيم بني هاشم أو أن يستووا مع مواليهم وخدمهم، وهذا ما يوضّحه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّه لَيَحْزُنُكَ الذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِئَايَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣).

ومنطق الكبر لا تنفع معه حجّة ولا يستقيم برهان، والكبر يتولّد عن الحسد، ولا يرضى الحسود إلاّ زوال النعمة عن محسوده، ولا يبلغ الحسود مراده أبدا ما دام المحسود يواجهه بالصبر والأناة، كما أمر الله رسوله بذلك، وقد قال الشاعر العربيّ:

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله
كالنّار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وللثبات على الصّبر أمر الله رسوله أن يلتجئ إليه مستعيذا به من شرّهم، فهو العليم بأحوال خلقه والمطّلع على سرائرهم وما يدبّرونه من

مكائد، وهو الذي يردّ كيدهم في نحورهم، فاللّهم اكف عنّا شرّ الحاسدين وكيد الكائدين، والله أعلم.

من دلائل عظمة الله وقدرته في الخلق.

أ) - النصّ:

لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

ب) - التّحقيق اللّغوي:

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾: اللاّم تـؤذن بقسـم مقدّر؛ لأنّ اللاّم هي في جواب ذلك القسم للتأكيد، و﴿خَلْقُ﴾ و﴿أَكْبَرُ﴾ خـبر، والمراد بخلق الناس، خلقهم مرة ثانية للبعث. ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بين: ﴿الأَعْمَى﴾ و﴿الْبَصِيرُ﴾ طباق، وهما استعارتان للذين اهتدوا والذين هم في ضلال، ونفي الاستواء بينهما يقتضي التفاضل بينهما. ﴿قَلِيلاً مَّا يَتَذَكَّرُونَ﴾: ﴿قَلِيلاً﴾: حال و﴿مَا﴾: مصدرية، والتقدير: قليلا تذكرهم، فالمصدر المؤوّل في محل رفع فاعل. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَلاَتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾: حالة إنكار الجاحدين للبعث تقتضي التوكيد بـ"إن" واللام لزيادة تحقيق الوقوع، وقوله: ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ تأكيد للجملة السابقة. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: يأتي الدّعاء بمعنى العبادة، وبمعنى طلب السؤال، كما أنّ الاستجابة تطلق على قبول تلك العبادة وعلى إعطاء المطلوب، وكلا المعنيين تحتملهما الآية. ﴿أَسْتَجِبْ﴾: مجزوم في جواب الطلب. ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾: ﴿دَاخِرِينَ﴾: حال من ضمير، ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾: بمعنى صاغرين أذلاء. ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: لفظ الجلالة مبتدأ وفي الخبر احتمالان: أن تكون الصّلة خبرا له أو يكون الخبر هو جملة: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: معترضة، و﴿جَعَلَ﴾: إذا كانت بمعنى "خلق" كما في هذه الآية فإنه ينصب مفعولا واحدا. ﴿فَأَنَّى تُؤفَكُونَ﴾: أي فكيف تصرفون عن عبادة الله إلى عبادة الأوثان. ﴿اللَّهُ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: ﴿قَرَارًا﴾: أي مستقرة غير مضطربة، أو هي مستقرّ لكم. و﴿السَّمَآءَ بِنَآءً﴾: كما قال: ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾، والبناء ما يرفع سمكه عن الأرض. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾: بين "صوّر" فعل، و"صُوَر" جمع صورة، جناس ناقص، والتصوير هو خلق الإنسان على صورة معيّنة تمتاز بالعناية والدقة. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿رَبُّكُمْ﴾: بدل، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾: من البركة وهي تزايد الخير ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أي أشرف الخلائق الموجودة من الإنس والملائكة والجن ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من ﴿ادْعُوهُ﴾، ﴿الدِّينَ﴾

مفعول لمخلصين.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَا يَتَذَكَّرُونَ﴾: قرأ الجمهور بياء الغيبة جريا على مقتضى ظاهر الكلام، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بتاء الخطاب على الالتفات، والخطاب هو للذين يجادلون في آيات الله. ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾: قرأ الجمهور بفتح التحتية وضمّ الخاء، وقرأ أبو جعفر ورويس عن يعقوب بضمّ التحتية وفتح الخاء على البناء للنّائب، أي سيدخلهم ملائكة العذاب جهنم.

د)- البيان والتّفسير:

لمّا كانت قضية البعث هي أهمّ القضايا التي جادل فيها الكافرون وبنوا عليها دعايتهم ضدّ دعوة رسول الله، وهم على ذلك الإصرار والعناد يقرّون لله تعالى بالخالقية لأنفسهم وللسماوات والأرض، فاقتضى ذلك أن تدحض شبهاتهم بما يثبت قدرة الله على إعادة خلق الناس، لأنّ ذلك أهون وأصغر من خلق السماوات والأرض وما أودع فيهما من الأرزاق لخلقه، وما أبدع في خلقة الإنسان بالذات، وهو الجدير بأن يعبد وحده وأن يخلص له الدين فقال جلّ من قائل: **﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾**.

تقتضي حالة الإنكار الشديد من الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، وبدافع من الكبرياء والعناد، يقتضي ذلك أن يأتي الإخبار الرّبّاني مؤكّدا بأنواع من المؤكدات لإثبات المعنى وتركيزه في الأذهان، وتقوم الحجّة الداحضة لشبهتهم على المقارنة البسيطة بين أنواع خلق الله مما هو في حيّز الرؤية البصرية أو العلمية، فهناك خلق مبثوث على وجه الأرض، وفي قمّة تلك الأنواع هذا المخلوق الإنساني الذي

أصبح خصيما لربّه وكلّ مجموعاته من أولها إلى آخرها، ما هي نسبة مجهود إيجادها بالقياس إلى خلق السماوات والأرض؟. فنحن بين خلق صغير حقير وخلق هائل عظيم وهل يعجز القادر على الخلق العظيم أن يعيد الخلق للصغير الضئيل؟. كلا، فإنّ العلم الصحيح لا يسوّي بين الأمرين، فمن لأكثر الناس بإدراك ذلك العلم؟. ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ (يس:٨١). فإنّ قدرة الله تعالى ليس أمامها كبير ولا صغير، وليس يهولها عظيم ولا حقير، غير أنّ غرور الإنسان وكبرياءه هي التي تحجب عنه أنوار الحقائق الكونية العظيمة فلا يرى إلاّ ما حوله، ولا يقيس الأشياء إلا على نفسه الضعيفة المحدودة، فيبقى بذلك أكثر الناس في ظلمات الجهل يتيهون ويتخبطون، والقليل منهم من تدركه عناية الله بالهداية والتوفيق، فهو بنور الله يبصر، وعلى نهجه المستقيم تسير قدماه.

وقد ضرب الله مثلا للفريقين بحال الأعمى والبصير فقال: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا يَتَذَكَّرُونَ**﴾، شبّه الله الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، بالأعمى الذي فقد بصره فهو يتخبط في مشيه تحفّ به الأخطار في كلّ خطوة، بينما المؤمنون بالله وأضافوا لإيمانهم فضيلة العمل الصالح فهم كالبصير الذي يتبيّن طريقه ويمضي إلى غايته في أمن وسلام، فهل يستوي الفريقان في التقييم والمقارنة؟، نفي الله الاستواء بينهما مما يقتضي تفضيل أحدهما عن الآخر، فالبصير هو الأفضل، لأن العمى نقص في تقدير الناس.

وزيادة في بيان هذا المعنى قارن الله تعالى بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المسيء، والمسيء يقابله المحسن، غير أنه تعالى فصّل موجبات الإحسان بالإيمان والعمل الصالح، ولا شكّ أنّ الإحسان هو أرقى درجات الإيمان، والعطف

عليه بالعمل الصالح للدلالة على التلازم بينهما، وتقديمهما على السيئ للاهتمام بهما أكثر، والتذييل بقوله تعالى: ﴿قَلِيلاً مَّا يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليقابل به التذييل الذي جاء في الآية السابقة بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنّ التّذكّر الواعي هو نتيجة للعلم والمعرفة، وكان من آثار ذلك الجهل المميت إنكار قدرة الله على إعادة الخلق للحياة الأخرى.

فبعد التّدليل على تلك القدرة والتنديد على الجهل أكّد الله وقوع الحياة الأخرى بأنه حق لا ريب فقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤمِنُونَ﴾، الساعة في المصطلح القرآني عَلَم بالغلبة على قيام البعث، فمهما جادل المجادلون وأنكر المتكبّرون فإنّ قيام الساعة آت لا ريب فيه، وقد أكّد الله الخبر بعدّة مؤكّدات مراعاة لمقتضى حال المنكرين، ثم نفى أيّ ريب في وقوعها بعدما أثبت قدرته على ذلك بالأدلة القاطعة، ولما كان الريب في وقوعها حاصلا لكثير من الناس سواء بأقوالهم أو بأحوالهم فإن التذييل بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤمِنُونَ﴾؛ لأنهم لا يتدبرون دلائل قدرة الله وبالتالي لا يتوصلون إلى إدراك حكمة الله من وراء ذلك لتحقيق عدله في الحساب والجزاء، فهم بين منكر جاحد لوقوعها، وبين مؤمن إيمانا سطحيا لا يردع نفسا ولا يهذب سلوكا.

ولزيادة إقامة الحجة على الناس بيّن الله وسيلة النجاة في الآخرة منددا بأولئك المستكبرين المتعجرفين فقال: **﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**.

ما أروع الابتداء بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، إنّه استجاشة للعاطفة الإيمانية تجعل القلب حاضرا متلهفا لتلقي المخبر عنه وهو قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، والدّعاء يأتي على الغالب في القرآن بمعنى العبادة، ويأتي لسؤال العبد من الله حاجته، والاستجابة تتحقق بإعطاء السائل حاجته. والأمر: ﴿ادْعُونِي﴾ هنا يحتمل

المعنيين، ولكن الاستجابة تتطلب شروطا لا بد من توفيرها عند الداعي، منها إخلاص التوجّه لله لقوله تعالى في أول السورة: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، ومنها عدم التعجيل في الإجابة، لأنه تعالى هو أعلم بما يصلح للسائل، وقد قال سيّدنا عمر: "أنا لا أحمل همّ الإجابة، إنما أحمل همّ الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة".

فإنّ مجلى الربوبية لله تعالى ومظهر العبودية له من طرف المؤمن إنّما تتمثل في ذلك التّذلل والافتقار إلى الله الغنيّ الحميد مهما بلغ الإنسان من درجة الاكتفاء والاستغناء بحظوظه المختلفة، لأنّ ما عندكم ينفد وما عند الله باق، ولذلك جاء هذا التذييل المناسب في التنديد بالمستكبرين بعدما تقدم الحديث عنهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فالجملة -وإن كانت تعليلا للأمر الإلهي بالدعاء- فهي الرابط المناسب في السياق بعد وصف المجادلين بالكبر، بيّن الله مصيرهم في الذّل والمهانة بنار جهنم.

فإذا كان واقع الناس أزاء الدعوات الدينية بين مؤمن وكافر، فإنّ واقعهم أيضا إزاء نعم الله التي تغمرهم جميعا بين شاكر لها وجاحد كافر بهما، وسواء كان ذلك بلسان المقال أو بلسان الحال لدى كثير من المتدينين الجغرافيين، فالله تعالى يسوق لهؤلاء وأولئك دلائل قدرته، وبذكرهم بجلائل نعمه إثباتا لحقه عليهم في العبادة فقال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ**﴾.

فالجملة على الاستئناف البياني مصدّرة بلفظ الجلالة: ﴿اللَّهُ﴾ مخبرا بالموصول لإثبات صفاته الكمالية التي يستحق بها حقّ الربوبية التي أشار إليها قبل وبعد، وابتدأ بالاستدلال على قدرته بخلق الأكوان العلوية وشدّة ارتباطها بالأكوان السّفلية، والتي تتجلّى في تعاقب الليل والنهار في تعادل وتوازن بين الظلمة والضياء

بدوران الأرض حول نفسها وهي متجهة نحو الشمس، ثم بتعادل الحرارة والبرودة في تعاقب الفصول الأربعة بدوران الأرض حول الشمس، ويتمّ ذلك بقدرة الله في تناسق بديع ونظام دقيق بما يضمن مصالح الخلق ويوفر لهم أسباب الحياة الهنيئة. فسكون الليل ضروري لراحة الأجساد وأعصابها وخلاياها لتزيل عنها عناء النهار، كما أنّ النور في النهار ضروري للنّشور والحركة للعمل والكسب، فكلّ نهار يطلّ على الكون فهو جديد بالنسبة للإنسان، إذ يستيقظ من نومه بعد موت مؤقت فيحمد الله على أن أصبح معافى في بدنه آمنا في سربه، كما كان الرسول يستقبل نهاره بقوله: «**الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي، وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره**».

فمن غير الله يضمن لنا دورة الحياة ونحن في ثناياها منعّمون، وهل الناس كلّهم يقدّرون ذلك الفضل لصاحبه فيشكرونه ويحمدونه؟، أم هم في طغيانهم يعمهون؟. جاء التعقيب الإلهي بأنّ الأكثرية هم الجاحدون المنكرون لتلك النعمة إمّا استكبارا وعنادا وإمّا سفاهة وغفلة.

وأمام ذلك الجحود والكفران أثبت الله لذاته العليّة صفة الرّبوبية وانفراده بالخالقية والوحدانية فقال: ﴿**ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ، كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾.

الإشارة إلى لفظ "الجلالة" يجعله متميّزا بصفاته وأفعاله معظّما في قلب السامع بحيث لا تلتبس ربوبيته بغيرها من ربوبية الآلهة الباطلة، وهي لا تخلق شيئا ولا تنفع ولا تضرّ، والإخبار بأربعة أوصاف عن اسم الإشارة هو لتمييز الذات العلية بتلك الصّفات الكمالية التي تثبت حقيقتها في إفراد العبادة لها، ثم فرّع عليها الاستفهام التعجيبي ممن يقرّ بذلك للخالق، ثم هو ينصرف إلى عبادة غيره كفرا وعنادا مثل ما كان ينصرف من قبلهم ممن جحدوا بآيات الله وكذّبوا بها. وهذا

دليل آخر على قدرة الله وفضله علينا.

﴿اللهُ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَالِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

تكرار لفظ الجلالة له وقعه البليغ في سوق أدلة القدرة الإلهية، فبعد التّنبيه إلى الظاهرة الطبيعية المألوفة لدينا من اختلاف الليل والنهار ذكرنا في هذه الآية بما هو أساس تلك الظواهر من جعله الأرض لنا موضع استقرار وثبات، بما مهّد لنا على ظهرها من وسائل الحياة، تغطي كل احتياجاتنا، فلا تميد ولا تضطرب وفوقها من الجبال الرواسي ما يضمن قرارها، وجعل السماء سقفا محفوظا وبناء متماسكا لا ينصدع ولا ينهار، وأودع فيه من آيات الزينة والجمال ما يسحر عيون الناظرين، وهل الذي سخر لكم ذلك هو عاجز عن إعادة خلقكم؟. كلا، إذ حسم الله هذه القضية في هذه الآيات بالدلائل الباهرات، كما جاء في قوله بسورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا، وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَالِكَ دَحَاهَآ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا، مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (٢٧-٣٣). ومن أدلة قدرته تعالى في خلق أنفسنا ذكر ثلاثة منها:

أ)- ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾: أي إنّه تعالى اقتضت حكمته بعد تسخير الظروف البيئية الملائمة للحياة، اقتضت حكمته أن يخلق الإنسان فجعله خلقا سويًا مزوّدا بكلّ ما يحتاج إليه من الجوارح والحواس، وميّزه بالإدراك ليكون سيّد الكائنات على وجه الأرض وخليفة الله فيها لإصلاحها وعمارتها.

ب)- ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾: إذ اتّفق علماء الأحياء أنّ الإنسان في

شكله هو أجمل الحيوانات في انتصاب قامته وارتفاع رأسه ومشيه على رجلين وذلك مفاد قوله تعالى في معرض الامتنان علينا:

- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤).

- ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:٦-٨).

ج)- ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: ومع حسن الخلق، طيّب الرزق مما يكفل لنا رغد العيش ويمدّنا بالطاقة الجسدية والقوة العقلية لتدبير شؤون حياتنا، فليس من الإسراف ولا من البطر في الإسلام أن نتمتع بالطيبات من الرزق بادّعاء الزهد وترويض الجسد والله يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف:٣٢). وإنما المطلوب هو شكر المنعم لاستدامة تلك النعمة، فهو الموصوف بالوحدانية والربوبية، وبالتالي هو المستحقّ لعبادتكم وهو المبارك لذاته.

﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: وإعادة اسم الإشارة مخبرا عنه بلفظ الجلالة وصفة الربوبية -كما تقدم- هو لمزيد التعريض بسفاهة الداعين لغير الله، وهو ربّ العالمين، من الملائكة والإنس والجن، وهو الغامر ببركاته كل الكائنات.

﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ومع كمال ربوبيته تعالى وحدانية ألوهيته التي دلّ عليها حسن تدبيره لشؤون الكون بأنّه هو الحيّ القيّوم حياة ذاتية لا أوّل لها ولا آخر ولا يتصف بذلك غيره، وذلك ما تدلّ عليه صيغة الحصر: ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾؛ لأن حياة غيره معرّضة للزوال، ومع تفرّده تعالى بالحياة الأزلية فهو متفرد بالألوهية

لا يشاركه فيها سواه، ثم فرّع الله على ذلك الأمر بعبادته وعبّر عنها بالدعاء لأنه يلازمها شريطة أن تتوجّهوا إليه بإخلاص، لا يفسدها رياء ولا يشوبها أي شرك، وجعل الدّين متعلّق الإخلاص، ويتمّ بحسن المعاملة على أسس الشرع الحنيف بين العبد وربّه، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، بتقدير: قائلين. لإثبات الحمد والثناء لله، أي فاعبدوه بالطاعة وبالثناء عليه وشكره، لما روي عن ابن عباس أنه قال: "من قال: لا إله إلا الله، فليقل إثرها: والحمد لله ربّ العالمين"، رواه ابن جرير، والله أعلم.

متابعة بيان دلائل القدرة الإلهية لتركيز العقيدة.

أ)- النصّ:

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَآءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: هما أمر ونهي يمثلان الجانب السلبي والإيجابي من العقيدة، جعل الرسول من نفسه قدوة لقومه يخلص لهم النصح، و﴿الْبَيِّنَاتُ﴾: هي المنزل عليه من الله المتضمن لعبادة الله وحده. ﴿ثُمَّ

﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾: الطفل: يصدق على الواحد والاثنين والجمع، وقد يقال: طفلان وأطفال، والأشدّ: القوة في البدن، وشيوخ: جمع شيخ، وهو من بلغ سنّ الخمسين إلى الثمانين، ويجمع على: أشياخ. ﴿وَمِنكُم مَّنْ يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾: أي من قبل ما ذكر، أي يكون سقطا، و﴿قَبْلُ﴾: مبني على الضمّ، على نية معنى المضاف إليه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿شُيُوخًا﴾: قرأ نافع وأبو جعفر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب وخلف. قرأوا بضمّ الشين، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بكسرها. ﴿كُن فَيَكُونُ﴾: قرأ الجمهور برفع "يكون" على أنّ الفاء عاطفة، أي: فهو يكون، وقرأ ابن عامر بنصب "يكون" بـ"أن" مضمرة، على أنّ الفاء سببية.

د)- البيان والتّفسير:

ما يزال السّياق يعدّد دلائل القدرة الإلهية في الآفاق وفي الأنفس، وجاءت هذه الجملة معترضة بينهما لتقرير دليل الوحدانية بخبر الوحي الإلهي على لسان رسوله، وهو يجعل من نفسه قدوة لقومه، فقال جلّ من قائل: **﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

الرّسول هو حجّة الله على خلقه في ما يجب عليهم في حقّ الخالق من إفراد العبادة له، وإسلام الوجه لجلاله وعظمته، فإذا قصرت أنظارهم وعجزت مداركهم عن إدراك حقيقة الألوهية وعن التصور الصحيح لموقف العبودية نحوها، فإنّ الوحي الإلهي على لسان رسوله ووضوح بيانه يقطع على المشركين كلّ عذر، ويضعهم

أمام مسؤوليتهم في ما يتخبّطون فيه من الضّلال والشرك، وفي ما يحاولونه مع رسول الله من الرجوع إلى دين آبائهم، ويلاحظ أنّ المقول المأمور به يتضمّن أصول العقيدة في جانبيها السلبي والإيجابي، النهي عن إشراك غير الله في العبادة، والأمر بإسلام الوجه لله بمعنى الخضوع والتذلّل لجلال عظمته وحده، كما يلاحظ لطف التبليغ بأسلوب التعريض بالمشركين، وذلك بإسناد النهي والأمر إلى الرسول دون تشريكهم، بل جعله الله قدوة صالحة لذلك، لأنّ الرسول لم يسجد لغير الله قبل نبوءته.

ومتابعة لبيان أدلة القدرة الإلهية يأتي هذا الاستئناف الرائع فيقول تعالى: **﴿هُوَ الذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّنْ يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**.

تكرّر الحديث في القرآن على أطوار خلق الإنسان وهو جنين في بطن أمّه أو بشر سويّ يتطور في مراحل السنين من الطّفولة إلى الشيخوخة وإلى الهرم، وهذه الآية جمعت الطورين، فاقتصرت في طور الجنين على ثلاثة أطوار معطوفة بـــ"ثم" لتدلّ على الفترة التي يتطلبها كلّ طور، كما فصلته آية "المؤمنون"، وهي تدلّ على بديع صنع الله وقدرته على الإيجاد والخلق بدءا وإعادة، وفي أطوار العمر عطف أيضا بـــ"ثم" واستعمل اللام التي بمعنى "إلى" الدالة على الغاية، وهي لام الصيرورة، وبعد ذكر الأطوار الرئيسية الثلاثة، طور الطفولة وطور الشباب وطور الشيخوخة، أشار إلى ظاهرة الفناء للحيّ مهما كان حظّه من الحياة في تلك الأطوار، لأنّ الآجال محدّدة عند الله، وجاء التذييل بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ للتنبيه إلى واجب هذا المخلوق في تدبّر تلك الدلائل الواضحة رجاء اهتدائه إلى معرفة من يستحق وصف الإلهية ليفرد بالعبادة.

﴿هُوَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾:
أي الله وحده يختصّ بالإحياء والإماتة، هكذا على الإطلاق، لأنّ ظاهرتي الحياة والموت تتنوّعان عند الكائنات، ولكلّ منها طريقة توالدها وكيفيات موتها، فمَن غير الله العليّ القدير يمنّ علينا بالحياة؟، ومن غيره يسلبها منّا عند آجالنا المحددة؟، فإذا كان لغز الحياة سرّا مكنونا استعصى على أفهامنا، وقد استيقاه الخالق ضمن أموره الغيبية عندما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:٨٥).

إذا كان الأمر كذلك، وحتى لا نوغل في الحيرة والذهول فإنّه تعالى فرّع على قدرته على الأحياء والإماتة، إعلامنا بعظيم قدرته لما هو أكبر من ذلك بأنّه إذا أراد أمرا تكوينيا مما يتعلّق بملكوته، فإنّه يتحقّق بمجرّد تعلّق إرادته بذلك الأمر إيجادا أو إعداما دونما تردّد ولا كلفة، كسرعة نطقنا بفعل: "كن"، ولله المثل الأعلى، وذلك ما يعبّر عنه العلماء بقولهم: أمره بين الكاف والنون. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم.

والله أعلم.

ترهيب المجادلين في آيات الله بالباطل.

أ)- النصّ:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُمْ

بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾: الاستفهام للتعجيب في أول الآية وآخرها، أو الأول للتقرير والثاني للتعجيب، والرؤية علمية، والمجادلة في آيات الله، أي مجادلة تكذيب. ﴿الذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾: ﴿الذِينَ كَذَّبوا﴾: بدل من الذين يجادلون، والمراد بالكتاب القرآن، وبما أرسلنا به رسلنا: أي كذّبوا بجميع الكتب المنزلة على الرسل. ﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ﴾: ﴿الأَغْلاَلُ﴾: مبتدأ، وجمع غلّ: طرف من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير ونحوه، ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾: خبر، و﴿السَّلاَسِلُ﴾: معطوفة على الأغلال. ﴿يُسْحَبُونَ، فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾: ﴿يُسْحَبُونَ﴾: أي يجرّون في جمر جهنم، ويطلق الحميم على الماء الحار، ﴿يُسْجَرُونَ﴾: من السّجر، وهو بمعنى الملء، وبمعنى الإحماء، يقال: سجّر التنور أي ملأه وقودا، فهم وقود النار كما قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٠). ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾: أي قال الكافرون للملائكة العذاب: ضلّ عنا آلهتنا، أي غابوا عنا في هذا الموقف، وبعد الاعتراف بعبادتهم لتلك الآلهة، أضربوا عنه فأنكروا عبادتها بالمرّة. ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾: ﴿ذَلِكُم﴾: الإشارة إلى العذاب الذي هم فيه، ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾: الباء سببية. ﴿تَفْرَحُونَ﴾: الفرح بمعنى البطر والغرور، و﴿تَمْرَحُونَ﴾: بمعنى الاختيال والتبختر. وبين: ﴿تَفْرَحُونَ﴾، ﴿تَمْرَحُونَ﴾: جناس ناقص.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد سوق الأدلة الواضحة على بيان قدرة الله في الآفاق وفي الأنفس عاد السياق إلى ذمّ المجادلين في آيات الله، في تكذيبهم بالقرآن، وقد تكرّر التنديد في هذه السورة بهؤلاء المجادلين الذين قال الله عنهم في أول السورة: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللهِ إِلاَّ الذِينَ كَفَرُوا﴾، فبعد بيان الأسباب التي تدعوهم إلى ذلك الجدال في ما سبق ختم هنا ذلك التنديد بهذا الاستفهام التقريري موجّها الخطاب إلى كلّ سامع متدبّر لآي القرآن مع بيان سوء عاقبة المجادلين فقال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ، الذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ، إِذِ الاَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ، فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾**.

الخطاب موجّه لرسول الله، ولكلّ متدبّر لآي القرآن أن يتعجب من حال هؤلاء الكفّار المجادلين في آيات الله الواضحة في إبطال الشرك بجميع أنواعه والإقرار بوحدانية الله بعدما أوضح القرآن دلائل عظمته وقدرته بما يشاهدونه ويعترفون به في الآفاق وفي أنفسهم، فأعجب كيف ينصرفون بعد عن الحقّ الواضح، فكذّبوا القرآن وكذّبوا ما أنزلناه على الرسل قبلك من مختلف الكتب التي تدعو كلّها إلى التوحيد وإلى الإيمان بالله، وإنّما يصرفهم عن ذلك ما استقرّ في قلوبهم من كفر وضلال، وإنكار للبعث.

ثم هدّدهم الله بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، حذف مفعول: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لدلالة السياق عليه، أي يعلمون ما كانوا كذّبوا به، ثم قال: ﴿إِذِ الاَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ﴾، أي يعلمون زمن يعذّبون في النار وهم موثوقون بالأغلال مثقلون بالسلاسل، كما قال تعالى في وصف عذاب المجرم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ

الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (الحاقة:٣٠-٣٢)، والسّحب في الحميم أي في الجمر أو في الماء الساخن هو للإيلام والإهانة معا، والسّجر بهم في النار، أي يصبحون وقودا لها كما يسجّر التنور ليشتعل.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ، مِن دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَالِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ، ذَالِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ، ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: ومع العذاب الماديّ -والعياذ بالله- توجّه إليهم ملائكة العذاب بأمر الله ذلك السؤال التوبيخي في شأن معبوداتهم الباطلة أين هي لإنجاءهم مما هم فيه؟، إذ كانوا يعتقدون أنها شفعاء لهم في ذلك الموقف الرهيب، فتأتي إجابتهم مفعمة باليأس والإحباط بأنّ تلك الآلهة قد غابت عنهم، وغيابها عنهم مجازي، إذ ذكر الله في آيات أخرى أنّ تلك الآلهة الباطلة تحضر معهم وتلقى معهم في النار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨). ومعنى غيبتها أنّها لم تنفعهم في ذلك الموقف، ولذلك أضربوا عن القول الأول وقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾، ليس المراد إنكار عبادتهم إياها، بل المعنى أنّ تلك الآلهة ليست بشيء يعتدّ به، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ (المائدة:٦٨). وكقول الحطيئة في قومه:

لكنّ قومي وإن كانوا على عدد ليسوا من الشرّ في شيء وإن هانا
كأنّ ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

ثم قال تعالى: ﴿كَذَالِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ﴾، أي مثل ذلك الضلال يضلّ الله الكافرين الذين عبدوا الأصنام، هكذا على العموم، فيتمّ ذلك التناكر بين العابدين والمعبودين، ثم بيّن الله سبب ذلك المصير المشؤوم فقال: ﴿ذَالِكُم بِمَا

كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، وآفة الإنسان الكبرياء والغرور، مما يؤدّي به إلى البطر والطغيان والزهو بحظوظه الدنيوية، فينحرف عن الجادة ويحادّ الله بالمعاصي والآثام.

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: يقال لهم تقريعًا وتوبيخا وإذلالا جزاء غرورهم وكبرهم، يقال لهم: هذه جهنم فادخلوا أبوابها أذلاّء صاغرين. ودخول الباب كناية عن الولوج إلى داخل البيت. ويزيدهم تيئيسا وإعناتا أنهم خالدون في عذاب جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها. ثم فرّع الله على ذلك قوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، والمثوى هو مكان الإيواء، أي الإقامة والاستقرار، وينسجم اختيار وصف المتكبّرين مع بيان الدّوافع التي جعلت هؤلاء الطّغاة يجادلون في آيات الله بغير سلطان. والكبر مرض نفسي وبيل يدفع الإنسان إلى إنكار الحقّ وغمط الخلق، فما قيمة هذا الإنسان يشمخ بأنفه إلى السماء، وهو ربيب التراب، وفي خدعة حقيقته كالسّراب، ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجاثية:٣٦-٣٧)، والله أعلم.

النصر مع الصبر، وفي آيات الله ما يثبّت الصّابرين.

أ)- النصّ:

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: الخطاب لرسول الله، جاء الأمر فيه مفرّعا عما سبق، و﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: هو وعده بالنصر كما جاء في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾. والتوكيد بـ"إن" في قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هو لمراعاة الحالة النفسية للمؤمنين في استبطاء ذلك النصر. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾: "إن" شرطية مدغمة، و"ما" زائدة للتوكيد. ﴿نُرِيَنَّكَ﴾: في موضع جزم بالشرط. ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: عطف عليه، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: جواب الشرط. ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾: ﴿مَن﴾ في موضع رفع بالابتداء، وبين الجملتين طباق السلب. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: الباء في: ﴿بِآيَةٍ﴾ للتعدية، وفي قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هي للسببية، والآية: المعجزة الخارقة للعادة كعصا موسى. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾: إضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لزيادة التنويه بها، "أيّ": اسم استفهام، وهي إذا أضيفت إلى اسم مؤنث اللفظ لا تلحقها تاء التأنيث، وهو منصوب بفعل: ﴿تُنكِرُونَ﴾، وهو استفهام إنكاري، والإراءة بصرية.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُرْجَعُونَ﴾: قرأ الجمهور بالبناء للمجهول، وقرأ يعقوب بالبناء للمعلوم،

وبين القراءتين تكامل.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تلك الحملة الشّعواء على المجادلين في آيات الله في التّنديد عليهم وتزييف مواقفهم وما تخلّل ذلك من تسلية لرسول الله، أمر الله هنا رسوله بالصبر على أذاهم وارتقاب النّصر عليهم كما وعده الله بذلك إن عاجلا أو آجلا كما نصر الله رسله من قبل، إذ ووجهوا كلّهم بالتكذيب والإذاية، كما طولبوا كلهم بالآيات والخوارق، وليس أمر ذلك بأيديهم، ولكنّه بأمر الله يصرّفها كيف يشاء، على أنّ آيات الله كثيرة مما يشاهدونه في الكون، وخصّ بالذكر منها الأنعام والفلك معدّدا ما فيها من منافع، ثم أشار إلى سائرها بصفة مجملة، مما لا يملك أحد أن ينكره فقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾.

تكرر الأمر الإلهي لرسوله في السّورة مرّتين، وكلّ منهما جاء في مكانه المناسب، وسورة غافر -وإن كانت تعنى بتركيز أسس العقيدة الإسلامية كغيرها من السور المكية- فإنها تختصّ بتجسيد ذلك الصّراع المرير بين الحقّ والباطل وبين الإيمان والكفر، بدءا من قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾.

ثمّ ما أعقب ذلك من الوعد لرسوله الله وللمؤمنين بالانتصاف لهم من أعدائهم، وتكرار الأمر بالصبر في السورة الكريمة ينمّ عما كان يعتمل في صدور المؤمنين من استبطاء لتحقيق ذلك الوعد، والاستعجال من طبع الإنسان: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء:١١). أو لم يقل الرسول والذين آمنوا معه، متى نصر الله؟.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ هو كالتعليل للأمر بالصبر، وتوكيده بـــ"إن" هو لمراعاة الحالة النفسية للمخاطبين من استبطاء تحقيق ذلك الوعد. إذ ليس من الضروري أن يتحقّق ذلك النّصر في حياة الإنسان المكافح؛ لأنّ سنن الله لا تخضع لتدبيراتنا المحدودة، فهو الذي يحدّد الموعد الذي ينجز فيه وعده وفق ما يناسب الأحوال المقدّرة في علمه وحسبما تقتضيه حكمته.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: فما على المجاهدين في سبيل الله والمكافحين لنصرة الحقّ إلاّ أن يأخذوا بأسباب النصر ويبذلوا في تحقيقه كلّ ما في وسعهم، ثم يرتقبون بعد ذلك من الله ما يحبّونه من النّصر، وإن طال أمده بعد وفاتهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، أي هم في قبضة الله، هو الذي يقرّر مصيرهم في الدّنيا بالنصر عليهم، كما في غزوة بدر وغيرها مما لقي فيها المشركون من عذاب القتل والأسر، كما يقرّر مصيرهم في الآخرة بالعذاب المقيم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾: وإذ كان المجادلون في آيات الله يتحدّون الرّسول بأن يأتي بآية خارقة تؤيّد دعواه في النبوءة والرسالة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام:٣٧)، وبعد أن ردّت شبهتهم بمختلف الحجج وما تخلّلها من أنواع الترغيب والترهيب في السورة الكريمة، وبعد وعد الله بالنّصر لرسوله وللمؤمنين جاء في هذه الآية ما يكون تسلية وتثبيتا لرسول الله، وأنّه ليس بدعا من الرّسل في ما يعانيه مع قومه، بل شأنه في ذلك هو شأن الرّسل من

قبله، أولئك الرّسل هم من الكثرة بحيث لم يقصّ الله إلاّ أخبار القليل منهم في كتابه، يقول الإمام ابن عاشور في شأنهم: "وليس المسلمون مطالبين بأن يعلموا غير محمد ﷺ، ولكن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن بصريح وصف النبوءة يجب الإيمان بنبوءتهم لمن قرأ الآيات التي ذكروا فيها، وعددهم خمسة وعشرون بين رسول ونبي، وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَاهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّآ وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ، وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام:٨٣-٨٦) على أسماء ثمانية عشر منهم، وذكر أسماء سبعة آخرين في آيات أخرى". إلى أن قال: "ولا يجب على الأمّة الإيمان بنبوءة رسالة معيّن إلاّ محمدا ﷺ أو من بلغ العلم بنبوءته بين المسلمين مبلغ اليقين لتواتره مثل موسى وعيسى وإبراهيم ونوح".[1]

قلت: وما ورد في بعض الأحاديث من تحديد عددهم مثل الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن أبي ذرّ من أنّ عدد الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاث مئة وخمسة عشر جمّا غفيرا. قلت: الحديث أحاديّ ظنيّ الدّلالة لا يصّح الاعتماد عليه بالقطع واليقين، ولذا لا يجب علينا أن نقتصر على عدد معيّن، بل نؤمن بجميع الرّسل إجمالا، إلاّ المذكورين في القرآن، فإنّ الإيمان بهم واجب.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، والمقصود

١- التحرير والتنوير: ٢١١/٢٤.

بالآية هو الإتيان بمعجزة خارقة للعادة، والكفار لا يكتفون بالآية التي تصاحب دعوة الرسول كعصا موسى مثلا، بل يشتطّون في مطلبهم فيستزيدون من تلك الآيات تعجيزا وتحدّيا كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء:١٥٣)، أو كما عدّدوا مطالبهم للرّسول كما ورد في سورة الإسراء، فلم يكن محمد بدعا من الرسل في ذلك، غير أنّ الله وحده هو الذي يترل تلك الآية لما له من القدرة الإلهية في ذلك، فهو لا يخضع لمقترحاتهم ولكنّه يصرّف الأمور كيف يشاء، وما الرسول إلاّ بشر يبلّغ عن الله، فليس في مقدوره أن يتصرّف في إرادة الله.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾: فرّع الله على الآية السابقة مجيء أمره أي قضاؤه الأزلي بإظهار آية تبيّن صدق الرسول فيحكم الله بينه وبين خصومه المبطلين، نصرا للرسول وخسارة لأعدائه، والتعبير: ﴿فَإِذَا﴾ يفيد التّحقّق واليقين كما يقول اللّغويون، وفي ذلك تعريض بما يلحق الكافرين من أنواع الهزائم، كما ثبت ذلك في الواقع التاريخي، وهنالك إشارة إلى المكان الذي يتمّ فيه قضاء الله على المبطلين.

وبعد إنهاء تلك الجولة في بيان الصراع بين الحقّ والباطل وما تخلل ذلك من امتنانه تعالى على خلقه بما سخّر لهم من نظام الكون في العوالم السّفلية والعلوية مما يدلّ على انفراده تعالى بالتدبير والتّصرّف، انتقل السّياق إلى الامتنان مرّة أخرى بما سخّر للنّاس من الأنعام وبخاصّة الإبل وما فيها من منافع جمّة فقال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**﴾.

البدء بلفظ الجلالة لاستجاشة العاطفة الإيمانية المستكنّة في الفطرة الإنسانية، والجعل هو بمعنى التهيئة والتمكين، والأنعام هي الحيوانات المسخّرة للإنسان من

الإبل والبقر والغنم والمعز، وقد تكرّرت في القرآن الكريم آيات الامتنان بخلق الأنعام وبيان منافعها كما في سورة الأنعام وسورة النحل، وهنا يرد الامتنان بتلك الأنعام وتعدّد منافعها مما تشترك فيها كأكل لحومها وشرب ألبانها، وما قد يختصّ بأحدها كالركوب وحمل الأثقال، ولذلك اعتبر بعض المفسّرين أنّ المقصود بها الإبل خاصّة، لأنّه تعالى خصّص من منافعها: الأكل والركوب والحمل، وأضاف لها قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾، فأما الحمل والركوب والأكل من لحومها فمعروف في عادات الناس قديما وحديثا. فما معنى قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾؟.

إنه إشارة إلى خاصية الجمال الممتازة التي تسمّى بالرواحل، أي المهاري الرشيقة التي تُختار لقطع المسافات البعيدة والتي يقضي بها الإنسان بعض مآربه الخاصّة التي تهمّه في شؤونه الدنيوية، والتي تتطلب سفرا قاصدا وسعيا شخصيا لقضائها، وهي تلحّ على الإنسان وتعتمل في صدره حتى يقضيها، وهذه الرّواحل في الزمان القديم هي بمثابة الحجز في الأقسام الفاخرة في الطائرات لرجال الأعمال أو كالسيارات الفخمة الخاصة بهم للتردّد على مؤسسات أعمالهم، وقديما وصفوا الجمل بسفينة الصحراء، وفي هذه الآية الكريمة يزاوج في الامتنان بالركوب عليها وعلى الفلك في البحر، ومما يدل على خصوصية الإبل في الخلقة الدالة على قدرة الله أن يلزّها في قرن واحد مع خلق السماوات والأرض والجبال فقال عزّ من قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(الغاشية: ١٧-٢٠).

ثم لفت الله انتباهنا إلى أدلة القدرة الأخرى الكثيرة فقال: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، الإراءة بصرية، وقد تكون علمية، وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة للتنويه بها، وهي أعظم من أن تحصى، وكلّها تدلّ على قدرة الله

وعظمته ووحدانيته.

واختيار الفعل المضارع يدلّ على التجدّد والاستمرار؟. والنظر في آيات الله يدعو إلى شكر المنعم، فليس هناك ما يدعوكم للتنكّر والجحود، إلاّ من ركبه الغرور واستحوذ على قلبه الكبر والعناد، وإنّ ربك لهؤلاء لبالمرصاد، والله أعلم.

التّذكير بعبرة آثار الأمم التي أهلكها الله لمّا كذبت رسله، إذ لا ينفع إيمان عند رؤيته العذاب.

أ)- النصّ:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾: الاستفهام للإنكار، وأمّا ضمائر الغائبين المذكورة في هذه الآيات فقد قال عنها الإمام ابن عاشور: "واعلم أن المفسّرين ذهبوا في تفسير هذه الآية طرائق قددا أي في إرجاع الضمائر إلى مراجعها، فيقول: والطريقة التي

يرجح سلوكها هي أن هنا ضمائر عشرة، هي ضمائر جميع الغائبين وأن بعضها عائد لا محالة على: ﴿الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وأن وجه النظم أن تكون الضمائر متناسقة غير مفككة، فلذا يتعيّن أن تكون عائدة إلى معاد واحد".[1]

قلت: يتعين أن يكون معادها إلى الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: الجملة كلها في محلّ نصب مفعول: ﴿يَنظُرُوا﴾. و﴿كَيْفَ﴾: خبر "كان" مقدم، و﴿عَاقِبَةُ﴾: اسمها مؤخّر. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: "مَا" الأولى نافية، والثانية موصولة أو مصدرية. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: حاق بهم أي نزل بهم العذاب وأحاط بهم. ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾: زيادة فعل: ﴿يَكُ﴾ للدلالة على أنّ الخبر مقرّر الثبوت لاسمه، والبأس: العذاب الشديد، والمعنى أن الإيمان لا ينفع صاحبه بعد رؤية العذاب. ﴿سُنَّةَ اللهِ التِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾: ﴿سُنَّةَ﴾: منصوب على النيابة على المفعول المطلق، والتقدير: سنّ الله ذلك سنّة، أي إن ذلك تقدير قدّره الله للأمم السابقة، أن الإيمان لا ينفع عند ظهور البأس.

ج)- البيان والتّفسير:

لقد بيّنا في ما سبق أن سورة غافر تجسّد ذلك الصّراع المرير بين الحقّ والباطل، وقد ركّزت في ذلك على دعامتين: الأولى الاستدلال على كمال القدرة الإلهية وخصائص ألوهيته بما بثه من تلك الدلائل في الآفاق وفي الأنفس، والثانية على تنويع أسلوب التهديد والوعيد لأولئك المتكبرين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اغترارا بأموالهم ونفوذهم، وتمسكا بالجاه والسلطة، وفي ختام السورة الكريمة يذكّرهم بمصارع من هم أشدّ منهم قوّة

١- التحرير والتنوير: ٢٢٠/٢٤.

وآثارا في الأرض، كيف استأصل الله شأفتهم عندما كذّبوا برسل الله واغتروا بما عندهم من العلم، فقال عز من قائل: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾.

تكرّر الأمر بالسير في الأرض في القرآن الكريم متناسبا مع الموضوع الذي يتخلله، وقد تكرر التنديد في هذه السورة على الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان من أولئك المشركين الجاحدين لدعوة رسول الله، وهم مغترّون بعزّهم وقوتهم، فبعد ذكر آيات الامتنان بنعم الله الكثيرة، ولم يكن هؤلاء الجاحدون يشكرون مُسديها ولا هم يقدّرون تلك النعم، فإنّ النفوس اللّئيمة لا يردعها إلا التهديد والوعيد.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

فكم في فجاج الأرض من آثار الدمار والخراب لأمم طغت وتجبّرت، وكم في صفحات التاريخ من حقائق لمصارع الغابرين، وكلّها دلائل على حقائق ثابتة لسنّة الله في خلقه، كيف يؤول الصّراع بين الحق والباطل، وأمر الله بالسير في الأرض يأتي لاستحاشة الفطرة الإنسانية حتى تتّعظ وتدّكر، ثم لتقتدي وتتأسّى.

وإذا فـــاتك التفات إلى الماضي فقد غاب عنك وجه التأسّي

فهو يدعو أولئك المتكبّرين أن تكون عيونهم مفتوحة وقلوبهم متبصرة وهم يمرّون على تلك الآثار الناطقة بعظمة من كان قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة وأوسع عمرانا فلم تعصمهم قوتهم، ولم تنفعهم عزتهم ولا كبريائهم عندما تحدّوا رسل الله: ﴿**فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَـيِّـنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾.

وكان من رحمة الله بخلقه أن لا يتركهم هملا يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وتبطرهم النعمة فلا يشكرون مسديها، وحتى لا تختلّ الموازين الاجتماعية الضرورية للعمران البشري يبعث الله رسله مبشّرين ومنذرين يذكّرون الناس بالحقائق الوجودية الكبرى بما يفرض التعادلية في حياة الناس، سيما إذا اتسعت دائرتهم العلمية في ما يعرفونه من ظاهر الحياة الدنيا، لأنّ العلم بدون إيمان يؤدي إلى الكفر ويطمس فطرتهم حين يقطعون علاقتهم بالخالق فيركبهم الغرور ويتجاوزون قدرهم ومكانتهم، إذ تنحصر مجالات علمهم في هذه الأرض الصغيرة ويحسبون أنهم قادرون عليها، وينسون ما فوقها من الأكوان لا علم لهم بها، ولا سلطان لهم عليها، والله الخالق لهذا الإنسان المغرور يقول عنه في سؤاله عن حقيقة الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥).

يقول الدكتور عبد الكريم بكار معلقا على هذه الآية: "إنّ من قلّة علمنا أن جهلنا أظهر ما يكون عند البحث في الشأن الإنساني الخاصّ، فالباحثون في علم الاجتماع وفي علم النفس خاصّة يجدون طرق البحث تتشعب أكثر فأكثر كلما غذّوا السير قدما، ويشعرون بهشاشة الأرض التي يقفون عليها، وبتوفر عدد أكثر من الاحتمالات كلّما توغلوا في مسار النفس البشرية على حين أن الباحثين في علوم الطبيعة يقيدون من أنواع الانتشار الأفقي للمعارف المختلفة في التقدّم الرأسي الحثيث في مجالات بحوثهم، والسبب في ذلك أنّ العنصر الرّوحي ما دخل في أمر إلاّ عقّده، مما يجعل المرء يشعر أحيانا بأنه الحجر والنّحّات معا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢١)". إلى أن يقول: "لم نرد هنا نزع الثقة من العلم ولا التقليل من شأنه، ولكننا أردنا أمرين:

أ)- ألا نطلب من العلم توليد العقائد الكبرى، ولا الأهداف العليا للوجود، فذلك شيء ذهب به الوحي، والعلم يتعلق بالجزئيات لا بالكليات.

ب)- التعامل الموضوعي المرن مع المعطيات العلمية التي تشتمل على أجزاء متحركة، وتلك التي ما زالت في طور التشكل والنموّ، وإذا فعلنا ذلك أمكننا أن نستضيء بالعلم دون أن نحترق بناره".[1]

قلت: إنّ الله تعالى قد مثّل لذلك النوع من الفرح المشوب بالغرور الإنساني، مثل له بفرح قارون بكثرة أمواله وذلك من خلال إجابته للناصحين له عندما قالوا: ﴿لا تفرح إن الله لا يحبّ الفرحين﴾، فأجابهم بقوله: ﴿إنما أوتيه على علم عندي﴾، فكانت له تلك العاقبة السّيئة التي جازاه الله بها، وكذلك هؤلاء الطغاة الظالمون لما جاءهم بأس الله وعاينوا منه ما كانوا به يكذّبون حاولوا أن يتداركوا ذلك المآل المشؤوم بالإقرار بوحدانية الله، ولكن هيهات، فقد فات الأوان فلا توبة ولا إيمان: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾.

والبأس: هو شدّة المكروه، وإضافته إلى نون العظمة يشي بالقوة والبطش بما لا قِبل للإنسان به، وتصدير الجملة ﴿فَلَمَّا﴾ الشرطية يدل على استمرار تماديهم في التكذيب والإعراض إلى وقت معاينتهم بوادر العذاب، فحاولوا عندئذ إعلان إيمانهم طمعا في النجاة، ولكن مثل ذلك الإيمان القهري الاضطراري لا ينفع صاحبه كالتوبة عند حضور الموت عندما ينسدّ باب التوبة كما ورد في سورة النساء، وكذا الإيمان الاضطراري هو كإيمان فرعون عندما أدركه الغرق، ولذلك قال

١- دكتور عبد الكريم بكار، إشراقة آية: ص ٢٢٤.

تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾. كرّر رؤية البأس، للتهويل والتفخيم، والإيمان الاختياري الذي ينفع صاحبه قد وسّع الله مجاله ليغطي فسحة العمر كلها ما لم يغرغر الإنسان بالنسبة لكل شخص، وما لم تطلع الشمس من مغربها كما ورد في الحديث بالنسبة للبشرية كلها.

ثم ختم الله السورة الكريمة بهذا التعقيب الذي يناسب حقّ السورة في تجسيد الصّراع بين الحق والباطل، وكيف تنتهي جولته بنصرة الحقّ وفوز أنصاره من المؤمنين، وبإزهاق الباطل وخسران مروّجيه، وأنّ ذلك من سنن الله التي لا تتخلّف ولا تتبدّل، وأنه يملي للظالمين، ثمّ يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وفي ذلك إعذار لمشركي قريش، والله أعلم.

تمّت

سورة فصّلت، مكّية، وآياتها ٥٤

بين يدي السّورة الكريمة:

اختلفت تسميتها ما بين المشرق والمغرب من العالم الإسلامي، ففي أغلب مصاحف المشرق تسمّى بسورة "حم السجدة" تمييزا لها عن "ألم السجدة" سميت كذلك لسجود رسول الله عندما انتهى إلى السجدة بها في تلاوته لها على عتبة بن ربيعة، وتسمّى في مصاحف المغرب بسورة "فصّلت" لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، وتسمّى بأسماء أخرى غير مشهورة.

وهي مكّية بالإجماع، نزلت بعد سورة غافر، وآياتها أربع وخمسون عند أهل الكوفة، وهي الحادية والسّتون في ترتيب نزول السور، والحادية والأربعون في ترتيب السور بالمصحف الشريف، وفي مناسبتها لما قبلها يقول الشيخ المراغي باختصار:

أ)- اشتراكهما في تهديد قريش وتقريعهم، فقد توعدهم في السورة السابقة بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (محمد: ١٠). وهددهم هنا بقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (١٣).

ب)- إن كلتيهما بدئت بوصف الكتاب الكريم.[1]

محاور السّورة:

المحور الأساسي يرتكز على بيان أسس العقيدة الإسلامية، وحدانية الله،

---

١ - تفسير المراغي: ٨/١٠٣.

الرسالة والنبوءة، الإيمان باليوم الآخر، وهي في ذلك تنسجم مع السور المكية، وتتفرع عن ذلك المحور الأساسي محاور فرعية تتلخص في ما يلي:

أ)- التنويه بشأن القرآن الكريم بأنّ إنزاله رحمة من الله، وقد فصّلت آياته بلسان عربيّ مبين.

ب)- بيان موقف المشركين في إعراضهم عن تدبّره مع إنذارهم بما حلّ بالأمم السابقة المكذّبة برسلها.

ج)- الإقرار ببشرية رسول الله، خصّه الله بالوحي الذي يبين للخلق الحقائق الكبرى من وحدانية الله والإيمان باليوم الآخر مع إقامة الأدلة على ذلك.

د)- التّحذير من حساب يوم القيامة، وكيف أنّ جوارح الإنسان تشهد عليه، والتحذير من الشياطين وقرناء السوء الذين يزينون للضّالين أعمالهم.

هـ)- الإشادة بأهل الاستقامة وبأصحاب الدّعوة إلى الله وتبشيرهم بالجنة ودعاء الملائكة لهم، وفي مقابل ذلك التنديد بالجاحدين الملحدين، وأنهم لا يخفون على الله، وسيلقون جزاءهم.

و)- الإرشاد إلى أخلاقيات الدعوة إلى الله بدرء السّيئة بالحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

ز)- بيان تناقض مواقف الإنسان في السّراء والضّراء ولا يكون متوازنا في ذلك إلاّ بالإيمان القوي.

ح)- وفي ختام السورة يعد الله تعالى خلقه بأنه سيريهم آيات قدرته وعظمته في الآفاق وفي أنفسهم مما يثبت حقيقة الألوهية، وأنّ من خصائصها العلم المحيط بكلّ ما في أرجاء الكون.

فضلها:

هي تندرج في مجموعة "الحواميم" وهي سبع متتالية في ترتيب المصحف الشريف، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، قال عنها ابن مسعود: "الحواميم ديباج القرآن"، والديباج نوع من الثياب الفاخرة تنسج بالحرير الناعم. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان: «**أنّ رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: تبارك، وحمّ السجدة**»، وفي حديث الترمذي عن جابر قال: «**لا ينام الرسول حتى يقرأ: ألم السجدة وتبارك**».[1]

التنويه بشأن القرآن، وبيان بشرية الرّسول.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ
الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ
وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

١- شعب الإيمان، رقم ٢٢٢٨: ٤/٩١؛ سنن الترمذي، كتاب (٤٦) فضائل القرآن، باب (٩) ما جاء في فضل سورة الملك، رقم ٢٨٩٢: ٥/١٦٥.

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿حٰمٓ، تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتَ -ءَايَٰتُهُۥ﴾: ﴿تَنزِيلٌ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتَ -ءَايَٰتُهُۥ﴾، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوف تقديره: "هذا". ﴿كِتَابٌ﴾: نكّر للتعظيم والمقصود به القرآن. و﴿فُصِّلَتَ -ءَايَٰتُهُۥ﴾: بمعنى بينت ووضحت فهو خال من الالتباس. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: ﴿قُرْءَانًا﴾: منصوب على الحال أو على المدح. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: بينهما طباق، وانتصب ﴿بَشِيرًا﴾ على الحال من ﴿كِتَابٌ﴾، أو هو صفة للقرآن، ﴿وَنَذِيرًا﴾: معطوفا بالواو. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: ﴿أَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾: بمعنى أعرض عن تدبّره، والضمير عائد إلى المشركين وهو معلوم من المقام. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾: ﴿أَكِنَّةٍ﴾: جمع كنان، كغطاء وأغطية، أي عليها حاجز لا يصل إليها ما تقوله، والوقر: -بفتح الواو- ثقل السمع، أي الصمم. ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾: أي كل يعمل على شاكلته، أنت على دينك ونحن على ديننا، وذلك للتيئيس من قبول دعوته. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾: الإستقامة كون الشيء قويما، وتطلق مجازا على حقية الشيء وكونه صادقا، وعدّي بـ"إلى" لتضمينها معنى: توجهوا إليه دون غيره. وقد يضمن معنى: أنيبوا إليه. ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: يحتمل أن يكون هذا القول مما أمر به الرسول أن يقوله للمشركين، ويحتمل أن يكون تعقيبا من كلام الله، الويل: كلمة عذاب تهديدا لهم، وتخصيص منعهم للزكاة بالذكر هنا هي لتفظيع كفرهم الذي يتسبّب في قسوة قلوبهم، وجحودهم للبعث. ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: تقديم الجار والمجرور للاهتمام بهم، والأجر هو الجزاء النافع. ﴿مَمْنُونٍ﴾: اسم مفعول من المنّ، أو هو بمعنى: غير مقطوع.

ج)- البيان والتّفسير:

﴿حٰمٓ، تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ -ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾:

تعالج السورة قضيّة العقيدة بحقائقها الأساسية كبقية السور المكية، وهي مفتتحة بحرفي الحاء والميم كأخواتها من "الحواميم" السبع، وقد سبق الحديث عما ترمز إليه تلك الحروف من التحدّي للمشركين العرب من أن يأتوا ولو بسورة من مثله وهو مؤلف من تلك الحروف التي تنتظم لغتهم، وتكرار تلك الحروف على أشكال مختلفة هو أسلوب من الأساليب التربوية في القرآن الكريم، تقتضيه الحالة النفسية للمخاطبين من القساوة والتعجرف، ولكنّنا مع ترجيح هذا التخريج لمعاني تلك الحروف تبعا لما ذهب إليه أغلب المفسّرين إلاّ أنّنا لا نجزم ولا نقطع أبدا بأنّ ذلك هو المراد منها كما ثبت في علم الله، ولكنّنا نقول: الله أعلم بمراده منها.

ثم نمضي في بيان ما تلاها من الآيات، فنقول: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فعلى الاحتمالات المختلفة للجملة كما تقدّم في التحقيق اللغوي فإن: ﴿تَنزِيلٌ﴾ مصدر فعل "نزل"، فالإشارة بالحرفين المقطّعين إلى القرآن الكريم، فهو تنزيل من الرحمن الرحيم، فكلّ ما جاء من عند الله فهو منزلٌ على اعتبار علوّ شأنه ورفيع درجاته، وهو العليّ الكبير المتعالي، واختيار صفتي الرحمة للذات العلية وإيثارها على غيرهما من الصفات هو للدّلالة على أنّ هذا القرآن ينساب وحيه من ينابيع الرحمة العظمى التي وسعت كلّ شيء، وأنّه هو الرّحمة المسداة للعالمين، سواء في ذلك مؤمنوهم وكافروهم، فهو الحقّ المبين والنور الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:٨٢). ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١٧٤). بل إنّ القرآن بمنهجه التربوي في محبة الخير للجميع، تتجلّى رحمته وبركاته في جميع الكائنات على وجه الأرض، على اعتبار سيادة الإنسان عليها، وتسخيرها له لينتفع بها على الوجه الذي شرعه الله لجلب المنافع ودرء المفاسد.

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: هذه جملة من الأحكام أضفاها الله على تنزيله المتدفّق من ينابيع الرحمة فقال:

أ)- ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾: والكتاب هو مجموع الأوراق والصحائف التي تكون بين دفّتين، ويسمّى القرآن "كتابا" على اعتبار أنّ الله أمر رسوله أن يكتب ما أوحي إليه منه ليبقى محفوظا، وهذا ما طبقه الرسول في حياته إذ اتخذ للوحي كتّابا خاصّين وأتمّ ترتيب آياته وسوره بإرشاد من الله تعالى ثم أكمل الخلفاء من بعده جمع القرآن في المصحف الأمّ على عهد سيدنا عثمان.

وتفصيل الآيات هو تبينها وتوضيحها بجلاء لا إلتباس فيه، ويكون ذلك التفصيل في المبنى والمعنى. وقد تقدم تفصيل ذلك في قوله تعالى في افتتاحية سورة هود: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(١) وفي بيان الفرق بين المحكم والمتشابه من سورة آل عمران.

ب)- ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: والقرآن هو الكلام المقروء في تلاوة صحيحة بتحقيق مخارج حروفه ومراعاة ضوابط الوقف فكان بذلك سهل الحفظ ميسّر الذكر والتّدبّر، وكونه نزل بلسان عربيّ مبين، فالنّصب في الكلمتين على الاختصاص بالمدح كما رجّحه اللغويون، وذلك تطبيق للقاعدة التي بيّن الله المقصد منها إذ قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم:٤). وهذا البيان لا يعرفه إلا العالمون بأساليب تلك اللغة وفقهها وبلاغتها، والصحيح أنّ صياغته العربية نزلت من عند الله تامّة

كما نقرؤها، فلم يصغها جبريل ولا محمد ﷺ كما ذهب إلى ذلك البعض، والدليل على ذلك هو قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٥).

ج)- ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: والبشارة والنذارة من مهامّ رسل الله وكلّ الدّعاة إلى الله، وقد شبّه القرآن بالبشير والنذير على اعتبار قوة تأثيره في قلوب السامعين حتى لكأنه كائن حيّ ينطق ويعظ ويرشد.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾: تفريع على ما تقدّم من صفات القرآن التي من شأنها أن تجد أثرها في نفوس السامعين لآياته، ولكنّ الإعراض والنّفور عن سماع آياته هو السّمة الغالبة على أكثرهم حتى لكأنهم لا يسمعون، إذ لم ينتفعوا بما فيه من الإرشاد والتوجيه إلى الخير وبما فيه من التّحذير عن الشّرّ والفساد،، فهم لا يسمعون سماع تدبّر وتمعّن بل صرّحوا لرسول الله عن إصرارهم في النفور والإعراض.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾:

الضّمير يرجع إلى معلوم من المقام -وهم المشركون-، لم يقتصروا على الموقف السّلبيّ من الإعراض والنّفور، بل لجأوا إلى المجابهة الإيجابية بهذا التصريح الذي ينمّ عن الإفراط في العناد والإصرار، إذ سدّوا على أنفسهم منافذ الإدراك كلّها من العقل والسمع والبصر.

أ)- ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾: فالقلوب هي العقول في مصطلح كلامهم، ﴿فِي أَكِنَّةٍ﴾: جمع "كنان"، أي إنّ قلوبهم مغطّاة بالكامل فلا تصل إليها دعوتك إلى الإيمان بالله وحده وما يقتضيه ذلك من ترك ما نحن عليه من

عبادة آلهتنا.

ب)- ﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾: والوقر -بفتح الواو- هو ثقل السمع يمنعنا من سماع قولك، وهم المحرّضون لبعضهم بعض بقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت:٢٦).

ج)- ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾: أي عيوننا مسوّرة عن رؤيتك، وذلك يمنع التواصل بيننا، فلا تنتظر منّا إجابة.

وبهذه الحواجز التمثيلية بالغوا في إقناط رسول الله وتيئيسه من إمكانية إيمانهم.

وإمعانا منهم في الإحباط والإقناط قولهم له في آخر كلامهم:

د)- ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾: وهو بمعنى المتاركة والمفاصلة بين الفريقين، أي كلّ يعمل على طريقته لنصرة دينه. وقد حذف مفعول: ﴿فَاعْمَلْ﴾ و﴿عَامِلُونَ﴾ ليعمّ كلّ ما يمكن عمله لتحقيق غاية كل منهما.

وأمام ذلك التحدّي السافر لقّن الله لرسوله أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: هكذا بصيغة القصر الإضافي اعتراف من الرسول بمثليتهم في البشرية، لأنّهم لا يؤمنون بنزول الوحي على بشر مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كما قالوا ذلك في معرض التهكّم والاستهزاء، ولكنّهم لما سدّوا على أنفسهم منافذ الفهم والإدراك -كما تقدم- جاءت الإجابة مناسبة لبيان أنّ الله وحده هو القادر على تقليب القلوب وفكّ الأسماع والأبصار من قيودها، أمّا وقد اختاروا لأنفسهم ذلك الاستغلاق على كلمات الحقّ والهدى، فإنّ الرسول

لا يملك من أمرهم شيئا؛ لأنّه بشر مثلهم خاضع لإرادة الله، ولكنّه يختصّ عنهم بأنّه يوحى إليه من الله، وقد كلّفه بتبليغ مضامين ذلك الوحي إليهم، والتي تتمثل في أن يؤمنوا بالإله الواحد، وهو إله العالمين لا شريك له، ولا ندّ، ولا قرين.

﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾: ثم هم يعملون بمقتضى ذلك الإيمان بأن يستقيموا على طريق الله بالخضوع له والتوجّه إليه، وهو ما يفيده تعدية: ﴿اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ عوضا عن "على"، وأمرهم بالاستغفار هو للتخلية وتطهير نفوسهم من الذنوب، والتخلية قبل التحلية كما يقولون.

وتنتهي هذه الجولة من الإشادة بشأن القرآن وبيان موقف المشركين منه ومن المنـــزّل عليه تنتهي بالوعد والوعيد، بشأن أسلوب القرآن في المزاوجة بينهما. وبما أن السياق تشنيع وتقريع للمشركين فقد بدأ الله بالوعيد لهم فقال: ﴿**وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ، الذِينَ لاَ يُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: كلمة عذاب، أو هي دعاء بالهلاك، أو اسم علم لواد في جهنم، وأيّا كانت احتمالات معاني اللفظ فإنه مناسب لصنف المشركين، وقد وصفهم الله برذيلتين:

أ)- ﴿**الذِينَ لاَ يُؤتُونَ الزَّكَاةَ**﴾: والمراد بالزكاة مطلق الصدقة للفقراء والمحتاجين؛ لأن الآية مكية والزكاة بمقاديرها المفروضة لم تشرّع إلا في المدينة المنورة، وفي القرآن المكي تحريض كبير بمختلف الأساليب على بذل الأموال وإطعام الطعام تمهيدا لفريضة الزكاة، كما أنّ من معاني الزكاة تطهير النفس من الذنوب والآثام. كما قال تعالى:

أ)- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٩-١٠).

ب)- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣).

يقول القطب: "وذلك يدلّ على خطاب المشركين بالفروع كالأصول، إذ رتّب الويل على ترك الزكاة كما رتّبه على الشرك".[١]

ب)- ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾: وعدم الإيمان بالآخرة هو مصدر الضلال والكفر لقوله تعالى: ﴿بَلِ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ﴾ (سبأ:٨).

وفي مقابل الوعيد للمشركين يأتي الوعد للمؤمنين: **﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾**، لا يكمل إيمان العبد إلاّ بالعمل الصالح الذي يجسّد ذلك الإيمان في واقع الحياة خلقا رفيعا وسلوكا نظيفا، واستقامة على نهج الله كما أمر، فهؤلاء لهم أجرهم الجزيل عند الله في جنات النعيم أجرا متواصلا غير مقطوع ولا ممنوع، لأن من معاني "المن" النقص والقطع، وذلك من فضل الله وكرمه على الأبرار إذ يزيدهم من فضله، وقد قيل إنه من معاني الآية: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، إنه لا يقطع أجر عملهم إذا تركوه أو تركوا بعضه لهرم أو عجز أو مرض أو لأيّ مانع آخر، إذ صحت نيته وقصده، وأيدّوا ذلك بما رواه أبو داود عن أبي موسى الأشعري: سمعت رسول الله غير مرة وغير مرّتين، يقول: «**إذا كان العبد يعمل عملا صالحا فشغله عنه مرض أو سفر، كتب الله تعالى له كصالح ما كان يعمل، وهو صحيح مقيم**».[٢]

والله أعلم.

١- تيسير التفسير: ٣٩٨/١٢.

٢- رواه أبو داود من حديث أبي موسى، كتاب (٢١) الجنائز، باب (٢) إذا كان الرجل يعمل عملا صالحا فشغله عنه مرض أو سفر، رقم ٣٠٩٣: ١٥٠/٣.

توبيخ المشركين على إشراكهم، في حين وضوح الدلائل على انفراد الله بالخلق واتصافه بتمام العلم والقدرة.

أ)- النصّ:

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾: افتتحت الآية بالاستفهام التوبيخي وحرفي التوكيد، والخطاب فيها للمشركين فهي جواب لقولهم: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾، والأنداد واحده ندّ، وهو المثل، أي تجعلون له أمثالا في استحقاق العبادة، قيل: إن الواو في: ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾ للحال من ضمير: ﴿خَلَقَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الذي خلق الأرض، وهو للتنبيه إلى غفلتهم. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾: الرواسي أي الجبال الثوابت، واحدها راسية، وراس، ووصفها بقوله: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ أي فوق الأرض هو لاستحضار منظرها الرائع. ﴿بَارَكَ فِيهَا﴾: أي جعل فيها الخير الكثير مما هو من رزق الإنسان والكائنات الأخرى. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

سَوَآءً لِلسَّآئِلِينَ﴾: وتقدير الأقوات: أي بما يصلح لكل نوع من الوقت والمناخ، وإضافة الأقوات إلى الأرض لإفادة العموم باعتبار اختلاف المقتاتين. ﴿سَوَآءً﴾: منصوب بالمصدر، وفي القراءة بالرفع يكون خبرا لمبتدأ مقدر: هي سواء، أي لا نقص فيها ولا زيادة، والأربعة الأيام قد دخل فيها اليومان اللذان كانا لخلق الأرض أولا. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: "ثم" للترتيب الرتبي والاستواء: القصد إلى الشيء. أي تعلّق إرادة الله بذلك الخلق، والدخان: ما يتصاعد من لهيب النار وهو تشبيه للمادة الغازية المظلمة يسميها الفلكيون بالسديم. ﴿ائْتِيَا﴾: أمر تكويني. ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: حال من ضمير: ﴿أَتَيْنَا﴾. ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: نزلت منزلة العقلاء لأنهما وصفا بالقول والطاعة. ﴿طَآئِعِينَ﴾: حال. والمقصود: تصوير عظمة الله ونفوذها في المقدرات. ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾: والقضاء هو الإيجاد الإبداعي، وضمير: ﴿قَضَاهُنَّ﴾ عائد إلى السماوات. ﴿سبع﴾: منصوب على البدل من ضمير: ﴿قَضَاهُنَّ﴾. ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾: الوحي: الكلام الخفيّ، ويطلق في القرآن على إلهام الله تعالى للمخلوقات لما تتطلبه. و﴿أَمْرَهَا﴾: أي ما يتأتى لها من شأن. ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾: المصابيح: مستعارة للنجوم الوضيئة. ﴿وَحِفْظًا﴾: مفعول لأجله لفعل مقدر، أي: وجعلناها حفظا، أي من الشياطين المسترقة للسمع.

ج- أوجه القراءة:

﴿سَوَآءً﴾: قرأ الجمهور بالنصب على الحال من ﴿أيام﴾، أي كاملة لا نقص فيها ولا زيادة. وقرأه أبو جعفر مرفوعا على الابتداء، بتقدير: هي سواء، وقرأه يعقوب مجرورا على الوصف لـ﴿أيام﴾.

د)- البيان والتّفسير:

بعد الإعلان عن وحدانية الله والأمر بالتوجّه إليه وطلب المغفرة أعقبه الله هنا بما يدلّ على كمال قدرة الله وعلمه بخلق السماوات والأرض وتقدير شأنهما في الخلق والإبداع، منددًا على المشركين البقاء على الكفر وهم يقرّون بالخالقية لله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾.

تتضمن هذه الفقرة كلاما علميا شيّقا عن نشأة الخليقة وإبداع الكون في علويّه وسفليه، وجاءت في موقعها المناسب بين عرض الدعوة بالأساليب الإقناعية وأنّ الرّسول الداعي بشر لا يملك إلجاء الكافرين إلى الإيمان، وبيّن بيان جزاء المكذّبين وتهديدهم بمثل ما أصاب من قبلهم من الكفار الجاحدين فبعد إعلان متاركتهم لرسول الله بقولهم له: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ جاء الجواب في استئناف ابتدائي بأمر الله لرسوله أن يقول لهم بصيغة الاستفهام التوبيخي: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾.

وفي هذا الإستفهام تشويق لما يأتي بعده، سيما وهو مؤكد بـ"إن" ولام الإبتداء، لأنّ إنكارهم كان لأمر محقّق هم طرف في وجوده وجزء بارز في كيانه، وهو هذه الأرض التي مهّد الله فيها أسباب الحياة للبشرية، وقد بدأ الله بذكر خلقها وكيف ركّزها وأثبتها بالجبال وبارك فيها بالخيرات والأرزاق، وفي هذا التقديم البياني أبلغ حجّة وأقوى دليل لأنها في متناول الإنسان وألصق بواقعه، وأقرب إلى تدبّره وتأمّله، فإذا علمنا أنّ المشركين يقرّون بالخالقية لله تبيّن لنا وقع ذلك التنديد في نفوسهم على كفرانهم وجحودهم؟. وليس اليوم في مدّة الخلق هو اليوم المحدّد

عندنا بالساعات والدقائق بل هو من أيام الله التي قال عنها:

- ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج:٤٧).

- ﴿تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ (المعارج: ٤-٥).

وليس هذا التّحديد العددي بالألف لليوم من أيام الله بالحدّ الأدنى ولا الخمسون الألف سنة بالحدّ الأقصى له، بل هو من الأمور الغيبية التي نكل فيها الأمر إلى الله وحده، وإن حاول العلماء أن يقدروا عمر الأرض بملايير السنين منذ أن كانت كتلة نارية إلى أن بردت قشرتها وتشكلت فيها الجبال والبحار والسهول والأنهار، وظهر عليها الغطاء النباتي ثم صنوف من الحيوانات البدائية الضخمة مثل: الديناصورات المختلفة. ثم تهيأت بعد ذلك لظهور الإنسان، حتى آلت إلى ما آلت إليه اليوم من التوسّع العمراني والتقدم التكنولوجي في كلّ مجالات الحياة، وقد أكمل الله تلك الأطوار كلّها في أربعة أيام، وهو القادر على إتمام ذلك في أقل فترة، ولكن اقتضت حكمته أن يضع سننا لذلك الخلق وهي سنّة التطوّر في كلّ شيء في جميع الكائنات كما قال على لسان سيّدنا نوح لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح:١٣-١٤).

فسنّة التّطور تبدو جليّة في كلّ شيء، ومن صفاته تعالى: "الربّ"، وهي تعني: الرعاية والتربية للخلق، وهو المقصود بالإشارة التعظيمية والتشريفية في قوله: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وهل يليق بهذا الربّ العظيم أن يكون له أنداد، وقوله: ﴿سَوَآءً لِلسَّآئِلِينَ﴾ بمعنى أنّ تلك الأيام الأربعة لخلق الأرض وتهيئتها هي تامّة كاملة لا نقص فيها، والمقصود بالسائلين هم ذوو الحاجات من الذين أسكنهم الله في الأرض.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: هنا للترتيب الذّكري، وقد يعمد إلى ذلك في الأساليب البلاغية، ذلك لأنّ خلق السّماوات أعظم من خلق الأرض وعوالمها أوسع وأكثر، سيما المجموعة الشمسية التي تعتبر الأرض إحدى تلك المجموعات، والترتيب الذّكري لا يقتضي أنّ خلق السماء وقع بعد خلق الأرض، لأن: ﴿ثُمَّ﴾ لا تكون للترتيب الزمني دائما، ولهذا فلا تناقض بين هذه الآية وقوله تعالى في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَآ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٢٧-٣١). لأنّ معنى قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾ بمعنى بسطها وهيّأها للحياة، فيكون الخلق الأول للسّماء والأرض قد تمّ معا بدليل قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

وأمّا دحو الأرض في مراحل تطورّها فقد تمّ بعد ذلك بيومين آخرين، مما يكمّل أربعة أيام كما جاء في الآية الكريمة، فإذا قيل: لم خلق السماوات على كثرتها وضخامتها كلّها في يومين من أيام الله، بينما زيد للأرض يومان آخران تتمة لليومين الأولين؟.

قلنا -والله أعلم-: لأنّ توفير أسباب الحياة على وجه الأرض وتمهيدها لحياة الإنسان والحيوان يقتضي ذلك سنّة التّطوّر كما تقدّم، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَآ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا، مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات: ٣٠-٣٣).

ولهذا ما يزال العلماء يحاولون أن يجدوا في الكواكب الأخرى ما يدلّ على وجود الحياة وكائنات عاقلة كما على الأرض فلم يظفروا بطائل.

والاستواء هو بمعنى القصد إلى الشيء، وتعالى الله عن التّنقّل أو التّوجّه، وإنّما المراد التّمثيل لتعلّق إرادته التكوينية بإيجاد شيء ما فيقول له: كن فيكون.

﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾: هو ما يتصاعد من اتّقاد النّار، والدّخان جسم غازي عبّر عنه الرسول بقوله: «**لم يكن في الوجود من الحوادث إلا العماء**».[1] والعماء سحاب رقيق، وفي مصطلح علماء الكون يسمّى بالسديم، ويبدو أنّه أصل الموجودات، ولا يعلم إلا الله ماهيته وطبيعته.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: أجرى الله السماوات والأرض مجرى العقلاء فخاطبهما بصيغتهم، وقد وجّه الله لهما أمر تكوينه ليوجدا، إذ تعلّقت قدرته تعالى بإيجادهما، والأمر بالإتيان مستعار للقبول والامتثال للأمر التكويني كما يمتثل العبد أمر سيّده، وهو تصوير لعظمة القدرة الإلهية ونفوذها في الأشياء المقدورات جليلة كانت أم حقيرة.

والإجابة بقولهما: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ بصيغة العقلاء أيضا مستعار لسرعة الامتثال عن طواعية ورضى، فاعجب إلى انقياد الكون العظيم كلّه إلى إرادة الله واتّصاله بخالقه اتّصال الطاعة والاستسلام. وليس بخصيم له، وخارج عن طاعته -أحيانا-، إلاّ هذا الإنسان الظّلوم الجهول، ينفلت وينحرف -أحيانا- عن المجرى الطبيعي الفطري الذي رسمه الله حتى يهلك ويلقى جزاءه، إلاّ من أراد الله به خيرا فعاش حياته منعّما مع روح الوجود طاعة واستسلاما لأمر الله.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا

١- أورده ابن عاشور في التحرير والتنوير.

﴿السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾:

التفريع على قوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، و﴿قَضَاهُنَّ﴾ بمعنى: أبدع في إيجادهن. و﴿سَبْعَ﴾: إمّا منصوب على الحال أو على أنّه مفعول ثان لـ﴿قَضَاهُنَّ﴾؛ لأنّه يتضمن معنى فعل: صيّر. أمّا المقصود من السماوات ومن العدد "سبع"، فليس هناك نصّ قطعي يحدّد معناها كما يرى ذلك سيد قطب إذ يقول: "أمّا ما هي السّماء المقصودة؟، فلا نملك تحديدا، فقد تكون درجة البعد سماء، وقد تكون المجرّة الواحدة سماء، وقد تكون المجرات التي على أبعاد متفاوتة سماوات، وقد يكون غير ذلك مما يحتمله لفظ سماء، وهو كثير".[1]

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾: والوحي هنا بمعنى إلهام الله تعالى المخلوقات لما تتطلبه مما فيه صلاحها، وأمرها بمعنى ما يخصّ من شؤون تلك السماء في تقدير سيرها ومدارها ومقدار جاذبيتها وحتى من وجود المخلوقات العاقلة كالملائكة وتحديد مهامهم...إلخ.

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾: ما أروع الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم، وبنون العظمة، والسماء الدنيا هي الأقرب منها إلينا مما يتراءى إلينا في قبّتها الزرقاء من أنواع النجوم النّيرات، تبدو كالمصابيح المعلّقة تنفع الناس في دينهم ودنياهم وتشبع حسّهم الجمالي من بديع صنع الله.

وقوله: ﴿وَحِفْظًا﴾ هو منصوب على المفعول لأجله بتقدير فعل محذوف، وجعلناها حفظا من كل شيطان مارد يسترق السمع كما تقدم تفصيل ذلك في تفسير سورة الصافات.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة تعظيمية إلى الخالق المبدع

١- في ظلال القرآن: ١١٨/٢٤.

الموصوف بالعزّة والغلبة وبالعلم والتقدير، والتقدير: هو تحديد مقادير معينة للأشياء كما قال تعالى:

- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد:٨).
- ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان:٢)، والله أعلم.

تهديد المشركين بمثل ما نزل بعاد وثمود.

أ)- النصّ:

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾: ﴿إِنْ﴾: شرطية تفيد الشكّ، ﴿أَعْرَضُوا﴾: الضمير يعود للمشركين المفهوم من السياق، ﴿أَعْرَضُوا﴾: بمعنى استمروا في إعراضهم. والإنذار: التخويف. و﴿الصَّاعِقَةِ﴾: يجمع على صواعق، في حقيقتها هي النّار التي تنبعث من البرق، والمقصود بها مطلق

العذاب المهلك، لأن عادا لم يهلكوا بها بل بالرّيح الصرصر. ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: ﴿إِذْ﴾: ظرف للزمان الماضي بمعنى: حين جاءهم الرسل، فالجمع في ﴿جَآءَتْهُمُ﴾ لعاد وثمود، على اعتبار عدد أفراد كلّ قبيلة، وفي الرسل من باب إطلاق الجمع على الإثنين، إذ جاءهم رسولان، وهما هود وصالح، ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي جاءتهم الرسل من كلّ مكان بشيء واحد وهو توحيد الله، وقيل: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي الذين بحضرتهم، ومن خلفهم الذين من قبلهم، وعلى أي احتمال فالتعبير تمثيل لحرص الرسل على هداهم. ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾: حكاية جوابهم لرسولهم، وهو يتضمن إنكار رسالة البشر، ومفعول: ﴿شَآءَ﴾ محذوف، تقديره: لو شاء ربنا إرسال الرسل لأنزل. ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿أَمَّا﴾: حرف تفصيل فيه معنى الشرط جوابه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾. والاستكبار المبالغة في الكبر والتعاظم على الناس. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾: الاستفهام إنكاري والرؤية علمية، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾: اغتروا بقوّتهم الجسمية كما وصفهم الله في آيات أخرى، فلم يكترثوا بعظمة الله وأنه أعظم منهم قوة. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾: الريح الصرصر هي الشديدة العاصفة التي لها دويّ شديد، ﴿أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾: أي مشؤومة عليهم. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾: السين والتاء للمبالغة، بمعنى: أحبوا. ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾: مستعار للضلال أي فضلوا الضلال على الهدى. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: الأخذ: مستعار للإصابة المهلكة، ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾: المذل المهين، والباء في "بما" سببية.

ج- أوجه القراءة:

﴿نَّحِسَاتٍ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿نَّحْسَاتٍ﴾

بإسكان الحاء، جمع: نحسة. وقرأ الباقون: ﴿نَحِسَاتٍ﴾ بكسر الحاء، جمع: نحيسة، أي ذات نحس.

د)- البيان والتّفسير:

بعد إقامة الحجّة على المشركين لبيان وحدانية الله وعظمته وقدرته في الخلق والإيجاد، وبعد الاستفهام الإنكاري عن كفرهم: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾، أمر الله رسوله بأن ينذرهم بعذاب شديد يترل بهم مثل ما نزل بأسلافهم الأقدمين عاد وثمود، إن هم استمرّوا على إعراضهم، وقد بيّن الله سبب إعراض عاد وثمود ووسيلة إهلاكهم قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ، إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾.

اختيار ﴿إن﴾ الشرطية في أول الجملة للدلالة على عدم الجزم بحصول الشرط، لأنّ الإعراض لم يقع من الجميع، كما هو الواقع التاريخي، وكما قال تعالى في مطلع السورة: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾، والتعبير بالماضي لما هو متوقّع في المستقبل للدلالة على تحقّق الوقوع، والإنذار هو التخويف من وقوع شرّ وعذاب مثل ما وقع لمن سبقهم ممن شابهوهم في الإعراض والتكذيب؛ لأنّ سنن الله لا تتخلّف، فقد كذّبوا رسلهم وتعلّلوا بما تعلّل به أمثالهم في كلّ زمان ومكان من إنكار بشرية الرسول، وقد لخّص الله مضمون دعوة الحقّ لجميع رسل الله بقوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾، فهي دعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة عامّة شاملة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحَىٰٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥).

وجملة: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ﴾، بمترلة التعليل للجملة السابقة، وقد روى ابن

إسحاق في سيرته قصّة عتبة بن أبي ربيعة حين لام النّبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه، فحاول استمالته بمختلف المغريات فتلا عليه النبي: ﴿حَمٓ، تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، حتى بلغ هذه الآية: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾، فأمسك عتبة على فم النبي ﷺ، وقال له: ناشدتك الله والرّحيم، ثم رجع عتبة إلى قومه متأثّرا بما سمعه، وقال لهم: لقد علمت أنّ محمّدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

حكى الله جواب عاد وثمود لرسولهم وهو مشابهة لما قاله المشركون لرسول الله؛ لأن الكفر ملّة واحدة.

﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾: فهي تعلّة واهية تنمّ عن جهالة وفساد تصوّر لصفات الله تعالى وأفعاله، إذ يقيسونها على صفات وأفعال المخلوقات.

وبعد العرض المجمل لأحوال عاد وثمود فصّل الله ما اختصت به كل قبيلة من صور الكفر والفساد، وما حلّ بكل منهما من العذاب العاجل فقال: **﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾**.

الاستكبار في الأرض سمة الجبابرة الطغاة، وهو شعور كاذب يمليه الشّيطان عليهم، وتساعدهم على ذلك ظروف آنية لا تلبث أن تزجّ بهم في مهاوي الهلاك، والكبر كما يعرّفه علماء الأخلاق هو بطر الحقّ وغمط الخلق، وله دوافع كثيرة في نفس الإنسان، كما تتعدّد أسبابه، فهناك الطّغيان البدني، وهناك الطّغيان المالي،

والطّغيان السلطوي، والطغيان العلمي...إلخ، وقوم عاد ممن زادهم الله في الخلق بسطة كما ذكرهم بذلك رسولهم فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾(الأعراف:٦٩).

وقد سخروا تلك القوة في بناء حضارتهم بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية جمعوا فيها بين الثراء البدوي بكثرة الدّواب والأنعام والحرث وبين العمران المدني ببناء الأبراج والقصور، وذلك ما يذكر به رسولهم هود في سورة الشعراء حين قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٢٨-١٣٥).

لقد استعرضوا عضلاتهم وأنكروا الحقّ الذي جاء به رسولهم، وأنّى للمستكبر أن يعرف الحقّ؟. فقد تطاولوا بقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، إنها ادّعاء الباطل لكلّ جبابرة الأرض حين يغترّون بقوّتهم وينسون مانح تلك القوّة، وهو الله القاهر فوق عباده، وهو أشدّ منهم قوّة وأعزّ جانبا، ولكن الطّغاة لا يذكرون، ومع التمادي في الطغيان، وبعد إقامة الحجة والبرهان، يأتي من الله الجزاء المناسب ليلبسهم ثوب الخزي والهوان، باستئصال تلك الحضارة وقلع جذورها، إنّها الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلاّ جعلته كالرميم، فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية، سخّرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، إنّه الجزاء الوفاق العاجل ذاقوا به الخزي والهوان ودفعوا به ثمن الجبروت والطغيان.

وربّما يبدو لنا شيء من الغرابة في قوّة التدمير لتلك الريح في تلك الأزمنة الغابرة مع طابع القوة التي وصف الله بها تلك الحضارة، ولكنّنا نشاهد

اليوم ما يشبه ذلك التّدمير لقرى كاملة بقوة الأعاصير التي تهبّ على شواطئ أمريكا، وهم قوم لا يقلّون اغترارا بقوتهم عن قوم عاد.

فليقصر الطغاة، فإنّ ربك لبالمرصاد، وقد وصف الله أيام ريح عاد بأنها نحسات عليهم، وأيّ نحس أو شؤم هو أفجع من الموت غيلة، ولعذاب الآخرة أشدّ خزيا يوم لا يجدون وليا ولا نصيرا.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: جاءت قصّة ثمود في بقية التفصيل، وهم يسكنون شمال الجزيرة، أرسل الله إليهم صالحا ليرشدهم إلى طريق الله، وجعل الناقة آية ودليلا على صدقه، ولكنهم اختاروا طريق الضلال، وقد استعير العمى لضلالهم. والتعبير: بـ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ لبيان شدة شغفهم بالكفر والإغراض عن رسولهم، ومن مظاهر اعتدادهم بما مكنهم الله به من خيرات الأرض، أنهم احتاطوا لهلاكهم بالريح مثل قوم عاد، فنحتوا في الجبال بيوتهم اتّقاء للرياح الهوج، ولكن الله القويّ القاهر أهلكهم بالصيحة والرّجفة القوية، عبّر الله هنا عنها بصاعقة العذاب الهون، مما يدلّ على أنها صاعقة من نوع خاصّ أحرقت أجسادهم، وصفها الله بالطاغية في سورة الحاقة، وذلك جزاء ما كسبت أيديهم من التّمرّد والعصيان، حتى عقروا الناقة التي جعلها الله معجزة لرسولهم.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: أي أنجى الله الذين آمنوا من قبيلتي عاد وثمود، إذ أنّ لكلّ رسول قلّة من الأتباع يؤمنون به، فيقدّر الله نجاتهم مع رسولهم، ثم يهلك الباقين، حتى قال الرواة: إنّ قوم ثمود هم من سلالة البقيّة الناجية من قوم عاد، هاجروا إلى شمال الجزيرة وتكاثروا، حتى دخل إليهم الضلال والفساد، فكان منهم ما كان مع رسولهم صالح، ولا شكّ أنّ لهم نفس المصير في الآخرة من عذاب الخزي والهوان، والله أعلم.

شهادة المشركين على أنفسهم في موقف الحساب.

أ)- النصّ:

وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءَ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: منصوب بفعل مقدّر: أذكر، أو دلّ عليه فعل: ﴿يُوزَعُونَ﴾، والوزع: حبس أوّلهم على آخرهم حتى لا يتفرّقوا، والحشر: جمع النّاس في مكان واحد. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ﴿حَتَّى﴾: ابتدائية تفيد الغاية، و"مَا" زائدة للتوكيد. ﴿إِذَا﴾: ظرف للمستقبل متضمن لمعنى الشرط. ﴿جَآءُوهَا﴾: الضمير عائد إلى النار. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾: جواب الشرط، والمعنى: حتّى إذا جاءوا النّار وصاروا بحضرتها سئلوا عن كفرهم فأنكروها. ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾: الاستفهام للوم، والاقتصار على الجلود في الملامة لأنها

تحوي جميع الحواس. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾: والمعنى: ما كنتم في الدنيا تخفون شرككم وتسترون منه بل كنتم تجهرون به، فلماذا تلومون جوارحكم أن شهدت عليكم، وجملة: ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ في موضع نصب بتقدير حرف جرّ: ما كنتم تسترون عن أن يشهد عليكم. ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾: ﴿ذَلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿ظَنُّكُم﴾: خبره. ﴿أَرْدَاكُمْ﴾: خبر ثان بمعنى أهلككم. ﴿فَإِنْ يَّصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَّسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾: ﴿يَصْبِرُوا﴾: في موضع جزم بالشرط، وجوابه: ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾. ﴿يَسْتَعْتِبُوا﴾: يطلبون العتبى، من الإعتاب، أي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب. ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: قيّض بمعنى هيّأ وأتاح الشيء، والقرناء جمع قرين، أي الصاحب الملازم، والمراد بما بين أيديهم: أمور الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: الأمور الغيبية، ويرى ابن عباس عكس ذلك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾: قرأ نافع ويعقوب: ﴿نَحْشُرُ﴾ بنون العظمة مبنيا للفاعل، ونصب: ﴿أَعْدَآءَ﴾، وقرأ الباقون بياء الغائب مبنيا للنائب. ﴿يُرْجَعُونَ﴾: قرأ يعقوب ببناء الفعل على المعلوم، وقرأ الباقون: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالبناء للمجهول.

د)- البيان والتفسير:

على توجيه الموعظة للمشركين وإنذارهم بعذاب عاجل يحلّ بهم كما حلّ بأولئك المكذبين برسل الله وبعد أن حذّرهم هناك بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ﴾ انتقل هنا إلى رسم مشهد مرعب من مشاهد يوم القيامة يوم تشهد على الكافرين جوارحهم وكيف يلومونها على ذلك مع بيان

سبب بقائهم على الكفر فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّىٰ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الجملة معطوفة على قوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾، والتقدير: وأنذرهم يا رسول الله يوم نحشر، وأعداء الله هم جميع من كذّب برسل الله وأنكر وحدانية الله، وكفّار قريش في وقت التنزيل يشملهم هذا الوصف الشنيع بالأولى، وقد جاء هذا الوصف في القرآن خاصًا وعامًا، ففي الخاصّ بكفار قريش قال تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الممتحنة:١).

وفي المعنى العامّ قال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَآئِلَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٩٨).

فإطلاق وصف العداوة لله -هكذا بالإضافة إلى الإسم الظاهر- هو لزيادة التّشنيع على الكافرين بتذكيرهم يوم يحشرون إلى النّار، كما تحشر الأغنام، إذ جاء التعبير: ﴿يُوزَعُونَ﴾، أي تجمعهم ملائكة العذاب وتضمّ أولهم إلى آخرهم، فيساقون إلى جهنّم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ (الطور:١٣). وقال: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم:٨٦). وهم في موقف الحشر يسألون عما أجرموه في الدنيا، والله وحده أعلم بتلك المراحل التي تمرّ عليها أصناف الخلائق، فشهادة الجوارح على أصحابها المجرمين تقتضي أنهم قد سئلوا فأنكروا، ويكون ذلك -والله أعلم- عند وقوفهم على النار كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات:٢٤). وإقرار المجرم بجريمته هو من مقتضيات الحكم العادل لجزائه، فهو يحاول الإنكار طمعا في

تبرئة ساحته، ولكنه تعالى يعطّل فيهم آلة النّطق التي اعتادوا التّعبير بها عن كفرهم ونفاقهم، فتشهد عليهم جوارحهم بما اقترفوا بها من الذنوب والمعاصي بأن يخرس الله الألسنة، وينطق تلك الجوارح، وهو على ذلك قدير، إذ لا يعجزه أن يخلق الناطقية في كلّ شيء، أي في كلّ الكائنات بما فيها الجمادات، أوَ لم ينطق الله الشجر والحجر لرسول الله؟، أوَ لم يعلّم سليمان عليه السلام منطق الطير؟، أوَ لم تؤوّب الجبال مع تسابيح داود عليه السلام؟، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء:٤٤).

وقد ذكر الله للشهادة عليهم كلاً من حاسّة السمع والبصر واللمس المتمثلة في الجلود لاحتوائها على أعصاب الحسّ، وزاد الألسنة والأيدي والأرجل في قوله تعالى بسورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤). ويرى ابن عباس وغيره من المفسّرين أنه تعالى كنّى بالجلود عن الفروج؛ لأنّ ارتكاب الفاحشة بالفرج أيّا كان نوعها هو من المعاصي التي يحاول الإنسان أن لا يفتضح بها، وقد قال أنس: «**كنّا عند رسول الله ﷺ، فضحك، فقال: هل تدرون مما أضحك؟، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلاّ شاهدا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهودا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله. قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعدا لكنّ وسحقا، فعنكنّ كنت أناضل**».[1]

١- رواه مسلم من حديث أنس بن مالك، كتاب (٥٣) الزهد والرقائق، رقم ٢٩٨٠: ٤/٢٢٨٥.

فهم يوجّهون إلى جوارحهم سؤال اللوم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾، فتجيبهم بما تقدّم من أنّها غير مختارة في الإدلاء بشهادتها عليهم، إذ أنطقها الله الذي أنطق كل شيء.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي الله الذي خلقكم أوّل مرّة وهو القادر على إرجاعكم إليه مرّة أخرى، فيحتمل أن يكون هذا من تتمة كلام الجلود تشهيرا بالكافرين في إنكارهم البعث للإمعان في تنديمهم، ويحتمل أن يكون من كلام الله موجّها إلى المشركين الأحياء لتذكيرهم بالبعث بعد عرض ذلك المشهد الرهيب.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ، وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

الآيات الثلاث معطوفة على مشهد شهادة الجوارح على أصحابها وتوجيهم اللّوم لها، والخطاب فيها لكلّ المشركين سواء الأحياء منهم في الدنيا على وجه التذكير أو للأموات منهم على وجه التبكيت، و﴿مَا﴾: نافية، وتقدر "من" لفعل ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾: مع ﴿أَنْ﴾، والتقدير: وما كنتم تستترون من أن يشهد. والمعنى: إنكم في الدنيا كنتم لا تخفون شرككم، بل كنتم تتعاظمون به وتفخرون، فلماذا تلومون اليوم جوارحكم أن تشهد عليكم وكنتم تمارسون ذلك الشرك بها؟، أو يكون المعنى: ما كنتم تستطيعون التّستّر بكفركم عن جوارحكم لأنها أجرأ منكم، ولكنكم لا تدرون أنها سوف تشهد عليكم وأن الله لا يحيط بأعمالكم، إن استخفيتم بها، وهو ظنّ خاطئ في حقّ الله، وهو الذي أوردكم اليوم ما أنتم فيه من الهلاك فأصبحتم من الخاسرين.

وكثير من الناس يخطئون في فهمهم لحسن الظن في الله وهم يقرأون بعض

الأحاديث مثل قوله ﷺ في ما أخرجه مسلم وأحمد عن جابر بن عبد الله: «**لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله، فإنّ قوما قد أرداهم سوء ظنّهم بالله**»[1]، فقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ويأتي سوء الظن من فساد التصوّر لحقيقة الألوهية إما بفساد التأويل للنّصوص القطعية، أو بالإعتماد على بعض الأحاديث الضعيفة، وقد قال الحسن البصري: "إن قوما ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة"، ويقول أحدهم: "إني أحسن الظن بربّي وقد كذب، ولو أحسن الظن لأحسن العمل"، وتلا هذه الآية: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾: وماذا عساه يجدي الصبر لمن يكون في النار ليس بخارج منها إذ يقول لهم ملائكة العذاب: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الطور:١٦). ويقول بعضهم لبعض في يأس وقنوط: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم:٢١).

كما لا تقبل أعذارهم إذا حاولوا الاستعتاب والاسترضاء؛ لأنّ ما بعد الموت من مستعتب كما قال رسول الله؛ لأنّ الآخرة هي دار الجزاء، وبيّن الله سبب بقائهم على الكفر في الحياة الدنيا فقال: **﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.**

١- رواه مسلم من حديث جابر، كتاب (٥١) الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب (١٩) الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم ٢٨٧٧: ٤/٢٢٠٥. ورواه أحمد بهذا اللفظ، رقم ١٥٢٣٤: ٣/٣٩٠.

قَيَّضَ: بمعنى أتاح وهيّأ، والمقايضة هي تبادل السلع، والمتقايضان: هما المتبايعان، إذ كان الناس في القديم يتبايعون بتبادل السلع. والقرناء: جمع قرين، بمعنى الصاحب. فالله تعالى يسلّط قرناء السوء من الجن والإنس على الكفرة لسوء نواياهم وخبث سرائرهم، فيزينون لهم أعمالهم، قال تعالى: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، تعاكس التفسير ما بين المفسّرين، فمن قائل بأنّ ما بين أيديهم هي الآخرة وما خلفهم هي الدنيا ويرى البعض الآخر العكس، بأنّ ما بين أيديهم هي الدّنيا بكل مفاتنها وزينتها وما خلفهم هي الآخرة؛ لأنها تأتي بعد ذلك. فتزيين الدنيا ظاهر في متاعها وشهواتها كما فصّل الله ذلك في سورة آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١٤). وفي سورة الكهف: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (الكهف:٤٦).

وأمّا تزيين الآخرة فيتمثل في إنكار البعث والحساب أساسا، فليغتنم الإنسان فرصة عمره في تحقيق رغبات نفسه لأنه ليس بعد الموت إلاّ التراب والفناء، أو أنه إذا كان مؤمنا بالبعث والحساب فهو يتمنّى على الله الأماني بأنّ رحمته وسعت كلّ شيء وأنّ هناك الشفاعة للعصاة إلى غير ذلك من أنواع التزيين، حتى يؤدي بالإنسان إلى أن يفقد الإحساس بقبح ما يفعله، بل يرى ذلك هو الصواب، وهو عنوان الرجولة الكاملة، وذلك هو أشدّ ما يصيب الإنسان من تيه وضلال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَّشَآءُ وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ (فاطر:٨).

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾: أي إنّ هذا الصنف من الناس هم في عداد الذين حقّ عليهم

القول بمعنى حقّت عليهم كلمة العذاب، فقوله تعالى في التعقيب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ توضّح معنى قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، وقد تقدّم قوله في سورة الزمر: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ (١٩). وفي قوله لإبليس في سورة ص: ﴿قَالَ فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ أَقُولُ، لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٤-٨٥).

إذن، فالقول هو قول الله عزّ وجل وقدره في الأزل في الحكم على المتمرّدين من الجنّ والإنس في الأمم السابقة، فهؤلاء يندرجون معهم في ذلك الحكم.

ويا ما تحدّث الحكماء عن تأثير القرين في صاحبه خيرا أو شرّا، بحيث يحكمون على الإنسان بصحبة قرينه كما قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقول الآخر: "قل لي من تصاحب أقول لك من أنت". وقد نصح السيد المسيح حواريين في اختيار الصاحب فقال: "صاحبوا من تذكركم بالله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويذكركم بالآخرة عمله"، والله أعلم.

وعيد المعرضين عن سماع القرآن، وجزاء أهل الإستقامة.

أ)- النصّ:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾: من اللّغو وهو الكلام الذي لا فائدة فيه، يقال: لغي يلغي، ولغا يلغو، فهو واويّ ويائي، و"فيه": أي قولوا في القرآن أقوالا لا معنى لها، وارفعوا أصواتكم بذلك حتى لا يسمعه الناس. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: يقول ابن عباس: المراد به الجزاء الأخروي، و﴿أَسْوَأَ﴾: منصوب على نزع الخافض، والتقدير: لنجزيهم على أسوأ، وهو مسلوب المفاضلة: أي على السيء. ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ﴾: مبتدأ وخبر، و﴿النَّارُ﴾: مرفوع بالبدلية، أو هي خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو النار. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: ﴿جَزَاءً﴾: منصوب على المفعول لأجله. ﴿أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾: يقولون ذلك في نار جهنم. ﴿نَجْعَلْهُمَا﴾: مجزوم في جواب الطلب. والجعل تحت الأقدام الوطء والرفس للخصم للانتقام منه وامتهانه. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: ﴿قَالُوا﴾: بمعنى صدعوا بإيمانهم. ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: والاستقامة: هي عدم الاعوجاج والميل، وتطلق على الوفاء والإخلاص في القيام بالتكاليف الشرعية. ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: تأمين لهم من جانب الله بأنه لا يعاقبهم. ﴿أَلَّا﴾: فيه "أن" مضمرة مخففة من الثقيلة، والتقدير: بأن لا تخافوا. وقيل: تبشّرهم الملائكة بذلك في ثلاثة مواضع: عند الموت، وفي القبر، وعند قيامهم

للحشر. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾: ﴿فِيهَا﴾: أي في الجنة، ﴿مَا﴾: اسم موصول و﴿تَدَّعُونَ﴾: تتمنون، والنُّزُل -بضم الزاي- ما يُهيّأ للضيف من القِرى، منصوب على الحال، أي حال كونه كالنزل المهيّأ للضيف.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَرِنَا﴾: قرأ الجمهور: ﴿أَرِنَا﴾ بكسر الراء، وقرأه ابن كثير وابن عامر والسوسي عن أبي عمرو، وأبو بكر عن عاصم ويعقوب، قرأوا بسكون الراء للتخفيف من ثقل الكسرة. ﴿اللَّذَيْنِ﴾: قرأ الجمهور بكسر النون، وقرأ ابن كثير بتشديد النون مع مدّ الياء، وهي لغة.

د)- البيان والتّفسير:

على ذكر قرناء السّوء الذين يسلّطهم الله على الكفّار، يزيّنون لهم أعمالهم، ذكر الله لهم موقفا آخر معاديا لرسول الله، وهو صدّهم النّاس عن سماع القرآن حتى لا يؤثر في قلوبهم، ولكن الذين كفروا يندمون على ذلك يوم الحساب فيطلبون الانتقام ممن أغواهم على ذلك، أمّا الذين استقاموا على نهج الله فإنّ الملائكة تخفّهم وتؤنسهم وتبشّرهم بما ينتظرهم من نعيم الخلد، فقال تعالى: **﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾**.

أظهر الله مكان الإضمار، إذ الحديث عن الذين كفروا، وقد زيّن لهم قرناء السوء ما هم عليه من التيه والضّلال، فهم لا يقتصرون في ذلك على أنفسهم في الإعراض والتكذيب، بل يسعون في تنفير الناس عن سماع القرآن، وقد أحسّوا بتأثير سحر بيانه على النّفوس، سيما وهم أهل فصاحة وبلاغة، وكان النّضر بن الحارث يحدّثهم بأخبار الفرس والروم ويدعو القوم إلى ندواته مدّعيا أنّه يحدّثهم

بأحسن مما يحدّثهم به محمد، وأبو جهل لا يقلّ عنه تهريجا وتصدية للناس. وهكذا دعاة الضلال في كلّ زمان ومكان عندما تعوزهم الحجّة ويشعرون بضلالتهم أمام قوة الحقّ، يلجأون إلى مثل تلك المهاترات في التهريج واللغو لصمّ آذان الناس عن الاستماع، والاستهزاء بما هو الحقّ والبرهان، وذلك أخسّ الوسائل في طلب الغلبة على الخصم، كما كانوا يرجون.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ، ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِئَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾: تفريع على ما تقدّم كلّه في شأن الكافرين، وإذاقة العذاب لهم استعارة للشعور بالحرقة والألم. وبما أنّه عطف عليه الإجزاء على أسوأ أعمالهم يوم القيامة، فقد قال ابن عباس وغيره: بأنّ المراد بالعذاب الشديد هو العذاب الدنيوي كعذاب يوم بدر، والأسوأ في الأعمال من الكفر، ومن صدّ الناس عن سبيل الله.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللهِ النَّارُ﴾: الإشارة إلى العذاب المزدوج في الدنيا والآخرة، والمقصود بأعداء الله هم المشركون المتحدّث عنهم من قبل في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءُ اللهِ﴾، كرّر الوصف لزيادة التشنيع عليهم، وأنّ جزاءهم الذي يقتضيه عدل الله هو نار جهنّم خالدين فيها، وذلك بسبب جحودهم بآيات الله وإعراضهم عنها.

﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالانسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الاَسْفَلِينَ﴾: يرسم الله مشهدا مثيرا من صور العذاب للمجرمين في جهنّم، فإنّ المخدوعين منهم بالتزيين والإغراء، من طرف من تسلّط عليهم من القرناء يحملون في نفوسهم غيظا وحنقا على من كانوا يغرونهم بالكفر والضلال في الدنيا من شياطين الإنس والجنّ، وقد نفذ في الجميع حكم الله،

وصاروا إلى جهنّم وبئس القرار، فيطلب المخدوعون أن يريهم الله من كانوا يزينون لهم الغواية والضلال حتى يرفسوهم بأقدامهم انتقاما وامتهانا حتى يصبحوا أشدّ حقارة منهم وأكثر عذابا، ولم يرتّب الله هنا إجابة على طلبهم ولكن تجد تلك الإجابة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨). أي هم متساوون في العذاب، الأتباع والمتبوعون، فالأتباع الضعفاء عليهم مسؤولية الانخداع والاتباع، والمتبوعون عليهم مسؤولية الإضلال والإغواء.

﴿إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ التِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾:

في مقابل وصف حال المشركين ووضعيتهم مع قرناء السوء من شياطين الإنس والجن وما آلوا إليه من أهوال يوم القيامة، واتّباعا لمنهجية القرآن في أسلوب الترغيب والترهيب، في المقابل يأتي هذا الوصف البديع لجماعة المؤمنين، أخلصوا في طاعة الله، وثبتوا على طريقه المستقيم عقيدة وقولا وعملا، وقد صدّر الوصف بـــ"إن" لتوكيد الخبر مراعاة لإنكار المشركين ذلك.

﴿قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: فإعلامهم الصريح بربوبية الله، هو أصل المبدأ الإسلامي الذي يحقّق الكمال الإنساني في معرفة الحقّ والاهتداء به، وأمّا الاستقامة فهي التزام النهج السوي الذي شرعه الله لعباده دون ميل أو انحراف، وهو ما عبّر عنه سيدنا عمر ﷺ بقوله: "استقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعلب"، وذلك هو ما يدعو به المؤمن في كل ركعة من صلواته: اهدنا الصراط المستقيم. وقال لرسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَإِنَّ الذِينَ لاَ

يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ (المؤمنون:٧٣-٧٤).

وفي معنى هذه الآية ما روي في مسند أحمد عن سفيان الثقفي قال: «**قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام خيرا لا أسأل عنه أحدا غيرك، فقال: قل: آمنت بالله، ثم استقم**».[1]

وفي بيان النتائج الطيّبة التي تترتب عن الاستقامة نجد القرآن الكريم يذكر منها ما كان ماديا أو معنويا، ففي الجانب الأول يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿**وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾ (الجن:١٦-١٧).

وفي الجانب الروحي تبيّن الآية الكريمة هنا أنّ الملائكة تتنزل على المؤمنين المستقيمين، تتنزل عليهم من الملإ الأعلى بالكيفية التي يعلمها الله، وإنما يجدون أثر ذلك في نفوسهم سكينة وطمأنينة ورضى.

ويقول المفسّرون: إن ذلك التنزل يشمل مواطن ثلاثة: عند الاحتضار، وفي القبر، وعند البعث والحشر. وما أحوج الإنسان إلى ما يشرح صدره ويشدّ أزره في هذه المواطن الحرجة.

قلت: ولا يتعارض هذا مع ما ورد في آيات أخرى من أنّ الله تعالى يؤيّد بملائكته لتثبيت الذين آمنوا في جهادهم ولدلالتهم على الخير، وقد قال رسول الله لرجل أحسن الثناء على الله، أعانك عليها ملك كريم، ويقول المولى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ (الرعد:١١). ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار:١٠-١٢).

١- رواه أحمد في المسند، رقم ١٥٤٥٤: ٣/٤١٣.

يقول الإمام ابن عاشور في هذا المعنى: "وقد دلّت عدة آثار متفاوتة في القبول على أنّ الملائكة الذين لهم علاقة بالناس عموما أو بالمؤمنين خاصّة أصناف كثيرة، فعن عثمان أنه سأل النبي ﷺ كم من ملك على الإنسان؟، فذكر له عشرين ملكا، ولعل وصف الملائكة المتنزلين بأنهم أولياء يقتضي أن عملهم مع المؤمن عمل صلاح وتأييد مثل إلهام الطاعة ومحاربة الشياطين ونحو ذلك، وبذلك تتمّ مقابلة تنزلهم على المؤمنين بذكر نقيض القرناء للكافرين، وهذا أحسن".[1]

قلت: ذكر الله ما تقوله الملائكة للمؤمنين، فهم يبدأون بالتطمين وإزالة المخاوف من نفوسهم إذ هم راجعون إلى الله بين الخوف والرجاء كيف يتمّ اللقاء، فإذا انتفى عنهم الحزن والخوف في ذلك الموقف فإنّ وقع البشارة بالجنة يكون أمكن من نفوسهم لأنّهم قد صدّقوا بها في دنياهم وآمنوا برسل الله، ولمزيد من التطمين والإيناس تعلن ملائكة الله ولايتها للمؤمنين في الدنيا بالرعاية والإلهام إلى الخير والصبر عند المصائب وفي الآخرة بمؤازرتكم في كلّ المواقف حتى دخولكم الجنة التي تجدون فيها كلّ ما تشتهون وما تطلبون كرما وضيافة من ربّ غفور رحيم.

وذهب بعض المفسّرين إلى أن الكلام من قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ حتى: ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ هو من كلام الله ليكون أدعى للتشريف والتكريم، والله أعلم.

فأين هذه الكرامة للمؤمنين من ملائكة الله من تلك المهانة بوسوسة الشياطين للكافرين؟، فليخسأ الظالمون، والله أعلم.

١- التحرير والتنوير: ٢٤/٢٨٦.

الدّعوة إلى الله وآدابها.

أ)- النصّ:

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: ﴿مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً﴾: الاستفهام مستعمل في النفي، أي لا أحد أحسن قولا. ﴿مِمَّن﴾: من: تفضيلية لاسم: ﴿أَحْسَنُ﴾. ﴿قَوْلاً﴾: منصوب على التمييز. ﴿دَعَآ إِلَى اللهِ﴾: أي الأمر بإفراد العبادة لله ونبذ الشرك. والعمل الصالح: هو الجاري على أحكام الله كما شرّع. ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: أي يفتخر بالإسلام ويعتز به علنا. ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ﴾: بينهما طباق، ﴿الْحَسَنَةُ﴾: كل ما يرضي الله من أعمال البرّ والتقوى ويجازي عليها، ضدّها السّيئة: ما يسخط الله ويعاقب عليه، فهما لا يستويان في الجزاء. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾: التقدير: ادفع السيئة بالتي هي أحسن وهي الحسنة. كما جاء ذلك في سورة المؤمنون: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦). فرّع عنه ما يكون من النتائج بـ"إذا" الفجائية، ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾: تشبيه لزوال العداوة وحلول

المصافاة والمقاربة. ﴿وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الذِينَ صَبَرُوا﴾: أي يكون لاقيا لها، وهو مستعار للسعي لتحصيلها، وصيغة المضارع للدلالة على تحصيل ذلك في المستقبل. ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾: ﴿إِمَّا﴾: "إن" الشرطية أدغمت في "ما" الزائدة، وفعل الشرط: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ في موضع جزم بالشرط، وجوابه: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾. والنزغ في أصله هو النخس، واستعير لوسوسة الشيطان لخاطر الإنسان بعمل الشر. والاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله ليحفظه من ذلك.

ج)- البيان والتّفسير:

في مقابل ما ذكره الله من سوء مواقف المشركين من دعوة رسول الله بالإعراض عنها وصدّ الناس عنها وكيف يجازيهم بأسوأ ما كانوا يعملون، يذكر الله أضداهم هنا من الدّعاة إلى الله في معرض المدح والثناء، ويبيّن آداب الدعوة ونتائجها، ويحثّ الدعاة في مهمّتهم الشاقة على الالتجاء إلى الله والعياذ إليه من وساوس الشيطان ومكايده، فهو العليم بأغوار النفوس البشرية، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

الاستفهام المفيد للنفي في أوّل الجملة واختيار اسم التفضيل يدلّ على المفاضلة بين الفريقين، أحسن وأسوأ، وأنهما لا يستويان، فإذا كان الفريق الأسوأ ضالا في نفسه مضلاً لغيره، فإنّ الفريق الأحسن على العكس من ذلك، إذ وصفه الله بثلاث خصال:

أ)- ﴿دَعَآ إِلَى اللهِ﴾: أي دعا إلى توحيده وإفراد العبادة له، فالوصف عامّ يشمل كلّ أحد حقّق مضمون هذه الصّلة، من الدّاعي المثالي الأول وهو رسول الله، وكلّ من قام بمهمته من بعده من الأئمة والعلماء إلى قيام الساعة، مهما كانت

وسيلة دعوتهم، وعظا وإرشادا أو كتابة أو خطابة ما داموا مخلصين في ذلك إلى الله.

ب)- ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: بامتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، وفق ما شرعه الله في دينه الحنيف، فهو يطبّق ما يدعو الناس إليه، وذلك أدعى لقوة التأثير فيهم، وقد كان رسول الله خلقه القرآن كما وصفته أمنا عائشة ﷺ وهو الوصف الذي أشاد الله به في الآية السابقة: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

ج)- ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: لهذه المقولة معنيان:

أن يقولها بلسانه اعتزازا وافتخارا بانتمائه إلى الإسلام، ودعاية له، سيما في قوم لا يؤمنون به، فلا يتستر بدينه ضعفا وتخاذلا كما يفعل الكثير من الإمّعات، بل يكون مرفوع الرأس قويّا بعقيدته يحتمل ما يصيبه في سبيل الله، كما قال أحدهم متحدّيا جلاّديه:

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أيّ جنب كان في الله مصرعي

وقال آخر اعتزازا بانتمائه الإسلامي:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

والاحتمال الثاني للآية: ﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هو التعبير عن الميل القلبي من إخلاص التوجّه إلى الله في عمله الدعوي، لا يقصد به منفعة دنيوية، ولا يأخذ عليه أجرا، ولا يطلب به نفعا عاجلا.

وليس بلازم أن يضيف إلى إعلانه هذا قوله: إن شاء الله، كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء يقول القطب: "ودلّت الآية أنّه يجوز أن يقول الإنسان: أنا مسلم أو مؤمن أو من المسلمين أو من المؤمنين بحسب ما رأى من نفسه في الحال

ولو لم يقل: إن شاء الله، وإن أراد عند الله أو أنه سعيد فليقل: إن شاء الله".[1]

﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّـهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾: إذا كان الدّاعي إلى الله بتلك العلاقة الطيّبة مع خالقه بقلبه ولسانه وجوارحه، فإنّ مهمّته الدعوية تفرض عليه آدابا معيّنة تنظم علاقته بالخلق لأنّ فيهم الكريم الطبع واللّين العريكة وفيهم الجافي الغليظ الحاشية، وقد بيّن الله تعالى الطريقة المثلى في الإرشاد والتوجيه. وقد تقدّم من وصف أحوال الكافرين ما يدلّ على جفائهم وغلظتهم بما يستدعي مثل هذا التوجيه الإلهي لرسوله ولكلّ الدعاة إلى الله حتى يتّخذوه منهجا حكيما في أخلاقيات الدعوة، فبدأ الله بهذا التمهيد البليغ الذي يعمّ العمل الإصلاحي في جميع مجالاته فقال: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ﴾، فكلّ من الحسنة والسّيئة تعمّ أفراد جنسها في كلّ المجالات التي يتصادم فيها الإحسان والإساءة، وقد أكّد الله نفي تساويهما بلامين، حتى لا يمكن أن يتداخل شيء من الحسنة في السّيئة أو العكس.

﴿ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّـهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾: والخطاب لكلّ داعية إلى الله، وقدوتهم في ذلك رسول الله، الذي كان حريصا على تطبيق تعاليم كتاب الله حتى شهد الله له بذلك فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

فالتعبير باسم التفضيل: ﴿بالتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يدلّ على أنّ الحسنة تتفاوت في قدرها وقيمتها، ولا شكّ أنّ الداعي إلى الله يتعرّض إلى الأذى والإساءة من كثير من الناس لمصادمته إياهم في رغباتهم وشهواتهم، وحتى

١- تيسير التفسير: ١٢/٤٣٠.

ينجح في دعوته ويكسر حدّة المقاومة في تلك النفوس الجموحة والعواطف المتأجّجة يجب عليه أن يستقصي جهده في مقابلة الإساءة بالإحسان في أرقى نوعيته وأرفع قيمته ليجني ثمرة ذلك من قريب استجابة وتجاوبا من طرف خصومه تصل بهم -أحيانا- إلى درجة المحبة والولاء بعد الخصومة والعداء في أسرع وقت كما تدلّ عليه ﴿إِذَا﴾ الفجائية.

ولما كان التّحلّي بالصبر والحلم في أمثال هذه المواقف من عزم الأمور ومن خصال النفوس العظيمة فإنه تعالى عقب على ذلك التوجيه الرشيد بقوله: **﴿وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾**.

فليست النفوس سواء في تحلّيها بهذا الخلق، إذ هو منحة من الله يهبها لمن يشاء من عباده، كما امتن الله بذلك على رسوله إذ قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران:١٥٩). وهنا، وكذلك هذه الخصلة لا يتقبلها ولا يحتملها إلا الذين صبروا، جاء الخبر بصيغة الحصر وتكرر فعل "يلقاها" بصيغة المضارع لمزيد من الاهتمام بأنّ هذا النوع من المعاملة لا يكون إلاّ من الصابرين وممّن لهم حظ وافر من الفضائل النفسية الكريمة، والحلم على إذاية الخصم ليس معناه الضعف والتخاذل أمامه، وإنما يكون مع القوّة والقدرة على الانتقام، كما فعل الرسول بأهل مكة عندما دخلها فاتحا وقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1]. وكان ذلك سببا في دخول الناس في دين الله أفواجا، وقال الشاعر الحكيم:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدّرا

وقد تقتضي مصلحة الأمّة أن يقف مسؤولوها مواقف الحزم والشدة مع خصومها إذا تعرّض أمنها للخطر، وفي ذلك يقول الله: ﴿يَآ أَيـُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا

١- رواه البيهقي في السنن الكبرى من حديث سلام بن مسكين، رقم ١٨٧٣٩: ٩/١١٨.

قَاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ (التوبة:١٢٣). ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التحريم:٩).

ولما كان الشيطان ينزع بين الناس ويؤجج أسباب الملاحاة والخصام فإنه تعالى أرشدنا إلى الإستعاذة به من وساوسه ونزغاته فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فالله السميع العليم بدروب النفس البشرية وبمسارب الشيطان في عروقها هو الكفيل بحمايتنا من مكايده ووساوسه فلنلتجئ إليه بدعائنا، والله أعلم.

بيان الأدلّة على وحدانية الله وقدرته.

أ)- النصّ:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾: أي من دلائل عظمته وقدرته. ﴿اللَّيْلُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِنْ ءَايَاتِهِ﴾: خبره، ﴿وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾: معطوفة على الليل. ﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الذِي خَلَقَهُنَّ﴾: الضمير في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ يعود إلى الأربعة، ﴿اللَّيْلُ

وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾: وقيل يعود للآيات، والنهي عن السجود بمثابة النفي ووقوع الإثبات بعده يفيد مفاد الحصر، لأنه بمنزلة النفي والاستثناء وهو بمعنى: لا تسجدوا إلا لله. ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾: ﴿الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾: هم الملائكة، ﴿لاَ يَسْأَمُونَ﴾: أي لا يملون التسبيح لله. ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾: "أن" وما عملت فيه في موضع رفع، ﴿خَاشِعَةً﴾: حال من الأرض، وفيه استعارة لحال يبسها وجفافها بحال المتذلل الخاشع. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾: ﴿اهْتَزَّتْ﴾: لأنها تتحرّك وتنشق لخروج النبات. ﴿وَرَبَتْ﴾: أصله: رَبَوَت، قُلبت الواو ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، أي علت بالنبات.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَرَبَتْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿وَرَبَتْ﴾ من ربا يربو، أي زاد ونما، وقرأ أبو جعفر: ﴿وَرَبَأَتْ﴾ بهمزة بعد الموّحدة، من ربأ، بالهمزة، إذا ارتفع.

د)- البيان والتّفسير:

بعد الإشادة بالدّاعين إلى الله وبيان النهج القويم لأخلاقيات الدعوة، زوّد الله هنا الدّاعين إليه بالمادّة التي يستعينون بها في مهمتهم وهي عرض الدلائل والبراهين القاطعة على وجوده وقدرته وحكمته، فقال جلّ من قائل: **﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾**.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾: الضمير يعود إلى لفظ الجلالة المذكور في الآية السابقة: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾، فعلى أمره تعالى لكلّ داعية بالاستعاذة به عند مجابهة الباطل

ومدافعة وساوس الشيطان، فإنّ المستعاذ به في الملمّات لابدّ أن يكون قويًا قاهرا وصاحب قدرة وسلطان، فإنّه تعالى بعد ذكره لخلق العوالم الكبرى التي تدلّ على كمال قدرته انتقل هنا إلى ذكر ما هو أقرب وأشدّ اتّصالا بالمخاطبين من تلك الظواهر الكونية الأربعة: الليل والنهار والشمس والقمر، لما بينها من التلازم، فظاهرة الليل والنهار على وجه الأرض تتولّد عن حركات الأرض والشمس والقمر، وهي من أعظم دلائل القدرة الإلهية المعروضة للأنظار، لا تحتاج إلى معرفة خاصّة لإدراك نظامهما وانسجامهما، فبينها وبين الكائن البشري خاصّة والكائنات الأرضية عامة صلة الولد بأمّه حبًا وعاطفة وحنانا، والقرآن الكريم يستغلّ تلك العاطفة الفطرية حين يوجّه القلوب والعقول إلى التفكير الواعي والتأمّل العميق في تلك الظواهر التي قد يزهدنا فيها الإلف والعادة، وقد يفتن قوم بجمال الشمس والقمر وبمنافعهما فيعبدونهما من دون الله كما يفعل الصابئة بالعراق، وكما فعل اليمنيون من قوم بلقيس، والفراعنة في مصر بمعبودهم "راع" الذي يرمز للشمس، وذلك انحراف في العقيدة نهى الله عنه، ولكن النهي انصبّ على السجود خاصّة، وهو يمثل أبلغ الصّور للتذلّل والخضوع، مما يدلّ أنهم كانوا يعتقدون أنّهم يتقرّبون بذلك إلى الله، أي يجعلون الشمس واسطة بينهم وبين الله كما يعتقد الصابئة، ويدلّ على ذلك قوله تعالى في التعقيب: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. والمعنى: اسجدوا لله مباشرة إن كنتم حقًا تقصدون عبادته؛ لأنّه هو خالق الشمس والقمر فهما مثلكم يسجدان لله وحده.

ثم التفت الله من ضمير الخطاب إلى الغيبة فقال: **﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾**، والاستكبار المبالغة في الكبر، وهو الخلق الذّميم الذي يدفع المشركين إلى الإعراض والمجادلة في آيات الله، فلا يعترفون بدلائل القدرة فإن ذلك لن يضرّ الله في شيء، فإنّ له من المخلوقين من

هم أرفع مكانة وأغلى شأنا عنده، وهم الملائكة الأطهار لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، بل هم دائمو التسبيح بحمد الله لا يملّون ولا يفترون، فالعندية في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ عندية تشريف وتكريم، كما أن اختيار لفظ: "الرب" مضافا إلى كاف الخطاب لرسول الله هو تشريف وتكريم لشخصه الشريف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٦).

وفي الأرض آيات للموقنين، الأرض التي يدبّون عليها، ويتنعّمون بأقواتها، ويتصارعون على امتلاك خيراتها، إنها خاشعة لربّها، خاضعة لإرادته، مترقبة لرحمته ليمدّها بأسباب الحياة التي تكفل بها أولادها، أو ليست هي الأخرى من أدلة قدرة الله وحكمته؟: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتِ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الجملة معطوفة على ما سبق: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، والخطاب لكلّ من يصلح له من السامعين، وقد تكرّر هذا الدليل في القرآن على قدرة الله في الإحياء والإماتة، غير أنّ وصف الأرض قد تعدّد بما يناسب السّياق الذي ينتظم الآية، فتارة توصف الأرض بالميتة، وتارة بالجرز، وتارة بالهامدة، وهنا وصفت بالخاشعة، وهو ما يناسب جوّ العبادة والسّجود المذكورين في الآية السابقة، وذلك من الدّقة البلاغية في القرآن الكريم، وجاء في جواب الشرط: ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتِ﴾ -أيضا- ما يناسب حالة العابد الخاشع من الانفعال والحركة وفيضان القلب واهتزازه وجدا وحبّا لله.

ومشهد الحياة تدبّ على وجه الأرض بعد نزول المطر، وهي تنشقّ من البذور والحبّ والنوى بقدرة الله لهو النموذج الحيّ لقدرته على إحياء الموتى بإعادة

الأرواح إلى أجسادها في نشأة أخرى عند النفخة الثانية، والله وحده أعلم بكيفيتها وبموعدها، وهل أروع من هذا الدليل القاطع وأدلّ على قدرة الله، وهو على ما يشاء قدير؟، والله أعلم.

تهديد الذين يلحدون في آيات الله وفي آيات القرآن، مع الإشادة بشأن القرآن وتعظيمه.

أ)- النصّ:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾: ﴿يُلْحِدُونَ﴾: من ألحد،

بالهمزة، أي يميلون ويعرجون. ﴿يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾: أي يؤولونها تأويلا خاطئا ويعدلون عن الحق في تفسيرها. ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: مقابلة بليغة فيها محسّن الاحتباك، إذ لم يقابل الإلقاء في النار بإدخال الجنة، بل قابله بالإتيان في أمن. ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: الأمر للتهديد والوعيد. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾: في خبر: ﴿إِنَّ﴾ هنا احتمالات، إمّا أنه مقدّم ويدلّ عليه قوله: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ﴾، أو أنه محذوف تقديره: أهلكوا، أو هو قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾. ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾: بعد أن وصف الله كتابه "بالعزيز"؛ لأنه هو الغالب المهيمن على جميع الكتب السماوية، قال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، أو من جميع الجهات لا يتطرق إليه تحريف أو تبديل. ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾: ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾: في تأويل المصدر في محل رفع نائب فاعل لـ ﴿يُقَالُ﴾، أي: ما يقوله لك كفار قومك من التكذيب إلّا ما قاله الكفار لرسلهم من قبلك. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾: يتعدّى إلى مفعولين، والضمير يعود إلى الذكر، أي القرآن. ﴿أَعْجَمِيًّا﴾: بمعنى الكلام الذي لا يفهم، سواء بلغة العرب أو العجم. ﴿لَّقَالُوا﴾: جواب الشرط بـ"لو". و﴿لَوْلَا﴾: بمعنى: هلّا، للتخصيص. ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾: بينهما طباق والاستفهام للإنكار. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: في موضع رفع بالابتداء، وخبره الجملة بعده، والضمير يعود إلى القرآن، والإخبار عنه بأنه وَقْر في آذانهم وعمى في أبصارهم من التشبيه البليغ، والإسناد مجازي. ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ﴾: خبر ثالث عن ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والكلام تمثيل لحال إعراضهم كأنهم في مكان بعيد لا يسمعون من يناديهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُلْحِدُونَ﴾: قرأ الجمهور بكسر الحاء، من فعل ألحد، بمعنى عدل عن الحق. وقرأ حمزة بفتح الحاء من فعل لَحَد، بمعنى مال عن القصد. ﴿شِئْتُم﴾: قرأ الجمهور بالهمزة، وقرأها السوسي وأبو جعفر بإبدال الهمزة ياء.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله تعالى بأنّ الدّعوة المخلصة إلى دين الله هي من أشرف الأعمال عند الله وأعظمها ثوابا، وأنّها تستلزم أخلاقيات خاصّة للإقناع بالدلائل القطعية والبراهين العقلية على توحيد الله وقدرته على البعث بالنشأة الثانية، بعد تلك الجولة يعود السياق إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات ويعرض عنها، ويكذّبون بالقرآن الكريم سخرية واستهزاء به وهو الكتاب النّذير المختص للحقّ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم تأتي التسلية لرسول الله بدفع أقوال المشركين وردّ شبهاتهم بشأن القرآن الكريم فقال تعالى: **﴿إِنَّ الذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّنْ يَّاتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**.

الإلحاد في الأصل اللغوي هو الميل والانحراف عن الاستقامة، وهو هنا مستعار للإعراض عن آيات الله الكونية منها والقرآنية، والصّدّ عنها بمختلف الوسائل الخسيسة المذكورة في الآيات السابقة. وحرف ﴿فِي﴾ للظّرفية المجازية تفيد التّمكّن في ذلك الإلحاد، وقد تهدّد الله هؤلاء بعدّة تهديدات منها ما هو مبطّن ضمني ومنها ما هو صريح جليّ.

فقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ خبر لـ"إنّ"، فيه تهديد مبطّن ضمنيّ ولكنّه شديد قويّ، فالسّيد إذا قال لعبده: أنا أعلم ما ارتكبته، فمعنى ذلك أنه قد تهدّده بإنزال العقاب عليه، فيصبح ذلك العبد في خوف وحذر مما يتوقعه من عقاب، ولله المثل الأعلى.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: فرّع الله على التهديد السابق هذا الاستفهام التقريري للتنبيه على اختلاف مصير المؤمنين والكافرين، وتفاوت جزاء الفريقين فشتّان بين جزاء الكافرين الملحدين في آيات الله وهو الإلقاء في النار، وبين جزاء المؤمنين بوصف حالتهم من الأمن والطمأنينة في موقف الخوف والفزع، ولم يذكر دخولهم إلى الجنة، فقابل إلقاء الكافرين في النار، تمشيا مع جوّ التهديد والوعيد والإنذار، إذ قدّمه على الوعد والبشرى في حسن احتباك بين طرفي المقابلة، فقابله بالإتيان في أمن يوم القيامة لفريق المؤمنين؛ لأنهم ينتظرون دخول الجنة.

ج)- ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: الأمر للتهديد -أيضا-، وهو تذييل يؤكّد الله به التهديد المهول المبطّن في قوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾.

فبعد أن أطلق حرّية الاختيار للمكلّفين في العمل خيرا أو شرّا، جاء بالوصف العامّ لذاته العليّة بأنّه بصير بشؤون عباده سواء منهم المؤمن أو الكافر ليجازي كلاّ بما يستحقّه من الجزاء، تابع الله التهديد بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

بعد بيان إلحاد الكافرين في آيات الله بصفة عامّة خصّص بالذكر هنا كفرهم بآيات القرآن الناطقة، وخبر: ﴿إِنَّ﴾ إمّا محذوف تقديره: هم هالكون، أو هو قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾. ويراد بالذكر القرآن الكريم، وجملة:

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ للدلالة على مبادرتهم للتكذيب به لأوّل مرة من سماعه دون إعطاء مهلة لأنفسهم في التدبّر والتأمّل استكبار ونفورا، بينما لو أمعنوا النظر في آياته لأدركوا أنه الحقّ، كما أحد الله بنوّه بشأنه ويجري عليه أوصاف الإجلال والكمال والتعظيم بدءا من قوله:

أ)- ﴿كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾.

ب)- ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾: والعزيز وصف من العزّة بمعنى الغلبة والسيطرة، وذلك لما يتضمّنه القرآن من الحجج والبراهين التي تدحض الباطل وتقهره، كما يأتي وصف العزيز بمعنى النفاسة وعلوّ القيمة لما يتضمّنه من سحر البلاغة، وقد عجزت الإنس والجنّ عن الإتيان بمثله.

ج)- ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾: أي هو محفوظ معصان لا يتطرّق إليه أيّ نوع من الباطل من أيّة جهة كانت ولا يخالطه في مبناه ولا في معناه، لأنّ المقصود بقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، هو استيعاب جميع الجهات على وجه التمثيل، وقد اعتمد المفسّر أبو مسلم على هذه الآية واحتجّ بها على أنه لا يوجد النسخ في القرآن لأنه نوع من الإبطال.

د)- ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾: فكونه تنزيل من حكيم فهو يشتمل على الحكمة، لأنّ الحكيم لا ينطق ولا يأتي إلا بالحكمة التي فيها الخير الكثير، وكون تنزيله من حميد يقتضي أن يكون محمودا كمنزّله، فهو الدليل إلى كلّ خير يحمد، قارئه وسامعه والمتّبع لأحكامه.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾: وبما أنّ الذين كفروا قد اشتطّوا في موقفهم العدائي من هذا القرآن الذي يحمل تلك المزايا، وهم بذلك قد فرّطوا في أعزّ ما يرفع شأنهم، وكان ذلك

يؤذي رسول الله ويحزنه فقد جاء هذا الاستئناف البياني لتسلية رسول الله، ولإزالة حيرته، كيف يكون منهم ذلك الموقف الشائن، فبيّن الله له أنّ ذلك من سنن الله في خلقه فكلّ الرّسل من قبله قد وجدوا من أممهم معاندين مكذّبين يرتدون نفس المقولة، فما على الرسول إلاّ أن يصبر كما صبر من قبله.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾: يحتمل تفسيرين:

أ)- هو عبارات التكذيب والاستهزاء التي كانت تصدر من أمثالهم إذ تشابهت قلوبهم.

ب)- يكون كلّ من المشبّه والمشبّه به: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، هو كلام الله ووحيه لرسله، فهو الحقّ والصّدق، فلا يكون لقومك أيّ عذر في تكذيبهم، وأنت لم تكن بدعا من الرسل في ذلك، فهي سنّة تتجدّد وتتكرّر، ولذلك اختير لها صيغة المضارع: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾.

ثم جاء التذييل في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، جاء مؤكّدا لتلك التسلية الرّبانية لرسوله، فهو تعالى يعد بالمغفرة للذين أحسنوا وصبروا ويتوعد بالعقاب الأليم لمن كذّب وتولّى فهو تعالى يرتّب الجزاء لكلّ فريق بما يستحقه بحكمة وعدل.

ثم أكمل الله تعالى التنويه بشأن القرآن ردّا على تحدّي المشركين في قولهم لرسول الله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾: تناسقت الآيات في نظمها من أوّل السورة إلى هذه الآية وهي ترد بقوة على قول المشركين لرسول الله في عناد وتحدّ سافر: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا

إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾، فجاءت الرّدود بمختلف الأساليب وعدا ووعيدا، وبيانا لسفاهة المعرضين، وأنّ قصدهم العناد والتّعنّت لا طلب الحقّ، وقد تدرّج الله تعالى في نقض دعاويهم وردّ شبهاتهم الواحدة تلو الأخرى حتى انتهى السياق إلى قوله تنويها بشأن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. ثم عطف على ذلك قوله هنا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾، بلفظ: ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ﴾ نسبة إلى "أعجم"، وهو مشتق من العجمة، وهي عدم الإفصاح، أي من لا يبين في كلامه ولو كان ينطق بالعربية، قابله الله بالعربي نسبة إلى العرب من جهة، وهو يدلّ أيضا على الإفصاح والإبانة في النّطق، أي إنّ اللّفظ "عربي" زيادة على دلالته على الجنس والعرق فهو يحمل معنى الاستقامة والإبانة، ولعلّ قوله تعالى في آية أخرى من سورة الزمر: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨). وفي قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (٣٧). وقوله في سورة الواقعة: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (٣٥-٣٧)، لعلّ في ذلك ما يدلّ أنّ اللفظ "عربي" لا يعني الجنس والعرق بقدر ما يعني الاستقامة وصفات الكمال، و"لَوْ" حرف امتناع لامتناع يتضمّن الشرط، وهذه الحجّة بنيت على الفرضية والتقدير لدخول "لَوْ" الإمتناعية عليها. والمعنى لو جئنا لهؤلاء المعنيين بنوع آخر من القرآن فأنزلناه على الرسول بلغة أعجمية ليس له علم بها، لبدّلوا معاذيرهم إلى نوع آخر ولقالوا: لولا بيّنت آياته ووضحت بلغة نفهمها، ونحن عرب ليس لنا علم بأيّ لغة أخرى، فكيف يعرضون إذن وقد نزل القرآن بلغتهم كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٠٣).

وهذه الفرضية حجّة تبيّن أنّهم لا يطلبون الحقّ وإنّما هو العناد والتّعنت، ولذا يأتي هذا الاستفهام الإنكاري أأعجمي وعربي؟، بمعنى: كيف يترل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟، ويبدو أنّ هذا الاستفهام الإنكاري من تتمّة قولهم، والخلاصة لهذه الحجّة التقديرية التي تندرج في الإجابة على قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾.

وخلاصتها: أن الله تعالى لو أنزل هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أنزلت كلاما عجميا إلى قوم عرب لا يفهمونه؟، أما وقد أنزل الله هذا الكتاب بلغة العرب ولسانهم، فقد دحض الله شبهتهم فلم يبق إلا العناد والتّعنّت، ثمّ أكمل الله تنويهه بشأن القرآن فقال آمرا رسوله: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾.

وتختتم هذه الجولة من الرّدود المقنعة ودحض شبهات المشركين بعد تسفيه موقفهم من رسول الله بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾.

وبعد تسلية الرسول بقول الله له: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، بعد تلك الجولة المتكاملة في جميع مراحلها تأتي هذه الإجابة الربانية بتلقينها لرسول الله وهي أنّ هذا الكتاب العزيز بما يحمله من تلك الأوصاف الحميدة وما يرشد إليه من الخصال العظيمة، إنما ينتفع بها الذين يؤمنون به ممن أذعنت نفوسهم إلى تقبّل الحقّ، فيكون القرآن لهؤلاء هدى وشفاء، هدى ينير بصائرهم ويزكّي نفوسهم، فهم على نور من ربّهم سائرون على نهجه المستقيم، وهو شفاء لهم من أمراض القلوب، وما ينتابها من شكّ وريب وحيرة، وما ينازعها من وساوس الشيطان، وأمّا الذين لا يؤمنون به فلا تقرع آياته آذانهم، ولا ترى أنواره أبصارهم، فهم صمّ عمي لا يعقلون، وواقع الناس أزاء هدي القرآن في كلّ

بيئة وفي كلّ زمان تصوّره هذه الآية الكريمة، إذ نجد مصداق ذلك في كثير من الناس، وهم على طرفي نقيض في حالاتهم النفسية والسلوكية ما بين متجاوب متفاعل مع هدي القرآن، أو تائه ضال متحجّر القلب، والقرآن هو هو، وصدق الله العظيم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢).

ثم شبّه الله حال أولئك المعرضين بحال من ينادى من مكان بعيد، فهو لا يسمع صوت من يناديه، وإذا سمعه فهو لا يفقه ما يقال له وإذ سلّى الله رسوله بقوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، فقد أشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه عليه، كنموذج لمن سبقه من الرسل فقال: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ**﴾.

اختار الله نموذج تكذيب الأمم برسلها، اختار موسى وقومه، فقد كذّب به فرعون وقومه كما كذّب به بعض من قومه بني إسرائيل، إذ اختلفوا في التوراة ما بين مؤمن بها وكافر، وما بين محافظ على نصوصها ومحرّف، فلا تحزن -أيها الرسول-، فليس قومك بدعا ممن سبقهم، ولولا أنّه تعالى سبقت كلمته بتأجيل العذاب عنهم لقضى بينهم بما يستحقونه من الجزاء العاجل، والكلمة هي حكم الإمهال إلى أجل مسمى اقتضته حكمة الله.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، الضمير يعود -أيضا- إلى المشركين من قوم رسول الله، بأنهم في شك وارتياب من صدق القرآن، ومن أخباره الغيبية، كالبعث والحساب والملائكة والجنة والنار، وزيادة وصف: ﴿مُرِيبٍ﴾ للمبالغة، وقيل: الضمير في: ﴿إِنَّهُمْ﴾ لليهود، وفي: ﴿مِنْهُ﴾ للتوراة، والأول أرجح.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: جاء هذا التذييل تكملة لتسلية الرسول بتحديد قانون الجزاء العادل فهو يتعلق بالمسؤولية الفردية لكلّ شخص، وبالتالي يكون الجزاء وفق الاختيار الشخصي، كما أنّ نوعية مردوده يتحمّلها وحده، فإن أحسن فهو يجني ثمرة إحسانه هناء وسعادة في الدنيا والآخرة إذ لنفسه بغى الخير كما يقول المثل، وإن أساء فهو الجاني لسوء أفعاله شرًا وشقاء وتعاسة في الدنيا والآخرة، فما أنت أيها الرسول إلاّ مبشّر ونذير، وما ربّك بظلام للعبيد، عندما يجازي كلا بما قدمت يداه، وبعدما بعث الرسول وأنزل الكتاب وأقام الحجة، والله أعلم.

بيان شمول علم الله لكلّ شيء، وعرض مشهد ليوم القيامة.

أ)- النصّ:

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي ۖ قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾: تقديم الجار والمجرور على متعلّقه يفيد الحصر، والرّدّ: الإرجاع، و﴿السَّاعَةِ﴾: يوم القيامة، بتفويض علمه إلى الله وحده. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ﴾: معطوفة على ما قبلها، و﴿مِن﴾ زائدة للتوكيد، أكمام: هي أوعية الثمرات، جمع كِم، بكسر الكاف، ومن قال في الجمع: أكمة، قال في الواحد: كِمام. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿وَمَا

تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾: ﴿مَا﴾: أيضا نافية. ﴿مِنْ أُنْثَىٰ﴾: لاستغراق الناس والحيوان. ووضعها: أي خروج الأجنة من بطونها. ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾: ﴿آذَنَّاكَ﴾: أعرناك وأعلمناك، قال تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق:٢). أي الأرض سمعت أمر ربها، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾: الشهيد: يأتي بمعنيين: المشاهد أي المبصر، أي يتقون رؤية شركائهم في ذلك اليوم. ويأتي بمعنى: الشاهد، أي لا أحد منا يشهد لهم شركاؤك. ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: ﴿مَا﴾: نافية، علقت عمل الفعل: ظن. والمحيص: مصدر ميمي، من حاص يحيص، إذا هرب، أي ما لهم مهرب من النار.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مِن ثَمَرَاتٍ﴾: قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿ثمرة﴾. ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾: قرأ الجمع بإسكان ياء المتكلم، وقرأ ابن كثير بفتحها.

د)- البيان والتفسير:

على ذكر جزاء الله العادل لكلّ نفس بما كسبت في موقف الفصل ليوم القيامة، وبما أنّ المشركين يسألون عن موعدها تهكّما واستهزاء، فإنه تعالى بيّن بأنّ علم موعد ذلك اليوم هو من خصوصيته، كما لا يعلم غيره بأمور أخرى يشاهدها الناس، ولكنّهم لا يعلمون دقائق أحوالها، وفي ذلك اليوم المشهود تتيقّن الخلائق كلّها بوحدانية الله، وتختفي أسطورة الاستشفاع بالشركاء، ويعلم المشركون أن لا مهرب لهم من النار، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾.

كم من أسئلة تكرّرت في القرآن الكريم عن موعد الساعة وقيامها وعن البعث ويوم النشور، يسأل عنها المشركون رسول الله سخرية واستهزاء، ويسأل عنها أكثر الناس حيرة واستغرابا أو استبطاءً واستعجالا، فتأتي الأجوبة الربانية في كلّ حالة بالأسلوب الحكيم، تأكيدا لوعد الله وبيانا لقدرته وعظمته، أو تخويفا وترهيبا لما يحدث في ذلك اليوم، وأن لا أحد يعلم بموعده إلا الله، إذ هو من أمور الغيب التي استأثر الله بها، ومن جملة تلك الأجوبة الحكيمة هذه الآية الكريمة، فقد حصر الله علم الساعة في ذاته العلية، فقيام الساعة على ما يحدث فيه من أهوال مروعة هو من الغيوب المستكنّة في ضمير الوجود، لا يتطلع عليه رسول مكرّم ولا ملك مقرّب. وقد أفصح عن ذلك رسول الله عندما سأله جبريل عليه السلام قائلا: **«أخبرني عن الساعة، فأجابه الرسول: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»**.[1]

وقد قال الله عنها: ﴿لاَ تَأتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ (الأعراف:١٨٧). ويصدّر الله بعض مجالات علمه الشامل المحيط لأدق عناصر الحياة وتفاعلاتها في قانون التكاثر والتوالد إن في عالم النبات أو الحيوان في ما هو غير منظور، يصوّره تصويرا حيّا يمسّ شغاف القلوب لتزداد إيمانا ويقينا بقدرة الله، فهو تعالى يحيط علمه بما تتفتق عنه أكمام الأزهار من أنواع الثمرات، وما تنطوي عليه أرحام الإناث الحيوانية من الأجنّة، ويعلم متى يكون موعد وضعها بدقّة، وفي أصغر الوحدات الزمانية.

والتنبيه لمثل هذا التدبير الإلهي الحكيم لأعظم الأحوال وأشدّها مراقبة في حياتنا بشيء من الإشفاق والحذر بانتظار موسم اللّقاح للغلل وارتقاب المولود السعيد يخرج من بطن أمّه سالما، مما في التنبيه لمثل ذلك التدبير الحكيم يذكي في نفوسنا إجلال الخالق وتعظيم شأنه، وترسيخ الإيمان بعظمته وقدرته، وهو يعرض علينا مشهدا من مشاهد القيامة والمشركون يستجوبون: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ**

١- تقدم تخريجه: ص ٥٨.

شُرَكَآئِي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

الجملة معطوفة على سابقتها، ويقدّر للظرف الزمني: ﴿يَوْمَ﴾ فعل: اذكر يا رسول الله يوم ينادي الله المشركين في موقف الحشر والحساب. والنداء يكون بالخطاب العلني. والضمير في: ينادي، يعود إلى ربك، ويتضمّن ذلك النداء قوله تعالى للمشركين: أين شركائي الذين كنتم تزعمون أنهم يشاركونني في الألوهية؟، يقال لهم ذلك في معرض التبكيت والتقريع، فيجيبون ربنا: ﴿ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾، أي أعلمناك وأخبرناك أنه ليس أحد منّا اليوم يشهد أن لك شريكا.

فهم يتبرأون في ذلك الموقف من شركائهم كما قال تعالى عنهم بصريح القسم والنفي: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٢٣).

ويحتمل أن يكون معنى: ﴿شَهِيدٍ﴾، من المشاهدة، أي أنهم لا يشاهدون الآن تلك الشركاء التي كانوا يعبدونها. وفي كلا الاحتمالين يجيء قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، يجيء في موضع الحال، أي يقولون ذلك حالة غياب تلك الآلهة عنهم، وبذلك يثبت كذبهم وافتراؤهم على الله، فيتيقّنون أن لا مهرب لهم من عذاب النار، وهم يسمعون زفيرها، والعياذ بالله، وهذا كقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٥٣).

فاللّهم نجّنا من النّار سراعا سالمين، ولا تخزنا يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

والله أعلم.

الإنسان في تغيّر أحواله وتقلّب أطواره.

أ)- النصّ:

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ﴾: ﴿لاَ يَسْأَمُ﴾: من السأم، وهو الملل والفتور. ﴿مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ﴾: التقدير: من دعائه الله بالخير، أي المال والصحة والعزّ والجاه، وكل أسباب النعمة. ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾: ﴿مَّسَّهُ﴾: أصابه إصابة خفيفة، و﴿الشَّرُّ﴾: ضدّ الخير، من فقر ومرض وشدة، وبين الخير والشرّ طباق. ﴿فَيَئُوسٌ﴾: صيغة مبالغة من اليأس، انقطاع الرجاء في حصول المبؤوس منه، والقَنوط: من القُنوط: وهو انفعال بدني من أثر اليأس يذبل به ويضؤل، فالقنوط يكون بتجاوز الحدّ في حالة اليأس. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾: ﴿لَئِن﴾: اللام المشعرة بالقسم كما في: ﴿لَـئِن﴾ الثانية وفي ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ و﴿لَنُذِيقَنَّهُم﴾. والإذاقة مجاز لمطلق الإصابة في الحسّ. ﴿رَحْمَةً﴾: أي السعة بصفة عامة. ﴿هَذَا لِي﴾: أي هذا ما أستحقه بفضل جهدي وحيلتي متناسيا فضل الله عليه. ﴿وَلَئِنْ رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾: ﴿وَلَئِنْ رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ﴾: استعمال "إن" الشرطية يدل على شكه في حصول البعث.

﴿لِلْحُسْنَى﴾: صفة لموصوف محذوف أي الحالة الحسنى، بل صارت الحسنى اسما للإحسان الكثير. ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾: ﴿نَأَى بِجَانِبِهِ﴾: تعبير مجازي عن النفس بمعنى: تكبّر واستغنى ونسي فضل الله عليه. ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾: أي عذاب قاس شديد الإيلام استعارة بتشبيه الدعاء بالقويّ العريض.

ج)- البيان والتفسير:

بعد بيان تغيّر موقف الكفار وتبدّل أحوالهم بين الدنيا والآخرة، ففي الدنيا إصرار على الكفر باتخاذ الشركاء لله وتكذيب الرسول، وفي الآخرة تبرّؤ من تلك الشركاء وإقرار بوحدانية الله، يردف الله هنا بيان أحوال الإنسان في تغيّره وتقلّبه أزاء السّراء والضّراء، وما بين الشدة والرخاء، سيما إذا حرم من الإيمان. فقال تعالى: **﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِنْ رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾**.

لقد حفلت كثير من آيات القرآن الكريم ببيان بعض صفات الإنسان في اختلاف حالاته النفسية وتقلّب أطواره وتغيّر مزاجه، فهو الكنود لربّه، وهو الولوع بحب الخير، وهو الهلوع الجزوع، وهو القتور العجول، وهو الظلوم الجهول... إلخ.

وفي هاتين الآيتين يرسم الله له صورة عجيبة حين لا يهتدي بهدي الله ولا يبصر بنور الله، فيذكره تعالى بصفته الإنسانية. فيقول: ﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ﴾، فيرى أغلب المفسّرين أن "أل" لعموم الجنس، ويرى آخرون أنها للعموم العرفي، أي للكافرين المتحدث عنهم في الآية السابقة مستندين إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧). وقوله: ﴿قَالَ وَمَنْ يَّقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾ (الحجر:٥٦).

بينما يعتبر القليل من المفسّرين أن "أل" للعهد، استنادا على سبب النزول، إذ قيل: أنها نزلت في الوليد بن المغيرة أو في عتبة بن ربيعة.

والقول بعموم الجنس هو الأنسب لمعنى الآية لأننا نجد كثيرا من المسلمين قد يتّصفون ببعض ما ورد فيها.

والسأم هو الملل والفتور، وكلمة: ﴿الْخَيْرِ﴾ تعني كلّ ما يطلبه الإنسان من وسائل النعمة والرفاه مما له فيه منفعة، وفي مقدمة ذلك المال، وما ينجرّ عنه غالبا من أنواع المتع والزينة، وسلطة وجاه، وقد أكّد الله صفة حبّ المال من طرف الإنسان فقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات:٨). وقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ١٩-٢٠). وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَالِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَئَابِ﴾ (آل عمران:١٤).

فحبّ المال هو في الواقع حبّ للدنيا وزينتها، فُطر الإنسان عليها، فهو يسعى بكلّ ما يملك ليستحوذ على أكبر قدر من المال ليحقّق من الدنيا مطامعه ومآربه. ولو أدّى ذلك به -أحيانا- إلى ما يمسّ كرامته ويقدح في مروءته ودينه، وقد قال أحد العارفين: "من ادّعى أنه لا يحبّ الدنيا، فهو عندي كذاب إلى أن يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه ثبت جنونه".

فالله ذكر هذه الصّفة في الإنسان في معرض الذّم، وضرب لنا أمثلة من الذين طغوا وتجبّروا، وتؤكّد عليه الآية اللاحقة، وذلك حين ينعم الله برحمة من بعد ضرّاء مسته، فهو من بعد القنوط واليأس لا يتعظ على أنّ ما آتاه الله من خير أو شرّ إنما هو ابتلاء، وأنّه تعالى سوف يحاسبه من أين اكتسب ذلك المال وفيم أنفقه.

على أنّ التعبير في الآية الكريمة على إصابة الإنسان بالشر والضرّ، جاء

بـ"إن" التي تفيد الشك في الوقوع وبالمسّ الذي يفيد أضعف الإحساس في الإصابة، فليته كان يوازن بين الأكثر مما أصابه من الخير والأقل مما أصابه من الشرّ، حتى لا يغلب عليه اليأس والقنوط، ثم تأمّله عندما يذيقه الله منه رحمة بعد ذلك الشرّ تأمّله كيف تبطره تلك النعمة وكيف يمتلكه الغرور فينسى مصدر تلك النعمة ويقول:

أ)- ﴿هَٰذَا لِي﴾: أي هذا ما أستحقه بجهدي وحيلتي، وهو باق في يديّ لا يذهب عني، كما قال قارون ذلك من قبل، ثم هو في غمرة فرحه يستبعد الآخرة ويقول:

ب)- ﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾: وقد قال ذلك صاحب الجنتين لصاحبه فكان عقاب الله له أليما، وهكذا يؤدي حبّ الدنيا إلى الكفر بالله، ويتألّى على الله ويقول:

ج)- ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾: جاء التعبير بـ"إن" التي تفيد الشك، فهو مع شكّه بمجيء الآخرة ينتفخ ويتعاظم ويعطي لنفسه وجاهة وحرمة عند الله، بأن يهب له في الآخرة بأحسن مما وهب له في الدنيا، على فرض أن تكون هناك آخرة، فأجابه الله بنقيض ما يظن وهدّده بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، ولا شكّ في إثبات الكفر لمن أنكر اليوم الآخر، وهو ما أكّده الله في هذا التهديد بأنّه تعالى سوف يحاكم هؤلاء وينبئهم بما عملوا يوم الحساب ويجزيهم بعذاب النّار ووصفه بالغليظ لشدته وقساوته.

وللإمام ابن عاشور تعقيب مهمّ على تفسير هذه الآية نثبته هنا لما فيه من الفائدة والتذكرة يقول: "على أنّ المسلم قد يخامره بعض هذا الخلق، وترتسم فيه

سيمات منه، ولكن إيمانه يصرفه عنه انصرافا بقدر قوة إيمانه، ولكنّه قد تجري بعض أعمال بعض المسلمين على صورة أعمال من لا يظن أن الساعة قائمة مثل أولئك الذين يأتون السيئات ثم يقولون: إن الله غفور رحيم، والله غني عن عذابنا وإذا ذكر لهم يوم الجزاء قالوا: ما ثمّ إلا الخير ونحو ذلك، فجعل الله في هذه الآية، مذمّة للمشركين وموعظة للمؤمنين كمدا للأولين وانتشالا للآخرين".[1]

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾: هذا توصيف آخر لطبع آخر من طبائع النفس البشرية عامّة لا تخصّ أهل الشرك وحدهم، وهو يتناول الجانب الفعلي السلوكيّ، فهو -أيضا- متقلب فيه كالجانب القولي، فما يكاد يتنعمّ بنعمة من الله يغدقها الله عليه ابتلاء أو إمتحانا حتى تبطره تلك النعمة فينشغل بلذاته ويتهافت على نزواته ناسيا شكر المنعم في قليل أو كثير، وإذا أصابه مكروه نفد صبره وأخذه الجزع، فيلجأ إلى ربّه متضرّعا يلح إليه بالدعاء، ليكشف عنه الضراء، ووصف الدعاء "بالعريض" استعارة شبه فيه الدعاء والشكر بالمكان الفسيح العريض.

وليس في الوصفين لتقلّب أحوال الإنسان تكرار كما يبدو للنّظرة العجلاء، ولكنّه تفنّن بديع يلائم وضعية الإنسان من الإيمان وعدمه، أو من قوته وضعفه، فالوصف الأول هو الغالب على الكفّار ومن هم على شاكلتهم من المسلمين الجغرافيين الشكليين، وأمّا الوصف الثاني فهو أعمّ إذ يعكس حالة الإنسان العادية من الهلع والإشفاق على حاضره ومستقبله، غير أنّ الإيمان القويّ بالله وإدمان ذكره والتقرب إليه يجعل الإنسان متوازنا، فيشكر الله عند النعماء، ويصبر عند الضراء، فهو دائما على خير كما قال رسول الله، والله أعلم.

١- التحرير والتنوير: ٢٥/١٣.

الدعوة إلى إعادة النظر والتأمل في دلائل صدق القرآن.

أ)- النصّ:

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾: ﴿أَرَأَيْتُم﴾: بمعنى أخبروني، والخطاب لكل من يصلح له. الضمير في: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ يرجع إلى القرآن، وقد سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾، وفي الكلام حذف تقديره: أمصيبون أنتم في ذلك؟. ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾: ﴿مَن﴾ الأولى استفهامية تفيد النفي في موضع رفع بالإبتداء، و﴿أَضَلُّ﴾: خبره، ﴿مِمَّنْ﴾ و﴿مَنْ﴾ الثانية موصولة. و﴿فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾: العصيان الواسع البالغ. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾: ﴿سَنُرِيهِم﴾: "السين" للتنفيس، أي المستقبل القريب، كما أن "سوف" للتسويف أي المستقبل البعيد، والآيات تشمل ما أخبر به القرآن والآيات الخارجة عنه في الكون. و﴿الآفَاقِ﴾: جمع أفق، أي نواحي الأرض وأرجاء السماء. ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾: الجملة في موضع رفع فاعل: ﴿يَتَبَيَّنَ﴾، والضمير في "أنه" يعود إمّا لله أو للرسول أو القرآن، وهو الأنسب. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ﴾: الاستفهام للتقرير. ﴿بِرَبِّكَ﴾: الباء زائدة، والمفعول محذوف، والتقدير: أو لم تكفك شهادة ربّك بصدقك، وقوله: ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: بدل من: ﴿رَبِّكَ﴾. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾: ﴿أَلَا﴾: للتنبيه، يؤكد به صحّة ما بعده. والمرية: الشك. ﴿مِن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾: أي من البعث والحشر ليوم الحساب.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد أن هدّد الله المشركين وبيّن كيف يرجعون يوم القيامة عمّا كانوا عليه من الشّرك في الدنيا، وبيّن كيف أنّ الإنسان يتغيّر في أحواله وهو يتقلّب بين السّراء والضّراء ما بين التعاظم والكبرياء والطغيان، وإظهار الذّلّة والإحباط والإلحاح في الدّعاء، عاد السّياق في ختام السورة إلى القرآن والتنويه بشأنه وبيان صدقه وحقيقته، وذلك بدعوته المخاطبين المعرضين بإعادة النظر في دلائل صدقه والتأمّل في آيات الله ليعلموا أنّه حقّ وصدق فيكون إصرارهم على إنكاره والنفرة عنه من أعظم الضلالات وأحسّ العداوات فقال تعالى: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾**.

أمر الله رسوله أن يوجّه الخطاب للمشركين المعرضين عن القرآن، وقد تقدم الحديث عنهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾، فالخطاب موجه لهؤلاء ولكلّ من يكون على شاكلتهم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾: بمعنى أخبروني، والرؤية علمية، و﴿إِن﴾ تفيد الشرط، وتدخل على الشرط المشكوك فيه، وجوابها محذوف مقدّر بنحو: أمصيبون أنتم في ذلك؟.

ومعنى الآية: إن إنكاركم للقرآن غير صادر عن تأمّل وتدقيق لدلالاته، فلو دقّقتم النّظر فيه لاحتمل أن يكون في نظركم حقّا من عند الله أو لا يكون، فإن كان القرآن في واقعه حقّا من عند الله، ثم كذّبتم به وأعرضتم عنه أفلا تكونون على أعظم ضلال وأخسّ عداوة لما هو حقّ وصواب، وتستحقّون بذلك أشدّ العذاب، فهم إذ عطّلوا حواسهم عن التّأمّل وصدّوا أنفسهم وغيرهم عن الاستماع إليه فلم يبق إلاّ العناد والتّعنّت وتلبية شهوات أنفسهم، فأعقب الله بوعده الصادق تسلية لرسوله وتخويفا للمشركين من عواقب الشقاق إذ أنّه تعالى سيري خلقه من آيات قدرته وعظمته في الآفاق وفي الأنفس ما يتبيّنون به يقينا أنّ القرآن من عند الله هو الحقّ الذي يسدّ عليهم طريق الجحود والإنكار وهي بشارة لرسول الله بأن يظهر دينه ولوكره المشركون فقال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾.

الجملة مكمّلة لما قبلها، إذ تقع منها موقع التعليل، على أساس أن يكون القرآن من عند الله، وقد دعاهم للتّأمل والتدبّر في آياته لإزالة شكّهم، فأكّد الله هنا تلك النتيجة المنتظرة من خلال كشفه لهم لآياته في الآفاق وفي الأنفس، وأنه تعالى سيريهم إياها حتى توصلهم إلى الإيمان اليقيني بحقّية القرآن.

فالسين في: ﴿سَنُرِيهِم﴾ للتنفيس، وهي تدلّ على المستقبل القريب، يكشف الله فيه لخلقه ما تخبئه الغيوب، والآيات تشمل النوعين: الناطقة من آيات القرآن، والصامتة المنبثّة في صفحة الكون.

وقد ذهب المفسّرون مذاهب شتى في تحديد المرئيّ من تلك الآيات، فمنهم من حصر الآفاق في جوانب الأرض فأشار إلى ما تمّ من الفتوحات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ودخول الناس في دين الله أفواجا في عهد رسول الله بعد الفتح وعهد خلفائه الراشدين. وفسّر قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ بأحوال تصيب

أهل مكة في ذواتهم، مثل الجوع ووطأة السنين والكوارث الطبيعية...إلخ. غير أنّ ما يراه كثير من المفسّرين المعاصرين من الإعجاز العلمي في هذه الآية هو الأنسب للواقع العلمي وتطوّره المذهل في هذا العصر الذي نعيشه من بعد أن حطّ الإنسان على ظهر القمر، وجابت سفينته الفضائية أقطار السماوات والأرض، وكشفت من أبعاد الكون وفي أطوار نشأته ما جعل الكثير من العلماء يؤمنون بعظمة الخالق، ولا تقلّ الأبحاث العلمية وكشوفاته شأنا لعظمة خلقة الإنسان وعجائب تركيبه مما بيّن القرآن جوانب منه لم يطّلع عليها العلم إلا مؤخّرا كأطوار الجنين في بطن أمّه، وما يزال الكثير في حيّز المجهول مما أشار إليه القرآن في مجال الإعجاز العلمي ستكشف عنه الأيام كما وعد الله.

يقول الدكتور أسامة علي الخضر في كتابه القيم (القرآن والكون) يقول: "لقد أسلفنا القول أنّ أحد الركائز التي اعتمد عليها القرآن في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وخاصّة القرآن المكيّ هي دلائل الإيمان الظاهرة في آفاق الكون". ثم يقول: "لا مفرّ لنا من مواجهة منطق العصر الحديث بعلومه ومعادلاته الرياضية وتقنياته حتى ترسخ فكرة هامة، وهي أنّ العلم والإيمان هما ملاذ البشرية مما هي فيه من ضياع وانهيار أخلاقي يدعو للرثاء، يقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾".[1]

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: الاستفهام للتقرير بأنّه تعالى شهيد على الأشياء كلها، وقد أوضح لكم الدلائل على صدق القرآن، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن.

- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:٤٣).

١- القرآن والكون: ١٢٨-١٢٩.

- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (الأنعام:١٩).

- ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء:١٦٦).

ثم ختم الله السورة ببيان سبب إصرار الكفار وعنادهم، وأنه تعالى لا تخفى عنه خافية فقال: **﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾**.

﴿ألا﴾: أداة تنبيه، تكرّرت في الجملتين للاهتمام بما بعدهما، فقد لخصت الجملة الأولى جميع ما فصّلته السورة من بيان أحوال المشركين في الكفر والعناد، بأن ذلك ناشئ عن إنكارهم للبعث واطمئنانهم إلى الحياة الدنيا، وجاء التعبير بلقاء الربّ لإشعارهم بما يعترفون به من ربوبيته تعالى لهم، لما في معنى الرّبّ من التربية والرعاية.

﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾: محيط به علما وقدرة وتصرّفا، يعلم ظواهر خلقه وبواطنهم، ويعلم حقائق الأشياء وخفاياها، فهو يجازي كلّ أحد بما يستحقّه خيرا أو شرّا، وهذا التذييل مبطل لكلّ ما تعلّق به المشركون من شكوك وأوهام وأباطيل مما فصّلته السورة، والله المستعان، وهو أعلم، والحمد لله رب العالمين، والله أعلم.

تمّت

سورة الشورى، مكّية، وآياتها ٥٣

بين يدي السّورة الكريمة:

تسمّى سورة الشورى، هكذا بالألف واللاّم، لقوله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٨)، وقد ينطقون بلفظ شورى، بدون ألف ولام حكاية للفظ القرآن، كما تسمّى: حم عسق، كما جاء في مفتتحها، وقد يقتصرون في تسميتها على: عسق.

وهي كلّها مكّية عند الجمهور إلا ما استثناه ابن عباس وقتادة من بعض الآيات منها، قالوا: إنها مدنية.

وهي الثالثة من الحواميم السبع التي قال ابن مسعود: "الحواميم ديباج القرآن".

وقد تقدّم القول في أنّ الحواميم نزلت في مكّة متتابعة، غير أنّ الإمام ابن عاشور يذكر أنّها نزلت بعد سورة الكهف وقبل سورة إبراهيم، وعُدّت التاسعة والستين في ترتيب نزول السور في رواية عن جابر بن زيد، وهي الثانية والأربعون في ترتيب المصحف الشريف، وآياتها ثلاث وخمسون.

وفي مناسبتها لما قبلها:

أ)- اشتمال كل منهما على التنويه بشأن القرآن وسوق الأدلة على حقيته وصدقه.

ب)- ردّ شبهات المشركين وتفنيد مطاعنهم بمختلف الحجج والبراهين، وتهديدهم بما ينتظرهم من سوء المصير.

ج)- تسلية رسول الله والمؤمنين معه وبشارتهم بما سيلقونه من نصر على أعدائهم.

بعض محاور السّورة:

كثير من المفسرين يجتهدون في تلخيص المحاور الأساسية لكل سورة قبل الشروع في تفاصيل التفسير لآياتها، وعلى ضوء ذلك التحديد يقسمون النصوص إلى دروس، وقد يتفقون في ذلك التقسيم أو يختلفون. وممن يحسنون مثل ذلك التحديد الأستاذ سيد قطب في أغلب السور.

ومما جاء في مقدمته لتفسير هذه السورة قوله: "هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية، ولكنها تركز خاصّة على حقيقة الوحي والرسالة حتى ليصحّ أن يقال: إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلّها، وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها".[1]

قلت: إن الموضوعات الفرعية تتمحور حول:

أ)- تماثل الوحي المنزل من عند الله على الرسل في الأصول العقدية، وإن اختلف في فروع التشريع.

ب)- بيان عظمة الله وسلطانه في ملكيته لكل ما في الكون. وقد خضعت له كل العوالم، وإن ملائكته تسبح بحمده وتستغفر لمن في الأرض.

ج)- ليس على الرسول إلاّ البلاغ، فهو لا يملك أن يقهر الناس على الإيمان، ومن حكمته تعالى أن جعل الناس مختلفين، ولكنهم مدعوّون لأن يستقيموا على صراط الله وأن لا يتفرّقوا في الدين.

١- في ظلال القرآن: ٢١/٢٥٩.

د)- لا حجّة للمشركين في شركهم، وإنّما هم مقلدون لآبائهم في ذلك، وتحذيرهم مما سيلقونه يوم الحساب والجزاء، مع إدماج الترغيب للمؤمنين بما سينعمون به في الجنة.

هـ)- استعجال المشركين لقيام الساعة وإشفاق المؤمنين منها، لاعتقادهم بأنّها حقّ، وبيان حظّ من يعمل للدنيا ومن يعمل للآخرة.

و)- يترل الله الرّزق لعباده بقدر ما تقضي به مصلحتهم حتى لا يقعوا في الطغيان والبغي، ولا يدعهم للقنوط من رحمته.

ز)- الإشادة ببعض الصفات الخلقية للمؤمنين وأخصّها الشورى بينهم في تدبير شؤونهم.

ح)- لا يجازي على الظلم إلا بمثله فمن عفا وأصلح فأجره على الله.

ط)- يهب الله لمن يشاء الإناث ولمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما.

ي)- بيان أنواع الوحي إلى البشر، و لم يكلم الله أحدا مباشرة.

وفي ختام السورة يشيد الله بعظمة القرآن والتنويه بشأن المترل عليه وهو من قبل لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

بيان حقيقة الوحي في مماثلة بعضه لبعض، والإشادة بعظمة الله، وتمكّن سلطانه.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿حم، عسق، كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: خصّت هذه السورة بخمسة حروف مقطّعة في أولها بزيادة ثلاثة حروف على نظائرها من الحواميم، وفصلت عن "حم"، وحاول المفسّرون تعليل ذلك، ومنهم الإمام ابن عاشور إذ قال: "ولعلّ ذلك لحال كانوا عليها من شدة الطعن في القرآن وقت نزول هذه السورة فكان التحدّي لهم بالمعارضة أشدّ، فزيد في تحديهم من حروف التهجّي".[1] وأما من حيث الإعراب، فهو يختلف باختلاف القراءة لفعل: ﴿يُوحِي﴾، فعلى القراءة بالبناء للمعلوم يكون لفظ الجلالة: ﴿اللهُ﴾ فاعل، وعلى القراءة بالبناء للمجهول فيكون: ﴿اللهُ﴾ إما مرفوع بفعل مقدّر أو

١- التحرير والتنوير: ٢٥/٢٦.

مرفوع بالابتداء. و ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: خبره، ويجوز أن يكون لفظ الجلالة، خبرا لمبتدأ محذوف، أي هو الله. ﴿يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾: ﴿يَكَادُ﴾: من أفعال المقاربة، ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: بمعنى يتشقّقن، والفطور هي الشقوق في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ (الملك:٣). ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾: الضمير يرجع إمّا للسماوات وهو الأرجح، وإما للأرض على اعتبار أجزائها، فالانشقاق من الأعلى، لوجود العرش والكرسي فوقهن، أو لكثرة الملائكة، وأما فوق الأرض وأجزائها فعلى اعتبار كثرة الشرّ والفساد. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾: أي ينزهونه عما لا يليق به ويخضعون لعظمته. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾: والمقصود بهذا العموم الخصوص من المؤمنين، لقوله في سورة غافر: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٠٧). ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾: ﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾: أي رقيب على أحوالهم فمجازيهم عليها. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم﴾: يا رسول الله بوكيل تضمن هدايتهم إذ ما عليك إلا البلاغ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي﴾: قرأ الجمهور بصيغة المضارع المبني للفاعل، واسم الجلالة فاعل. وقرأ ابن كثير: ﴿يُوحَى﴾ بالبناء للمجهول على أن: ﴿إِلَيْكَ﴾ نائب الفاعل، فيكون اسم الجلالة مرفوعا على الابتداء و﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: خبر. ﴿يَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾: قرأ نافع وحده والكسائي بتحتية في أوله، وقرأ الباقون بفوقية، وهما وجهان جائزان. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: قرأ الجمهور بتحتية ثم فوقية، وأصله مضارع التّفطّر، وهو مطاوع التفطير، وهو تكرار الشق. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بتحتية ثم نون، وهو مضارع: انفطر، مصدر فَطَر الثلاثي.

د)- البيان والتّفسير:

لقد تقدّم الحديث عن نظائر هذه الحروف المقطعة مثل ما جاء في أول هذه

السورة الكريمة.

﴿حم، عسق﴾: وهي خمسة حروف من أكثرها عددا مثل ما ورد في سورة مريم: ﴿كَهيَعَصَ﴾ (١)، إلاّ أن الفرق بينها أن هذه جاءت موصولة بينما في سورة الشورى جاءت منفصلة وتكرّر حرف العين في كليهما، وقد تقدم تعليل الإمام ابن عاشور على ذلك، ولعل فصل حرفي: ﴿حم﴾ عن بقية الحروف الأخرى ليصّح جمعها مع الحواميم الأخرى كما جاء في الأثر: "الحواميم ديباج القرآن".

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: أي مثل هذا الوحي الذي أوحي به إلى سائر الرسل من قبلك، وبتلك الطريقة نفسها يوحي الله إليك، فليس هناك اختلاف في الطريقتين، فالمضمون واحد في أصول العقيدة، من الإيمان بوحدانية الله، والإيمان باليوم الآخر، وإثبات النبوءة والرسالة، وإن اختلفت في الفروع التي تخضع لظروف الزمان والمكان.

ومصدر الإيحاء واحد، وهو الله العزيز الحكيم، القويّ الغالب على أمره والحكيم في تدبير شؤون خلقه يتصرف فيها بحكمة ويضع الأشياء في مواضعها.

ومن شأن تقرير هذه الحقيقة الكبرى من ظاهرة الوحي ومصدره أنّها تربط الجماعة المؤمنة بمولاهم وتشعرهم بالعزّة والشّرف لانتمائهم إلى المنهج السويّ الثابت على مرّ الأجيال والعصور.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾: ومن صفات الموحي بالرسالات أنه الغني، وهو العليّ العظيم، إذ له ملك السماوات والأرض وما فيهما مما نعلمه وما لا نعلمه، تلك السماوات بأبعادها وأطباقها وأجرامها، وهذه الأرض بكل ما تعجّ به من دوابّ وما تحمله من أرزاق وأقوات هي ملك لله

وحده يتصرف فيها كيف يشاء إحياء وإعداما وزيادة ونقصانا، لا يعزب عن علمه مما فيهما مثقال ذرة، وهو المتعالي وصاحب الكبرياء والعظمة لا تنفد خزائنه، فلا يشعر سائله بالذل والهوان، إذ هو الواحد المتفرد بالملك والسلطان.

﴿يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾:

تفطّر السماوات هو انشقاقها، وقد جعل الله انفطار السماوات وانشقاقها من أهوال قيام الساعة في قوله:

أ)- ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (الانشقاق:٠١). ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ (الانفطار:٠١).

ب)- ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن:٣٧).

ج)- ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٦).

ولكن التعبير هنا جاء بفعل المقاربة: ﴿يَكَادُ﴾ ليقرّر ويؤكّد معنى العلوّ والعظمة الإلهية، حتى لكأنّ السماوات على ضخامتها واتساعها يتفطّرن من هيبة الخالق وعظمته وجلاله خضوعا لإرادته ومشيئته وامتثالا لأوامره فيما سخّرن له، وهناك احتمالان آخران لسبب انفطارهن:

أ)- كثرة ما فيهن من الملائكة والخلائق الأخرى التي لا نعرفها وهذا وفق ما في معنى الحديث الشريف: «**أطّت السماء وحقّ لها أن تئطّ، ما فيهن موضع قدم إلاّ وفيه ملك راكع أو ساجد**»[1].

١- رواه الترمذي من حديث أبي ذر، كتاب (٣٧) الزهد، باب (٩) في قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، رقم ٢٣١٢: ٥٥٦/٤.

ب)- يتفطّرن استفظاعا وإنكارا لقول المشركين: اتخذ الله ولدا، وهذا على معنى قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٨٨-٩١).

ولعل الآية اللاحقة تؤيّد الاحتمالين الأخيرين: ﴿وَالْمَلآئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾.

فالملائكة -وهم العباد المكرمون عند الله- لا يفترون في التسبيح والتحميد لربهم لما يحسّونه من الهيبة لله وإجلال عظمته، وهم إذ ينكرون على أهل الأرض انحرافهم وإنكارهم لنعم الله، فيشفقون عليهم من غضب الله ونقمته فيطلبون لهم من الله الرحمة، لأنّ استغفارهم لأهل الأرض هو طلب الرّحمة، وإن كانت آية سورة غافر تخصّ الاستغفار للذين آمنوا. واستغفار الملائكة للكفّار لا يعني طلب المغفرة لذنوبهم بدون توبة، وإنما هو طلب الرحمة بإمهال العذاب عنهم عساهم يهتدون يوما أو يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله وينصر دينه كما حدث لكثير من كفار قريش، وأما استغفارهم للذين آمنوا فواضح كما ورد في سورة غافر؛ ذلك لأنّ ملائكة الله لطهارة نفوسهم ودوامها على طاعة الله هم مشفقون على ما يرتكبه الناس من المعاصي، ولو كانوا مؤمنين.

﴿أَلاَ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: فهو الرحيم بعباده متى عادوا إلى حظيرته تائبين منيبين.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾: بعد إقامة الحجّة على وحدانية الله وعظمته وخضوع كلّ ما في الكون لجلال سلطانه، وأنّ ملائكته تسبّح بحمده، وتستغفر للذين آمنوا برهم.

وقبل أن يأمر الله رسوله بالدعوة إلى الله كما يأتي في النصّ اللاّحق يمهّد لذلك بتقديم هذا العرض للذين اتخذوا من دونه أولياء وصمّوا آذانهم عن دعوة الحق، وكان الرسول حريصا على إيمانهم، فأراد الله أن يطمئن رسوله والمؤمنين معه بأن يكلوا أمر هداية هؤلاء إلى الله في جميع الأحوال فهو الحفيظ عليهم المراقب لأحوالهم، فهو الذي يجازيهم ويتولّى أمرهم فما على الرسول إلاّ البلاغ والنصح والإرشاد، فلا يضيرهم من انحرف عن الطريق، فهم ليسوا وكلاء على خلق الله، فالحفيظ المتصرّف في شؤون الخلق هو الله وحده، ونظير معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٧).

فالمطلوب أن يطمئنّ المؤمنون أنّهم على نهج الله ورسوله يسيرون، ويبذلون جهدهم في النصح والإرشاد، فما عليهم أن يستجيب الناس أو يعرضون، والله أعلم.

بيان المقصد الإلهي من إنزال القرآن.

أ) - النصّ:

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا
يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: معطوف على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾، كرّر فعل الإيحاء لطول الفصل، ولزيادة تقرير المعنى، أي الإيحاء من الله واحد، وإن كان الاختلاف في اللغات، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾: أي أهل مكة كنّيت بأمّ القرى لأنها أقدم المدن العربية، وأمّ الشيء أصله. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أي من العرب وغيرهم، و﴿أُمَّ﴾: منصوب على المفعولية لفعل: ﴿تُنذِرَ﴾. ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾: قيل: يقدر: الناس، لفعل: ﴿تُنذِرَ﴾ الثاني، فيكون: ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ مفعولا ثانيا، وهو يوم القيامة، يوم يحشر الناس للحساب، والجزاء آت لاشك فيه، وبعد فصل القضاء يفرق الناس إلى فريقين إلى الجنة أو إلى جهنم. ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: أي لو شاء الله لجعلهم على دين واحد، أي مهتدين كلّهم أو ضالّين كلّهم، ولكن مشيئته اقتضت أن يترك لهم الاختيار. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾: ﴿أَم﴾ للإضراب الانتقالي، وتقدر بعدها همزة استفهام إنكاري، بمعنى: هم بذلك قد أتوا منكرا. والفاء في قوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ تدلّ على جواب شرط مقدّر، فيكون المعنى: إن أرادوا وليّا بحق فالله وحده هو الولي. ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾: والمراد الاختلاف بين المؤمنين والكفار في أمور الدين، فمرجع حكمه إلى الله بينكم يوم القيامة. ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ

﴿تَوَكَّلْتُ﴾: الإشارة إلى لفظ الجلالة في قوله: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾، وهي في موضع رفع بالابتداء. ﴿اللهُ﴾: عطف بيان. ﴿رَبِّي﴾: صفة. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: جملة الخبر. ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: الفاطر: الخالق، وهو مرفوع، إما خبر ثان أو بدل، ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف، ويجوز نصبه على المدح. ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: من الذّرء، وهو بثّ الخلق وتكثيره. ﴿فِيهِ﴾: الضمير عائد إلى الجعل المذكور للأزواج من الناس والأنعام. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾: الكاف للتشبيه، وهي بمعنى: "مثل"، تؤكد معنى المثل الواقع في حيّز النفي، وهي في موضع نصب خبر ليس، والتقدير: ليس مثله شيء. ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: ﴿مَقَالِيدُ﴾: جمع: إقليد، أو جمع: مقلاد، أي مفتاح، أي له وحده خزائن الخيرات المودعة في السماوات والأرض. ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: أي يوسع الأرزاق لمن يشاء ويضيّقها عمّن يشاء.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد أن طمأن الله رسوله بأنّه هو الرّقيب المتصرّف في شؤون خلقه، فما عليه إلاّ تبليغ ما أوحي إليه، أعقب الله ذلك بتوجيهات لرسوله، فبين له حكمته في إنزال القرآن بلغة العرب لينذرهم به، بدءا من أهل مكة ومن حولها، على أن يترك للخلق الاختيار في الإيمان وعدمه في الدنيا؛ لأن الفصل والحساب يكون يوم القيامة، فيجب ردّ المختلف فيه إلى الله، متوكلين منيبين إليه، لأنّه الوليّ الحقّ القادر على كل شيء، لا يشبهه شيء في ذاته أو صفاته فقال تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾**.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: الجملة معطوفة على قوله تعالى في ما

سبق: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي مثل ذلك الإيحاء إلى الرسل السابقين بلغات أقوامهم لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم:٠٤). مثل ذلك الإيحاء: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وأعيد فعل: ﴿أَوْحَيْنَا﴾ بنون العظمة لتأكيد حقيقة الوحي أنها من عنده وأنه اختار لها محمّدا العربي القرشي، فأنزل عليه القرآن بلسان قومه عربيًا قويما فصيحا غير ذي عوج، ثم بيّن المقصد من نوعية ذلك الإيحاء، فقال مخاطبا رسوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾.

والإنذار هو التخويف من شرّ متوقع. و﴿أُمَّ الْقُرَى﴾: هي مكة المكرمة، كنيت بذلك لما تمتاز به من العراقة التاريخية عند العرب، ولاحتضانها أوّل بيت وضع للناس لعبادة الله وليكون مثابة للناس وأمنا؛ ولأن الأم يطلقه العرب على أصل الشيء، فقد ذكر العلماء الباحثون في تحديد أطوار الأرض، ذكروا أن منطقة مكة المكرمة هي أولى المناطق التي بردت من قشرة الأرض وتشكلت جبالها ووديانها، والله أعلم بتلك الأطوار. وقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وهو يعني سائر القرى الأخرى مهما اتسعت دائرة العمران، ولا يقتضي ذلك اقتصار دعوة الرسول على قومه العرب كما يدّعيه أعداء الإسلام لأن الرسول بعثه الله إلى النّاس كافّة، ولابدّ لأية دعوة من منطلق تنطلق منه ثم تنداح دائرتها شيئا فشيئا، وهذا على معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤). فلا يقتضي ذلك أن لا ينذر الأبعدين. على أن قوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ بدل على العموم؛ لأن التقدير: وتنذر النّاس يوم الجمع، لأنّ فعل الإنذار ينصب مفعولين، فبين الجملتين تكامل، فالأولى لبيان المنذَرين بفتح الذال، والثانية لبيان المنذر منه، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن. ويوم الجمع هو يوم الحشر لفصل القضاء بين الخلائق لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ

لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (التغابن:٠٩). و﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ جملة معترضة، أي هو آت لاشك في ذلك.

وفي استئناف بيانيّ بديع قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، فهو بيان لسؤال يثيره السّامع في شأن ذلك الجمع، فجاء الجواب بأنّ الخلائق بعد الحساب تكون على فريقين، فريق مؤمن بالله ورسوله موفّ بواجباته الدينية يكون جزاؤه الجنة، وفريق آخر كافر اتّخذ لله شريكا وكذب بالرسالة وحادّ الله ورسوله فهو في نار جهنم خالدا فيها مغضوبا عليه.

﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَّشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّنْ وَّلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾: عندما ذكر الله مصير الفريقين، وفق ما اختاره كلّ فريق لنفسه من التّوجّه والكسب الحرّ في الدنيا، عطف على ذلك ببيان أنّ الأمر متعلق بمشيئة الله وعلمه الأزلي أن يخلق الإنسان ويجعله ذا توجّه مزدوج ويوفّر له الأسباب بحكمته لانتهاج ما يختاره بإرادته الحرّة على سبيل الهدى أو الضلال، ولو شاء لجعل الناس أمّة واحدة أي على توجّه واحد للهدى أو للضلال، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨-١١٩).

وبعض المفسّرين يقصرون الجعل في الآية على الهدى مستدلين بغيرها من الآيات الأخرى كقوله تعالى:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩).

- ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام:٣٥).

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ (السجدة:١٣).

ويدلّ على أرجحية التفسير الأول ما أعقب الجملة من الاستدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، أي اقتضت حكمته تعالى أن يدخل في رحمته من كانت لديهم القابلية للهدى والصلاح فيجازيهم على أعمالهم، ولم يقابل ذلك بقوله: ويدخل من يشاء في عذابه، بل قال: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، فأظهر وصف: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ ليشمل كل أنواع الظلم من الشرك فما دونه من الكبائر والمعاصي ما لم يتب منها صاحبها، ونفي الوليّ والنصير عنهم كناية عن كونهم في شقاء وعذاب.

وبما أنهم اتخذوا أولياء لهم من دون الله أمر الله نبيّه أن لا يهتمّ بهم وأن يترك أمرهم إلى الله تسلية لقلبه الشريف فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿أَم﴾ للإضراب الانتقالي، وتتضمّن الاستفهام الإنكاري، والمعنى: بل أاتخذوا -أي هؤلاء الكفار- آلهتهم الباطلة أولياء من دون الله معتقدين فيهم النصرة والعون، فإن أرادوا وليّا ينصرهم بحقّ فإنّ الله وحده هو الوليّ، فالفاء متضمنة لجواب شرط مقدّر. وقصر الولاية على الله وحده لأنه هو القادر على إحياء الموتى بصفة خاصة، وهو القادر على كلّ شيء بصفة عامة، تتجلّى قدرته في بديع صنعه، وتخصيص إحياء الموتى بالذكر إدماج لتركيز حقيقة البعث في نفوس المؤمنين وتعريض بالمشركين لأنهم أنكروا ذلك.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾: الخطاب لأمة الدعوة كلّها -أي للناس قاطبة-؛ لأنه تعالى فطر الناس على الاختلاف، فلا بدّ من مرجعية عادلة حكيمة يرجع الناس إليها للفصل في قضاياهم، وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان

لإبهام "ما" وهي لإفادة استغراق العموم، فيشمل كلّ أمور الدين والدنيا، يحتكم فيها الناس إلى شرع الله مما أنزله في كتابه، فهو تبيان لكلّ شيء والرسول مكلف بتبليغه وبيان أحكامه للناس، إذ جعله الله دستورا كاملا لحياة البشر، وهو أعلم بما يصلح لهم في معاشهم ومعادهم، والمؤمنون هم أولى من يتقيّد بأحكام الله في ما يطرأ بينهم من خلاف لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (النساء:٥٩).

ثم جعل الله رسوله قدوة في ذلك فأمره أن يقول: **﴿ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**.

﴿ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّي﴾: الإشارة بالبعيد للتعظيم، والمشار إليه هو لفظ الجلالة في قوله: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾، ثم تتوالى على لسان رسول الله تلك الميزات للذات الإلهية لإبطال ذلك التصوّر الفاسد في معتقد المشركين لحقائق الربوبية والألوهية، فرسول الله يشهد أن الله هو الإله الحقّ المتفرّد بالوحدانية، والمتّصف بالكمال المطلق، فهو يتوكّل عليه وحده، وينيب إليه دون سواه طلبا لعفوه ورجاء في عونه، ورضوخا لأحكامه، والرسول بهذه الطريقة الإيحائية المؤثرة يبعث الطمأنينة في نفوس المومنين ويركّز خطواتهم على نهج الله، فلا يلتفت إلى غيره مما يشرّعه الناس لأنفسهم من القوانين والأنظمة المتقلّبة.

وحتى تستقرّ هذه الحقيقة وتتركز في النفوس أكثر بيّن الله مجال القدرة الإلهية في الآفاق وفي الأنفس فقال: **﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ**

﴿البَصِيرُ﴾، أي إنّ هذا الرّبّ العظيم المنـــزّل لأحكام كتابه هو خالق السماوٰت والأرض، وأنتم جزء منهما، وما شؤونكم في حياتكم إلاّ وهي خاضعة لتدبيره الحكيم في تصريفه لشؤون السماوات والأرض، وهو الذي أجرى حياتكم وحياة الأنعام التي سخّرها لكم، أجراها على قاعدة الزوجية من الذكر والأنثى فتتكاثرون كما شاء وقدّره كما تتكاثر الأنعام وتتوالد بما يغطّي أرزاقكم ويضمن منافعكم منها.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، لنفي المثلية عن ذاته العليّة، فالله لا يشبهه شيء من خلقه، فهو يتنزه عن الشبيه، فالكاف بمعنى المثل، ويرى الإمام ابن عاشور وغيره أنها زيدت لتأكيد معنى المثل، وقالوا: إنها من التوكيد اللفظي باللفظ المرادف من غير جنسه، فتكون هذه الآية في الأصل في تنزيه الله عن كل ما يكون للمخلوقات من الحواسّ والأعضاء، فيجب تأويل كل ما ورد في القرآن من ألفاظ الجوارح والأعضاء في حق الله تعالى وتخريجها مخرج التشابيه والاستعارات والكنايات مما استعمله العرب الفصحاء في أساليبهم.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾: جاء التعبير بالحصر لإثبات الصفات المعنوية الدالة على الكمال من العلم المتعلق بجميع المسموعات والمبصرات من خلقه، وهي في حقّه تعالى صفات ذاتية لا تشبه صفات المخلوقات التي تكون عارضة، وكان المربّون في تلقينهم للناشئة أصول العقيدة يصورون لهم تلك الصفة الإلهية الذاتية بقولهم: "يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصّماء، في الليلة الظلماء"، ولله المثل الأعلى.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوٰتِ وَالاَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: كما ثبتت لله الخالقية وحده في أرجاء ملكوته، فإنّه قد أثبت لذاته العلية بهذه الآية صفة الرّازقية، فاستعار لخزائن رزقه كلمة: ﴿مَقَالِيدُ﴾

وهي جمع مقلاد، وهو المفتاح، شبهت خيرات أرزاقه بالكنوز التي تدّخر في الخزائن ينفق منها على خلقه كيف يشاء، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (المنافقون:٧). فهو يوزّع تلك الأرزاق بحكمة وتدبير محكم فيبسطها على من يعلم صلاحه في ذلك ويضيّقها على آخرين وفق ما يلائم أمزجتهم وطبائعهم.

والتذييل بقوله: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، لإفادة أنّ مشيئته في توزيع الأرزاق جارية وفق علمه بأحوال عباده، والله أعلم.

التنويه بدين الإسلام، وبيان وحدة الأديان في الأصول.

أ)- النصّ:

شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: ﴿شَرَعَ﴾: بيّن مسالك ما كلّفكم به؛ لأنّ أصل "شرع": جعل الطريق واسعة، ويطلق على سن القوانين، والشريعة هي أحكام الدين. ﴿وَصَّى﴾: من التوصية، الأمر بالشيء

مع الاعتناء بالمأمور. ﴿مَا﴾: في موضع نصب بـ﴿شرع﴾. ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: معطوف عليها. ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ﴾: معطوف أيضا وهو في موضع نصب. ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾: يجوز أن تكون الجملة: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ في موضع نصب بدل من مفعول "شرع"، ويجوز أن تكون في موضع رفع على الاستئناف خبر لمبتدأ مقرر، وإقامة الشيء جعله قائما بالحرص عليه، أي الحرص على أصول الدين، فلا يكون الاختلاف على الأنبياء فيها. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾: ﴿كَبُرَ﴾: بمعنى صعب وشق عليهم ما تدعون المشركين إليه من التوحيد لله والإيمان باليوم الآخر. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾: ﴿يَجْتَبِي﴾: بمعنى يختار. ﴿إِلَيْهِ﴾: الضمير يعود إلى قوله: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾. ﴿يُنِيبُ﴾: أي يرجع إلى طاعة الله. ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾: ﴿مَا﴾: نافية، ﴿تَفَرَّقُوا﴾: أي أهل الأديان وهم أمم الرسل المذكورين، إلا من بعد ما قامت عليهم الحجة على ألسنة رسلهم من العلم اليقين بما كلفهم الله به. ﴿بَغْيًا﴾: مفعول لأجله، أي ظلما وتجاوزا للحدّ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: أي إمهالهم في الجزاء إلى يوم القيامة ولولا ذلك لعذبهم الله في الدنيا. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾: أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، الموجودون في وقت الرسول، هم شاكون في ما ورد في كتبهم من أوصاف الرسول الخاتم، أي تفرق الأخلاف كما تفرّق الأسلاف.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد التنويه بشأن القرآن العظيم وبيان حكمة الله وعظمته في خلق السماوٰت والأرض وتعداد نعمه الكثيرة على خلقه انتقل إلى أمر الوحي بصفة

عامّة وما شرعه من الأديان التي تتفق كلها على توحيد الله وتتفق على أصول العقيدة من الإيمان بالله ورسله وباليوم الآخر وتعرّض بالمشركين الذين عظمت عليهم دعوة الإسلام من بعد ما قامت الحجّة عليهم وهم مدفوعون في ذلك ببواعث الحسد والبغي، فاقتضت حكمته تعالى أن لا يعجّل لهم بالعذاب فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

تقدم قوله تعالى لرسوله في أول السورة: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، بصفة مجملة، وهنا أعاد الله في تفصيل ظاهرة الوحي، موجّها الخطاب للرسول والمؤمنين. و"شرع" بمعنى بيّن ووضح ويقال: "الشارع" للطريق الواسعة، وتطلق على سنّ القوانين والأنظمة، والمقصود بالدين الجنس، لأنّ الديانات تتفق كلها في أصول العقائد ومكارم الأخلاق، وتخصيص الرسل الخمسة بالذكر: نوح ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى، لأنهم أولو العزم من الرسل بعثهم الله بالديانات الكبرى فقال لرسوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف:٣٥).

بدأ الله بسيّدنا نوح عليه السلام لأنه أول رسول بعد النبي آدم عليه السلام إذ لم يكن آدم رسولا بل هو نبي عند الجمهور، فالأديان السابقة كانت تدين كلها بالإسلام أي تأمر بالتوحيد وبعبادة الله والإيمان بالرسالة واليوم الآخر وتوصي بمكارم الأخلاق والآداب العامة، وإن كانت تختلف في فروع الأحكام لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة:).

ثم إن القدر المشترك في المماثلة بين الأديان أن تكون جامعة وسببا للائتلاف والوئام لا وسيلة للتفكك والانفصام كما كان واقع الأتباع.

وفي تعقيب ذكر دين نوح بما أوحي إلى محمد عليه السلام يقول الإمام ابن

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾: الحديث عن أمم الرسل المذكورين إذ أقام الرسل الحجة على أتباعهم وبيّنوا لهم وجه الحقّ وطريق الهدى كما أمرهم الله وحذّروهم من شرور التفرق، فهم غير معذورين في ذلك التفرّق؛ لأنهم كانوا على علم بما دعت إليه رسلهم ولكنّهم تفرّقوا تحاسدا بينهم وبغيا واتباعا لأهوائهم وإعراضا عن عقيدتهم ودينهم الذي يأمرهم بالوحدة وكانوا يستحقون بذلك نقمة الله وعذابه العاجل. ولكن حكمة الله اقتضت أن يمهلهم إلى أجل مسمّى، وقد يكون ذلك الأجل المسمّى هو عذاب دنيويّ كما حدث للأمم السابقة، وقد يكون عذابا أخرويا تقتضيه ظروف أخرى مختلفة، فهي آجال متفاوتة مقدّرة في علم الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، فإنّ المقصود هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين ورثوا التوراة عن أسلافهم ممن كانوا في عهد التنزيل، فهم في شكّ وارتياب من كتابهم ودينهم، لم يصدّقوا بالأوصاف التي تصف خاتم الأنبياء فلم يؤمنوا به، وكذّبوا بالقرآن، أي أنهم اتبعوا سنن أسلافهم في التفرّق والخلاف بما انتابهم من الحيرة والشّكّ، بينما جاء محمد مصدقا لما معهم، والله أعلم.

الأمر بالاستقامة على دين الحقّ، ودحض حجّة المجادلين فيه، وبيان موقف المؤمنين والكافرين من السّاعة.

أ)- النصّ:

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾: الحديث عن أمم الرسل المذكورين إذ أقام الرسل الحجة على أتباعهم وبيّنوا لهم وجه الحقّ وطريق الهدى كما أمرهم الله وحذّروهم من شرور التفرق، فهم غير معذورين في ذلك التفرّق؛ لأنهم كانوا على علم بما دعت إليه رسلهم ولكنّهم تفرّقوا تحاسدا بينهم وبغيا واتباعا لأهوائهم وإعراضا عن عقيدتهم ودينهم الذي يأمرهم بالوحدة وكانوا يستحقون بذلك نقمة الله وعذابه العاجل. ولكن حكمة الله اقتضت أن يمهلهم إلى أجل مسمّى، وقد يكون ذلك الأجل المسمّى هو عذاب دنيويّ كما حدث للأمم السابقة، وقد يكون عذابا أخرويا تقتضيه ظروف أخرى مختلفة، فهي آجال متفاوتة مقدّرة في علم الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، فإنّ المقصود هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين ورثوا التوراة عن أسلافهم ممن كانوا في عهد التنزيل، فهم في شكّ وارتياب من كتابهم ودينهم، لم يصدّقوا بالأوصاف التي تصف خاتم الأنبياء فلم يؤمنوا به، وكذّبوا بالقرآن، أي أنهم اتبعوا سنن أسلافهم في التفرّق والخلاف بما انتابهم من الحيرة والشّكّ، بينما جاء محمد مصدقا لما معهم، والله أعلم.

الأمر بالاستقامة على دين الحقّ، ودحض حجّة المجادلين فيه، وبيان موقف المؤمنين والكافرين من السّاعة.

أ)- النصّ:

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ

لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾: اللاّم للتعليل، أو هي بمعنى "إلى"، والإشارة إلى الدين من قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾. لم يذكر مفعول: ﴿ادْعُ﴾ لدلالة ما تقدم عليه، والتقدير: أدع المشركين، والفاء مؤكّدة لفاء التفريع التي قبلها. ﴿وَاسْتَقِمْ﴾: من الاستقامة، وهي الاعتدال والتزام التقوى والأخلاق الفاضلة، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾: أي أهواء المشركين وأهل الكتاب، والمقصود به نهي المسلمين عن ذلك؛ لأن الرسول معصوم. ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾: ﴿مِن﴾ بيانية، أي آمنت بأيّ كتاب أنزله الله، خلافا للذين قالوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض. ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: أي نحن متفقون على توحيد الله، ومستوون في الأحكام المنزّلة، والله يجزي كلّ واحد بعمله، ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾: أي لا مجادلة ولا خصومة لظهور الحق. ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿حُجَّتُهُمْ﴾: مبتدأ ثان، ﴿دَاحِضَةٌ﴾: خبر. والجملة خبر: ﴿الَّذِينَ﴾. ﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾: أي محاجّتهم في دين الله لإدحال الشك في قلوب الناس من صحّة الإسلام من بعد استجابتهم لدعوته. ﴿دَاحِضَةٌ﴾: زائلة باطلة. من: دحضت رجله، أي زلت. ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾: الباء للملابسة،

و﴿الْحَقَّ﴾: هو كل ما يقتضيه الصلاح والخير. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾: العدل، ﴿الْكِتَابَ﴾: "أل" للعهد، أي القرآن، أو للجنس، أي كل كتاب. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: ﴿مَا يُدْرِيكَ﴾: ﴿مَا﴾: استفهامية للتنبيه، ﴿يُدْرِيكَ﴾: من الدّراية، وهي العلم، علّق ﴿يُدْرِيكَ﴾ عن العمل بحرف الترجّي: ﴿لَعَلَّ﴾. ﴿قَرِيبٌ﴾: لم يؤنث، إمّا لأنّه نعت لمذكر مقدر، أي شيء، أو أمر قريب، أو يراد بالساعة: البعث. ﴿يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾: ﴿يُمَارُونَ﴾: من المماراة وهي الشك، ﴿فِي السَّاعَةِ﴾: للظرفية المجازية. ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾: ﴿لَطِيفٌ﴾: كثير البرّ بهم يتلطّف بهم جميعا، و﴿لَطِيفٌ﴾: يتعدى بالباء وباللاّم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (الرعد: ١٠٠).

ج)- البيان والتّفسير:

بعد بيان وحدة دين الله في الأصول العقدية وفضائل الأخلاق والآداب، وكيف أن الأتباع تفرّقوا فيه من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فرّع الله على ذلك الأمر لنبيّه بالدعوة والاستقامة على نهجه السّويّ، وأن لا يلتفت إلى الأهواء المضطربة حول دعوته الواضحة، وأن ينهي المجادلة والخصومة بينه وبين أعدائه، لأنّ الفصل في ذلك هو لله وحده يوم القيامة، ثم ذكر موقف المؤمنين والكافرين من قيام الساعة، وبيّن أن المنكرين لها هم في ضلال بعيد فقال تعالى: **﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾**.

"الفاء" للتفريع على ما سبق من قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾، فالإشارة إلى ما شرعه الله من وحدة الدّين في الأصول العقدية وفي

فضائل الأخلاق، وبما أنّه تعالى نهى عن التفرّق في الدّين فقد أمر رسوله ومن خلاله لأمّته قاطبة أن يدعو إلى الاستقامة على دين الله وفق ما شرعه لعباده من أحكام، وأن يلتزم بذلك على الدّوام، ومبالغة في تأكيد ذلك الأمر نهى الله رسوله أن يتبع أهواء الكافرين في ما يقترحون عليه من الأخذ ببعض ممارساتهم الدينية الباطلة وحاشا لرسول الله أن يتبع أهواءهم، بل إن توجيه الخطاب إليه هو على قاعدة: "إياك أعني واسمعي يا جارة"، فهو للمؤمنين من أمّته، إذ لا ينفكّ المشركون عن فتنتهم في دينهم، ثم أمر الله رسوله أن يعلن أمام المنحرفين من قومه المشركين، وأمام الشاكين المرتابين من أهل الكتاب، يعلن عن منهج الرسالة الجديدة الجامعة لوحدة الدين ووحدة الكتاب واستقامة النهج والطريق، وردّ الحكم وفصل القضاء إلى الله وحده يوم القيامة.

أ)- ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾: إنه الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله؛ لأنها من أصل واحد، فإذا قال أهل الكتاب: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ (النساء: ١٥٠). فإنّ الرسول والمؤمنين معه يشهد الله لهم بقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ب)- ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾: أي أمرت بالتّطبيق العملي لأحكام الله التي أنزلها بالحقّ والميزان، ليقوم الناس بالقسط، فالعدل للجميع أيّا كان لونه وجنسه بل حتى معتقده، فلا ظلم ولا إجحاف في سلطة الدولة الإسلامية على أحد، بل هو العدل في كل شيء؛ لأنّ اللّفظ عامّ يغطّي كلّ المجالات الحيوية، ويشمل كلّ من يقع تحت سلطة المسلمين.

ج)- ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: إنه الاعتراف بالربوبية والسلطة المطلقة لله تعالى لا ينازعه في ذلك ملك مقرّب ولا رسول مهما بلغت منزلته عند الله.

د)- ﴿لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾: ومع الإقرار بالربوبية لله وحده، فإنّ المسؤولية الفردية والتّبعية الشخصية هي من أبرز السمات، ومن المسلّمات في منهج رسول الله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الزمر٧٠)؛ ذلك لأنّ المشركين بحكم إنكارهم للحساب الأخروي كانوا يفتنون المؤمنين بقولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ (العنكبوت:١٢).

هـ)- ﴿لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾: أي لقد أفنينا الجدال بيننا وبينكم إذ ظهر الحقّ وأقمنا عليكم الحجة، فماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال، فإنّ الجدال مع أهل الباطل والعناد مضيعة للوقت وهدر للمروءة كما قال الشاعر:

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيّه وخطاب من لا يفهم

و)- ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: أي إذا كان الاختلاف في الرأي والتوجّه قد فرّق بيننا اليوم فإنّنا وإيّاكم نلتقي عند الله في يوم الجمع يوم نصير إليه جميعا فيحكم بيننا بالحقّ، فنحن نكل الأمر إليه، فستعلمون من أصحاب الصراط السّويّ ومن اهتدى.

وبعد أن وضحت حقيقة هذا الدّين وتحدّدت معالمه بتلك البيانات الواضحة، وبعد أن استجاب لها من أراد الله به خيرا من تلك العصبة الخيّرة من أصحاب رسول الله، فإنّ كلّ مجادلة في الله وفي دينه تكون مستنكرة لا فائدة من ورائها، ويتعرض المتشبثون بها إلى الوعيد الشديد: ﴿وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

لقد سطعت شمس الحقيقة وأفلس المحاجّون في الله، بعد ما استجاب لأمر الله أصحاب الفطرة السليمة فأدركوا سماحة الدعوة الجديدة واستجابتها لمتطلبات

الحياة الهنيئة الطافحة بالرضى والطمأنينة: فما جدوى الحجج الواهية سيما إذا كانت تصدر عن عناد وتعنّت واستكبار:

فليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وليس أمام الذين يحاجّون في دين الله بالباطل، وإن كانوا ينتمون إلى الإسلام ممن استهوتهم الحضارة المادية فأصبحوا أبواقا لأسيادهم من أعداء الإسلام، ليس أمام هؤلاء وأولئك إلا الهزيمة والخزي الدنيوي، ثم سخط الله وعذابه يوم يقوم الناس لربّ العالمين.

﴿اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ، يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾:

بعد أن ذكر الله اختلاف أتباع الرسل بغيا بينهم وأنه تعالى اقتضت حكمته أن يكون الفصل بينهم مؤجّلا إلى القيامة اقتضى ذلك أن يمهّد لذكر قيام الساعة وبيان موقف الناس منها، يمهّد لها بقوله: ﴿اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾، فجاء الإخبار عن لفظ الجلالة باسم الموصول: ﴿الذي﴾ وما تضمنته صلته من إنزال الكتاب بالحقّ والميزان جاء ليدلّ على معنى الحصر، و"ال" في لفظ: ﴿الْكِتَابَ﴾ للجنس انسجاما مع إعلان الرسول المتقدم في قوله: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾، فبيّن الله هنا أنه هو المنزل لذلك الكتاب -أي القرآن- بالحقّ، والباء للملابسة، وأنه أقام شرائعه على العدل والإنصاف في الحقوق، وقد استعار لذلك لفظ: ﴿الْمِيزَانَ﴾، وهو الآلة التي يقدر بها ثقل الأجسام وتختلف دقة وحساسية بحسب الشيء الموزون حتى في وزن الحسنات والسيئات إذ قال الله في شأنها: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ

فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ (الأنبياء٤٧).

وملك الله في أرجاء ملكوته قائم بالقسط، فشرعه لعباده في ما أنزله من الكتب يهدف في مقاصده العليا إلى تحقيق ذلك العدل، وإذ يواجه كلّ واحد من الخلق المكلّف مسؤوليته الفردية في ذلك، فقد عطف الله عليه ذكر قيام الساعة بصيغة الاستفهام التنبيهي: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، والخطاب لغير معيّن فهو موجّه لكلّ مكلّف. وبما أنّ الساعة غيب لا يعلمه إلا الله، فإنّ إمكانية قربها يكون مطروحا لكلّ أحد، سواء للمؤمنين بها أو الكافرين، والمعنى: ما الذي يصيّرك داريا بقربها؟، فإن المطلوب في كلّ حالة هو الاستعداد لها، فعندها تقوم موازين العدل في تقييم الأعمال، ولكن الناس عنها غافلون، إذ هم متفاوتون في موقفهم منها، فأمّا الذين لا يؤمنون بها فهم يستعجلون إتيانها استهزاء وتهكما وإنكارا بمثل قولهم: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل:٧١). وغير ذلك من التعابير التي وردت في كثير من آي القرآن، وأمّا الذين يؤمنون بها فهم مستيقنون من وقوعها، ولذلك فهم خائفون مشفقون من وقوعها، ويعلمون أنّها الحقّ الذي لا ريب فيه، فهم يستعدون لها بالإيمان والعمل الصالح، فهما قارب النجاة في ذلك اليوم المهول، وزيادة في الترهيب من هولها جاء التذييل بقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ الذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾.

والمراء في الشيء يقوم على الشك والارتياب، فإذا اغترّ الإنسان بعقيدة الزيغ والإلحاد فأنكر قيام الساعة لأي سبب كان، فإنه قد تخلّى بذلك عن أعظم رادع يكبح جماح أهوائه وشرور نفسه، ومن ثم فلا يرجى لمثل هذا انتصاح أو اتعاظ، ولذلك جاء التذييل بقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ الذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾، ويفهم من كناية ذلك أن الذين يؤمنون بالآخرة هم على هدى وكتاب منير.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾: الآية وإن كانت -أيضا- تمهيدا للاحقتها، فإنها من جهة أخرى تكشف عن سنّة من سنن الله التي لا تتخلّف في تدبير شؤون عباده، فبعد التّعرض إلى اختلاف الناس وتفاوتهم في سلوك طرق الهدى أو الضلالة، وكيف أن الله أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب بالحقّ والميزان، وقضت حكمته أن لا يعجّل لهم بالعذاب، بيّن هنا شدة لطفه بعباده بأن ضمن لكلّ عباده مؤمنهم وكافرهم كفايتهم من الأرزاق، فهو لا يضيع من خلق وإن كانت تتفاوت بينهم مقادير تلك الأرزاق وفق ما يصلح لكلّ فرد منهم كما تقتضيه حكمته وعلمه، فربّما وسّع الرّزق على الكافر استدراجا وإملاء، وقتّره على المؤمن امتحانا واختبارا، فهو القويّ الذي لا يقهر وهو العزيز الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو البرّ الرحيم بجميع خلقه يتصرف في شؤونهم كيف يشاء، والله أعلم.

ذكر حظوظ الفريقين في شأن الإيمان بالآخرة وعدمه، وبيان قبول التوبة.

أ)- النصّ:

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾: جملة الشرط والجزاء تشتمل على استعارة تمثيلية بتشبيه العمل للآخرة بالحرث إذا شقّ المزارع الأرض لبذر الحبّ أو غرس الشجر، وإضافة الحرث لكلّ من الدنيا والآخرة هي بمعنى لام الاختصاص. ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾: بمعنى مضاعفة الأجر إلى عشر وأكثر. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾: ﴿أَمْ﴾: للإضراب الانتقالي يتضمن استفهام تقرير وتوبيخ، والشركاء الذين شرعوا الدّين الباطل إما الشياطين أو الأصنام التي يعبدونها، فدين الشرك في كل حالة لا مسند له. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: كلمة الفصل هي ما قدّره الله من إمهال العذاب عنهم. ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾: ﴿تَرَى﴾: خطاب لغير معين، والجملة بيان لسابقتها: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والإشفاق: توقع الشيء المضرّ. ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾: أي مشفقين من عذاب ما كسبوا، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾: في موقع نصب حال. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾: ﴿رَوْضَاتِ﴾: جمع روضة، وهي المكان الجميل بأشجاره الملتفة ومياهه وتكون في مكان مرتفع. ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

مبتدأ، خبره الاسم الموصول، وحذف "به" تخفيفا، والتقدير: ذلك الذي يبشر الله به عباده، والبشارة: الإخبار عما يسرّ. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الخطاب لجماعة المشركين، وضمير: ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد إلى القرآن، والأجر الجزاء الذي يعطى مقابل عمل، ﴿ٱلْمَوَدَّةَ﴾: المحبة والمعاملة الحسنة، و﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾: اسم مصدر لقرابة النسب، والمعنى: لا أسألكم على تبليغ القرآن جزاء، إلاّ أن توفّوا بحقّ قرابتي منكم. و﴿ٱلْمَوَدَّةَ﴾: منصوبة على الاستثناء المنقطع. ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾: شرط، وجوابه: اقترف، بمعنى اكتسب. ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾: أي نضاعف ثوابه. ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ﴾: في الختم على القلب، وجهان للمفسّرين:

- أن يربط بالصبر على قلب الرسول فلا يحسّ بأذى أعدائه.

- أن يطبع عليه بالختام فلا يجترئ على الافتراء.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ﴾: ﴿يَمْحُ﴾ مرفوع حذفت واوه، وليس هو معطوفا على ﴿يَخْتِمْ﴾ المجزوم في جواب الشرط. ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، ويجوز في: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الرفع على أنه فاعل: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾، ويجوز أن يكون في موضع نصب بحذف اللام، والتقدير: يستجيب الله للذين آمنوا، وحذف اللام كثير، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين:٣).

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُبَشِّرُ﴾: قرأ نافع وعاصم وابن عامر ويعقوب وخلف بضمّ التحتية وفتح الموحّدة وتشديد الشين المكسورة، وهو من بشّر يبشّر، إذا أخبره عما يسرّه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿يَبْشُرُ﴾ بفتح التحتية وسكون الموحدة

وضمّ الشين مخففة. يقال: بَشَرْت الرجل أبشرُه، من باب: نصر، ينصر. ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾: قرأ الجمهور بياء الغيبة، أي ما يفعل عباده، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلق بتاء الخطاب على طريقة الالتفات.

د)- البيان والتّفسير:

لقد أوضحنا أنّ الآية السّابقة في بيان لطفه تعالى بعباده هي تمهيد للاحقتها في الترغيب والتحريض للسّعي في طلب الخير بالعمل للآخرة والاحتراز من الافتتان بالدنيا، ثم أردفه الله بالتّنبيه على بواعث الضلالة والشقاوة وأنّها مدعاة للعذاب العاجل لولا الحكم الأزلي الإلهي بتأجيله إلى يوم القيامة، يوم يشفق الظالمون من عذاب ما كسبوا ويتمتع المؤمنون في روضات الجنات.

ثم لقّن الله لرسوله ما يقوله لقومه ممن لم يؤمنوا به بأنّه لا يطلب منهم على تبليغ رسالته أجرا ولا نفعا، وإنّما يطلب مراعاة صلّة الرحم والقرابة مع إطماعهم بزيادة ثوابهم إن هم آمنوا وأحسنوا، ثم ردّ الله اتهامهم للرسول بالافتراء على الله ورغّبهم في التوبة، ووعد المؤمنين وتوعّد الكافرين فقال جلّ من قائل: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾**.

نجد المناسبة قوية بين هذه الآية والتي سبقتها، والتي أخرج الله فيها توفير الأرزاق لعباده من دائرة الصلاح والفساد، ومن دائرة الكفر والإيمان، وكان من لطفه تعالى بعباده أن علّقه بالأسباب المسخّرة للحياة بصفة عامة، وباستعدادات الأفراد بصفة خاصّة، غير أنه تعالى جعل السعي للرّزق فتنة وابتلاء تتفاوت فيه مقاصد الناس ونواياهم، فيعطي لكلّ منهم ما يستحقّه من الجزاء، ذلك ما تدلّ

عليه هذه الآية الكريمة، فشبه العمل والسعي للرزق بالحرث فيتولّد عن العمل ذلك الرزق المطلوب كما تتولّد الزروع والثمار عن الحرث، فكما أنّ لنوعية البذور وطريقة حرثها دخلا في نتائج الحصاد والجني فكذلك لنوعية العمل صلاحا أو طلاحا ولدوافعه من النية إخلاصا لله أو نفاقا نتائجه في نوعية الجزاء. فمن أراد بحرثه سعادة الآخرة بارك الله له فيه وزاد له من فضله بالحسنات إلى ما فوق سبعمائة ثم لا يفوته من الدنيا ما قدّر الله من رزق، ومن كان همّه الدنيا وزينتها أعطاه الله منها ما كتب له من رزق، لأن ﴿مَنْ﴾ للتبعيض، ولكن ليس له من أجر الآخرة نصيب وذلك هو الخسران المبين ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُومِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا، كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء:١٨-٢٠).

ولا يفهم من هذه الآية الكريمة التحريض على الزهد في الدنيا والقعود عن العمل والكسب، ثم يقول: اللّهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة كما قال سيّدنا عمر. بل المطلوب من المؤمن، أن يسعى ويكّد في طلب الرزق الحلال بكدّ يمينه بنية كفاية ضروراته وضرورات عياله وأولاده فيكون بذلك مأجورا عند الله.

ثم شدّد الله النكير على منكري ما شرعه فقال: **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَاذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

﴿أَمْ﴾: للإضراب الانتقالي، بمعنى "بل"، وهي تتضمن استفهاما يفيد التقريع للكافرين المكذّبين بالوحي. وقد ذكر الله تعالى من قبل ما شرعه للناس

من وحدة الدين في أصوله وكيف تفرّق الأتباع من بعد ذلك، وهنا يبين كيف أنّ المشركين في وقت تنزيل القرآن أنكروا ما شرعه الله لهم على لسان الرسول، واتّبعوا ما شرع لهم شياطين الإنس والجنّ، فجاء ذلك السؤال التّقريعي التّهكمي، ألهم شركاء آخرون غير الله في شرع الأديان اعتقدوا بهم واتبعوهم؟، فالضمير: ﴿شَرَعُوا لَهُم﴾ إمّا الشياطين الذين يغوونهم بتلك الضلالات، وإمّا هم الأصنام التي يعبدونها كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسّرين، وفي قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يَأذَنْ بِهِ اللهُ﴾ تقرير ضمني بأنّ المشرّع الحقّ هو الله وحده.

﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: الآية شبيهة بسابقتها: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، وهنا ذكر كلمة الفصل وهو الحكم القاطع الذي يفصل بين الحقّ والباطل، ويعني به ما قدّره الله من حكمة إمهالهم إلى يوم الجزاء.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: والظالمون هم المتحدّث عنهم في السّابق، ولكن أظهر صفة الظّلم لينصّ على الظّلم الذي استحقّوا به ذلك العقاب الأليم بعد أن أقام الله عليهم الحجّة.

وبما أنّ الجزاء مؤجل إلى يوم القيامة ذكر الله كيف يكون لكلّ من الظالمين والمؤمنين فقال: **﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾**.

لما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيّن حالهم في موقف الحساب، وقد تكشّفت لهم أعمالهم السّيئة بعرض صحائفهم وشهادة جوارحهم عليهم، والإشفاق خوف مع اعتناء واهتمام بالمخوف. وفعل: ﴿تَرَى﴾ هو لغير

معيّن. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾: جملة في موقع الحال، والمعنى أنّ جزاء ما كسبوا واقع بهم، فلا ينجيهم ذلك الإشفاق من المحذور، لأنهم في موقف الفصل، ولم يكونوا بالأمس مشفقين من الساعة كالمؤمنين.

وللمزاوجة بين حال الفريقين ذكر الله حال الذين آمنوا بأنهم مطمئنّون في روضات الجنات يتمتعون من طيبات نعيمها بما يشاؤون مما خصّه الله لهم.

فاعجب لتلك المزاوجة العجيبة في أسلوب القرآن البليغ، كيف انعكست القضية بين الفريقين، فالذين أشفقوا في الدنيا من الساعة وأهوالها واستعدّوا لها بأعمالهم الصالحة، كيف انقلبوا إلى الحياة الأخرى آمنين مطمئنين، بينما الذين كذبوا واستهزءوا مستعجلين لها كيف انقلبوا مشفقين من جزاء ما ينتظرهم من سوء العذاب. وجاء التذييل لبيان شرف الذين آمنوا بفضل الله عليهم، والإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبُعد للدّلالة على بعد المكانة والقدر.

﴿ذَٰلِكَ الذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَّقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾:

﴿ذَٰلِكَ الذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: اسم الإشارة توكيد لسابقه، وعائد الصلة محذوف، تقديره: يبشر به عباده؛ لأنه معلوم من المقام، والتعبير بالعباد تشريف.

و﴿الذِينَ ءَامَنُوا﴾: عطف بيان، أعاد الله اسم الإشارة لتكرير البشارة لبيان عظمها، وأنه لا يعلم كنهها إلاّ الله؛ لأنّ عظمتها وكبرها جاءت من الكبير المتعالي.

ثم أمر الله رسوله بأن يبيّن لقومه بأنه لا يطلب منهم على دعوته وتبليغه مالا

ولا نفعا دنيويا فقال: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

الجملة جاءت على الاستئناف الابتدائي، وهي تندرج في محاجّة المشركين وردّ شبههم مما تحمل آيات السورة، فعلى ذكر ما أعدّ الله للمشركين وما أعدّه للمؤمنين جاء هذا الأمر الإلهي لرسوله أن يقول لقومه المشركين وهم يلحّون في عنادهم لتكذيبه، وقد روي في أسباب النزول أنّ المشركين قال بعضهم لبعض: أترون محمّدا يسأل عما يتعاطاه أجرا؟. فنزلت: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

ولهذه الآية نظائرها إمّا على لسان رسول الله خاصّة أو على لسان رسل الله عامّة كما تكرّر قولهم لأقوامهم في سورة الشعراء: ﴿وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ إِنْ اَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٠). وتكررت في عدة آيات على لسان رسول الله فجاء قوله:

- ﴿قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص:٨٦)
- ﴿قُل لاَّ أَسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:٩٠).

والأجر هو الجزاء الذي يُعطاه أحد على عمل يعمله، وهو حقّ مشروع لكلّ جهد يبذله أحد ولو كان ضئيلا، فيكون له فيه أجر، كالدّلالة على الطريق، فما بال الدّلالة على طريق الله والإرشاد إلى نور الهداية، فالرسل هم الأدلاّء المخلصون جعلهم الله أئمّة يهدون الخلق بأمره، ولكن هل سأل رسل الله على ذلك أجرا أو طلبوا نفعا دنيويّا؟، كلاّ، وليس رسول الله بدعا من الرسل في ذلك، فتغريه عروض المشركين له بالمال والجاه وغير ذلك من المغريات كما ثبت ذلك في السيرة النبوية، فالله تعالى يثبّت رسوله بأمثال هذه الآيات، ليقول لمناوئيه: لا أطلب منكم مقابلا في ما أبلّغكم من هداية القرآن، إلاّ أن تحفظوا مودّتي فتعاملونني بما

تستحقّه القرابة التي بيني وبينكم في النّسب، تلك القرابة الحميمة التي كانت تدفع الرّسول لأن يحرص على هدايتهم ويشفق عليهم من عذاب الله، حتى كان الهول يعانيه على فرط حزنه لإعراضهم وكفرهم.

ففي قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، ﴿فِي﴾ للظرفية المجازية و﴿إِلَّا﴾ استثناء منقطع فيكون بمعنى "لكن" للاستدراك. وهذا الوجه من التفسير للآية هو ما ذهب إليه جمهور المفسّرين مستندين إلى ما روي عن ابن عباس في صحيح البخاري وجامع الترمذي أنّ ابن عباس سئل عن معنى هذه الآية بحضرة سعيد بن جبير فابتدر سعيد فقال: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عجلت، إنما معناها: لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تراعوا قرابتي لكم، فتكفّوا الأذى عني وتتركوني أبلغ أمر ربّي.

وقد رجّح كلّ من القطب والشيخ يوض رحمهما الله هذا المعنى في تفسير الآية. ومن الاحتمالات الأخرى المرجوحة:

أ)- ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾: أي صحبة بعضكم بعضا للقرابة التي بينكم.

ب)- إلّا التقرب إلى الله تعالى بالعمل الصالح وأنواع الطاعات.

أما عن حبّ آل رسول الله فيقول الإمام ابن عاشور: "لمّا كون محبة آل النبي ﷺ لأجل محبّة ما له اتصال به خلقا من أخلاق المسلمين فحاصل من أدلة أخرى".[1]

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾: يبدو أن هذه الآية تتمة لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وهي لا تخلو كذلك من مناسبة بينها وبين سابقتها من ذلك

١- التحرير والتنوير: ٢٥/٨٣.

الإعلان من الرسول لقومه، إذ هي ترغيب وتحريض على الإحسان وفعل الخير، فمن فضله الكبير على عباده أنّه يضاعف الحسنات ويزيد عليها من فضله، ومن ذلك حبّ آل النبي كما قال ابن عباس. فتنكير كلمة ﴿حَسَنَةً﴾ يدلّ على العموم، وزيادة الأجر يكون تبعا للقصد النبيل والنية الحسنة، ومع تلك الزيادة للحسنات يغفر الله الذنوب ويشكر المتقربين إليه، فيا له من فضل كبير لعباده المؤمنين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾:

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾: إضراب انتقالي، والكلام المضروب عنه هو قوله من قبل: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ﴾، وهو يتضمّن استفهاما توبيخيا للمشركين في اتهامهم لرسول الله بأنّه يفتري الكذب على الله في ما يدّعيه من الوحي، وهم الذين يعترفون له من قبل بالصدق والأمانة، واختيار صيغة المضارع في: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ للدّلالة على الاستمرار في ذلك الاتهام، ثم فرّع الله على ذلك قوله: ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، جيء بالمفرّع في صيغة الشرط وجوابه، والختم على الشيء منع وصول شيء إليه، ومنع خروج أي شيء منه، وبما أن القلب هو جهاز الإدراك والتفكير فالختم عليه هو سلب تلك القدرة على ذلك، وبالتالي يتعطل اللّسان أن يقول شيئا، أي إنّ الله تعالى يغار على انتهاك حرمة رسالته، فهو قادر على أن لا يدع أحدا يفتري عليه شيئا، فكيف تتهمون محمدا بذلك، وهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٧). فعدم الختم على قلبه وعدم قطع وتينه دليل على أنّه صادق في ما بلّغه عن الله.

ثم قال تعالى في كلام مستأنف: ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ

بِكَلِمَاتِهِ﴾: فالفعل: ﴿يَمْحُ﴾ مرفوع، حُذفت واوه عند أغلب المحققين، وفي الجملة وعد من الله بإظهار دينه الإسلام ومحو كل آثار للشرك وبحق الحق بكلماته.

والإتيان بصيغ المضارع مع إظهار لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾، هو لإظهار العناية الربانية بذلك، ولإفادة التجدد والاستمرار لأن ذلك شأن الله الأزلي، وكلماته هي القرآن والوحي بصفة عامة، والباء للسببية، وفي معنى "الكلمات" الأمر التكويني للإيجاد.

وجملة: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل لما سبق بأنه تعالى لا تخفى عليه خافية من النيات والأفعال الإرادية، فهو يحاسب عليها إن خيرا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾:

جريا على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب أو العكس، يأتي هذا التحريض على مبادرة التوبة، إيناسا واستمالة لأصحاب الضلالة والعناد، وتثبيتا وتطمينا للمؤمنين المهتدين، فبعد التنديد على الذين يحاجّون في الله ووصف حال الظالمين يوم القيامة، الذي قوبل بنعيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يجيء هذا الإخبار الرباني بأنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

واختيار الجملة الاسمية: ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ لإفادة ثبات الحكم ودوامه، مع صيغة المضارع التي تفيد تكرار المضمون، فقبول التوبة هو بالنسبة للكافرين حين يبادروا إلى التوبة بإسلامهم، والعفو عن السيئات بشارة للمؤمنين بأنه تعالى

قد قبل توبتهم مما كانوا عليه في الجاهلية؛ لأنّ الإسلام حبّ لما قبله.

وقيل: المعنى يقبل التوبة من الشرك والكبائر والفواحش ويعفو عن السيئات، أي يعفو عن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، والتذييل بقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ للإشعار بعلم الله المحيط بأفعال عباده صغيرها وكبيرها، حتى لا يظنّ العصاة أنّ ذنوبهم تخفى على الله إن هم تركوا التوبة، أو تابوا نفاقا ومخادعة.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾: في الاسم الموصول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ احتمالان:

أ)- إما أن يكون في موضع رفع فاعل: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾، أي يستجيبون إلى المبادرة بالتوبة وطلب المغفرة فيعطيهم الله ما طلبوه ويزيدهم فوق ذلك من فضله.

ب)- أن يكون في موضع نصب مفعولا به بنزع الخافض، والتقدير: ويستجيب الله للذين آمنوا.

﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: هو وعيد للكافرين بالعذاب الشديد وتحذير من الإصرار على الكفر أو الموت عليه، والله أعلم.

بيان حكمة الله في تدبير الأرزاق، وآيات قدرته في الآفاق.

أ)- النصّ:

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾: ﴿لَوْ﴾ حرف امتناع لامتناع تفيد الشرط، وبسط الرزق توسعته لعباده، يعمّ جميع العباد مؤمنهم وكافرهم، والبغي: الطغيان وتجاوز الحدّ. ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾: القَدَر -بفتحتين- المقدار المعيّن. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾: ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾: بعيد القصر، أي لا غيره، و﴿الْغَيْثَ﴾: المطر الذي يغيث الناس بعد الجفاف. ﴿قَنَطُوا﴾: من القنوط، وهو اليائس من حصول الشيء، والنشر: ضدّ الطيّ. ﴿رحمته﴾: أي ما يبثه بالماء من الخيرات التي تعمّ الخلائق كلها، وقيل: هي الشمس من بعد المطر. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾: أشكل على بعض المفسرين مرجع الضمير في قوله: ﴿فِيهِمَا﴾ عندما حصروا معنى "الدابة" على ما يدبّ على وجه الأرض، ولكن بعض المحققين يرون أن اللفظ يطلق على كلّ ذي حياة من خلق الله يتحرك، فيدخل في ذلك الملائكة والجنّ والطير. وبذلك يصحّ ضمير التثنية في ﴿فِيهِمَا﴾ كما يصحّ ضمير العقلاء في: ﴿جَمْعِهِمْ﴾. ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾: ﴿إِذَا﴾: ظرف للمستقبل لا يتضمن الشرط. ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: المصيبة جمع مصائب، الحادثة التي تصيب أحدا بمكروه. ﴿من﴾: بيانية. ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: الباء للسببية، وأما الإعراب: إما أن تكون: ﴿مَا﴾ موصولة، فهي مبتدأ

و﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: خبر، وإما شرطية، اقترن جوابها بالفاء، كما في القراءة الثانية. وإمّا شرطية جاز حذف الفاء من جوابها لأنها لا تعمل في اللفظ شيئا، وإنما وقعت على الماضي، وهي القراءة الأولى كما سيأتي. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾: الآيات: الأدلة الدالة على الخالق. ﴿الْجَوَارِ﴾: جمع جارية، صفة لمحذوف، أي السفن الجواري في البحر، الأعلام: جمع عَلَم -بفتحتين-، وهو الجبل، شبهت به في الضخامة والعظم. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾: ﴿رَوَاكِدَ﴾: جمع راكد، ثابت مستقرّ، وظهر البحر هو سطح الماء البادي للنظر، مستعار من ظهر الدابة. ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ، وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾: مجزوم بالعطف على جواب الشرط، ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾: من الإيباق وهو الإهلاك، ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾: الباء للسببية، و﴿يَعْفُ﴾: مجزوم بالعطف أيضا. ﴿وَيَعْلَمَ﴾: مرفوع على الاستئناف، مقطوع عن جواب الشرط، وأمّا نصبه بإضمار "أن" بعد الفاء. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: مصدر ميمي من حاص، ضرب ومال في سيره.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُنَزِّلُ﴾: قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأه الباقون بسكون النون وتخفيف الزاي. ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: بدون فاء على أن "ما" موصولة، وهي مبتدأ، و﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ظرف خبر للمبتدأ، وقرأ الباقون: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بفاء قبل الباء، على أن "ما" متضمنة معنى الشرط، فاقترن خبرها بالفاء لذلك. ﴿الْجَوَارِ﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء في حالة الوصل، وحذفها في حالة الوقف، وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء في الحالتين، وقرأ الباقون بحذفها في الحالتين. ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يَشَأْ﴾ بهمزة

ساكنة، وقرأه ورش عن نافع بألف على أنه تخفيف للهمزة. وقرأ نافع: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بلفظ الجمع، وقرأه الباقون بصيغة المفرد ﴿الرِّيح﴾. ﴿وَيَعْلَمُ﴾: قرأه نافع وابن عامر ويعقوب بالرفع على أنه كلام مستأنف، وقرأه الباقون بالنصب.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان رحمة الله وفضله في استجابة دعاء المؤمنين والزيادة لهم من فضله بيّن هنا حكمته في إنزال الرّزق لعباده بقَدَر حتى لا يطغوا في الأرض، لأنّه أعلم بمصلحتهم، وأنّه يغنيهم بالأمطار بعد أن يقنطوا، فتعمّهم رحمته؛ لأنّه المتولّي لشؤونهم، ثم عرض بعض آياته في الكون، أرضه وسمائه، ثم أوضح أنه تعالى يقدّر لخلقه بعض المكاره والمصائب بما كسبت أيديهم امتحانا لهم وتحذيرا للكافرين من نقمته إذ لو شاء لعجّل لهم العذاب.

قال عزّ من قائل: **﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾**.

ذكرت الروايات أسبابا لنزول الآية تبيّن طبيعة الإنسان في الميل لحبّ المال ومتاع الدنيا، ومجتمع الأصحاب ليس بدعا من المجتمعات البشرية في احتدام تلك الرّغبات، فقد أخرج الحاكم أنّها نزلت في أهل الصُّفة بأنّهم نظروا إلى أموال بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع فتمنّوها، فنزلت. وكم لرسول الله من توجيهات لأصحابه في أن لا يشغلهم حبّ الدنيا عن العمل للفوز في الآخرة وهو لهم قدوة إذ قال له ربّه: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:١٣١). فالآية على عمومها تعالج وضعية اجتماعية كان عليها المؤمنون الأوائل في مكّة، وهم يعانون من ضيق في الرّزق بتضييق المشركين عليهم، ويزيدهم غيظا وحنقا ما يرون عليه المشركين من

سعة في الأرزاق وبسطة في الأموال والحرمة والجاه، ولا غضاضة في تلك النظرة التنافسية لمتاع الدنيا، والمؤمنون لا يتوجّهون بسؤالهم وطلبهم لغير الله تعالى، فجاء هذا البيان الإلهي الشافي لتعليل حكمته في إنزال الرزق بقدر على عباده لأنه لو بسطه عليهم لبغوا في الأرض.

وقوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ يعمّ الجميع، إذ أنه تعالى قد أخرج توزيع الأرزاق عن دائرة الكفر والإيمان والصلاح والفساد -كما تقدم-، وقد أسّس نظام هذا العالم في المجال المادي بقوانين عامة تنتظم جميع الخلائق.

وبما أن ﴿لَوْ﴾ تفيد امتناع البغي لامتناع البسط في الرزق بصفة عامة، ولكنّنا مع ذلك نجد وجود البغي والظلم في بعض الأفراد والجماعات مما حكى عنه القرآن نفسه، مثل ما قصّ عن قارون وعن فرعون وحاشيته وجنوده، فلا تناقض بين عموم الآية وبعض الاستثناءات البشرية في الواقع التاريخي، فإن الله القاضي بتلك القاعدة العامة هو الذي يضع الاستثناء لتلك القاعدة حين قال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ (القصص:٨٢).

والعجيب في إعجاز القرآن أن ترد هذه الآية في أعقاب قصة قارون، على أنّ هناك من عباد الله الصالحين من بسط الله لهم في الرزق فلم يطغ ولم يتجبّر كسيّدنا سليمان عليه السلام وقد استجاب الله لطلبه في أن يهب له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فقال شاكرا حامدا الله على ذلك: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ (النمل:٤٠).

والتذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾، أي إن تنزيل الله تعالى الرّزق بقدر إنما ينمّ عن خبرته تعالى وحكمته ووفق مشيئته لأنه أعلم بطبائع عباده وبما يصلح لهم. وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه أنس: «**إنّ من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا**

يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته أفسدت عليه دينه، فأنا أدبّر عبادي لعلمي بما في قلوبهم».[1]

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾: الغيث هو المطر الذي يأتي بعد الجدب والقحط، سمّي غيثا -بصيغة المصدر- لأنه يغيث المضطرّين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف:٤٩). والقنوط هو اليأس. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾، والتعبير يفيد القصر. ومن تضييق الرزق على الخلق حبس المطر واستفحال القحط على وجه الأرض، وقد تطول مدته حتى يشتد اليأس على الناس فيدركهم القنوط واليأس، فمن غير الله يغيثهم بإنزال المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، ونزول المطر مدعاة لفرح الناس حتى ولو لم يبلغوا حدّ القنوط، ولكن التعبير القرآني بلفظ الغيث، والقنوط، ونشر الرحمة، بصفة عامة، فالغيث يتمّ عن المطر النافع الذي ينزل في الوقت المناسب وبالقدر المطلوب، كما يكون فرح الناس مضاعفا عندما يغاثون بعد القنوط فتعظم بذلك منّة الله وفضله عليهم.

وقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾، النشر هو البثّ والبسط للشيء، ضدّه الطيّ، وقد فسّر الله تلك الرحمة العامة بعد نزول المطر بقوله في سورة الروم، وهي معنى هذه الآية: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ، فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ٤٩-٥٠).

تلك الآثار التي تعمّ البلاد والعباد، فتخضرّ الأرض ويتطهّر الهواء وتكثر الخيرات وتطرح النفوس ما علق بها من الهموم والغموم، وتنتعش القلوب

١- نقله الإمام القرطبي في تفسيره.

بركات السماء، ويعلمون أنه الله هو الوليّ الحميد الذي لا يضيّع خلقه، فهو الشكور المحمود على تلك الولاية التي يرعى بها خلقه، فما كلّ وليّ محمود، وما كلّ راع مشكور.

وعلى ذكر الله تعالى رحمته بإنزال الغيث انتقل إلى ذكر آيات قدرته وبديع صنعه الذي يقتضي إفراده بالألوهية فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

الآيات: جمع آية، وهي العلامة والدليل على الشيء، وآيات الله الناطقة هي القرآن والوحي بصفة عامة. والصامتة: هي مشاهد الكون علويّه وسفليّه، وقد تكرّر في القرآن توجيه الأنظار إلى خلق السماوات والأرض، فإذا كانت العقول تشتبه في مصداقية الوحي وتختلف في تأويله، فإنّ مشهد السماوات والأرض معروض للأنظار، قاطعة في دلالتها على عظمة الخالق وسلطانه ووحدانيته.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، قد استشكل بعض المفسّرين في ضمير التثنية في قوله: ﴿فِيهِمَا﴾، بناء على أنّ الدوابّ هي كلّ ما يدبّ على الأرض، فأخرجوا الموجودات العلوية من الملائكة والأرواح، أعرجوها من حيّز الدوابّ، ثم أعملوا يؤوّلون معاد ضمير التثنية بشيء من التعسّف، غير أنّ المحققين لا يجدون ذلك الإشكال، إذ يعتبرون أن لفظ: ﴿دَآبَّةٍ﴾ يُطلق على كلّ ذي حياة يتحرّك من خلق الله، فيشمل الملائكة والجن، وما عساه يكون من الموجودات الحية في الكواكب الأخرى مما يسعى العلم اليوم إلى معرفته. هذا الخلق الكثير المتعدد في الأرض والسماوات هو في قبضة الله مسخّر بمشيئته، وهو قادر على جمعهم متى شاء ليوم الجمع، وقد ثبت من دلالات الأحاديث النبوية أن الله تعالى يبعث ليوم القيامة الإنس والجن والملائكة والبهائم.

قلت: ولا يمنع ظاهر النصّ أن نستخلص منه ما يمكن أن يتوصّل إليه العلم مستقبلا من الجمع بين سكان الأرض وبعض الموجودات الفضائية في الكواكب الأخرى، وليس بين بث تلك الدوابّ وجمعها بقدرة الله إلا كلمة: كن، فيكون.

﴿وَمَآ أَصَابَكُم مُّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ، وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾، والمناسبة بين الآيتين واضحة، إذ ثبت من السيرة النبوية بأنّ مشركي مكّة قد أصابهم قحط عظيم استمرّ لسبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام فأغاثهم الله بدعاء سيدنا محمّد ﷺ، فعلى هذا يكون الخطاب بالأول للمشركين لكفرهم بالله واليوم الآخر، ويشمل المؤمنين بصفة عامّة للموعظة والتذكير.

﴿مِن﴾: بيانية، والمصيبة: ما يصيب الناس من مكروه، فالله تعالى بيّن في الآية الأولى عدله في الجزاء، وفصله في حكم القضاء، إذ جعل المصائب التي تصيب الناس أفرادا أو جماعات تنحرّ إليهم بسبب ذنوبهم وآثامهم تنبيها وتذكيرا أو جزاء وتربية، وذلك من فضل الله على الناس حتى لا يتمادوا في غفلتهم، وهو العفوّ الكريم يمحو كثيرا من الذنوب، ويتجاوز عن المؤاخذة عليها فضلا ورحمة، وأما في الآية الثانية، فيبيّن قدرته وقهره لعباده وهو الغالب على أمره، فلا يعجزه المتجبّرون في الأرض مهما كانت قوتهم، وإذا ما أراد الانتقام منهم فلا وليّ لهم يتولّى رعايتهم وحمايتهم ولا يجدون لهم نصيرا يغنيهم في وقت الشدة.

وبما أن هذه الآية جاءت معترضة بين سوق آيات عظمة الله، فإن السياق يتابع بيان تلك الآيات فيقول: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ، إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ، وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

﴿الْجَوَارِ﴾: جمع جارية، وهو وصف لموصوف محذوف، أي السفن الجارية، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾(الحاقة:١١).

والأَعْلاَم جمع علَم، وهو الجبل الشامخ، شبّه الله السّفن الضخمة التي تمخر عباب البحر بالجبال الضخمة، و لم تكن تلك السفن الضخمة بشيء لا يعرفه البشر إلا في هذا العصر -أي بعد اختراع قوة البخار-، بل عرف الإنسان ذلك من قديم الزمان، وسفينة نوح هي النموذج الربّاني في ذلك إذ بناها نوح بإلهام ووحي من ربه إذ قال له: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾(هود:٣٧) ولذلك اعتبرت هنا من آيات الله الدالة على قدرته، إذ خلق البحر طريقا لسيرها.

ولا يخفى ما للسفن من منافع جمّة في ربط القارات اليابسة بعضها ببعض وتبادل المنافع، وقبل اختراع المحرك البخاريّ كانت تدفع تلك السفن بقوة الريح في كلّ اتجاه بالأشرعة، فإذا سكنت الريح فإنها لا تراوح مكانها أياما ولياليَ، ولما كانت تلك الوضعية تتطلب الصبر والشكر جاء التذييل مناسبا بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

ودفعا لغرور الإنسان بمخترعاته عطف على تلك الحالة ما يختصّ بلطف الله وقدرته أي ما يقع من إغراق تلك السفن بهياج البحر إذ يبقى الإنسان عاجزا بإمكانياته أزاء تلك الحالة، فيهلك الركاب جزاء ما كسبوا ويعفو الله عن الكثير.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، أي إنّ في ما تقدّم عبرة وموعظة للذين يجادلون في آيات الله معاندين، إذ يدركون مدى نقمة الله وأن لا مفرّ لهم منها ولا ملجأ.

والله أعلم.

بيان صفات المؤمنين الأوفياء الكمّل.

أ)- النصّ:

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ﴿فَمَا﴾: موصولة تتضمن معنى الشرط، والفاء الأولى للتفريع، والثانية داخلة على خبر: ﴿مَا﴾ في الجواب. ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾: ﴿مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾: مرفوع بالعطف. ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾: جار ومجرور. ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾: ﴿وَالَّذِينَ﴾: في محل جرّ بالعطف على ﴿لِلَّذِينَ﴾، وكلّ الموصولات المعطوفة. ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾: مفعول ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾. ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾: معطوف من باب عطف الخاصّ على العامّ. والكبائر: جمع كبيرة، ما ترتب عليه وعيد شديد، أو موجب

حقًا كالقتل والزنا. ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾: جمع فاحشة، ما فحش وعظم قبحه. ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾: ﴿إِذَا﴾: متضمنة معنى الشرط وتفيد تحقق الشرط. ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾: ﴿هُمْ﴾: إما تأكيد لضمير: ﴿غَضِبُوا﴾. و﴿يَغْفِرُونَ﴾: جواب الشرط. وإما: ﴿هُمْ﴾ مبتدأ خبره: ﴿يَغْفِرُونَ﴾. فتكون الجملة كلها جواب الشرط، حذفت فيها فاء جواب الشرط. ويقال ذلك في قوله: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، أي يدافعون البغي عن أنفسهم بردّ ذلك البغي، أي هم شجعان يحافظون على كرامتهم. ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾: السيئة هي الفعلة التي تسيء مرتكبها. ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، فالسيئة الأولى هي على الحقيقة، وأما الثانية فهي على المجاز للمشاكلة، أي يقتصّ بمثل ما نيل منه لا أكثر. ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾: ﴿لَمَنِ﴾: اسم موصول مبتدأ. ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾: ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿مَا عَلَيْهِم﴾: خبره، والجملة خبر للمبتدأ الأول. ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾: أي قابل الظالم بمثل ظلمه، ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾: أي لا مواخذة ولا عتاب عليه. ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أي من صبر على الأذى فلم ينتصر. ﴿وَغَفَرَ﴾: أي عفا وحلم. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: الجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول. و﴿عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: من إضافة الصفة إلى الموصوف. أي من الأمور المعزومة، وقد اشتمل الخبر على مؤكدات أربعة: لام الابتداء، إن، لام الخبر، الوصف بالمصدر. و﴿عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: هي الخلال والصفات الحميدة.

ج) - أوجه القراءة:

﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿كَبَائِرَ﴾ بصيغة الجمع، وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿كَبِيرَ﴾ بالإفراد. أضيف المفرد إلى معرف بلام الجنس، فكان له حكم ما أضيف هو إليه.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر الأدلّة لعظمة الله وقدرته وبيان ما يتعرض إليه الناس من المصائب أنه بسبب ذنوبهم وأنّه تعالى يعفو عن كثير، زهّد الله في أول هذا النّصّ عن متاع الحياة الدنيا ورغّب في الآخرة لأنّها خير وأبقى، وأن تلك الخيرية تحصل للذين يلتزمون بفضائل من السلوك الإسلامي الرفيع، وأن المؤمن إذا انتصر لنفسه بالعدل في أخذ حقّه فإنّه لا يلام على ذلك، غير أنّ الصفح والعفو والصبر خير عند الله، وأن ذلك من عزم الأمور فقال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

لقد اقتضى بيان توزيع الرزق بين الخلق، أن يختلف الناس فيه بين موسّع له فيه ومضيّق عليه، مما قد يحدث نوعا من الحيرة والتّذمّر، فجاء تفريع هذه الآية لتذكير الناس بأنّ ما أوتوه من ذلك إنما هو متاع زائل، وأنّه متاع مشوب بالمنغّصات والمصائب لولا أنه تعالى يعفو عن الكثير، فزينة الحياة الدنيا قصيرة الأمد مهما فتن الناس بها، والموفق منهم هو الذي لا يجعلها غاية سعيه، بل يسعى لعمل الآخرة الذي هو خير وأبقى لعباده المؤمنين المتّقين، وقد تتابعت الصلات وتعاطفت بأوصاف كلها غاية في الكمالات الإنسانية التي تبوّؤهم المقامات العليا عند الله وتضمن لهم نعيم الجنة.

فبعد إيمانهم الراسخ الذي هو الأساس المتين الذي ترتكز عليه تلك الصفات وصفهم الله بما يلي:

أ)- ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: أي إفراد توجّههم لله في كلّ أمورهم بعد اتخاذهم للأسباب المستطاعة فيطلبون منه العون والتوفيق في ما تعجز عنه قدرتهم.

ب)- ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾: الأمر باجتناب الشيء يقتضي الابتعاد عنه، فهو أبلغ من النهي عن فعله فهو كالنهي من الاقتراب بالشيء كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ (الإسراء:٣٢). والكبائر: جمع كبيرة، وهي الآثام التي في الشرع عنها وتوعّد فاعلها بالعذاب الأليم، وقد بيّن الرسول البعض منها: كالربا، وعقوق الوالدين، وقذف المحصنات، وأما الفواحش فهي كل ما استقبحه الشرع والعقل من قول أو فعل، وترتب على فعلها وعيد شديد في الآخرة، وعقوبة في الدنيا كالزنا والسرقة، وقتل النفس والخرابة...إلخ.

ج)- ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾: لأنّ الغضبة تبعث على الانتقام من المتسبّب فيها والغاضب إذا كان عظيم النفس فإنه يكظم غيظه ويعفو عن المسيء إليه لا ضعفا أو ذلاً، ولكن مروءة وإحسانا ومرضاة لله، فالذي يضبط نفسه عن النزوة الشهوانية امتثالا لأمر الله حريّ أن يضبط ثورته الغضبية في المواقف الصعبة، فما أبلغ أسلوب القرآن في الجمع بين هاتين الخصلتين.

د)- ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾: يقال: استجابه واستجاب له، فاللام للتقوية، فكلّ من استجاب لدعوة الرسول فقد استجاب لله، وذلك هو المطلوب من جميع المؤمنين حين أمرهم الله بذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال:٢٤). واختيار كلمة "الرب" مضافة إلى ضمير المتحدث عنهم هي للتشريف وللدلالة على حسن الرعاية ونشدان الصلاح في ما يدعون إليه، وذلك بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وإزالة كل العوائق النفسية والدنيوية التي تحول بينهم وبين القيام بواجباتهم، ومن أوكد تلك الواجبات التي استجابوا لها خصّص الله بالذكر ثلاث خصال لما لها من الأهمية في حياة الفرد والجماعة منها أولا:

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: إقامة الصلاة؛ لأنها الصلة الوثقى بين العبد وربّه فهم يؤدونها تامّة الشروط والأركان ويداومون عليها في أوقاتها، وهي النموذج الأعلى للاستجابة للمخلصة سيما أداؤها جماعة في بيت من بيوت الله، وهي تجسّد وحدة المسلمين وتعاونهم على البرّ والتقوى، ولذلك أتبع الله ذلك بالعطف الأمر بالشورى في تدبير جميع أمورهم. لأن لفظ: ﴿أَمْرُهُمْ﴾ يفيد العموم. والشورى مصدر للتشاور، وهو طلب الرأي ممن يظنّ فيه صواب الرأي والتدبير. والتقييد بالظرف: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يفيد أن يكون المتشاور بين من يهمّهم ذلك الأمر. والشورى من مفاخر الإسلام في تنظيماته الاجتماعية العامة، تلتزم بها الجماعة الإسلامية في كلّ حالاتها، وإن لم تكن لها دولة قائمة على الحقّ، وتحقيق الشورى صور شتى تكيّف وفق ظروف الزمان والمكان، وبديهي أن يقتصر التشاور على الأمور الدنيوية التي لم يرد فيها حكم قطعي من قرآن أو سنّة. وقد أمر الله رسوله بأن يشاور أصحابه فقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وقد أثبتت السيرة النبوية كثيرا من المشاورات في الأمور الإدارية والسياسية والحربية، وقال بشار في قضية الشورى:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي لبيب أو مشورة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوّة للقوادم
وادن إلى القربى المقرّب نفسه ... ولا تصحب الشورى امرءا غير كاتم

وقال حافظ إبراهيم:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... على الدوام ورأي الفرد يشقيها

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: أي يتكافلون اجتماعيا بإنفاق بعض من أموالهم في سبل الخير، سيما مساعدة المحتاجين من المسلمين، وفي كلّ ما يرفع من شأن الإسلام.

ه)- ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾: أي إذا أصابهم الظلم والعدوان من أيّ كان فردا كان أو جماعة، انتصروا لأنفسهم، أو دافعوا ذلك البغي عنها عزّا ونخوة، لأنّ ذلك محمدة تقتضيه عزّة المؤمن لردع الباغين الطّغاة، وينبغي أن يكون ذلك الانتصار لأنفسهم في حدود ما أذن الله به لا أكثر، ولذلك أعقب هذه الصفة بقوله: ﴿وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

وتحديد السّيئة بمثلها لأنّ ذلك هو الإنصاف والعدل، وهو الوسيلة الرادعة لدفع البغي والعدوان، واعتبار الرّدّ بالمثل سيّئة هو من باب المشاكلة اللفظية أو هو على اعتبار من تنزل به العقوبة لأنها تسوءه. والدفع بالأقل يؤدي إلى إغراء العدوّ لإعادة الظلم كما أن الدفع بأزيد ظلم واعتداء، ويرغب الله في كل حالة الجماعة المؤمنة بالعفو والصفح عند المقدرة ويحذّر من الظلم وتجاوز الحدّ. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦). وإنما يكون الصبر والعفو إذا روعيت في ذلك قضية الإصلاح لنفوس أولئك الجامحين عن الحقّ استمالة لهم وتجسيدا لخلق الإسلام الرفيع ولذلك جاء التعبير بـــ"عفا" و"أصلح"، وأما إذا كان العفو يجرّئ الظالم فيتمادى في بغيه فإنّ الحزم والانتصار أولى.

ولتأكيد هذا الحق جاء قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، اللام: إمّا موطئة للقسم، وإمّا هي للابتداء، والجملة تأكيد لمعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، أي إذ تحقق الظلم ووقع

الانتصار للنفس منه فلا سبيل لمؤاخذة من فعل ذلك إذ هو حقّ مشروع. وجيء بالقيد: ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي بعد أن تحقق الظلم، فلا يجوز للمسلم أن يبادر أحدا بالانتقام تخوّفا من أن يظلم، فيكون بذلك ظالما، إلا ما استثناه العلماء في بعض الأحوال يقول عنها الإمام ابن عاشور: "وأمّا حال المسلمين بعضهم مع بعض فليس من غرض الآية، فلو أنّ أحدا ساوره أحد ببادىء عمل من البغي فهو مرخص له أن يدافعه عن إيصال بغيه إليه. قبل أن يتمكن منه، ولا يمهله حتى يوقع به ما عسى أن لا يتداركه فاعله من بعد. وذلك مما يرجع إلى قاعدة أن ما قارب الشيء يعطى حكم حصوله، أي مع غلبة ظنه بسبب ظهور بوادره، وهو ما قال فيه الفقهاء: يجوز دفع صائل بما أمكن.

ومحلّ هذه الرخصة هو الحالات التي يتوقع فيها حصول الضرّ حصولا يتعذر أو يعسر رفعه وتداركه، ومعلوم أنّ محلها هو الحالة التي لم يفت فيها فعل البغي، وأمّا إن فات فإنّ الجزاء عليه يكون بالرفع للحاكم، ولا يتولّى المظلوم الانتصاف بنفسه، وليس ذلك مما اشتملت هذه الآية".[1]

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: لإفادة معنى القصر في هذا الحكم أعقب نفي السبيل بإثباته هنا، وأكد القصر بـ"إنما"، والمراد بالسبيل الجزاء الدنيوي والأخروي، والحكم يشمل كلّ ظالم من الناس، سواء المتحدّث عنهم من مشركي مكة أو من معهم من المسلمين ومن يأتي بعدهم، والبغي هو الاعتداء على حقوق الغير من كلّ ما منحه الله من الحقوق لخلقه. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: يقع موقع الحال لزيادة للتأكيد، إذ لا يكون البغي إلا بغير الحق، وجملة: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: بيان لجزاء الباغين الظالمين، بأن لهم عذابا أليما في الدنيا والآخرة.

١- التحرير والتنوير: ٢٥/ ١١٨- ١١٩.

يقول المتنبي في شأن الظلم:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

ويقول: زهير في مدافعة الظلم:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم، ومن لا يظلم الناس يظلم

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾، وتعتبر الغاية في الكمالات الإنسانية للمتصفين بالصفات المتقدمة، ولذلك أكدت بتلك المؤكدات الأربعة، اللام، وإن، ولام الابتداء، والوصف بالمصدر. ولا يرقى إلى الاتصاف بالصفح والغفران على من ظلم إلا من ذكره الله في سورة آل عمران من المحسنين المستحقين لنعيم الجنة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤) والذين قال فيهم في سورة فصلت: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥).

وعزم الأمور هي جلائل الأعمال والصفات التي يمتاز بها كبار النفوس، فمثل هذا التعامل الكريم بين المسلمين مطلوب ومرغوب فيه، وأمّا مع الخصوم والأعداء فيجب أن توزن المواقف في العفو أو المؤاخذة وفق ما تقتضيه مصلحة أمن المجتمع والمحافظة على كرامته، والله أعلم.

أحوال الظالمين في موقف الحشر يوم القيامة.

أ)- النصّ:

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ

مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾: ﴿مَن﴾: شرطية، جوابها: ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ﴾: و﴿مِن﴾: زائدة للتوكيد، ونفي الولي كناية عن نفي أسباب النجاة. ﴿مِّن بَعْدِهِ﴾: بمعنى: دونه، أو غيره. ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾: الاستفهام إنكاري، وهو في معنى النفي، والمردّ: مصدر ميمي للرّدّ، بمعنى الرجوع أو هو بمعنى الدفع للعذاب. ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: ﴿تَرَاهُمْ﴾: الخطاب لغير معيّن، والضمير في: ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود إلى جهنم. ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾: في موضع نصب حال، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: الطرف، أصله مصدر، وهو تحريك جفن العين، وقد يطلق على العين نفسها، من تسمية الشيء بفعله. وقوله: ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ تعليل للخاشعين. والخشوع هنا بمعنى حالة الذّلّ والمهانة التي يكونون عليها، وقوله: ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي ينظرون إلى النار مسارقة بدافع الخوف مما يرونه من العذاب. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: الظاهر أنّ المؤمنين يقولون ذلك بمسمع من الظالمين للزيادة في ندامتهم، التعبير يدلّ على القصر، والمعنى: لا خسران يشبه خسرانهم. ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾: إعادة لفظ الظالمين في مقام الإضمار لإجراء التذييل مجرى المثل، والعذاب المقيم: وصف لاستعارة الدوام والاستمرار. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: ﴿مِّنْ أَوْلِيَاءَ﴾: ممنوع من الصرف في موضع رفع اسم لـ"كان". ﴿يَنصُرُونَهُم مِّن

دُونِ اللهِ﴾: صفة لأولياء. ﴿من﴾: زائدة لتأكيد النفي.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد الإشادة بالخصال الحميدة الكاملة للمؤمنين، وتقرير الله للقاعدة العادلة عند الانتصار من الظلم مع تحريضه على الصّفح والعفو عند المقدرة، ذكر الله في مقابل ذلك أحوال الكفّار، بعرض مشهد من مشاهد يوم القيامة وهم يقفون خاشعين أذلاء يسارقون النظر إلى نار جهنم دون أن يجدوا لهم أنصارا يخفّفون عنهم شيئا من العذاب، والمؤمنون يستفظعون خسارتهم في ذلك الموقف.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾، على ذكر الظالمين الباغين، وأن لا ملامة على من انتصر بعد ظلمه، عطف الله على قوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، عطف عليه هنا بيان أنّ من قدّر الله له بالضّلال لسوء استعداده وعدم قابليته للهداية، فما له من دون الله من وليّ يستطيع هدايته وإرشاده، وليس معنى ذلك أن يخلقهم الله ضالين على طريقة الإجبار والإكراه، بل إن اختياره للضلال وتوغله فيه يجعله غير قابل للهداية، فلا يوفّقه الله إليها، وإن كان الله يدعوه إليها بواسطة رسله وكتبه.

ونفي الولاية عن عبد هو نفي لكلّ خير؛ لأنّ الشيطان وليّ من لا وليّ له، فعلى المؤمن أن يكون حريصا في طلب التوفيق والهداية من الله، حتى لا يغتر بتزكية نفسه، لأنّ العبد لا يأمن على نفسه فتنة الدنيا، فما يدري كيف تكون خاتمته، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَنْ يَّهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (الكهف:١٧).

وفي بيان أحوال الظالمين في موقف يوم القيامة يقول تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلِ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾: ﴿وَتَرَى﴾: الخطاب لغير معيّن، وليس بمستغرب من الظالمين أن يتغيّر موقفهم إزاء تحذيرهم من عذاب جهنّم، فقد كانوا في الدنيا يسمعون عنها ولا يرونها، فاستهزءوا وسخروا وكذبوا، أمّا وقد عاينوا ذلك في موقف المحشر فقد تغيّر موقفهم، فما راء كمن سمعا، ولذلك تمنّوا في يأس وإحباط أن لو رجعوا إلى الدنيا بأيّ وسيلة، ولكن هيهات، فهم كاذبون في ذلك الرجاء، إذ قال تعالى في شأنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبُ بِئَايَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُومِنِينَ، بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام:٢٧-٢٨).

وإذ كان الظالمون منتعشين بكبريائهم وغرورهم الدنيويّ وهم يمعنون في سخريتهم من رسول الله، سيما في قضية البعث والنشور، فكيف أصبحت حالتهم النفسية يوم يعرضون على النار؟، إنها حالة الانكسار والذلّ والهوان، قد تهاوت كبرياؤهم وانهارت معنوياتهم: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

إنّه خشوع الانكسار والانهيار، منكّسي الرؤوس ذليلي الأبصار، يسارقون النظر إلى جهنم من شدة الخوف والمهابة، كالذي حكم عليه بالإعدام وهو لا يكاد يحدّ نظره إلى المقصلة، فيضع الجلادون سترة على عينيه رحمة به.

وفي ذلك الموقف الرهيب يشعر المؤمنون بالأمن والطمأنينة، وهم يعاينون مصير الظالمين ويقولون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

يقول المؤمنون ذلك شكرا لنعمة الله، إذ وفّقهم إلى الرّبح المعنويّ في الدنيا والآخرة، وهم يرون أولئك الظالمين الذين كانوا يسخرون منهم لإيمانهم كيف مُنُوا بتلك الخسارة الفادحة المضاعفة، خسارتهم لأنفسهم إذ أصبحوا حطبا لجهنم، وخسارتهم لأهليهم إذ حرموا من أنسهم والاجتماع بهم، فإذا كانوا في الجنة فقد افترقوا عنهم، وإن كانوا معهم في النار، فلا لقاء بينهم ولا تواصل؛ لأن حرمانهم من ذلك هو من مقتضيات العذاب. ويبدو -والله أعلم- أن المؤمنين قالوا ذلك في موقف المحشر ليكون ذلك أدعى لمزيد من الحسرة والندامة للظالمين.

ثم قال تعالى مقررا حكمه النهائي عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾، وتكرار لفظ: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ في هذا التعقيب للتأكيد على بيان سبب ذلك المصير المشؤوم وليكون الحكم مثلا جاريا يعمّ كل الظالمين قديما وحديثا، والعذاب المقيم هو الأبديّ المستمرّ.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾: تأكيد لنفي الولاية عن الظالمين بعد قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، ويختلف نفي الولاية بين الآيتين، فهناك نفي لولاية التوفيق والإرشاد، لأنه تعالى يتخلّى عنهم ويكلهم إلى أنفسهم وإلى شياطينهم وقال في هذا المعنى بسورة البقرة: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٢٥٧). وأمّا هنا فهو نفي لولاية النصرة، فمن خذله الله، فهيهات أن يجد النصرة من أحد، مهما كانت منزلته عند الله، وما أكثر الذين يعوّلون على أسباب وهمية أو مخلوقات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرّا، سواء منهم عبدة الأصنام، أو المتمسّحون بقبور الأولياء، أو المستشفعون بالملوك والأمراء، كل أولئك لا يستطيعون نصر من خذله الله في الدنيا والآخرة، وفي

معنى هذه الآية من نفي ولاية النصرة يقول الله في سورة القتال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا، ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ (١٠-١١).

ثم يجيء التذييل الجامع الذي يعمّ كلّ ضالّ إذا أخطأه توفيق الله فإنّه لا يجد له طريقا للنجاة والخلاص: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾، وطوق النجاة من عذاب الله لا يناله العبد إلاّ بتقوى الله، باتّباع أوامره واجتناب نواهيه، وأمّا ما وراء ذلك من الأماني الكاذبة، والادّعاءات الخادعة، فهي لا تغني من الحقّ شيئا، فمن قصر به عمله لم يسرع به نسبه، ولو كان من آل محمد ﷺ، وهو القائل لأقربائه: «**اعملوا ولا تغترّوا، فإني لا أغني عنكم من الله شيئا، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم**»، والله أعلم.

واجب الاستجابة لداعي الله المالك الواهب.

أ)- النصّ:

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾: أي أطيعوا ربكم بتلبية نداته لكم إلى الهداية والرشاد، ويقال: استجابه واستجاب له، فزيادة اللام للتبليغ والتبيين. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾: الملجأ: مكان اللجوء، أي المكان الذي يصير الإنسان إليه للوقاية، والنكير: اسم مصدر لفعل أنكر أي عدم الاعتراف. ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: أي إن أعرض عن سماع دعوتك المشركون فليس عليك تبعة إعراضهم، فما عليك إلا تبليغ ما أمرت به. ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: ﴿أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾: يراد بالإنسان الجنس، ولهذا جاءت الجملة الشرطية الثانية: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾: جاءت بصيغة الجمع، قابل الرّحمة بالسّيئة، والمقصود بها أنواع البلايا. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: الباء للسببية، واختلاف أداة الشرط بين ﴿إِذَا﴾ في إذاقته الرحمة لتحقيق الوقوع؛ لأن ذلك من رحمة الله، و"إن" تدلّ على الشك وندرة الوقوع استراحا من الله. ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾: والتزويج: قرن شيء بشيء آخر فيصيران زوجا، والمراد هنا: يهب لمن يشاء ذكرانا مشفعين بالإناث، وقال البعض: يعني به التوأم من ذكر وأنثى. وهو مرجوح. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾: العقيم أو العاقر الذي لا يلد ولا يولد له.

ج)- البيان والتفسير:

بعد بيان صفات المؤمنين وما وعدهم الله من النعيم والرضوان، وبيان أحوال الكافرين في أهوال يوم القيامة وما مُنوا به من الخيبة والخسران، أعقب الله على ذلك هنا الدعوة إلى الاستجابة لهدايته، وأنها السبيل الوحيد إلى الخلاص والنجاة، مرشدا رسوله أن لا يأبه بإعراضهم، فما عليه إلاّ البلاغ،

والإنسان من طبعه جحود النعمة.

ثم بيّن تعالى حكمته وقدرته في ما يهبه لخلقه لامتداد نسلهم وبقائهم من تنويع الذكور والإناث: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

الأمر الإلهي للمخاطبين من عباده جاء استئنافاً على ما تقدّم من بيان أحوال الفريقين: المؤمنين والكافرين، جاء أمره تعالى بالإستجابة لدعوته إلى طريق الرشاد، وزيادة "السين" و"التاء" فيه للتوكيد، وقد عديّ باللام: ﴿لِرَبِّكُم﴾ لزيادة التبليغ والتبيين، واختيار صفة الربوبية للذات العلية مضافة إلى ضمير المخاطبين للدلالة على حقّه تعالى في العبادة والشكر على ما يضفي على خلقه من النعم، أعظمها الخلق والإيجاد والرعاية وكفالة الرزق.

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾، حدّد الله ظرف تلك الاستجابة المطلوبة بإتيان يوم القيامة، أي فترة الاختيار الدنيوي، أي قبل لحظة الغرغرة بالنسبة لكلّ فرد، وقبل طلوع الشمس من مغربها بالنسبة للإنسانية جمعاء، ووصف الله ذلك اليوم بأن لا مردّ له من الله.

والمردّ مصدر ميميّ بمعنى لا يستطيع أحد دفعه، إذ هو آت من لدنه، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ (الطور:٧-٨). ثم أضاف الله لهذا اليوم كيف يكون حال الخلق فيه فقال: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾. ففي أي ملجأ يلجأ الناس إليه، ليقيهم مما هم فيه من خوف وهلع، ونفي أي إنكار يصدر عن الطاغين ينازعون الله به في قدرته أو حكمته، لأنه عند اشتداد الخوف على الناس لا تخلو وضعيتهم من أحد الأمرين:

أ)- طلب ملجأ آمن يقيهم شرّ ما يتعرضون له.

ب)- الإنكار والاحتجاج على تلك الأوضاع من كلّ من تسبّب فيها حتى يكفّ عنها.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: تفريع على قوله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾، وقد أمر الله رسوله من قبل بقوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

وإذ لم يستجب أكثرهم لتلك الدعوة، فإنه تعالى في معرض التسلية لرسوله بحدّد مهامّه في التبليغ، ليس إلاّ، ويلاحظ الالتفات من ضمير الخطاب إلى الغيبة احتقارا لجانب المعرضين: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، أي لا تقع عليك مسؤولية معاصيتهم إذ الحفيظ فيه معنى المراقبة والمحاسبة؛ لأنّ ذلك إلى الله وحده.

ثم بين الله سبب ذلك الإعراض والعناد فقال: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾، عطف الله هذه الآية على سابقتها، وذائما في معرض التسلية لرسول الله بيان طبيعة الإنسان المتقلبة حتى مع خالقه المنعم، فهذه هي حالته من التقلّب ما بين الفرح والطغيان عند السرّاء، والسّخط والكفران عند الضرّاء.

على أنّ التعبير جاء في الحالة الأولى بـ"إذا" التي تدلّ على تحقّق الوقوع من إغداق نعم الله، بينما جاء بـ"إن" التي تدلّ على الشكّ في وقوع الحالة الأخرى من اليأس والقنوط، عما يسبّبه هو بذنوبه ومعاصيه، ويعفو المولى عن الكثير كما تقدم في سورة فصلت.

﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾: حكم مؤكّد من الله بغلبة الكفر والجحود على هذا

الإنسان لغلبة هواه عليه وضعف الإيمان في قلبه، ولم يستثن الله تعالى من هذا الوصف إلاّ الصالحين من عباده كما في سورتي العصر والزيتون.

ثم عقّب الله على هذا الحكم العام قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَنْ يَّشَآءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَّشَآءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَّشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

التّقديم بإثبات الملكية لله وحده في السماوات والأرض وانفراده بالخلق مع مطلق تصرفه فيه، مثل هذا التقديم مناسب لما تقدّم من بيان أحوال الإنسان المتقلّبة في السّراء والضّراء لما في ذلك من حكمة الاختبار والامتحان لهذا المخلوق العاقل، لأنّ طبيعة الإعمار للأرض تقتضي ذلك فهو العليم القدير، العليم بما يناسب كلّ خلق في أرجاء ملكوته، والقدير بأن يخلق كلّ صنف بما يلائم طبعه ويليق بتدبير شؤونه.

ومن مجالي ذلك العلم وتلك القدرة تنويع ذرّية الإنسان، إذ يهب لكلّ منهم ما يشاء، وفق تنويع محكم، ووفق ما يصلح بكل واحد منهم.

أ)- فيهب لمن يشاء الإناث وحدهن قلّة أو كثرة.

ب)- ويهب لمن يشاء الذكور فقط.

ج)- ويهب لمن يشاء الصنفين: أي ذكورا أو إناثا. إذ التزويج هو قرن الشيء بالشيء الآخر فيصير زوجا.

د)- ويجعل من يشاء عقيما أي لا ولد له إطلاقا.

وقد مثل المفسّرون لكل صنف بالأنبياء -عليهم السلام- إذ هم القدوة لغيرهم من البشر.

أ)- مثلوا للصنف الأول: بلوط وشعيب فكلاهما ليس له إلا النبات.

ب)- وللصنف الثاني: بإبراهيم إذ لم يكن له إلا الذكور، وهم ثمانية على ما أحصوه.

ج)- وللصنف الثالث بسيدنا محمد إذ أنّ له أربعة ذكور، وهم: القاسم والطاهر، وعبد الله، وإبراهيم، وأربع إناث وهن: رقية، وزينب، وأم كلثوم، وفاطمة، وكلّ أولاده من خديجة ﷺ، إلا إبراهيم فإنّه من مارية القبطية.

د)- ومثلوا للعقيم: بعيسى ويحي عليهما السلام وقد قال تعالى في شأن رسله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (الرعد:٣٨). ويلاحظ في الآية تقديم الإناث على الذكور مع تنكير لفظ الإناث وتعريف لفظ الذكور.

وقال المفسّرون في حكمة ذلك كما نقله الإمام ابن عاشور قال: "وتنكير ﴿إِنَاثًا﴾؛ لأنّ التّنكير هو الأصل في أسماء الأجناس، وتعريف: ﴿الذُّكُورَ﴾ باللام لأنّهم الصنف المعهود للمخاطبين، فاللاّم لتعريف الجنس، وإنما يصار إلى تعريف الجنس لمقصد أي يهب ذلك الصنف الذي تعهدونه وتتحدثون به، وترغبون فيه".[1]

قلت: وفي تقديم ذكر الإناث رفع لشأن المرأة، وردّ لاعتبار مكانتها الاجتماعية وكرامتها الإنسانية لدى العرب، وقيل: إن من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، كما قال الدكتور الزحيلي، غير أن ذلك خاضع لتقاليد كل مجتمع، والله أعلم.

١- التحرير والتنوير: ١٣٨/٢٥.

بيان كيفية نزول الوحي، وأنه نور وهدى من الله تعالى.

أ)- النص:

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ﴾: نفي بلام الجحود. ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ﴾: في تأويل المصدر اسم كان. ﴿لِبَشَرٍ﴾: خبرها، أي ما صحّ وما استقام. ﴿إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾: ﴿إِلاَّ وَحْيًا﴾: ﴿وَحْيًا﴾: صفة لمصدر محذوف منصوب على الاستثناء، والتقدير: إلا كلاما وحيا، والوحي: الإشارة الخفية، ويطلق على ما يجده المرء في نفسه بالإلهام في اليقظة أو في المنام، وهو نوع من أنواع إلقاء كلام الله إلى الأنبياء، وهو على ثلاثة أنواع كما سيأتي بيانه. ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾: الخطاب لرسول الله، أي مثل إيحائنا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك، والروح: في الأصل هو ما به حياة الإنسان. وأطلق هنا مجازا على القرآن لأن القلوب تحيا به. ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾: الإضافة للتعظيم والمراد ما أوحى الله به لنبيّه من الهداية والإرشاد. ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾: ﴿تَدْرِي﴾: تعلم، وهو

ينصب مفعولين، غير أنّ النفي علّق الفعل: ﴿تَدْرِي﴾ عن العمل، و"كان" وما بعدها سدّ مسدّ المفعولين، و﴿الْكِتَابُ﴾: هو القرآن. ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾: الضمير في: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ يرجع إلى الكتاب، شبّه بالنور لأنه يهدي إلى الحقّ والإيمان كما يشبه الكفر والضلال بالظلمات. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: حذف مفعول: ﴿لَتَهْدِي﴾ للدلالة على عموم الدعوة المحمدية، والتقدير: تهدي الناس، وتنكير: ﴿صِرَاطٍ﴾ للتعظيم. ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾: بدل من الله. ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾: ﴿أَلَا﴾: للتنبيه، وتقديم الخبر لإفادة الاختصاص.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾: قرأ نافع بالرفع، أي هو يرسل، وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ بالنصب. ﴿فَيُوحِيَ﴾: قرأ نافع بالرفع، أي فهو يوحي، وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَيُوحِيَ﴾ بالنصب، عطفا على: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾.

د)- البيان والتفسير:

قد بيّنا أنّ السورة الكريمة ركّزت على ظاهرة الوحي وبيان حقيقته لإبطال شبه المشركين حوله، جاء ختام السورة هنا إثباتا لكون القرآن كغيره مما أوحي به الله إلى جميع رسله، أوحي به إلى رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، نورا وهدى للناس، وأنّ مصير الأمور كلّها إليه في الدّنيا والآخرة، وبذلك ينسجم ختام السورة بما بدئت به، وذلك من محسنات البيان.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

افتتاح النصّ بصيغة الجحود المفيدة للمبالغة في النفي هو لتأكيد المحور الأساسيّ الذي تركز عليه السورة الكريمة من بيان ظاهرة الوحي وأنها حقّ من عند الله يصطفي بها من يشاء من عباده. وردًا لما يقترحه المشركون من الأشياء على النبي ﷺ بيّن الله تعالى أنه لم يقع لأحد من الرسل ولم يتهيأ لأحد من البشر أن يكلّمه الله إلا بأحد الأنواع الثلاثة الآتية:

أ- ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾: والوحي هو الإلهام الخفي الذي يقذف في القلب يحسّ به المرء في نفسه في يقظة أو منام، يقول عنه الإمام ابن عاشور: "والمراد بالوحي هنا إيقاع مراد الله في نفس النبي، يحصل له به العلم بأنه من عند الله، فهو حجة للنبيّ لمكان العلم الضروري، وحجّة للأمة لمكان العصمة من وسوسة الشيطان، وقد يحصل لغير الأنبياء ولكنه غير مطّرد ولا منضبط".

ويقول: "ومن هذا الوحي مرائي الأنبياء، فإنها وحي، وهي ليست بكلام يلقى إليه، وقد تشتمل الرؤيا على إلهام وكلام". وقد أعطى الإمام أمثلة لهذين النوعين.[1]

قال الإمام البوصيري في رؤيا الرسول:

لا تنكر الوحي من رؤياه إنّ له ... قلبا إذا نامت العينان لم ينم

قلت: وليس هذا النوع من الوحي للرسل مثل الإلهام المجرّد الذي سمّاه الله وحيا، مثل قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (القصص:٧) وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (النحل:٦٨). ومن هذا الإلهام أيضا مرائي الصالحين، فإنها كما قال رسول الله: «الرؤيا الحسنة من

١- التحرير والتنوير: ٢٤/١٤٢.

الرّجل الصالح جزء من ستّة وأربعين جزءا من النبوّة»[1]. وقد رأيت منها الكثير بفضل الله، إذ جاءت كلّها كفلق الصبح مطابقة للواقع.

ب)- ﴿أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ﴾: أي يسمع الرسول كلاما من وراء حجاب ولا يرى شيئا، وهذا ما حدث لكليم الله موسى عليه السلام فهو نوع من الوحي إذ قال الله له: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (طه:١٣). وكما حدث ذلك لرسول الله ﷺ في ليلة الإسراء عند فرضية الصلاة عليه وعلى أمته.

ج)- ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾: أي يرسل الله ملكا من الملائكة، وهو في الغالب جبريل عليه السلام فيبلغ الملك إلى الرسول من البشر ما أوحى الله إليه كلاما يسمعه من الملك فيعي ما يقول، وقد يتمثل للملك رجلا كما قال تعالى في قصة مريم عليها السلام: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم:١٧). وقد وصف الرسول ذلك في حديث رواه الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنّ الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي يا رسول الله؟، فقال الرسول: «**أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثّل لي الملك رجلا فيكلّمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: وقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقا**».[2]

﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾: إنّه تذييل مناسب للموضوع، فصيغة العلوّ للذّات العلية علوّ مكانة وقدر لا تضاهيه النّفوس البشرية في القدسية ولا تدانيه في الرفعة والشأن، فلا يمكن أن يخاطب خلقه إلاّ بتلك الوسائط المذكورة،

١- رواه البخاري من حديث أنس، كتاب (٩٥) التعبير، باب (٢) رؤيا الصالحين، رقم ٦٥٨٢: ٦/٢٥٦٢.

٢- رواه البخاري، كتاب (١) بدء الوحي، باب (١) كيف كان بدء الوحي، رقم ٢: ١/٤.

ووصف الحكيم، أي يتقن الصّنع ويضع الأشياء في مواضعها المناسبة، فلا يعامل خلقه إلا بما تقتضيه مصلحتهم في تلقّي خطابه.

ثم يوجّه الله الخطاب لرسوله ليبيّن للمكذّبين به بأنّ القرآن أنزل من عند الله فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

الجملة معطوفة على ما سبقها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾، والمشار إليه هو أنواع الوحي المذكورة في الآية، أي: ومثل الذي ذكر من أنواع الوحي لمن نختار من عبادنا أوحينا إليك يا محمد.

والروح في الأصل ما تكون به الحياة في الإنسان، ويتمّ بأمر الله التكويني، وهو مجهول الماهية كما تقدّم في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥). وأطلق هنا مجازا على الدّين عقيدة وشريعة، إذ تكون به حياة النفوس الميّتة لتحيا بها الحياة الأبدية السعيدة، فهي نظير الرّوح التي تحيا بها أجسام الحياة الدنيوية الأولى، وقد قال تعالى في المعنى المجازي للروح: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام:١٢٢). وهنا يضفي الله على تلك الروح أنواعا من التعظيم.

فقال: ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾، فهو مثل قوله في الروح الحقيقي: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء:٨٥)، أي كما استأثر الله بعلم تلك الرّوح فقد استأثر -أيضا- بالروح المعنوية من حقائق الدين التي جاء القرآن بيانا لها وتفصيلا

لكل شيء.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾: الجملة في موضع الحال، والخطاب لرسول الله، بمعنى أفضنا عليك من بركات الوحي الذي أنزلناه عليك في حال كنت فيه لا تعلم الكتاب ولا الإيمان، أي عدم قراءته لكتاب من قبل، إذ كان أمّيا، وبالتالي ما كان رسول الله يصدر عنه شيء مما يتعلق بعلوم القرآن قبل أن يبعثه الله رسولا، ولا صدر عنه شيء يتعلّق بقضايا الإيمان وجزئياته التفصيلية كما بيّنها الوحي المترّل من عند الله، وليس معنى انتفاء الإيمان عن الرسول قبل الرسالة أنّه كان مشركا -حاشاه-، أو كان يسجد لصنم، إذ عصمه الله منذ نعومة أظفاره، فحفظه من أوضار الجاهلية، وحبّب إليه العزلة عند ما قارب الأربعين ليتهيأ بذلك للاتصال بالملإ الأعلى.

﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾: استدراك لنفي دراية الرسول للكتاب بأنّ الله نزّل عليه القرآن نورا وهدى للناس، وقد تكرر وصف القرآن بالنور في عدّة آيات تنجلي به ظلمات الضلالات وينير السبيل للسالكين. قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٦).

وهنا يقول مخاطبا رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهداية الرسول للخلق إلى صراط مستقيم هي هداية دعوة وتبليغ وإرشاد سواء بما أوحى الله به من القرآن من قضايا الدين، أو بما يبيّن لهم من سنته بجميع أنواعها. والصّراط المستقيم هو الذي يوصل إلى الغاية المنشودة، يأمن سالكه من بنيّات الطّريق؛ لأنّه صراط واضح المعالم مأمون العاقبة، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، إضافة لفظ الصّراط إلى اسم الجلالة هي لزيادة تعظيم شأنه، وأنّه من وضع الله وتصميمه، فلا يدانيه في المتانة

والاستقامة طريق آخر، لأن واضعه ومصمّمه هو خالق السماوات والأرض وبيده مقاليدهما، فكلّ صراط غيره من وضع المخلوقين فإنّما هو مظنة للعثار أو للتّيه والضلال.

﴿أَلَآ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾: "ألا" أداة تنبيه، وهي في مكانها المناسب، لأنّ الإنسان كثير الغفلة عن مصيره المحتوم، والتذييل بهذه الجملة بعد تلك الجولات التي تضمنتها السورة من المجادلات والحجاج لإبطال شبهات المشركين، فيه ما فيه من الوعيد للمكذّبين المعرضين، ومن وعد وبشرى للمؤمنين، فإنّ الجميع صائر إلى الله في الحياة الأبدية، حيث ينكشف الغطاء، وتظهر الحقائق، ولتُجزى كلّ نفس بما عملت، فلينظر كلّ واحد منكم كيف يكون مصيره؟.

والله أعلم.

تمّت

سورة الزّخرف، مكّية، وآياتها ٨٩

بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في جميع المصاحف القديمة والحديثة بسورة "الزخرف" لما ورد فيها من قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ، وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٣٤-٣٥).

وكلمة "زخرف" وهي الزينة والتزاويق لم تقع في غيرها من سور القرآن، وقد تضاف لتسميتها كلمة: "حم" فيقال: "حمّ الزخرف"، وهي مكية اتّفاقا عند الجمهور، وآياتها تسع وثمانون آية.

وهي الثانية والستون في ترتيب نزول السور. نزلت بعد سورة "فصلت"، وهي الثالثة والأربعون في ترتيب سور المصحف الشريف، وتندرج في "الحواميم" السبع التي وصفت بأنها ديباج القرآن كما تقدم.

والمناسبة بين سورتي الشورى والزخرف قوية واضحة، إذ كلتاهما تعالج موضوع الوحي وتشيد بالقرآن على أنّه وحي من عند الله، وتحاجّ المشركين في مواقفهم من التكذيب به والإعراض عنه، ونجد في سورة الزخرف تفصيلا أكثر في هذا الشجن مما أجملته سورة الشورى.

ونلاحظ ذلك الربط البديع بين أواخر سورة الشورى وأوائل سورة الزخرف بين قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢) وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (الزخرف:٣).

مشتملات السورة وأغراضها:

- تكاد الحواميم السبع تدور على محور رئيسي واحد في التنويه بشأن القرآن، والتنديد على مواقف المشركين منه إبان التنزيل، وإن كانت تشارك السور المكية في بيان أصول العقيدة الإسلامية.

- افتتحت السورة بالتنويه بشأن القرآن والتحدّي بإعجازه إذ أنزله الله بلغة العرب، ومشركو قريش هم أساطينها، وأن في ذلك رفعا لذكرهم.

- إثبات وحدانية الله وقدرته بالأدلة القاطعة من خلق السماوات والأرض وتوفير الأرزاق بإنزال الغيث وتسخير الأنعام وتيسير السفن لمنافع العباد.

- اعتراف المشركين بالخالقية لله والتعجيب من نقضهم ذلك باتخاذهم شركاء له يعبدونها من دونه، وجعلهم البنات لله مع الحطّ من قدرهن عندهم بالنسبة للذكور.

- تفنيد إدعاء المشركين بأنهم على ملّة إبراهيم، وبأن إبراهيم تبرّأ من الشرك وجعل كلمة التوحيد باقية في عقبه.

- تفنيد مقترح المشركين إنزال القرآن على رجلين من القريتين عظيم بأن ميزان الإصطفاء عند الله هو بمعايير الخلقية الإنسانية الرفيعة لا بالأمور المادية الرخيصة.

- وفي خواتيم السورة تأتي المقارنة بين عذاب المجرمين في جهنم ونعيم المتقين في جنة الخلد، مع إعلان اليأس من إيمان المشركين، مما يستدعي الأعراض عنهم، وبهديدهم بما ينتظرهم.

يقول الإمام ابن عاشور في أسلوب السورة: "وقد رتبت هذه الأغراض وتفاريعها على نسج بديع بأسلوب رائع في التقديم والتأخير والأصالة والإستطراد على حسب دواعي المناسبة التي اقتضتها البلاغة وتجديد نشاط السامع لقبول ما يلقى إليه".[1]

الإشادة بعربيّة القرآن، وبيان عقاب المستهزئين.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: ﴿حم﴾: من الحروف المقطّعة في أوائل بعض السور لتحدّي المشركين بإعجاز القرآن المؤلّف من تلك الحروف، والقرآن: قسم بالقرآن للدلالة على عظمة شأنه، و﴿الْمُبِينِ﴾: أي الواضح الدلالة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: يأتي فعل "جعل" بمعنى الإيجاد والتكوين، فيتعدّى إلى مفعول واحد، وهو الضمير العائد

١- التحرير والتنوير: ١٥٨/٢٤.

إلى الكتاب فيكون ﴿قُرْءَانًا﴾: حالا، و﴿الْمُبِين﴾: صفة، ويأتي "جعل" بمعنى: صيّر، فيتعدى إلى مفعولين. ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾: الضمير في: ﴿إِنَّهُ﴾ عائد إلى القرآن. و﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾: علم الله الأزليّ في اللوح المحفوظ. ﴿لَدَيْنَا﴾: بمعنى عندنا، فهو حال أو بدل. ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾: خبر لـ﴿إِنَّهُ﴾، بمعنى القرآن رفيع الشأن عند الله ذو حكمة بالغة. ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾: الاستفهام للإنكار. ﴿صَفْحًا﴾: منصوب على المصدرية، على أن يكون معنى نضرب: نصفح، والمعنى: أتحسبون أن إعراضكم عن الكتاب يكون سببا لقطع التذكير عنكم. ﴿وَكَمَ اَرْسَلْنَا مِن نَّبِيءٍ فِي الاَوَّلِينَ﴾: ﴿كَم﴾: تدلّ على الكثرة، وهي في موقع نصب مفعول لـ﴿اَرْسَلْنَا﴾، والأولون: أي الأمم السابقة ممن بعث الله إليهم رسلنا. ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾: ﴿فَأَهْلَكْنَا﴾: تفريع عن جملة: ﴿وَكَمَ اَرْسَلْنَا﴾، ﴿أَشَدَّ﴾: مفعول به، ﴿بَطْشًا﴾: تمييز منصوب.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾: قرأ الجمهور بضمّ همزة ﴿أُمِّ﴾. وقرأ حمزة والكسائي بكسر همزة ﴿إِمِّ الْكِتَابِ﴾ في الوصل اتباعا لكسرة: ﴿فِي﴾، فلو وقف على ﴿فِي﴾ لم يكسر الهمزة. ﴿إِن كُنتُمْ﴾: قرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف بكسر همزة: ﴿إِن﴾، على أن تكون: ﴿إِن﴾ شرطية، والتي غالبا ما تستعمل في الشرط الذي لا يتوقع وقوعه. وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بفتح الهمزة، على جعل: ﴿إِن﴾ مصدرية، بتقدير لام التعليل: لأجل.

د)- البيان والتفسير:

لقد تبيّن لنا مما سبق في السور المفتتحة بالحروف المقطعة كهذه السورة من "الحواميم"، تبيّن أن يجيء بعدها التنويه بشأن القرآن الكريم والتأكيد على

أنه منزّل من عند الله، وقد يأتي التنويه بشأن المنزل عليه سيدنا محمد ﷺ، فعلى ذلك المنوال جاء مفتتح هذه السورة الكريمة تعظيما من شأن القرآن، إذ أقسم الله به لما فيه من الإعجاز ووضوح البيان، وأقسم على أنه مضمون عند الله في اللّوح المحفوظ، وأنّ إعراض المشركين عنه لا يكون سببا لترك تذكيرهم به، بل دعاهم إلى الاعتبار بمصائر الأمم قبلهم ممن أهلكهم الله، فقال جل من قائل: ﴿**حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾.

﴿حم﴾: لقد تقدّم الحديث عن رأي الجمهور في شأن هذه الحروف المقطّعة في أوائل بعض السور.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: الواو للقسم، والكتاب المبين هو القرآن المجيد، أقسم الله به لعلوّ شأنه ورفعة قدره، فالله العظيم يقسم بما عظّمه من كلامه لما فيه من الهداية والنّور لخلقه، ولله أن يقسم بما شاء لتأكيد المعنى في نفوس المخاطبين، ووصف القرآن بأنّه كتاب مبين، ففي الوصف "كتاب" إيحاء للمؤمنين بأن يدوّنوه كتابيا على مرّ الأجيال حتى لا يتطرّق إليه التحريف والتبديل أو التلف والضياع، وكان الرسول قد اتخذ كتّابا للوحي في وقت التنزيل، كما قام الخلفاء الراشدون بجمعه وتدوينه، ثم توزيع المصحف الأم على الأمصار الإسلامية المفتوحة كما هو معروف من التاريخ. وأما وصف: ﴿الْمُبِينِ﴾، فلكونه واضحا جليا في معانيه وموضّحا لمقاصد الدين وأحكام التنزيل.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾: هذا هو المقسم عليه من طرف الله تعالى، وهو يتضمّن خصائص أخرى مميّزة للقرآن تحدّث الله عنها بنون العظمة وبيّن أنه جعله قرآنا

عربيا، الضمير في: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ يرجع إلى الكتاب، فهو زيادة على أنه مكتوب، فهو مقروء أي ميسّر بأن يقرأ على ألسنة المؤمنين يحمله الحفاظ في صدورهم، فتهيأت للقرآن -بفضل الله- الكتابة والقراءة مبالغة في صونه وحفظه كما وعد الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

﴿عَرَبِيًّا﴾: أي أنزلناه بلسان عربيّ، وذلك لما تمتاز به اللغة العربية من فصاحة وبيان، فأنزله بين أهل تلك اللغة وهم فرسانها فصاحة وبلاغة كما اصطفى رسوله منهم، وذلك من فضل الله عليهم ورفعا لذكرهم، وفي زيادة هذا الوصف للقرآن تعريض بالمنزّل عليهم ممن أعرضوا وكذّبوا به، ولذلك جاء التذييل بقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والعقل هو الفهم الدقيق للأشياء، و"لعل" هنا بمعنى: كي، إذ لا يناسب معنى التّرجي بعلم الله الشامل.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾: أمّ الشيء هو أصله، والمراد بأمّ الكتاب علم الله الأزليّ كما هو مثبت في اللوح المحفوظ، وهو الحق الذي لا يقبل التغيير، و﴿لَدَيْنَا﴾ بمعنى: عندنا، و﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ خبر لـ"إن" ووصف القرآن بالعلوّ ظاهر، و﴿حَكِيمٌ﴾: بما يحويه من إرشاد وإصلاح لأحوال الناس، أو هو محكم النظم لا لبس فيه ولا تناقض.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾: الفاء للتفريع على الآية السابقة، والإستفهام إنكاري، يقال: ضرب عنه صفحا، بمعنى أعرض عنه بصفحة وجهه، إذ كان المشركون يكرهون سماع القرآن؛ لأنه يسحر ألبابهم ويقول بعضهم لبعض: ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصّلت:٢٦). وقد أسرفوا في ذلك لغو أو سفاهة فجاء هذا الاستفهام الإنكاريّ. ويعني أن يقول: هل تظنّون أنّنا نترك تذكيركم بالقرآن لأنكم كرهتم سماعه، وأسرفتم في إنكاركم له؟، كلاّ، فإنّ رحمة الله اقتضت

أن لا نترك دعوتكم إلى الخير مهما أسرفتم في مواقفكم، فإنّ في سماع كلام الله ما يليّن القلوب، ويتألف الشّرود، فلا يجوز للدّعاة إلى الله أن يكفّوا عن الدعوة مهما كان موقف الناس منهم.

وبعد ذلك التنويه بشأن القرآن تأتي التسلية لقلب رسول الله وهو يواجه ذلك الصدود من قومه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ، وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾: ﴿كَم﴾ خبرية تفيد الكثرة، لفت الله أنظار المخاطبين إلى من كان قبلهم من المكذبين المستهزئين برسل الله كيف كانت مصائرهم بعذاب الاستئصال، فما أنت يا رسول الله ببدع من الرسل في إعراض قومك عنك، وما هم بأشدّ بطشا ممن سبقهم، وقد أهلكناهم كما جاء في قصصهم للتذكير والاعتبار.

وإذا فاتك التفاتة إلى الماضي فقد غاب عنك وجه التأسّي

والله أعلم

إقرار المشركين بالخالقية لله، وتذكيرهم ببعض نعمه.

أ)- النصّ:

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ

رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾: تأكدت الآية باللام الموطئة للقسم ولام الجواب ونون التوكيد. لتحقيق إجابتهم بذلك: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، حذفت منه نون الرفع لتوالي النونات، وحذفت واو الضمير لالتقاء الساكنين. وصفتا: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ للذات العلية ليستا من مقول جواب المشركين، بل عبّر الله بهما عن نفسه لتحقّقهما له، وإنّما هو إيحاء وتلقين لهم، إذ كانوا يجيبون: خلقهن الله. ﴿الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: استئناف لتعداد نعم الله، والمبتدأ محذوف، التقدير: هو الذي، والمهاد أو المهد: فراش الصّبيّ، أي منبسطة، فهو تشبيه بليغ. والسُّبل جمع سبيل، وهي الطرق التي يتبعها الناس في سيرهم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: كي تصلوا إلى المكان المقصود. ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: النشر هو بسط ما كان مطويًا، واستعمل هنا مجازا لإحياء الأرض بالنبات. ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: جرّد الوصف من تاء التأنيث؛ لأن الموصوف: ﴿بَلْدَةً﴾ مجازي التأنيث. كذلك تخرجون: استعارة لتشبيه الأرض قبل نزول المطر عليها بالحيوان الميّت. ﴿وَالذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾: ﴿الأَزْوَاجَ﴾: جمع: زوج، ما يصير به الواحد ثانيا، والمقصود بها أزواج المخلوقات من ذكر وأنثى. ﴿الْفُلْكِ﴾: السفن، ﴿وَالأَنْعَامِ﴾: المراد بها الرواحل من الإبل. ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾: "مَا": موصولة، وحذفت عائدها، والتقدير: ما تركبونه. ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾: الإستواء على ظهور -أي اعتلاؤها-، والظهور هي للأنعام،

فغلبت معها الفلك؛ لأنه يقال: ركبوا في الفلك. ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾: أي مطيقون لها لضخامتها وقوّتها، لولا أن سخرها الله لنا. ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾: أي راجعون إلى الله ليوم الجزاء، فذلك هو السّفر الحقيقي الذي يجب أن نتزوّد له.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مِهَادًا﴾: قرأه الجمهور: ﴿مِهَادًا﴾، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿مَهْدًا﴾، ومؤداهما واحد، أي جعل الله الأرض كالفراش الممهّد. ﴿مَيْتًا﴾: قرأه الجمهور بإسكان الياء، وقرأه أبو جعفر بتشديد الياء، وهما نطقان فصيحان. ﴿تُخْرَجُونَ﴾: قرأ الجمهور بالبناء للنائب، وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر: ﴿تَخْرُجُونَ﴾ بالبناء للفاعل.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تسلية رسول الله ووعد الله له بالنّصر على أعدائه، خاطب رسوله في معرض التّعجيب من حال المكذّبين به في أنّه إذا سألهم عن خالق السماوات والأرض فإنّهم يقرّون بالخالقية لله وحده، ولكن إذا دعاهم لعبادته وحده أعرضوا وتنكّروا، ثم ذكّرهم بنعم الله الكثيرة عليهم وخصّ بالذكر تسخير الأنعام والفلك للانتقال عليها في أسفارهم، ووجّههم لأن يذكروا تلك النعمة ويحمدوا الله عليها، فقال جلّ من قائل: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾**.

الآية معطوفة على قوله: ﴿وَكَمَ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾، للانتقال إلى محاجّة المشركين في ما هم عليه من الشّرك وعبادة الأصنام، وقد صيغت

الجملة بعدّة مؤكّدات لتبرير ذلك التعجيب من حالهم المتناقض، إذ يقرّون بالخالقية لله تعالى مما يقتضيهم أن يفردوه بالعبادة، ولكنّهم يلتجؤون إلى الأصنام في شؤونهم الدنيوية.

واختيار صفتي العزيز العليم للذات العلية هو من كلام الله عند المحققين من المفسّرين، وليس مما يتضمّن جوابهم عن السؤال المطروح، إذ كانوا يجيبون في الغالب بلفظ الجلالة "الله"، كما تقدم في سورة لقمان: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾(٢٥). ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ (الزخرف:٨٧). فذكر الصفتين: العزّة والعلم للذّات العلية إنّما هو للإيحاء والتضمين لصفات المعبود الحقّ، وللتعريض بآلهتهم الباطلة بأنّها على خلاف ذلك جاهلة ذليلة.

ثم انتقل السّياق إلى ذكر النّعم التي تقوم عليها حياتهم: **﴿الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**.

وبما أنّ هذه الأدلّة موجّهة إلى منكري البعث فقد ذكر المخاطبين ببعض النّعم التي جعلها الله لهم، أي لتوفير الرّاحة والخير لهم، فتشبه الأرض في انبساطها بالفراش الممهّد المريح لحياة الطفل، ذليلة طيّعة لقضاء مصالحهم، وهي لا تميد ولا تضطرب مع أنّها سابحة في الفضاء الكوني ملتزمة لمدارها، كما جعل خلال جبالها ووهادها فجاجا وسبلا يهتدون بها إلى مقاصدهم اكتسابا للأرزاق أو طلبا للعلم أو سياحة للاستكشاف والاطّلاع.

﴿وَالذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾: وتكرر الإسم الموصول للاهتمام بهذه الظاهرة الطبيعية، من إنزال الماء من السّماء بقدر ما تحتاج إليه الخلائق لتوفير أرزاقها وأقواتها، لأنّ الزيادة

في ذلك القدر تؤدّي إلى الفيضانات المدمّرة، كما أنّ الإنقاص من القدر الضروري ينجرّ عنه القحط والجفاف، وبما أنّ الماء هو عنصر الحياة على وجه الأرض، وبعض المخاطبين في وقت التنزيل هم من منكري البعث فقد فرّع الله على إنزال الماء إحياء الأرض بعد موتها بأنواع الزروع والنباتات. ثم أشار قياسا على ذلك إلى إحياء الأجساد بعد الموت وإخراجها ليوم النشور في النشأة الثانية، إذ تتجلّى في كلتا الحالتين القدرة الربانية.

﴿وَالذِي خَلَقَ الاَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالاَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾:

إنّ التّناسق عجيب بين هذه الآيات، فمن خلق الأرض إلى تدليل وطائها وتسخير سبلها لاكتساب الأرزاق وتوفير وسائل الإنتاج، بما يمتنّ الله علينا به من إنزال الأمطار، ثم يتطرّق إلى بيان سنّته في الإيجاد والتكوين على قاعدة الزّوجية في كلّ شيء، أي زوجية الذكورة والأنوثة في الإنسان والحيوان والنبات، أو غير ذلك من أنواع الزوجية الأخرى في ما لا نعلمه من الكائنات الأخرى، وهو القائل: ﴿سُبْحَانَ الذِي خَلَقَ الاَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الاَرْضُ وَمِنَ اَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦).

أو لم يهتد العلماء اليوم إلى الزوجية بين الموجب والسالب في الكهرباء والذرة وغيرها؟.

وخصّ الله بالذّكر نعمة تسخير الأنعام لنا في أسفارنا على البرّ وتسخير السفن في أسفارنا على مياه البحار والأنهار، وتلك وسائل عرفها الإنسان من أقدم العصور، أمّا الوسائل المستحدثة كالطائرات والسفن الفضائية فقد قال

الله عنها في محكم كتابه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨).

وقال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، والاستواء هو الاعتدال في الجلوس، وكرّر فعل الاستواء للتأكيد في لفت الانتباه إلى تلك النّعمة التي لا تحصل للإنسان إلا بفضل الله ونعمته في تذليل ذلك الحيوان القويّ الجموح لخدمة الإنسان، وفي تدليل عباب البحر لتلك السفن الجارية، ومع تحقّق تلك المنفعة للإنسان جاء الأمر لشكر نعمة الله بذكر ذلك أوّلا في القلب؛ لأنّه مستودع العواطف والنوايا، ثم يلي ذلك التعبير باللّسان، فأرشدنا الله إلى عبارات الدعاء التي نتفوّه بها، وهي تتضمن التسبيح لله، أي نزّه ربّنا عن صفات النّقص، إذ سخّر لنا تلك الحيوانات وتلك السفن، وما كنّا لها مطيقين لولا أن سخرها الله لنا، ويقال: أقرن الشيء، إذا أطاقه. ومضمون هذه العبارات هي تعبد وتحمّد لله الذي سخّر لنا ذلك المركوب وذلّله لنا ونحن ضعاف أمامه. والسّفر مهما توفرت وسائل الراحة فيه فهو قطعة من العذاب، كما ورد في الأثر، وكان من سنة رسول الله ﷺ ما رواه ابن عمر: «**أنّ النبي كان إذا سافر فركب راحلته كبّر ثلاثا ويقول: ﴿سُبْحانَ الذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثم يقول: اللهم إني أسألك في سفري هذا البرّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوّن علينا السفر، واطو عنا بعد الأرض، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا**». وكان يقول إذا رجع إلى أهله: «**آيبون إن شاء الله، تائبون عابدون، لربنا حامدون**».[1]

١- رواه مسلم بنحوه من حديث ابن عمر، كتاب (١٦) الحج، باب (٧٥) ما يقول إذا ركب إلى سفر الحجّ وغيره، رقم ٣٣٣٩: ٤/١٠٤.

والتذييل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ جاء مؤكّدا بـ"إن"، والجملة الإسمية، واللام المزحلقة. والانقلاب إلى الله هو الرّجوع إليه ليوم الدين، وإنّه لتذييل مناسب لما فيه من إعلان المؤمن عن إيمانه باليوم الآخر بعد رحلة الابتلاء في الحياة الدنيا، ولما فيه من الاعتراف بأنّ الآخرة هي دار القرار، وما الحياة الدنيا إلاّ كما يستظل المسافر بظل شجرة ثم يرتحل، فاللهم ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين، ولا تخزنا يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والله أعلم.

تناقض المشركين في معتقداتهم؛ لأنها مبنية على التقليد، والردّ عليهم.

أ)- النصّ:

وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ
وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا
وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ
هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ
مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم
بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾
وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟
إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾: الضمير في: ﴿جَعَلُوا﴾ يعود للمشركين المعترفين بالخالقية لله، والجزء: أي الولد، فهو جزء من أبيه وأمه. يقول الشاعر في رثاء ولده:

ولد المعزّى بعضه، فإذا مشى بعض الفتى، فالكلّ في الآثار

فالمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، -حاشاه-، ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾: ﴿أَم﴾: للاضراب الانتقالي، بعده همزة للاستفهام الإنكاري، أي استنكار اتخاذ البنات لله. ﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾: بمعنى اختاركم، والجملة في موضع الحال. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾: هو بمعنى التهكم، ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾: أي جعل له شبيها بنسبة البنات إليه. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾: ﴿ظل﴾: بمعنى صار. ﴿وجهه﴾: اسم صار. ﴿مسودّا﴾ خبرها. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: في موضع الحال، والكظيم: الذي أمسك حزنه وغضبه. ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾: عطف إنكار على إنكار، النشء في الحلية كناية عن الضعف عن مزاولة الصعاب، و﴿الْخِصَام﴾: المقارعة بالحجة، ﴿مَنْ﴾: في موضع نصب مفعول لفعل محذوف، والتقدير: أجعلوا من ينشأ في الزينة ولدا لله، أي الأنثى التي لا تقوى على المقارعة والمنازعة. ﴿وَجَعَلُوا الْمَلآئِكَةَ الذِينَ هُمْ عِبَدُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَ.شَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾: العندية استعارة لرفع منزلة الملائكة عند الله، وجعلها إناثا في معتقدهم هو وصف بالحطة والخسة، ﴿أَ.شَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ. ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾: الخرص هو الظّنّ والتوهّم الذي لا حجة فيه، وقد يأتي بمعنى الكذب. ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾: الأمّة تأتي بمعنى التوجّه والملّة والطريقة، وتأتي بمعنى

المجموعة من الناس التي تجمعها خصائص واحدة، والمعنى: إنا نقلّد ما وجدنا عليه آباءنا ونقتفي آثارهم. ﴿قُلَ اَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾: الاستفهام للتقرير. و﴿أَهْدَى﴾: اسم تفضيل من الهداية، والمعنى: هل تتبعونني إن جئتكم بشيء أحسن مما وجدتم عليه آباءكم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿جُزْءًا﴾: قرأها الجمهور: ﴿جُزْءًا﴾ بضم الجيم وسكون الزاي، وقرأها شعبة بضمّ الجيم والزاي: ﴿جُزُءًا﴾ ، وقرأها جعفر: ﴿جُزَءًا﴾ بضم الجيم وفتح الزاي. ﴿يُنشَأُ﴾: قرأ الجمهور بفتح الياء وسكون النون، وقرأه حفص وحمزة والكسائي، بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين، ومعناه يعوّده على النشأة في الحلية. ﴿عِندَ الرَّحْمَٰنِ﴾: قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: ﴿عِندَ﴾ بعين فنون ودال مفتوحة، وقرأه الباقون: ﴿عِبادُ الرَّحْمَٰنِ﴾، بعين وموحّدة بعدها ألف ثم دال مضمومة، على معنى: الذين هم عباد الرحمن. ﴿اَشْهِدُوا﴾: قرأ نافع وأبو جعفر بهمزتين، أولاهما مفتوحة والأخرى مضمومة وسكون الشين، بالبناء للنائب، وقرأ الباقون بهمزة مفتوحة فشين مفتوحة، بصيغة الفعل، فالهمزة لاستفهام الإنكار. ﴿قُلَ اَوَ لَوْ جِئْتُكُم﴾: قرأ الجمهور: ﴿قل﴾ بصيغة الأمر، فيكون أمرا للرسول أن يقوله لقومه. وقرأ ابن عامر وحفص: ﴿قَالَ﴾ بصيغة فعل الماضي المسند إلى المفرد الغائب فيكون الضمير عائدا إلى النذير. ﴿جِئْتُكُم﴾: قرأ الجمهور بضمير تاء المتكلم، وقرأ أبو جعفر: ﴿جِئْنَاكُمْ﴾ بنون ضمير المتكلم.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان إقرار المشركين بالخالقية لله تعجّب الله منهم بتناقض آرائهم

ومعتقداتهم بأنّ الملائكة بناته الله -حاشاه-، في حين أنّهم يكرهون لأنفسهم البنات، فجاء الرّدّ الإلهيّ على هذه الشبهة بما يقتضيه ذلك من نقص ينافي كمال الألوهية، وأنّ المشركين لا يستندون إلى دليل عقلي صحيح في ما يلفقونه من تلك العقائد، بل هم مقلدون لآبائهم وأجدادهم، وذلك شأن من سبقهم من الأمم التي كفرت برسل الله، فانتقم الله منهم وأهلكهم، قال تعالى: **﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾**.

الضمير في: ﴿جَعَلُوا﴾ يعود للمشركين بالله الذين أقروا بالخالقية لله تعالى في الآية المعطوف عليها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، ولكنّهم متناقضون في رأيهم إذ جعلوا لله جزءا من خلقه، إذ قالوا: الملائكة بنات الله من سروات الجن، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا، وقد عالجت كثير من آيات القرآن هذه القضية بأسلوب الإنكار والتوبيخ، وأقربها في المعنى إلى ما ورد في هذا النّصّ آية سورة النحل في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٥٧-٥٩).

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾: التذييل بصفة الكفر الواضح للإنسان من أمثال هؤلاء الكفرة يدلّ على الاستنكار الشديد لكفر نعمة الله، والاستخفاف بملائكته، وكذلك أخذ الله يردّ عليهم في سخرية وتهكّم: **﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾**.

﴿أَم﴾: للاضراب الانتقالي، والكلام بعدها بمعنى الاستفهام الإنكاريّ للتعجيب من شأنهم، إذ جعلوا الجزء الأسوأ لله -وهم الإناث-، بينما يختار

الله لهم الذكور، تلك -إذن- قسمة ضيزى، كما قال المولى في سورة النجم، فلم يكفهم كفرا وباطلا أن يتخذوا لله ولدا فجعلوه أنثى، وهم يأنفون لأنفسهم ذلك بحيث أنّه إذا بشّر أحدهم بميلاد أنثى عنده يبقى حبيس الهمّ والكآبة حتى يسودّ وجهه بكظم غيظه وضيقه على ذلك.

ثم أكّد ذلك الإنكار بقوله: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، الجملة معطوفة على ما سبق من قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾، على أن يكون: ﴿مَنْ﴾ في محل نصب بفعل مقدر دلّ عليه فعل: ﴿اتَّخَذَ﴾، تأكيدا لمعنى الإنكار السابق. والحلية هي بمعنى الزينة، وذلك يخصّ النساء، إذ ينشأن منذ نعومة أظفارهن على لبس الحليّ من الإقراط والأساور والخلاخل كما يباح لهن لبس الحرير، فقوله: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ كناية عن الميوعة والضعف، ولا يقوين على المنازعة ومقارعة الخصوم، فلا يليق بالإله الخالق أن يتّخذ ولدا فضلا عن هذا النوع الذي لا يكسبه عزّة ولا قوّة، وفي الآية دليل على ضعف المرأة ورقّتها، وقد وصف أحد الشعراء غلاما أمرد مائعا بقوله:

خطرات النسيم تجرح خدّيـ ـه ولمس الحرير يدمي بنانه

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾: الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، والجعل هنا يحمل نفس المعنى هناك، أمّا العندية فهي عندية تشريف للملائكة، إذ هم عباد مكرمون كما وصفهم الله، ووصف المشركين لهم بأنهم إناث هو إحدى سخافاتهم الاعتقادية التي لا مستند لها من عقل ولا شرع، ولذلك جاء الرّد الإلهي عليهم بالإنكار الشديد إذ قال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾، حتى يعرفوا جنسهم، فهو استفهام إنكاريّ يلغي هذه الشبهة،

وليس في مقدور البشر رؤية الملائكة فكيف بمعرفة خلقتهم، قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾(الكهف:٥١). فإذا كنت أيها الأحمق عاجزا عن إدراك الكيفية التي خلقك الله عليها، فكيف لك أن تعرف كنه الملائكة حتى تطلع على خلقتها؟، فما ذلك الادّعاء إلاّ كذب وزور، تحصى عليهم في صحائفهم ويسألون عليها يوم القيامة أي سؤال تهديد بالعذاب.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَآءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾: وهذه هي إحدى مقولاتهم الباطلة التي يلجأون إليها عند فوض الحجّة عليهم، فيحاولون بذلك قطع الجدال بينهم وبين رسول الله، إذ كان يرجع المشيئة إلى الله في كلّ ما يجري من أحداث، فيقولون: لقد عبدنا هذه المعبودات لأنّ الله أراد ذلك، إذ لو شاء لمنعنا عن عبادتها فهم على مذهب الجبرية الذين يلقون اللّوم على القدر، ثم هم يتبعون أهواءهم في طلاقة وحرية، جاء الردّ الإلهي على هؤلاء بأنّهم يكذبون في ذلك الادّعاء، وليس لهم أي دليل عقليّ يحتجون به، إن هم إلا يخرصون، والخرص هو التوهّم والظن الذي لا يغني من الحقّ شيئا.

وحاشا لله أن يأمر بالفحشاء أو أن يرضى لعباده الكفر، بل ليس لهم -أيضا- أي دليل نقليّ يستظهرونه على ذلك قد أتاهم من الله إذ قال تعالى: ﴿أَمْ -اتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾، وضمير من: ﴿قَبْلِهِ﴾ عائد إلى القرآن، فهم أمّة لم ينزل عليها كتاب قبل القرآن، ولم يأتها نذير قبل الرسول، فأنّى لهم دليل نقلي على ما يقولون؟، وإذ لم يبق لهم مستند على ما قالوه، فقد اعترفوا بأنّهم مقلّدون لآبائهم وسائرون على نهجهم في عبادة تلك الأصنام.

والتقليد علامة ضعف في الشخصية تنمّ على عجز في التأمّل والتفكير، لأنّ العاقل المعتدّ بنفسه يميّز ويقارن قبل أن يختار، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

أضرب الله على الكلام السابق ليقرّر هذا الموقف الشّائن من طرف المشركين حين أعوزهم الحجج العقلية والنقلية في ما يدّعونه، ويظهر تعلقهم الشديد باتّباع آبائهم في قولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، إذ أن ﴿عَلَىٰٓ﴾ تدلّ على التّمكن والثّبات. و﴿مُّهْتَدُونَ﴾ يدلّ على قناعتهم بحقية ذلك الاتّباع، ثم بيّن الله تعالى أنّ الكفر ملّة واحدة بمشابهتهم لما قالته الأمم السابقة فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

وفي بيان تلك المشابهة بين مواقف المشركين في كل زمان ومكان تسلية لرسول الله، وتثبيت لجماعة المؤمنين معه، وهذه الآية في تركيبها شبيهة بسابقتها، غير أنّه تعالى خصّ القائلين هنا بأنهم المترفون، أي سراة القوم وكبراؤهم من أولي الشّرف والنعمة، وفي ذلك إيماء إلى عظماء قريش من خصوم رسول الله، إذ كانوا مفترين بما هم فيه من نعمة حتى نسوا جانب الله. ويظهر الفرق بين قولهم: ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ من كفار قريش؛ لأنهم يعتقدون الهداية في ذلك الاتّباع خلافا لما دعا إليه رسول الله، بينما المشركون في الأمم السابقة اكتفوا بمجرّد الاتباع دون مراعاة للاهتداء وعدمه. فكيف كانت إجابة الرسل لأقوامهم؟.

﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾: اختلفت القرآتان بين: ﴿قُلْ﴾ أمر لرسول الله، و﴿قَالَ﴾ حكاية عن أي رسول سابق، والمخاطبون هم الكفار المقلدون

لآبائهم. والاستفهام تقريري مشوب بالإنكار؛ لأنّ في اختيار اسم التفضيل: ﴿بِأَهْدَى﴾ للمقارنة بين ما دعاهم إليه الرسول وبين ما وجدوا عليه آباءهم، في ذلك نوع من استئناس المخاطب للنّظر والتّأمّل، ولكن إجابتهم جاءت متنطعة إذ قالوا: لا نؤمن برسالتكم ولا نترك ما وجدنا عليه آباءنا. وفي الخطاب بالجمع لرسول الله: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي على قراءة: ﴿قُل﴾، في ذلك اعتبار لجنس الرسل. وإذ ضلت العقول على علم فماذا تقوله النصحاء.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾: فرّع الله على موقف الكفار انتقامه منهم بأنواع من العذاب، وفي ذلك تهديد لخصوم رسول الله أن يصيبهم الله بمثل ما أصاب أولئك الأقوام من الهلاك، إذ هم يعرفون ذلك من الآثار التي يمرون عليها في أسفارهم، والله أعلم.

من الخطأ تقليد الآباء على الباطل، ومن الباطل الجدال في آيات الله وحكمته.

أ)- النصّ:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ

بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِنَّنِي بُرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ، إِلاَّ الذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾: ﴿بُرَآءٌ﴾: بمعنى برئ، وهو وصف بالمصدر، ﴿إِلاَّ الذِي فَطَرَنِي﴾: أي خلقني، وهو استثناء منقطع. ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾: ﴿جَعَلَهَا﴾: الضمير يرجع إلى إبراهيم، ومن المفسّرين من أرجعها إلى الله. والكلمة: هي توحيد الله. والعقب الذريّة، أي ما يزال في ذرية إبراهيم من يعبد الله وحده حتى قيام الساعة، ولا يقتضي ذلك أن يكونوا كلهم موحّدين. ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: الإشارة: ﴿هَؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ إلى قوم الرسول من قريش، ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾: لم يهلكهم الله كما أهلك من قبلهم حتى جاءهم الحق، أي نزل القرآن بلغتهم. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: ﴿لَوْلَا﴾ للتحضيض، والقريتان هما: مكة والطائف. والتعريف فيهما للعهد، ويروى عن ابن عباس أنّ عظيم مكّة هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وعظيم الطائف هو حبيب بن عمرو الثقفي، ويروى غير ابن عباس غير هؤلاء. و﴿مِن﴾: للتبعيض، والتقدير: من إحدى القريتين. ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾: الإستفهام للإنكار، وتوجيه الخطاب إلى الرسول بإضافة كلمة "الرّب" تشريف وتأنيس له. ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾: أي ليسخّر بعضهم بعضا في العمل بالأجرة أو بغيرها. والياء في: ﴿سُخْرِيًّا﴾ للنسب، وليس هو هنا بمعنى الهزء؛

لأن المقام ليس له. ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: أي كراهة أن يكون الناس كلّهم على جماعة واحدة، أي على ملة الكفر. ﴿لَوْلا﴾: حرف امتناع لوجود يفيد الشرط، أي امتناع وقوع الجواب لوقوع الشرط والجواب هو قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ، وَزُخْرُفًا﴾. والمعنى: لولا أن يصير النّاس كلّهم كفّارا لخصّصنا الكافرين بالمال، حتى تصير بيوتهم مزخرفة ولها مرافق للراحة. والمعارج: اسم جمع لمعراج، وهو ما يصعد به إلى الأعالي. و﴿يَظْهَرُونَ﴾: بمعنى يتسوّرون، بينما يبقى المسلمون في كفاف من العيش، وتدّخر خيراتهم للآخرة. ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ﴿لَمَّا﴾: بالتشديد هي بمعنى: ألا، وإن قرئت مخففة فتكون "ما" زائدة، وتكون: "إن" مخففة للنفي. ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ﴾: هو العرض الزائل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾: قرأ ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب بضمّ الباء، وقرأ الباقون بكسرها. ﴿سُقُفًا﴾: قرأ الجمهور بالجمع، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بالإفراد: ﴿سَقْفًا﴾. ﴿لَمَا مَتَاعُ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لَمَا﴾ بتخفيف الميم فتكون، "إن" التي قبلها مخففة من "إنّ" المشددة للتوكيد. وتكون اللام الداخلة على: ﴿لَمَا﴾ اللام الفارقة بين "إن" النافية و"إن" المخفّفة. و"ما" زائدة للتوكيد بين المضاف والمضاف إليه. وقرأ عاصم وحمزة وهشام عن ابن عامر: ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد، فهي "لـــمّا" أخت "ألاّ" المختصة بالوقوع في سياق النفي، فتكون: "إن" نافية، والتقدير: وما كلّ ذلك إلاّ متاع الحياة الدنيا.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن ندّد الله على المشركين في رفضهم الدّليل والبرهان، واعتمادهم

على تقليد الآباء في العقائد والعادات الباطلة، وبعد أن ذكّرهم بما حاق بالأمم الماضية بسلوكها نفس المنهج، ساق الله لهم أمثالا من مواقف الرسل مع أممهم، فبدأ بقصّة إبراهيم مع قومه، وكيف تبرأ ممّا وجد عليه آباءه وقومه، إذ اعتمد الدليل والبرهان في معتقده، ثم بيّن اغترار المشركين بزينة الدّنيا ومدّ حبل الأجل، واعتبارهم الجاه والحظوة وكثرة المال هي الأولى والأحقّ باصطفاء النبوءة من الفقر واليتم اللذين يتصف بهما محمد، فردّ الله عليهم تلك الشبهة بأنّه هو وحده المقسّم لتلك الحظوظ إذ جعل النّاس متفاوتين فيها ليخدم بعضهم بعضا، وأنّه لولا خوف انتشار الكفر وتعميمه في العالم لجعل الحظوظ الدنيوية تنهمر على أعداء الله، وإنّما رحمة الله ونعيمه الأخرويّ خير وأبقى.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ، إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾: وإذ كان العرب يفتخرون بانتسابهم إلى جدّهم الأعلى إبراهيم عليه السلام ويعتقدون أنّهم على ملّته، فقد أرشد الله رسوله بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾. والتقدير: اذكر أيّها الرسول لقومك بأنّ أشرف آبائهم إبراهيم كان على عكس موقفهم من تقليد الآباء إذ تبرّأ مما وجد عليه أباه وقومه من عبادة الأصنام. والتّبرّؤ من الشّيء هو عزله والابتعاد عنه، ويقال: استبرأ من النّجاسة، بمعنى تطهّر منها، والشرك من أخبث النّجاسات التي يتطهّر منها الإنسان.

﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾: استثناء من قوله: ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، أي لا أعبد ما تعبدونه من الأصنام، ولكن أعبد الذي خلقني بقدرته وهو ربّ العالمين الذي يهديني إلى الدّين الحقّ الذي يرتضيه في الحال والاستقبال، وتخصيص ذكره لأبيه مع أنّه من جملة قومه لبيان إخلاصه ووفائه لعقيدته بحيث لا يحابي فيها ولو أقرب الناس إليه مثل أبيه، وقد شهد الله له بذلك إذ

قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ (التوبة:١١٤).

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: جعل إبراهيم كلمة التوحيد بعد إذ رفع لواءها بين قومه وتحدّى آلهتهم الباطلة بما ألحق بها من التّدمير والتّكسير، وجاهد بعد ذلك في سبيل تركيزها لتبقى متوارثة متعاقبة في ذرّيته من بعده، وهم ينقلوها إلى الأمم الأخرى، وهذا مفاد قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَوْصَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (١٣٢). فنسق الآية يرجّح بأن ضمير الرفع في: ﴿جَعَلَهَا﴾ يرجع إلى إبراهيم عليه السلام ليظهر الله إخلاصه وحنيفيته لله، وهو المناسب لقوله في التذليل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي يرجع كلّ من تنكبّ عن تلك العقيدة يرجع إليها اتّباعا لها وتركا لعبادة الأوثان.

وبعض المفسّرين جعل ضمير الرفع في: ﴿جَعَلَهَا﴾، عائدا إلى الله، ولو لم يتقدم في الجملة ذكر لفظ الجلالة، وليس في السّياق ما يرجّح ذلك، ولا يستلزم ذلك الجعل أن تكون كلّ ذرية إبراهيم على حنيفيته السمحاء، بل قصارى الأمر أن يكون من بينهم من يعبد الله إلى يوم القيامة.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ، وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.

لقد امتدّ الزّمان بعد قصّة إبراهيم، واختلاف اللّيل والنهار ينسي، فأين هي وصية إبراهيم التي جعلها في عقبه؟، فهل رجع إليها هذا الجيل المتأخر من ذريته؟، وهم جيل قريش الذي أشار الله إليه "بهؤلاء" إشارة تحقير، لأنّ الأمد قد طال بهم فنسوا ملّة أبيهم إبراهيم، ولذلك أضرب الله على إمكانية رجوعهم إليها، إذ متّعهم الله جيلا بعد جيل وأفاض عليهم من مُتع الحياة

واستدرجهم بالإمهال، و لم يأخذهم كغيرهم بعذاب الاستئصال تهيئة لبعثة الرسول الخاتم من بينهم، فاغترّوا بما متّعهم الله به، وانحرفوا عن وصيّة أبيهم إبراهيم إلى أن جاءهم الحقّ من عند الله وهو القرآن العظيم، وبعث فيهم الرّسول الأمين الذي أوضح لهم بالأدلّة القاطعة طريق الحقّ، وعرفوا أمانته وصدقه كما اعترفوا ببلاغة القرآن وإعجازه بحكم سليقتهم الفطرية، وقد ارتفع شأنهم بذلك بين القبائل الأخرى، ولكنهم رفضوا ذلك الحقّ الذي جاءهم استكبارا وعنادا، وادّعوا لأتباعهم أنّه سحر وأعلنوا الكفر به صراحة وهم في بواطنهم يعلمون أنّه الحقّ، ولكنّهم يجحدونه حفاظا على حظوظهم الدّنيوية وعلى مكانتهم الاجتماعية أمام أتباعهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: وهذه هي إحدى الشّبه التي أثاروها للتمويه على أتباعهم وتعليل موقفهم العدائي من رسول الله، طعنا في جدارته لتلقّي رسالة السّماء، فبعد وصفه بأنّ الذي جاء به سحر، عابوا فيه الفقر واليتم فهو من الطبقة الدّنيا في المجتمع، وتمنّوا أن لو نزل القرآن على عظيم من رجالهم في القريتين، وهما مكّة والطّائف، وقال ابن عباس: إنّهم يعنون بهما الوليد بن المغيرة في مكّة ومسعود بن عروة الثقفي في الطائف، إذ كان كلّ منهما عظيما في نظرهم بالمال والأولاد والجاه، مما يدلّ على أنّ المجتمع المكيّ كان وقتها طبقيا تحكمه قوانين المال والجاه والسلطة، ولذا فهم يعترضون على الله في اختياره لرسوله الذي لم يعتزّ بالمال، و لم يتعاظم على النّاس بزعامة ولا رئاسة، ولكنّه إلى جانب أصالة نسبه وكرم محتده كان يتمتّع بالخُلق الرفيع والنفس العظيمة والقلب الكبير.

وإذ اختلطت القيم المثلى واضطربت الموازين الحقّة عند هؤلاء القوم، فقد ردّ الله تلك الشبهة ردّا قويّا فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ

قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾: استفهام إنكار وتعجيب، وكلمة الرحمة شاملة لكلّ النّعم التي يغدقها الله على خلقه، ويراد بها هنا نعمة النبوءة والرسالة، وهي في معايير الحقّ عند الله تبارك وتعالى لا تقاس بالحظوظ المادية ولا تخضع لميول الناس ورغباتهم ولا لتوجّهاتهم وانتماءاتهم. والله أعلم حيث يجعل رسالاته، وهو يخلق ما يشاء ويختار، وإليه وحده يرجع هذا الأمر، فلا يختار لرسالته إلا من زكت نفسه وطابت سريرته، وطهر معدنه، وسمت روحه ليكون مؤهّلا للاتصال بالملإ الأعلى، فما لهؤلاء يقترحون على الله وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا حتى من هذا الرزق المعيش في حياتهم الأرضية المادية؟، فإن الله يخبرنا بأسلوب العظمة بأنه هو مقسّم تلك الأرزاق بين خلقه بحكمة بالغة، وفق ما يصلح بكلّ واحد منهم، فما قيمة المعيشة المادية الزائلة أمام الرحمة المعنوية الخالدة.

ثم بيّن الله حكمة تفاوت النّاس في الأرزاق، وإنزالها بقدر معيّن كما تقدم في سورة الشورى، بيّن هنا أن ذلك التفاوت ضروري لينتفع الناس بعضهم من بعض بتسخير بعضهم لبعض في مختلف الأعمال، أي بين أصحاب الأموال من جهة وأنواع العمال والمستخدمين من جهة أخرى، وهذا هو القانون الاجتماعي الذي درجت عليه البشرية منذ أقدم العصور، وكلّ المحاولات المتطرّفة التي جرّبها البشر لجعل الناس متساوين في الحظوظ والقدرات، من اشتراكية أو شيوعية، قد باءت كلّها بالفشل الذريع، وتبقى وسطية الإسلام وعدالته وفق سنن الله في خلقه، تبقى هي العلاج المطلوب لمشاكل الحضارة الحديثة وهي تواجه الأزمات الخانقة، بين شيوعية شُيّعت

جنازها منذ فترة وجيزة، ورأسمالية جشعة أخذت بوادر إفلاسها تهدّد الإقتصاد العالمي برمّته، وقديما قال أبو العلاء المعرّي في معنى هذه الآية:

النّاس للنّاس من بدو وحاضرة يعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ولذلك جاء هذا التّذييل المناسب لبيان تفاهة المال والحظوة أزاء رحمة الله الباقية، فقال تعالى: ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي إذا كانوا عاجزين عن تقسيم أقرب ما يملكون، فكيف يقسمون ما هو خير وأبقى مما لا يملكون من رحمة الله؟.

ثم أعقب الله بعد هذا الرّدّ ما يؤكده من بيان حقارة الدنيا ومتاعها، وأن الآخرة هي نعم دار المتقين فقال: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ، وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿لَوْلا﴾ حرف امتناع لوجود، يتضمن الشرط، أي يدلّ على امتناع وقوع الجواب لأجل وقوع الشرط، ويراد بالنّاس كفّار قريش وكلّ من كان على شاكلتهم من الاغترار بالدنيا والافتتان بها، ومعنى أن يكونوا على أمّة واحدة، أي على الكفر بالله والميل إلى الدّنيا بحيث لا يبقى مؤمن. يجعل الله لأولئك الكفار أغلى وأعظم ما يتنافسون عليه من متع الدنيا التي تظهر على بيوتهم من المتع والزينة في أثاثها وهياكلها زخرفا ونقشا وزينة، ولكن من رحمته تعالى أن لم يجعل ذلك رحمة بالأبرار الأتقياء، إذ أنّ الجهلة من النّاس يعتقدون بأنّ الحظوة الدنيوية هي دليل على محبّة الله ورضاه لمن أعطاه إياها، فيجتمعون بذلك على الكفر.

ولبيان حقارة الدنيا عند الله لسرعة زوالها ختم تلك الفرضية بقوله: ﴿وَإِن

كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فهو متاع زائل رخيص القيمة عند الله فقد أخرج الترمذي وابن ماجة عن سهل بن سعد قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء**».[1]

وقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي إنّ ممن نعيم الآخرة هو التقوى بمعناها الشامل، ولا يفهم من الآية حرمان المؤمنين من نعيم الدنيا بالكلية لتحقيق تلك الغاية المنشودة، إذ يمكن للمؤمن التقيّ أن يمتّعه الله بالمال الكثير كما كان عليه بعض الصحابة المبشّرين بالجنة، ولكنّهم كانوا متوازنين في التعامل مع ذلك المال بحيث لا يبلغون به إلى التّرف الذي يضعف دينهم ويحجبهم عن السّموّ الروحي والنفسي، والله تعالى يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده فلا تحرم على نفسه زينة الله والطيبات من الرزق بما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف:٣٢)، والله أعلم.

التنبيه على آفات الدنيا، وتثبيت رسول الله على دعوته.

أ) - النصّ:

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ
الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

١- رواه الترمذي من حديث سهل بن سعد، كتاب (٣٧) الزهد، باب (١٣) ما جاء في هوان الدنيا على الله عز و جل، رقم ٢٣٢٠: ٤/٥٦٠.

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا
مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ
بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ
تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً
يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾: ﴿يَعْشُ﴾: مضارع مجزوم بحذف الواو، وهو من عشا يعشو عشوا، كغزا يغزو غزوا، والوصف منه: الأعشى، وهو الذي ركب بصره ضعف وظلمة، ومؤنثه عشواء، ومنه المثل: يخبط خبط عشواء، ويقال: عشى يعشى، إذا صار أعشى، فياؤه منقلبة عن واو، ومعناه هنا: من ينظر بغير تمكن ولا تدبّر للقرآن، عدّي بـ"عن" للدلالة على الإعراض. ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾: من التقييض، وهو الإتاحة وتهيئة الشيء لملازمة شيء لعمل حتى يتمه. ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾: القرين: الرفيق الذي يلازمك. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾: ضمير: ﴿إِنَّهُمْ﴾ وضمير: ﴿يَصُدُّونَهُمْ﴾ عائدان إلى: ﴿شَيْطَانًا﴾، فهو محمول على المعنى إذ اكتسب العموم تبعا لعموم "من" الشرطية. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾: في قراءة: ﴿جَاءَانَا﴾ بألف المثنى يكون عائدا على من يعش عن ذكر الرحمن وقرينه، وفي قراءة المفرد: ﴿جَاءَنَا﴾ يكون القول من أحدهما مع حضور الآخر. ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾: ظرف اسم ليت. ﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾: أي ما بين المشرق والمغرب بتغليب المشرق على المغرب. ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾: ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ﴾: في موضع رفع، والتقدير: لن ينفعكم اشتراكهم. والمقصود: حرمان

أهل النار ممن يقاسمهم العذاب. ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾: ﴿إِمَّا﴾: كلمتان أصلهما "إن" الشرطية و"ما" الزائدة للتوكيد، أدغمتا، ويكثر اتصال فعل الشرط بعدهما بنون التوكيد زيادة في التأكيد، فيكون الفعل في موضع الجزم بالشرط، والذهاب في: ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ مستعار للوفاة، ونرينّك الذي وعدناهم من العذاب في الدنيا قبل وفاتك أيها الرسول، وكل ذلك راجع إلى مشيئة الله. ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾: أي القرآن الكريم هو شرف لقومه خاصّة وهم قريش؛ لأنه نزل بلغتهم؛ وقيل: هو شرف لكلّ من آمن به، وكان على منهاجه، ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾: سؤال تقرير للمؤمنين عن العمل بما كلّفوا به، وسؤال توبيخ وتقرير للمشركين عن إعراضهم. ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾: والتقدير: سل الحكماء العارفين، على معنى قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]، وقيل: الأمر بالسؤال هنا تمثيل لشهرة الخبر، لأن الرسول لا يشك حتى يسأل. وقوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾: الإستفهام إنكاري أن يحكم الله بعبادة الأوثان، والمراد من الآية هو التأكيد على إجماع الأنبياء كلّهم على أصل التوحيد.

ج- أوجه القراءة:

﴿نُقَيِّضْ﴾: قرأ الجمهور بنون العظمة، وقرأ يعقوب بياء الغائب عائدا ضميره على الرحمن. ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾: قرأ الجمهور بكسر السين، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين، وهما لغتان عربيتان فصيحتان. ﴿إِذَا جَآءَانَا﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر: ﴿جَآءَانَا﴾ بألف ضمير المثنى عائدا على من يعش عن ذكر الرحمن وقرينه، وأفرد ضمير: ﴿قَالَ﴾ لرجوعه إلى من يعش عن ذكر الرحمن خاصّة، وقرأ الجمهور: ﴿جَآءَنَا﴾ بصيغة

المفرد، والضمير المستتر في: ﴿قَالَ﴾ عائد إلى يعش عن ذكر الرحمن. ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿أَنَّكُمْ﴾ بفتح همزة: ﴿أَنَّ﴾ على جعلها فاعلا لـ ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، وقرأ ابن عامر: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف. ﴿وَاسْأَلْ﴾: قرأ ابن كثير والكسائي: ﴿وَسَلْ﴾ بتخفيف الهمزة، وقرأها باقي القراء بتحقيق الهمزة، وهما وجهان فصيحان.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله تفاهة الدنيا وزهادة متاعها بأزاء نعيم الآخرة وبقائها، أعقبه هنا ببيان الحالة الكئيبة لأولئك المفتونين بزينة الدنيا، وهم صمّ عمي عن ذكر الله، فأصبحوا قرناء للشياطين تمعن في إضلالهم وتزيّن لهم أعمالهم في الدّنيا حتى إذا صاروا إلى موقف الحساب تبرّأ بعضهم من بعضهم، وأصبحوا مشتركين في العذاب، ثم سلّى الله رسوله بأنّ دعوته لا تؤثّر في هؤلاء وأنّه تعالى سينتقم منهم إن عاجلا في حياته أو آجلا بعد مماته، ثم حرّضه أن يستمسك بالذي أوحي إليه لأنّه الحق المبين، ولأنّ فيه شرعا له ولقومه يسألهم الله يوم القيامة عن القيام بحقّه.

ولزيادة تثبيته عليه الصلاة والسلام على دعوته بيّن الله له أن محاربة عبادة الأصنام كانت مهمة رسل الله أجمعين فقال جلّ من قائل: **﴿وَمَنْ يَّعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾**.

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾، والعشا في البصر هو النّظر الكليل، سيما إذا خيّمت الظلمة، وهو تمثيل لحال الكفّار المعرضين عن دعوة القرآن، إذ أنّ التّدبّر وحسن التأمّل في آيات القرآن

يذكّر بعظمة الله ويدعو لخشيته، وبما أنّ الكافر قد انطمست بصيرته وانسدّت منافذ الهداية عن قلبه فإنّه يتولّد عن ذلك استمرارهم على الضّلال فينفسح المجال لوسوسة الشياطين، إذ يهيّئ الله لكلّ معرض عن ذكر الله شيطانا يلازمه بوسوسته حتى يتمكّن من نفسه فتنغلق دونه أبواب الهداية، لأنّ المعاصي يتولّد بعضها عن بعض، إذا لم تجد من يحدّ من طغيانها.

وقوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ للدّلالة أنّ لكلّ واحد ممن تحقّق فيه الشرط: ﴿شَيْطَانًا﴾، وهو من الله جزاء وفاقا لكسبه واختياره.

وبما أن: ﴿مَنْ﴾ في سياق الشرط من صيغ العموم فإن كلمة ﴿شَيْطَانًا﴾ اكتسبت العموم تبعا له فجاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، جاء بصيغة العموم ليشمل كلّ المعرضين عن ذكر الله، بأنّ الشياطين يصدّونهم عن سبيل الله القويم، ويعتقدون أنهم مهتدون إلى الحقّ والصواب، وتلك هي غاية الغباوة والضلالة، ونظير هذا المعنى قوله تعالى:

- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٣- ١٠٤).

- ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ (سبأ:٨).

وإذا قدّر الله لعبد دوام ذلك الصّدّ عن ذكر الله، واستمرار الغفلة والإعراض حتى داهمت القرينين مصيبة الموت ورجعا إلى الله ليوم الحساب فكيف يكون موقف أحدهما من الآخر.

يقول تعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾، "حتّ" ابتدائية تفيد الغاية، وضمير التثنية في: ﴿جَآءَنَا﴾ راجع إلى الشيطان مع قرينه الكافر. ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ

﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾: عاد الضمير إلى المفرد، أي قال أحد القرينين -وهو يتمنى بعد المسافة بينه وبين قرينه- كتباعد المشرق والمغرب. ويقال: المشرقان، على قاعدة التغليب والإيجاز.

ثم فرّع على تلك الأمنية الذّمّ لقرين السوء: ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾، هو من كلام الكافر المتندّم، وليس من كلام الله كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين، وإذ كان الظالمون يتحاجّون ويتخاصمون في موقف الحساب، وأنّ المصيبة إذا عمّت هانت، -كما يقول المثل-، فإنّه تعالى يوبّخهم بعد أن أيأسهم من إلقاء التّبعة على بعضهم بعض، بأنّ اشتراكهم في العذاب يوم القيامة لا يجديهم نفعا، لأنّ أحوال الآخرة ليست كأحوال الدّنيا في تخفيف المعاناة بين الناس بمشاركة بعضهم لبعض؛ لأنّ لكلّ امرئ منهم يومئذ شأنا يغنيه، والأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ، وفي معنى المؤاساة الدنيوية تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزّي النّفس عنه بالتأسي

ثم يعود الخطاب إلى رسول الله للتثبيت والتسلية ولبيان حدود وظيفته، فقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. نظرا لشدّة حرص رسول الله على هدى قومه، وهو يظنّ أنّه قادر على إيصال التأثر إلى قلوبهم بمعاودة دعوتهم، فإنّه تعالى أراد تخفيف ما يلاقيه من الكفّار مفرّعا على ما تقدّم صيغة الاستفهام الإنكاري، وبصيغة الخطاب لرسوله، ومن خلاله لكلّ داع إلى الله يواجه مثل ذلك، فوصف حال المشركين أوّلا بعشا النّظر، ثم أتبعه بصفتي الصّمّ والعمي على سبيل الإستعارة لتوغّلهم الشديد في الضّلال. ثمّ عطف على ذلك قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ

مُّبِينٍ﴾ لتعميم الحكم على كلّ الأحوال، فلا يقتصر على المسموع والمبصر بحيث تصبح صفة الضلال ملكة فيهم لا ينفكون عنها، فيتحقق فيهم من وصفهم الله بقوله في شأن تأثير القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ (الأنعام:٨٢).

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾: جاء هذا التفريع مناسبا لما تقدمه من قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾، إمعانا في تسلية رسول الله بتيئيسه من اهتداء قومه. وأمّا وعد الله بانتقامه منهم فهو واقع -لا محالة- إن عاجلا في حياة الرّسول، كما حدث لبعض صناديد قريش في غزوة بدر، وإمّا آجلا عندما تقتضي ذلك مشيئة الله بعد أن يلتحق رسوله بالرفيق الأعلى، فليس له دخل في هذا الأمر، لأنّ مهمّته تنحصر في التبليغ.

ويلاحظ أنّ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، جاء بصيغة اسم الفاعل الدّال على الاستقبال، كما يشتمل التعبيران على عدّة مؤكّدات، وقد تكرّر هذا المعنى في القرآن الكريم دفعا لكلّ وهن أو ضعف يصيب المسلمين باستبطائهم لوعيد الله بالانتقام من خصومهم، أو يتطرّق الشّكّ بما هم عليه من الحقّ من جرّاء إعراض القوم عن الاستجابة لدعوتهم، وكان الإنسان عجولا.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: بعد توهين الله من شأن المشركين وشدّة إعراضهم، فرّع الله على ذلك أمره لرسوله بالاستمساك بما أوحي إليه من هذا القرآن. والاستمساك هو شدّة المسك للشيء مع الدّوام على ذلك؛ لأنّ شدّة الإعراض والنّفور عن أيّة دعوة قد تدعو إلى الشّكّ في حقّية تلك الدعوة في كثير من النّفوس الضعيفة سواء

كانت داعية أو مدعوّة، وحاشا لرسل الله أن يكونوا كذلك، وإنّما تكون مثل هذه الأوامر من قبيل التّدعيم والتثبيت لهم في تلك المواقف الحرجة، وقوله تعالى بصيغة التوكيد: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تأييد وشهادة للرسول من الله على حقّية دعوته، وأنّها سالكة على صراط الله المستقيم، عقيدة وعملا وسلوكا، فليس يضيره إعراض أكثر الناس وقلّة الأتباع المؤمنين فتلك هي طبيعة الدعوات الصالحة: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣).

وبعد هذا التنويه بشأن رسول الله أعقبه التنويه بشأن القرآن العظيم فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

الذكر يحتمل معنيين: التذكير للعقل بما يكون قد نسيه بمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧)، ويأتي الذكر بمعنى الشّرف والقدر وعلوّ المنزلة، أي إنّ هذا القرآن الذي نزل بلغة قومك هو شرف وقدر لك ولقومك، إذ لم يكن للعرب من قبله حضارة ولا مقام بين الأمم السابقة ولا جاءهم رسول منهم يعلّمهم ويزكّيهم، فكان اختيار لغتهم محضنا لكتاب الله العزيز قد انتشلهم من وهدة النسيان وأعلى قدرهم بين الأمم يذكرون به؛ لأنّ قومه هم قريش -لا محالة-، وقد قال سيّدنا عمر ﷺ: "نحن قوم كان عزّنا بالإسلام فإذا ابتغينا بغير الإسلام عزّا أذلنا الله". وعلى هذا المعنى أكثر المفسّرين.

وقوله تعالى في التعقيب: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾، طوى الله المسؤول عنه، لأنّه أمر عظيم في موقف يوم القيامة، كيف قابلتم تلك النعمة التي حباكم بها هل أدّيتم حقّها من الشكر؟، وهل بلّغتم أمانتها للخلق أجمعين؟ أم خنتم عهدها وخفرتم ذمّتها.

﴿وَاسْأَلْ مَنَ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾: بما أنّ المشركين يدّعون بأنّ ما جاء به الرسول مخالف لما جاء به من قبله: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَآئِنَا الأَوَّلِينَ﴾(المؤمنون:٢٤)، فأمره الله هنا على سبيل الكناية والتمثيل أن يسأل من بعث الله قبله من الرسل، هل دعا أحدهم إلى اتّخاذ الشّركاء من دون الله، وما كان للرسول أن يسأل، ولكنّه تقرير لوحدة الدّين في أصوله العقدية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء:٢٥)، فمحمّد بن عبد الله ليس بدعا من الرسل فيما دعا إليه، فهو لا يشكّ في دعوته، وإنّما جاء هذا الأمر الإلهي للتأكيد والتقرير، والله أعلم.

تنظير حال الرسول مع قومه بحال موسى مع فرعون.

أ)- النصّ:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِئَايَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾: الآيات هي المعجزات التي أتى الله بها موسى عليه السلام. ﴿فَلَمَّا﴾: تقتضي الشرط، جوابه اقترن بـ"إذا" الفجائية، ويضحكون منها: بمعنى السخرية والهزء. ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ اخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: ﴿نُرِيهِم﴾: من الإراءة، ينصب مفعولين، وصيغة المضارع لاستحضار الحالة، والآيات هي التسع المذكورة في سورة الإسراء، كلّ واحدة تكون أعظم من التي قبلها، و﴿لَعَلَّ﴾: بمعنى: كي يرجعون، كي يخضعوا ويذعنوا. ﴿وَقَالُوا يَآ أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾: ﴿السَّاحِرُ﴾: وصف للتعظيم لا للسخرية، ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: أي بعهده عندك من النبوءة؛ لأن دعاءك مستجاب. ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾: أي إن كشفنا العذاب فإنّنا نؤمن بك. ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾: أي ينقضون عهدهم بالرجوع إلى الكفر. ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ﴾: يفتخر بين قومه بملكه العريض في مصر. و﴿الأَنْهَارُ﴾: هي فروع نهر النيل، ﴿مِن تَحْتِيَ﴾: أي هي داخلة في قصره تروي بساتينه. ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الذِي هُوَ مَهِينٌ﴾: ﴿أَم﴾: إمّا منقطعة فتكون بمعنى: بل أنا خير من موسى الذي هو حقير، وإمّا متصلة بمعنى: أم أنتم تبصرون بأنني خير منه. ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾: ﴿لَوْلا﴾: بمعنى: هلاّ. والأساورة جمع سوار، كان من عادة ملوكهم أنهم يتحلّون بتلك الأسورة. ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾: أي تخدمه أو تشهد بصدقه. ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾: ﴿اسْتَخَفَّ﴾: بمعنى استبله عقولهم فأجابوه إلى الضلال والكفر. ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: بمعنى أغضبونا غضبا شديدا، ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: بالإغراق في اليمّ. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾: والسّلف: ما تقدم عمن

بعده، وهو هنا بمعنى القدوة لمن بعدهم من الكفار. ومثلا في الموعظة والاعتبار.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَآ أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾: قرأ الجمهور بدون ألف بعد الهاء في الوصل، وفي الوقف، أي بفتحة دون ألف، وقرأه أبو عمرو والكسائي ويعقوب بإثبات الألف في الوقف، وقرأه ابن عامر بضمّ الهاء في الوصل خاصّة. ﴿أَسَاوِرَةٌ﴾: قرأ الجمهور بجمع الجمع: ﴿أَسَاوِرَةٌ﴾، جمع: أسورة، وقرأ حفص عن عاصم ويعقوب: ﴿أَسْوَرَةٌ﴾. ﴿سَلَفًا﴾: قرأ الجمهور بفتح السين واللام جمع: سالف، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿سُلُفًا﴾ بضمّ السين واللام، وهو جمع: سليف، اسم للفريق الذي مضى وسلف.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن توعّد الله قريشا أن يصيبهم مثل ما أصاب قبلهم من المكذّبين برسلهم ممن كانوا أشدّ منهم بطشا، وبعد أن ذكّرهم بموقف إبراهيم مع أبيه وقومه وما تفرّع على ذلك من بيان أحوال أهل الشرك، وسلّى رسوله بإنجاز وعده له بالنّصر على أعدائه إن عاجلا أو آجلا، أتبع الله ذلك بتنظير حاله مع قومه في استهزائهم به بحال موسى مع فرعون وملائه، وكيف كانت عواقب المستهزئين الطغاة فقال جلّ من قائل: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَمَّا جَآءَهُم بِئَايَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾**.

إنّها لقطة حيّة معبّرة من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، جاءت مناسبة لجوّ المجابهة التي يتعرّض الرسول فيها مع قومه، حتى لكأن التماثل في

المواقف لم يتبدل فيه إلاّ الأشخاص، وفي ذلك من التسلية والمؤاساة للرسول وأصحابه ما يزيدهم يقينا واطمئنانا بحقّية دعوتهم، واستبشارا وترقّبا لنصر الله.

فلم يكن موسى إلاّ ذلك الرّاعي الفقير والغريب الطّريد الضارب مع أهله في صحراء سيناء، وقد أضرّ بهم البرد فذهب ليأتي لأهله بجذوة نار شامها في جانب الطور الأيمن، فيالها من لحظات روحانية غامرة حين سمع النداء العلوي: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّيَ أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ (القصص:٣٠-٣١). فقد لمست الرّوح الطاهرة موقع الوحي والرسالة الربانية، وتمّ التوقيع على مرسوم التعيين لموسى من ربّ العالمين، وزوّده بالأدلّة الثبوتية على صدقه ليستظهر بها أمام فرعون وملئه.

﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾: إنّها آية العصا واليد، كعيّنة أولى لتوالي آيات ومعجزات أخرى، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾: من قومه الأقباط وبني إسرائيل الذين كان يستعبدهم ويقهرهم باستحياء نسائهم وذبح أبنائهم، كان فخورا بملكه معتزا بأنهاره وجنانه متعاظما بحليّه وذهبه بأكثر مما فخرت به قريش، موغلا في سخريته واستهانته بموسى بأشدّ مما فعلت قريش برسول الله، وعندما واجه موسى فرعون لم يزد في دعوته على قوله له: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

يا لها من مقدّمة معبّرة، فيها نفي وإبطال لإدّعاء فرعون ربوبيته على قومه. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِئَايَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾، وفي التعبير طيّ لبعض الأحداث من ذكر استظهار موسى لمعجزتي العصا واليد أمام فرعون وملئه ولكنهم دونما أي تدبّر في ما شاهدوه، فأجابوا موسى بالضّحك والاستهزاء واعتبروا ما أتى به نوعا من السّحر، فكان ما كان من المباراة السحرية بين موسى وسحرة فرعون، وكيف كان مآلهم الفظيع على يده إثر إيمانهم بربّ

هارون وموسى.

ثم تعاقبت السنون بعد ذلك الحدث، والله تعالى يؤيّد رسوله بمعجزات أخرى تجري على فرعون وقومه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ -ايَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ اخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إنها المعجزات التسع التي أجملها الله في سورة الإسراء بقوله: ﴿وَلَقَدْ -اتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَـيِّـنَاتٍ﴾(١٠١). فصّلها الله في سورة الأعراف، وكون تلك الآيات أخوات، أي أنها متماثلة في الدّلالة على صدق الرسول موسى، وفي سورة الأعراف بيان أنها كانت عليهم بعد نوع من العنت والرجز يلتجؤن عندها في كلّ مرّة إلى موسى ليدعو الله بكشفها عنهم، وهم يعدونه بالإيمان به بعد ذلك، وهنا يقول الله: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا يَآ أَيُّـهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾:

وصفهم هنا لموسى بصفة: ﴿السَّاحِرُ﴾ ليس للسخرية بل هو للتعظيم، إذ هم في موقف ضعف واستغاثة، فالسّحر عندهم يعني كمال العلم والقدرة، وإضافة الرّبّ إلى موسى هو جري على معتقدهم بتعدّد الأرباب لكلّ أمّة، وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، أي بما خصّك به من القدرة على الإتيان بخوارق العادات: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾، هو وعد بأن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل إن كشف الله عنهم العذاب، ولكنّهم كانوا ينكثون عهدهم في كلّ مرة، ومع تكرار الآيات وكشف العذاب خشي فرعون من استمالة موسى أتباعه إلى دعوته بما عاينوه من تلك المعجزات، فنادى فيهم مفتخرا معتزا بملكه وسلطته

مستهينا بموسى لعيّه وفقره متحدّيا إياه أن يتزيّن بزينة الملك مثله أو أن يأتي بالملائكة يساعدونه ويخدمونه.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ أَفَلَا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ، فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾:

وهذا التفاخر بعزة الملك والتّباهي بأنهار مصر وخيراتها بما كان يغدق عليها نهر النيل وفروعه، يقابله تعاظم قريش على رسول الله وأصحابه بمالها وعظمائها من القريتين، وهم لا يفرقون بين الحظوظ المادية الصّرفة التي قد يقسمها الله على من كفر به -كما تقدم-، وبين الحظوظ الروحية التي لا تخضع للمعايير الدنيوية ولا يحبوها الله إلاّ الأوفياء الأطهار من عباده.

ولا يقتصر فرعون على التعاظم بما هو له من خصوصية الملك وزينته، بل يتعداه إلى التنقيص من خصمه والتعييب عليه أمام أتباعه مما يدلّ على الخسّة والوضاعة في الخصومة: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، وهل حقّت اللّعنة الأبدية على الشيطان إلا بادّعاء خيريته على آدم عندما قال لربّ العالمين: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص:٧٦). ومتى كان الفقر واليتم مهانة؟، وهل الكمال الإنساني إلاّ قرين الفقراء واليتامى -غالبا-. والأخسّ من ذلك أن يصف فرعون موسى باللكنة والعيّ، تلك الآفة التي عافاه الله منها مستجيبا دعاءه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِّسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (طه:٢٧-٢٨). فقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (طه: ٣٦). وطلب مجيء الملائكة مع الرّسول هو شيء مكرّر ممجوج على لسان الظلمة الطغاة.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾: تفرّع هذا الاستخاف بعقول القوم على ذلك النداء، ويبدو أنّ القوم كانوا في بؤرة من التأمّل الواعي والتأثر بما شاهدوه من الآيات على يدي موسى.

غير أن فرعون عاجلهم بذلك النّداء التّقريري بجذب انتباههم إليه مرّة أخرى ودفعهم إلى الخضوع والاتباع، وفي نفوسهم ركون إلى الاغترار والانخداع.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ، فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾: وهنا مربط الفرس في موضوع القصّة التي ركزت على عنصري المفاخرة والتعاظم على الخصم لبيان سوء العواقب التي تنجرّ على ذلك، فبعد التدرّج والإمهال يأتي العذاب والانتقام قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

ولما كان الأسف بمعنى الغضب الشديد المشوب بعزّة، وهو فعل انفعالي يستحيل على الله، كان التعبير على سبيل الاستعارة لمعاملة السّيد لعبده الذي آسفه بعصيانه وتمرّده، فكان من الله ذلك الانتقام الأليم بإغراق فرعون وجنوده في اليمّ، بعد أن نجّى الله موسى وقومه على الطريق اليبس فيه، وهكذا شاءت قدرة الله أن يهلك فرعون بالماء الذي كان يتعاظم بأنّه يجري من تحته في قصوره.

وأخيرا ختم الله القصة بهذا التفريع: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾، أي جعلهم الله قدوة لمن يأتي بعدهم، فيلقون ما لقي هؤلاء الطغاة، ويبقى ذلك مثلا يتناقله الناس عبر الأجيال، كما قال الله لفرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ (يونس:٩٢)، والله أعلم.

الرّدّ على شبهة الكفّار في عبادة عيسى عليه السلام.

أ)- النصّ:

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾: ﴿ضُرِبَ﴾: مبني للمجهول؛ لأنّ الذي ضربه هو عبد الله بن الزبعرى. ﴿مَرْيَمَ﴾: ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. ﴿مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾: عديّ بـ"من" عوضا عن "عن"؛ لأن المعنى: يصدّون من أجل ذلك القول. ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾: الضمير في: ﴿ضَرَبُوهُ﴾، عائد إلى المثل المضروب، في محل نصب، والإستثناء ﴿إِلاَّ جَدَلاً﴾ مفرّغ للمفعول لأجله أو للحال. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾: ﴿بَلْ هُمْ﴾: للإضراب الانتقالي. خصِم: بكسر الصاد، هو شديد التمسك بالخصومة. ﴿وَلَوْ

نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَآئِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾: أي بدلا منكم، أي لهلككم جميعا ولخلفكم بالملائكة، أي أن ذلك أعجب من خلق عيسى بدون أب. ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: الضمير في: ﴿إِنَّهُ﴾ اختلف العلماء في معاده، فقال فريق: إنّه عائد للقرآن في معرض التنويه بشأنه كما استمرّ ذلك من أوّل السورة، ويقول آخرون: إنّه لعيسى عليه السلام، بمعنى أنّ نزوله يكون علامة على قيام الساعة، كما ثبت ذلك بالأحاديث الكثيرة، ويرى بعض المحققين ومنهم الإمام ابن عاشور أنّه يجوز أن يكون ضمير الشأن، أي الأمر المهمّ هو علم الناس بوقوع الساعة. ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾: ﴿الأَحْزَابُ﴾: أي اليهود والنصارى من بين قومه، أي اختلفوا في معتقدهم أهو الله -حاشاه- أم هو ابنه، أم هو ثالث ثلاثة: الأب وابنه وروح القدس؟.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَصُدُّونَ﴾: قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبوبكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف بضمّ الصاد، من الصدود، أو هو لغة في مضارع صدّ بمعنى ضجّ، مثل لغة كسر الصاد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب، قرأوا بكسر الصاد، بمعنى ضجّ وصخب. ﴿ءَالِهَتُنَا﴾: قرأ الجمهور بتسهيل الهمزة الثانية، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي بتخفيفها. ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾: قرأ الجمهور بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف، وقرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف، وقرأ كذلك أبو عمرو وأبو جعفر في الوصل فقط.

د)- البيان والتّفسير:

عطف الله على قصّة موسى وتنظير حاله مع فرعون وملئه بحال رسول الله مع خصومه من قريش، عطف قصّة جدلهم له في عيسى عليه السلام، والرّدّ عليها

وبيان أنّ عيسى عبد من عباد الله أنعم الله عليه، كما أنّ الملائكة الذين عبدتهم بعض القبائل العربية هم عباد مكرّمون، ولو شاء الله لجعلهم يسكنون الأرض بدلا من الناس فيها. ثم نوّه بشأن القرآن الذي يعلم الناس بقيام الساعة ويدعوهم إلى الإيمان بها وإلى اتباع صراط الله المستقيم فقال: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ، وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ اَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾.

ينقل الإمام ابن عاشور سبب نزول لهذه الآية فيقول: "والذي جرى عليه أكثر المفسّرين أنّ سبب نزولها الإشارة إلى ما تقدّم في سورة الأنبياء عند قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء:٩٨). إذ قال عبد الله بن الزبعري قبل إسلامه للنبي ﷺ: "أخاصّة لنا ولآلهتنا أم بجميع الأمم"؟ فقال النبي: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم»، فقال: خصمته وربّ الكعبة، ألست تزعم أنّ عيسى بن مريم نبي وقد عبدته النصارى، فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه، ففرح بكلامه من حضر من المشركين، وضجّ أهل مكة بذلك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٠١). من سورة الأنبياء، ونزلت هذه الآية تشير إلى لجاجتهم.

وبعض المفسّرين يزيد في كلام ابن الزبعري قوله: وقد عبدت بنو مليح الملائكة، فإن كان عيسى والملائكة في النار فقد رضينا.[1]

﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ**﴾: عطف الله قصّة تحكي حالا من أحوال عيسى عليه السلام جادل فيها الكفّار رسول الله، وهي

١- التحرير والتنوير: ٢٣٧/٢٥.

تندرج في أنواع شبهاتهم الكفرية المذكورة في هذه السورة، وصدّرت الجملة بـ﴿لَمَّا﴾، المتضمّنة للشرط والمفيدة لزمانه، وهو معلوم لدى المخاطبين، وذلك عندما اعترض مشركو مكّة فكرة كون آلهتهم الباطلة في النّار عندما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨)، فالذي جعل عيسى مثلا مضروبا هو عبد الله بن الزبعري إذ عبد النصارى المسيح كما عبد اليهود عزيزا، فجعل ابن الزبعري ذلك مثلا في مجادلته لرسول الله إذ قال له: إذا كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه، فإذا بالقوم يضحّون ويصخبون فرحا وقالوا مجادلين بالباطل: ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؟.

وفي التعبير بقوله في جواب الشرط: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾، تعجيب من أمر كفّار قريش كيف يفرحون بالمثل المضروب لعيسى، وهم ليسوا من قومه ولا من أتباع دينه؟. مما يبيّن أنهم لا يريدون معرفة الحق، وإنما هم قوم مولعون بالمماحكة والجدال، ولأنهم يدركون من لغتهم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ يراد بـ"ما" غير العقلاء أي الأصنام والأوثان لا غيرها من المعبودات العاقلة.

ثم ردّ الله عليهم ببيان حقيقة عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله المنعم عليهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾، اختار الله لعيسى صفة العبد دون صفة أخرى من الرسالة والنبوءة لينفي بذلك مزاعم من رفعوه إلى مستوى الإله أو جزء منه -حاشاه- كما يعتقده النصارى، فما هو إلاّ عبد خاضع لقدرة الله ومشيئته، وإن أجرى الله على يديه معجزات خارقة، كما أوجده من غير أب ليجعل منه آية لبني إسرائيل وحجّة واضحة على قدرة الله، فكان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص

وغير ذلك من المعجزات الخوارق و لم يدّع عيسى أنّ ما جرى على يديه من المعجزات كان بحيلته وقدرته. وإنما يقرّ في بيان كلّ واحدة منها أنها بإذن الله ومشيئته.

ثم ذكر الله من مظاهر قدرته وجود الملائكة فقال: ﴿**وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ**﴾، وفي هذا ردّ لاعتقاد بعض القبائل العربية أنّ الملائكة بنات الله كما تقدم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾(١٥)، فعبدها هؤلاء لاعتقادهم أنهم من سكان العوالم العليا، فجاء الرّدّ الإلهي في هذه الآية بأنه لو شاء تعالى لجعلهم من سكان الأرض يخلفون النّاس؛ لأن قوله: ﴿مِنكُم﴾ هي لمعنى البدلية، فتلك مشيئة الله يفعل ما يشاء إذ لو شاء لعكس، فليس تشريف الملائكة بسكنى العوالم العلوية لكونهم بنات الله -حاشاه-.

ثم يعود السياق إلى شأن عيسى عليه السلام فيقول تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا**﴾، اختلف المفسّرون في تحديد معاد الضمير: ﴿وَإِنَّهُ﴾ اختلفوا إلى أقوال ثلاثة:

أ)- يرجع للقرآن، وقد جرى عنه الحديث مفصّلا في غضون السورة كثيرا، وقد يضمر لأنه معلوم كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ (القدر:١). وقد أخبر القرآن بأحوال الساعة وباقترابها، فهو أقوى دليل من الله على أنّ السّاعة حقّ.

ب)- إن الضمير في: ﴿إِنَّهُ﴾ يرجع إلى الرسول، إذ أن بعثته من أمارات الساعة، كما أخبر في الحديث بذلك، إذ قال: «**بعثت والساعة كهاتين وأشار**

بإصبعيه السبّابة والوسطى».[1]

جـ)- وقال أغلب المحققين: إنّ المراد بالضمير: ﴿إِنَّهُ﴾ هو عيسى بن مريم نفسه الذي اكتنف الحديث عنه هذه الآية من قبل ومن بعد، ويبدو أن هذا الوجه هو الراجح تبعا للسياق -والله أعلم- والمراد بالعلم للساعة أي لاقترابها ووقوعها لا شخصه بالذات، ولكن حال من حالاته التي تدلّ على قدرة الله، وفي تحديد تلك الحالة ترد أوجه أخرى اختلف فيها المفسّرون -أيضا-، وسبب الاختلاف هو تحديد الشأن المتّصل بعيسى مما يكون أدلّ على قدرة الله في إعادة الخلق ليوم البعث والنشور. ومن غرائب شأنه أحوال ثلاثة:

أ)- ولادته من غير أب، أي على غير مألوف الزوجية.

ب)- إحياؤه للموتى وأخذه كتلة من طين يشكّلها على هيئة طير، فينفخ فيه فيكون طائرا حقيقيا...إلخ.

ج)- نزوله في آخر الزمان لتطبيق الشريعة الإسلامية وكسر الصليب وقتل الخنزير كما ثبت ذلك في أحاديث كثيرة عن رسول الله.

فأيّ هذه الاحتمالات أرجح لمعنى الآية، لقد اشتهر الاحتمال الثالث، أي نزوله من السماء عند أغلب المفسّرين قديما وحديثا، لما صحّ من الأحاديث، منها ما رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله**

١- رواه البخاري من حديث سهل بن سعد، كتاب (٧١) الطلاق، باب (٢٣) اللعان، رقم ٤٩٩٥: ٢٠٣١/٥.

أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»[1]. كما رويت أحاديث في مكان نزوله وفي وقته ومدة مكثه بعد نزوله وكلها أحاديث أحادية لا توجب القطع بصحتها.

وبما أن الآية: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، جاءت في سياق بيان قدرة الله على البعض الذي ينكره المشركين، فإن كثيرا من المحققين يرون أنّ الحجّة القوية على ذلك لا تكون في ما هو غيبي متوقع بقدر ما يجب أن تكون محسوسة مشاهدة يطمئن لها الخصم العنود، سيما وقد فرّع الله على ذلك الخبر عن عيسى قوله: ﴿فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾، أي فلا تشكّوا -إذن-. فلا أدلّ على قدرة الله في شؤون عيسى إلاّ إحياؤه الموتى، فالنّاس يؤمنون بأنّ عيسى يفعل ذلك بقدرة الله، والله تعالى أعلم بمراده.

وقوله بعد ذلك: **﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ، وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾**، يحتمل في هذا التعقيب أن يكون من كلام الله تعالى أو من كلام الرسول، والإشارة في قوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، إمّا للقرآن أو للدين الإسلامي عامّة، ومن جملة ما يدعو إليه القرآن والإسلام الإيمان بالساعة وما يكون بعدها من البعث للحساب والجزاء، ويحذر الله من إغراءات الشيطان، كما يؤكد على عداوته لبني آدم ليجرّهم إلى حزبه.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾:

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٣٩) البيوع، باب (١٠٢) قتل الخنزير، رقم ٢١٠٩: ٢/٧٧٤.

كان اليهود قبل مجيء عيسى عليه السلام قد طال عليهم الأمد بعد موسى عليه السلام فخانوا نصوص العهد القديم من التوراة وبدّلوا وحرّفوا وفق أهوائهم، ودالت دولتهم، وسلّط الله عليهم الرّومان فأوسعوهم بغيا وظلما، وكانوا ينتظرون منفذا يخلّصهم مما هم فيه كما أنقذهم موسى من جبروت فرعون، ولما جاءهم عيسى بالعهد الجديد من الإنجيل مصحوبا بالمعجزات الباهرات الشاهدة له بالصدق، وقال لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، والحكمة تتمثّل في ما يتضمّنه الإنجيل من الحكم والمواعظ، تهذّب سلوكهم وتنظّم شؤونهم وتردّهم إلى حظيرة الإيمان والتقوى بعد توغّلهم في التّرف والشهوات، وليبيّن لهم وجه الحقّ والصّواب في ما كانوا يختلفون فيه من مختلف القضايا التي شرذمتهم فرقا تتناحر على الحظوة والسلطة، فدعاهم عيسى إلى التّقوى واتّباع ما أوحى الله به إليه معلنا بينهم كلمة التوحيد لإخلاص العبادة لله وحده، وقد ردّ بذلك مزاعم الذين اتهموه فبيّن لهم أن لا فرق بينه وبينهم في العبودية لله تعالى، فهل أذعنوا لتلك التوجيهات؟.

﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾: لقد اختلف القوم في حياة عيسى وبعد مماته، فاليهود كادوا له وحاولوا قتله كفرا به وعنادا وقليل من آمن به من الحواريين والكثير من النصارى من غلا في حقه فجعله إلها أو جزءا من الإله، ولا يزال وضعهم على هذه الحالة حتى اليوم، وقد تنبأ رسول الله بذلك حين قال: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة،**

وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة».[1]

ثم إنّه تعالى تهدّدهم بالويل والثبور بظلمهم واختلافهم على أنبيائهم ورسلهم، سواء منهم اليهود أو النصارى أو من سار على شاكلتهم في الإختلاف والتفرق.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَاتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ الضمير يعود إلى كفار مكة، وإلى من هم على شاكلتهم إلى يوم القيامة، ممن قامت عليهم حجة كتاب الله وهدي رسوله، فقصّروا في استجابتهم لداعي الله، فماذا ينتظر هؤلاء غير مباغتهم بقيام الساعة وأهوالها يوم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، والله أعلم.

بيان أحوال القيامة من نعيم المتّقين وعذاب المجرمين.

أ)- النصّ:

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا

١- رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، كتاب (٤١) السنة، باب (١) شرح السنة، رقم ٤٥٩٨: ٤/٣٢٣.

ظَٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

ب) - التّحقيق اللّغوي:

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾: ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾: جمع الخليل، وهو الصّديق الذي تخلّلت مودته قلب صديقه. ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: جملة في محل رفع خبر، ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾: استثناء متصل منصوب بالياء. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في موضع نصب على النعت لـ﴿عبادي﴾، ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: عطف على الذين آمنوا. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾: أي يقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، ﴿أَنْتُمْ﴾: توكيد للضمير. ﴿تُحْبَرُونَ﴾: في موضع نصب حال، وهو مضارع: حُبِّر، بمعنى تسرّون وتكرمون. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾: ﴿صِحَافٍ﴾: جمع صحفة، وهي إناء مستدير واسع الفم لوضع الطعام أو الفاكهة، وغالبا ما يكفي لخمسة أشخاص، والأكواب جمع كوب، وهو إناء للشراب، والتقدير: وأكواب من ذهب. ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾: ﴿فِيهَا﴾: في الجنة. ﴿تَلَذُّ﴾: مضارع "لذّ"، إذا أحسّ بلذة، ولذة الأعين تتحقق برؤية الأشكال الحسنة وشهوة الأنفس يكون في ما يطعم أو ما يسمع. ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾: ﴿تِلْكَ﴾: اسم الإشارة مبتدأ ﴿الْجَنَّةُ﴾: خبرها، ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾: صفة للجنة وشبّه جزاء العمل بالميراث فقال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾: العذاب، أي لا يخفف، والجملة في موضع نصب حال، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: من الإبلاس، وهو اليأس والذل، والجملة معطوفة

على جملة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾. ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾: ﴿مَالِكُ﴾: منادى، اسم الملك الموكل بجهنم. ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾: اللام بمعنى الدعاء، والقضاء بمعنى الإماتة. ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾: ﴿أَم﴾: منقطعة للإضراب الإنتقالي. والضمير في: ﴿أَبْرَمُوا﴾ عائد إلى المشركين، الإبرام مستعار لإحكام تدبير أمر. ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾: وعيد من الله على إهلاكهم ورد مكائدهم. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾: السرّ والعلن، وبين السرّ والنجوى طباق. ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾: ﴿بَلَى﴾: جواب للنفي في قوله: ﴿لَا نَسْمَعُ﴾. ﴿وَرُسُلُنَا﴾: أي الملائكة الحفظة يسجلون جميع أعمالهم ليحاسبوا عليها يوم الجزاء.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَا عِبَادِي﴾: قرأ الجمهور بإثبات الياء على الأصل، وقرأه حفص والكسائي بحذف ياء المتكلم تخفيفا، وقرأها شعبة بفتح ياء المتكلم وصلا، وبإسكانها وقفا. ﴿لَا خَوْفٌ﴾: قرأ الجمهور بضمّ الفاء مع التنوين، وقرأه يعقوب بفتح الفاء. ﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾: قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر بهاء ضمير عائد إلى "ما" الموصولة، وقرأه الباقون بحذف هاء الضمير.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر ما خصّ الله به عيسى من المعجزات وأنّه علم لقيام الساعة، وكيف اختلف الأحزاب من قبله ومن بعده، وهدّد الله بمجيء القيامة بغتة وأعقبه هنا بذكر بعض أحوال القيامة وما يكون فيها من ألوان النعيم للمتقين في الجنة، وما يتعرّض له المجرمون من عذاب جهنم، وتأييسهم من النجاة وإحباط مكائدهم لمحاربة الحق، وأنّه تعالى عليم بكلّ ما يسرّون وما يعلنون

فمجازيهم على ما يفعلون، قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾.

إنّ قيام الساعة بغتة في غفلة من النّاس عنها حدث عظيم يقلب الأوضاع ويتبدّل كلّ ما كان يألفه الناس في الحياة الدنيا، فما كان من توادّ وتعاون وتناصر بين الظالمين في محاربة الحقّ ومناوءة أصحابه ينقلب يومئذ عداوة وتناحرا وتلاعنا، لأنّها صداقة تقوم على المصالح الدنيوية العاجلة، وهي تنطوي على عناصر زوالها وفنائها، كما قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾(العنكبوت:٢٥). ولأنه ما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل. وقد جاء الحكم عاما لجميع الأخلاء، لأن "أل" للجنس، حكم الله بالعداوة بينهم يوم تنقطع أسباب الدنيا.

ثم استثنى الله فريق المتّقين، وهم الذين تآخوا في الله وتعاونوا على الخير، وجمعوا بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح كما يصفهم السياق في قوله: ﴿يَا عِبَادِي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ، الذِينَ ءَامَنُوا بِئَايَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

﴿يَا عِبَادِي﴾: إنّه النّداء العلويّ الكريم يفيض تكريما وتشريفا، ليبعث فيهم الأمن والأنس وهم يشاهدون ما يعامل به أهل الفساد والضلال، ويسمعون لغطهم في التلاحي والخصام، ومما يروى عن رسول الله في هذا الموقف العصيب: أنّه إذا كان يوم القيامة، فإنّ الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادي منادٍ: ﴿يَا عِبَادِي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فيرجوها الناس كلهم، فيتبعها: ﴿الذِينَ ءَامَنُوا بِئَايَاتِنَا وَكَانُوا

مُسْلِمِينَ﴾، فييأس الناس منها غير المؤمنين، ثم يبشر هؤلاء: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾، أي يقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾، أي يدخلون الجنة بمصاحبة أزواجهم اللائي جمعت بينهم الخلّة الإيمانية في الدنيا صلاحا وتقوى. ﴿تُحْبَرُونَ﴾: بمعنى تظهر على وجوههم نضرة النعيم، وهنا: السعادة وهم محاطون بألوان من نعيم الجنة.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: وقد حفل القرآن بوصف نعيم الجنة بالأسلوب الذي نستعمله في زينة الدنيا ومتاعها، من أنواع أطايب الأطعمة والأشربة والألبسة، ومن متاع الأزواج كما جاء في هذه الآية التي تصف مجلس الأنس حيث تدار كؤوس الشراب في آنية من ذهب على يدي غلمان كأنهم اللؤلؤ المكنون. ثم يلخّص الله قمة ذلك المتاع بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾، مما لا تستطيع عقول البشر أن تتصور متعة ذلك النعيم، لأنه كما ورد في الحديث القدسي: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».[1]

ثم بأسلوب الالتفات من ضمير الغيبة إلى الخطاب تأتي البشارة العظمى التي تكون صمام الأمن لتلك المتعة كلها في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

جيء بالجملة الأسمية لزيادة الدلالة على الدوام والبقاء، فما سبب ذلك الجزاء؟ قال: **﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**، الإشارة إلى الجنة لمزيد من لفت الاهتمام وقوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي

١- تقدم تخريجه، ص. ٣٣.

بسبب عملكم، ولا تعارض بين الآية وحديث: «**لن يدخل الجنة أحدكم عمله**»[1]، وقد قال: ابن مسعود: "تدخلونها برحمة الله، وتقسمون منازلها بأعمالكم". وتوجيه ذلك أنّ أعمال العبد في الدنيا مهما عظمت وخلصت لله فإنها عند الحساب والتقييم لا تفي بحق أصغر نعمة من الله لهذا الإنسان فكيف بدخول الجنة لولا فضل الله ورحمته.

﴿**لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَاكُلُونَ**﴾: خصّص الله الفاكهة بالذكر ووصفها بالكثرة، لأنّ الفاكهة مما لا يتوفر لجميع الناس في الدنيا. وقوله: ﴿مِنْهَا تَاكُلُونَ﴾؛ لأن الكثير يراها في الدنيا ولا يأكلها.

وفي مقابل ذلك فريق المجرمين، يترقب السامع كيف يكون مآلهم؟ فقال: ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**﴾، وهذا تفصيل لما أجمله قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ اَلِيمٍ﴾(٦٥). فهو عذاب جهنّم بكلّ ما وصفه القرآن من ألوان وأشكال، يزيدهم شقاوة أنّهم فيه خالدون، وأنّه لا يسكن ولا تفتر حدّته فيحسّون بنوع من التخفيف في أيّ لحظة من اللحظات، ويزيدهم نكالا أنهم: ﴿فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾، أي في غمّ شديد لا يستطيعون التنفيس عما هم فيه بحديث ولا بشكوى، وذلك هو أقسى ما يمكن أن يعانيه المجرم في حبسه الإنفرادي.

﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**﴾: نفى الله الظلم عن ذاته العلية: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦). إذ كانوا هم المتسببين في

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٨٤) الرقاق، باب (١٨) القصد والمداومة على العمل، رقم ٦٠٩٨: ٥/٢٣٧٣.

ظلم أنفسهم بارتكابهم لأنواع المعاصي ومن أعظمها الشرك بالله، وزيادة ضمير الفصل لإفادة قصر صفة الظلم على اسم: ﴿كَانَ﴾.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾: مالك هو خازن النار، يناديه المجرمون بعد إشتداد العذاب عليهم ليشفع لهم عند الله حتى يميتهم فيستريحون من العذاب فتأتي الإجابة مخيبة لآمالهم: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾، لا خروج لكم من النار.

وجمعا بين هذه الآية وآية سورة غافر في قوله: ﴿وَقَالَ الذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ، قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَاتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ (غافر:٤٩-٥٠).

قال المفسّرون: إنّ أهل النار يطلبون التّخفيف من العذاب ولو ليوم واحد، وعندما يقال لهم: أسألوا مالكا خازن النار. فيكون منه ذلك الجواب المؤيس.

ثم ذكر الله علة ذلك الحكم الأبدي بالمكوث في النار ويقول: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾، الأرجح أن تكون الجملة من كلام خازن النار، لزيادة تبكيتهم بتذكيرهم بالمواقف المخزية التي واجهوا بها الحقّ الذي أنزله الله على رسله ليبلغ لهم.

وجملة: ﴿جِئْنَاكُم﴾ يراد بها جميع الملائكة مع سيّدنا جبريل عليه السلام اعتزازا من مالك بجماعته من ملائكة الله الأطهار.

ويحتمل أن يكون الكلام لله تعالى، والاستدراك في قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ يتماشى مع أخلاقيات القرآن في عدم تعميم الحكم، ذلك لأنّ أحوال المشركين في كراهة الحقّ ومحاربته تتفاوت ما بين أئمّة الكفر

من الرؤساء وأتباعهم المستضعفين، وتكون كراهة الحقّ من أكثر الناس بدوافع كثيرة، سيما تلك التي تفوّت عليهم منافعهم العاجلة الخاصّة، أو تحطّ من حظوظهم ومنازلهم عند الناس، لأنّ دلائل الحقّ ومسالكه لا تخفى على عقول النّاس، ولكن المشكل في من عرف الحق وأنكره كما قال تعالى في شأن هؤلاء الكفرة: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّه لَيَحْزُنُكَ الذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِئَايَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣).

وكنتيجة لكراهيتهم للحقّ فإنّ المجرمين الطّغاة يحاولون طمس ذلك الحقّ بحبكهم لمختلف الدسائس والمؤامرات ضدّ كلّ من يروّج لذلك الحقّ ويدعو إليه، وذلك ما عانى منه رسل الله الكثير ومن بعدهم كلّ الدّعاة إلى الله بوفاء وإخلاص، ولكن الله تعالى لهم بالمرصاد قال تعالى: **﴿أَمَ اَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ، أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾**.

انتقل الأسلوب إلى الغيبة تحقيرا لشأنهم لبيان ما أعدّ لهم من الخزي في الدنيا قبل عذاب الآخرة. فـ"أم" للإضراب الانتقالي، تتضمّن استفهاما حذفت أداته للدلالة على التهديد، إذ أنهم مهما أحكموا تدبير مكرهم وكيدهم بالرسول وأصحابه فإنّه تعالى مبرم لهم أمرا ينقض ذلك فينقلب الأذى عليهم ويجزيهم الله بأسوأ مما دبّروا، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (الطارق:١٥- ١٦).

ثم أتبع الله الإضراب المتقدم بإضراب مثله لبيان علمه المحيط بكلّ ما يسرّون وما يعلنون، كما أنّ الحفظة من الملائكة يسجّلون جميع ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال، سيجازيهم الله عنها عند فصل القضاء. والله أعلم.

تنزيه الله عن الولد والشريك، وبيان تناقض المشركين بين ما يقرّون به وما يفعلون.

أ)- النصّ:

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: ﴿إِن﴾: إمّا أن تكون شرطية فتكون "كان" في موضع جزم، وإمّا أن تكون نافية أي: لم يكن للرحمن ولد، و﴿أَوَّلُ﴾: هو بمعنى اسم التفضيل، أي أسبق منكم، والشرط والجواب واردان في الآية على سبيل الفرض والتمثيل بقصد المبالغة في نفي الولد. ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: ﴿سُبْحَانَ﴾: بمعنى أنزّه الله من كلّ نقص، والكرسي مخلوق عظيم أكبر من السماوات والأرض الله أعلم بحقيقته ولذلك خصّ الكرسّي بإضافة لفظ: ﴿رَبِّ﴾ و لم يجمعه مع السماوات

والأرض. ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾: ﴿يَخُوضُوا﴾: مجزوم في جواب الطلب، ﴿وَيَلْعَبُوا﴾: مجزوم بالعطف، ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا﴾: منصوب بـ"أن" مضمرة بعد "حتى"، والأمر للتهديد. ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾: الجملتان تفيدان قصر الألوهية في ذات الله تعالى، والجار والمجرور متعلقان بالسماء وبالأرض، بمعنى: هو وحده المستحق للعبادة فيهما. ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: أي الكفار. ﴿مِن دُونِهِ﴾: أي آلهتهم الباطلة، إبطال لزعمهم: ﴿شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾(يونس:١٨). ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾: استثناء متصل. وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، بمعنى: يعلمون حال من يستحق الشفاعة. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: استفهام إنكاري، ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: بمعنى: يصرفون عن عبادة الله وهم يقرون له بالخالقية. ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾: معطوف على قوله: ﴿لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾. والقيل: بمعنى القول، والضمير يعود إلى النبي ﷺ يشكو قومه لعدم إيمانهم به، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: هو من كلام الله مع بقية أمره بالصفح.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلَدٌ﴾: قرأ الجمهور بفتح الواو وفتح اللام، أي بصيغة الإفراد، وقرأ حمزة والكسائي بضمّ الواو وسكون اللام جمعا. ﴿يُلَاقُوا﴾: قرأ الجمهور بضم الياء وبألف بعد اللام، أي بصيغة المفاعلة، وقرأه أبو جعفر: ﴿يَلْقَوا﴾ بفتح الياء وسكون اللام على أنه مضارع المجرّد. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: قرأ الجمهور بالفوقية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأ ابن كثير والحمزة والكسائي بالتحتية تبعا لأسلوب الضمائر التي قبلها. ﴿وَقِيلِهِ﴾: قرأ الجمهور بنصب اللام، على أنه مصدر نصب على أنّه مفعول مطلق بدل فعله، والتقدير: وقال الرسول قيلة، وقرأ

عاصم وحمزة بجرّ اللام على أنه عطف على الساعة في قوله: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، أي: وعنده علم قيل الرسول. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وروْح عن يعقوب بالمثناة الفوقية، وقرأه الجمهور بياء تحتية على أنه وعد من الله لرسوله.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان أحوال المتّقين في نعيم الجنّة وشقاء المجرمين في جحيم النار انتقل السياق في ختام السورة إلى مقام الاحتجاج على استحالة أن يكون لله ولد، وهو الإله المعبود بحقّ والرّبّ المالك لما في السماوات والأرض وما بينهما، وأنّ المعبودات الباطلة لا تملك الشفاعة في الآخرة، وأنّ المشركين متناقضون بين إقرارهم بالخالقية لله وعبادتهم لغيره معه.

ثم أمر الله رسوله أن يعرض عنهم وأن ينذرهم بما ينتظرهم من الحساب والجزاء فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، الأمر موجّه لرسول الله أن يضع لهم هذا الشرط الافتراضي جدلا لهم وإفحاما بأسلوب التمثيل؛ لأنه ﷺ لا يخطر بباله أبدا أن لله أبناء، وإنما جاء هذا الكلام للرّدّ على الذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله -حاشاه-، والمعنى: إن كان لله ولد كما تزعمون، فإنّني أول من يعظّم ذلك الولد تعظيما لأبيه، لأنني أعرفكم بذات الله وصفاته، أما وقد انتفت عبادتي لذلك الولد أو الأولاد فقد انتفى وجود لله -حاشاه-، والمشركون يعلمون أن رسول الله لم يروّج عنده ذلك الادّعاء الباطل، فإذا بطل الجزء الثاني من الشرط فقد بطل الأول منه حتما.

ثم أكّد الله نفي الولد عن ذاته العلية بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: ﴿سُبْحَانَ﴾: للتنزيه، يحتمل أن تكون

الجملة تكملة لما أمر الرسول أن يقوله للمشركين، ويحتمل أن تكون كلاما مستأنفا من جانب الله مبالغة في التنزيه، أي كيف يكون ولد أو أولاد لمن يملك ما في السماوات والأرض، وربّ ما هو أعظم من ذلك، أي العرش العظيم؟، ويدلّ على عظمة العرش تخصيصه بإضافة "الربّ" إذ لم يجمع مع السماوات والأرض، فهل يليق بجلاله وعظيم سلطانه أن يحتاج إلى ولد أو صاحبة.

وبما أن هؤلاء المشركين ميؤوس من استجابتهم لدعوة الحق فقد أمر الله رسوله بالإعراض عنهم ومتاركتهم فقال: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الذِي يُوعَدُونَ﴾، أصل الخوض هو الدخول في لجّة الماء وتحريكه، واستعمل هنا مجازا على كثرة الحديث والاشتغال بما فيه اللغو والباطل. واليوم الموعود للكفّار إمّا في الدنيا كيوم بدر، أو هو اليوم الآخر في موقف الحساب وفصل القضاء.

﴿وَهُوَ الذِي فِي السَّمَآءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، وَتَبَارَكَ الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَلاَ يَمْلِكُ الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

أكّد الله نفي الشريك في الرّبوبية والألوهية ببيان سبع صفات يصف الله بها ذاته العلية ترسيخا لمقومات الإيمان في قلوب المؤمنين، وإسقاطا لشبهات المشركين، وذلك لتلخيص ما ورد مفصّلا خلال السورة الكريمة:

أولا: قال: ﴿وَهُوَ الذِي فِي السَّمَآءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾، أي هو وحده اجتمعت فيه الصفات الإلهية في السماوات والأرض، فلا معبود بحقّ

سواه فيهما، وذلك لأنّ المشركين اتّخذوا له شركاء في الأرض وفي السماء، ولذلك جيء بصيغة القصر بتعريف المسند والمسند إليه.

ثانيا: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾: والحكمة هي اختيار ما هو الأفضل والأنسب لما اختير له ويتجلّى ذلك في بديع صنعه وحكمة تدبيره لشؤون خلقه.

ثالثا: ﴿الْعَلِيمُ﴾، أي المتّصف بكمال العلم وإحاطته، لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء.

رابعا: ﴿وَتَبَارَكَ الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي هو متصف بالبركة، وهي النماء والزيادة في خيراته وألطافه بخلقه، وهذه الصفة ذاتية لله تعالى، فهو يستغني عن الزيادة باتّخاذ الشريك والولد، عظم سلطانه بما يملكه في السماوات والأرض وما بينهما.

خامسا: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، أي موعد قيامها لا يعلمه إلاّ هو، هكذا بصيغة القصر، لم يطلع على ذلك أحدا من خلقه.

سادسا: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ليوم الحساب وفصل القضاء، لتجزى كل نفس بما كسبت في دنياها، إن خيرا فخير، وإن شرّا فشرّ.

سابعا: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وهذا ردّ لاعتقاد المشركين بأنّ أصنامهم تشفع لهم عند الله، بل لا يملك أن يشفع أحد عند الله إلا من توفّر فيه شرطان:

أ)- أن يكون ممن شهد بالحقّ، أي آمن وشهد على بصيرة ويقين بأن الله وحده لا شريك له، فتكون شفاعته مقبولة عند الله بعد إذنه كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه:١٠٩).

ب)- ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: حال من يستحق الشفاعة أي لا يشهدون بالظن والتخمين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّىٰ يُوفَكُونَ﴾: بيّن الله تعالى لرسوله تناقض المشركين في مواقفهم من دعوته، فأكّد ذلك باللاّم المشعرة بالقسم، بأنّهم يجيبون بأنّ الله هو خالقهم إذا سئلوا، ومع ذلك يعبدون غيره سفاهة وغواية، أو عنادا واستكبارا. ثم تساءل مستنكرا ذلك منهم كيف يصرفون عن عبادة الله وحده وهم يعترفون له بالخالقية، بينما اللازم العقلي أن يعرفوه بالعبادة؟.

وتختتم السورة بهذه التسلية النّديّة لرسول الله، وهو يشكو لربّه إعراض قومه عنه، فيأمره ربّه بمتاركتهم وتهديدهم بما ينتظرهم: ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ، فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقِيلِهِ﴾: الضمير يرجع إلى رسول الله، والقيل هو القول، والظاهر أن العطف على ما تقدم من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ﴾. والتقدير: ونسمع قول الرسول. ومن المفسّرين من جعله معطوفا على قوله: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، والتقدير: وعنده علم قول الرسول. ومضمون ذلك القول هو الشكوى لربه بعدم إيمان قومه، أي أنّهم ميؤوس منهم، ولكنه تعالى بيّن بأنّ الحكمة تقتضي الإمهال والتريّث، وذلك بأن يلوذ رسول الله بالصبر على أذاهم وينتظر حكم الله فيهم، ويتركهم إلى حين يقضي الله بأمره فيهم. فقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ﴾ هو صفح مغاضبة ومتاركة، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم، وفي ذلك تهديد شديد لهم. وقد أنجز الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، والله أعلم.

تمت

سورة الدّخان، مكّية، وآياتها ٥٩

بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بسورة "الدخان" أو "حم الدخان"، لما ورد فيها من قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٠)، واللّفظان: "حم" و"الدخان" اعتبرا بمنزلة اسم واحد، لأن العلماء يقولون: من الأحسن أن لا يقول الإنسان مثلا: قرأت الدخان، بل يقول: سورة الدخان، أو حم الدخان. وهي من الحواميم السبع التي نُوّه بفضلها -كما تقدم-.

وهي من السور المكية بما تمتاز به من الأسلوب الجزل المتين ومن التركيز على بيان أسس العقيدة الإسلامية من الإيمان بوحدانية الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وآياتها تسع وخمسون، وهي في ترتيب نزول السور الثالثة والستون، نزلت بعد سورة الزخرف، وقبل سورة الجاثية، وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب السور بالمصحف الشريف.

ما تضمّنته السّورة من المقاصد:

- افتتحت السورة بما افتتحت به سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن وبدء إنزاله في ليلة القدر من رمضان، أنزله الله وهو مالك السماوات والأرض وموحد المخلوقات كلّها والإله المعبود بالحقّ، غير أنّ المشركين أعرضوا عن تدبّر القرآن فتهدّدهم الله بعذاب القحط والجوع إجابة لدعاء الرسول عليهم.

- عظة الكافرين بقصة موسى مع فرعون وكيف أنجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين مع الإيماء إلى قوم تُبّع.

- إنكار المشركين للبعث في سخرية واستهزاء وتأكيد الله على إتيانه وما يعقبه من شقاء وعذاب للمجرمين ونعيم ورضوان للمؤمنين.

- وفي ختام السورة يعود إلى القرآن وتيسيره للتدبّر والتذكّر، وتثبيت قلب رسول الله بانتظار النّصر للمؤمنين، والهزيمة والقهر للمشركين.

بدء إنزال القرآن في ليلة القدر، وبيان عظمة منزّله.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حٰمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: ﴿حم﴾: حرفان مقطعان دالان على إعجاز القرآن، كما تقدم في نظائرهما. ﴿وَالْكِتَابِ﴾: أل للعهد، أي القرآن، أقسم الله به، ﴿الْمُبِينِ﴾: صفة للكتاب أي ذي البيان الواضح. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ﴾: بمعنى ابتداء إنزاله، والليلة المباركة: وصفها بالبركة تنويه بشأنها لما ينجرّ عنها من المنافع الدينية والدنيوية، وهي على الأرجح ليلة القدر التي تلتمس في العشر الأواخر من رمضان. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾: أي من شأننا الإنذار للخلق

بواسطة الرسل والوحي. ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: الفرق هو الفصل والقضاء، أي يفصل الله في هذه الليلة، ويقضي بكلّ أمر محكم ممّا يتصل بشؤون الخلق. وقيل: إن الله ينفذ الأمر به إلى الملائكة الموكلين بذلك. ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾: ﴿أَمْرًا﴾: منصوب على الحال، وتكرار لفظ "أمر" لتعظيم شأنه، والعندية من الله هي لتشريف شأنه. ﴿كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: حذف المفعول: أي الرسل. ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول لأجله، أي أرسلنا الرسل رحمة بالعباد. ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: على قراءة الجرّ يكون بدلا من: ﴿رَبِّكَ﴾، وعلى قراءة الرفع، فهو إما خبر ثان، أو صفة، أو هو خبر لمبتدأ محذوف. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: حذف متعلقه للعلم به، وجواب الشرط محذوف أيضا دلّ عليه المقام، والتقدير: فلا تعبدوا غيره. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾: ﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي، هم في شك من البعث.

ج)- أوجه القراءة:

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾: قرأ الجمهور برفع: ﴿رَبُّ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بجرّ: ﴿رَبِّ﴾، على أنه بدل من قوله: ﴿رَبِّكَ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

السّورة مفتتحة بحرفين مقطّعين كأخواتها من الحواميم، والقول في موقعهما كالقول في نظائرهما، أنهما يدلاّن على إعجاز القرآن، وهو يتألف بتلك الحروف الهجائية التي يعرفها العرب وينطقون بها، وهم عاجزون على أن يأتوا ولو بمثل أصغر سورة إلى يوم الدّين، قال تعالى: **﴿حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، أَمْرًا**

مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

تشبه هذه الافتتاحية ما افتتحت به سورة الزخرف من قسم الله بكتابه المبين الذي هو القرآن الذي جعله تبيانا لكلّ شيء، ووضّح فيه من الأحكام والإرشادات ما يحتاج إليه الخلق من أمور دينهم ودنياهم. والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، هكذا بتنكير لفظ: ﴿لَيْلَةٍ﴾، لتعظيم شأنها. ثم وصفها بالبركة، أي أنّها كثيرة الخير والنّفع للخلائق كلّها، تنويها بعظم شأنها، وأغلب المفسّرين على أنها ليلة القدر التي خصّص الله لها في كتابه سورة بأكملها إذ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١). على أنها ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥).

وقد ثبت من سنة رسول الله ﷺ أنه قال: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان**»[1]، ومعنى إنزاله في هذه الليلة، هو أنّ القرآن ابتدئ إنزاله فيها ثم استمرّ نزوله مقسّطا لمدة ثلاث وعشرين سنة في حياة رسول الله، أي بعد بعثته ما بين مكة والمدينة، ولا يستقيم مع هذه النصوص القطعية ما ذهب إليه البعض من أنّها ليلة النصف من شعبان، وأغرقوا في بيان فضلها استنادا إلى أحاديث ضعيفة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، أي إنّ من شأننا أن نقيم الحجّة على النّاس فنرشدهم إلى ما يصلح بهم في شؤون معاشهم ومعادهم، والاكتفاء بالإنذار من عذاب يوم القيامة مع أنّ القرآن يبشر وينذر؛ لأنّ أحوال الناس

١- رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب (٣٧) صلاة التراويح، باب (٤) تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، رقم ١٩١٧: ٢/٧١١.

يومئذ هي إنكار البعث لليوم الآخر.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: جملة مستأنفة لبيان عظم شأن هذه الليلة، وأنه تعالى يفصّل ويقضي فيها كل أمر حكيم مما يتصل بشؤون خلقه في السنة كلها من الآجال والأرزاق والخير والشرّ وما إلى ذلك، أو يكون التفريق بمعنى التفصيل لآيات القرآن بما يشرّعه الله لخلقه من أحكام وأصول التشريع تبيّن حقوقهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم وأهليهم، وتحدّد ما عليهم من واجبات نحو بعضهم بعض، وما ورد في سورة القدر، يوضّح ذلك الجانب الغيبيّ من قضاء أمر الله في هذه الليلة، ويبين أن بعض ذلك الأمر ينفذ به إلى الملائكة الموكلين بأمر الله بتنفيذها في أرجاء ملكوته: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ (القدر:٤). وهو ما يتنزل على لسان الرسل لتبليغه إلى الناس، والله أعلم بكيفية ذلك، ولله في خلقه شؤون.

ثم قال تعالى: **﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**: إعادة لفظ: ﴿أَمْرًا﴾ هو لتعظيم شأنه بعد وصفه بالحكيم وزاده تشريفا كونه من عند الله، ثم إن التذييل بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، بتعيّن أن يكون المقصود بذلك الأمر هو إنزال القرآن العظيم. ثم بيّن أنّ إرسال الرسل إلى الخلق بآيات الله البيّنات هو رحمة بهم تقتضيها صفة الربوبية الرحيمة لبيان ما ينفعهم وما يضرّهم، وما يأخذ بأيديهم إلى تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: تعليل لذلك الإنذار وذلك الإرسال لأنه تعالى أعلم بمن خلق فهو السّميع لشكاواهم وآلامهم من متاعب الدنيا ومشاقّها والعليم بأحوالهم وما يصلحها من الأنظمة والشرائع لإحقاق الحقّ وإقامة العدل.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: تخلّص للاستدلال على تفرّد الله بالربوبية والألوهية في السماوات والأرض وما بينهما، وبما أن الكافرين يقرون بالخالقية لله تعالى ولكنهم يشركون في عبادته آلهة أخرى فإن ذلك الإقرار منهم لا يرتقي إلى مرتبة اليقين الذي لا يكون معه شك، ولذلك أعقبه هذا التذييل بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي إن كنتم تريدون اليقين في معتقدكم فاعلموا أنّ شأن الخالق هو الوحدانية الخالصة، وتقدير جواب الشرط المحذوف هنا هو: إن كنتُم موقنين فلا تعبدوا سواه.

﴿لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾: فالمتفرد بالرّبوبية يكون باللزوم متفرّدا بالألوهية، وهو المتصف بالقدرة اللامتناهية والمتمثلة في الإحياء والإماتة، وهم يقرّون بذلك ويلمسون آثار تلك القدرة في أنفسهم وفي ما حولهم من الأحياء، عطف عليه قوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ لإبطال زعمهم بأنهم في شركهم يقلدون آباءهم، فهم كلّهم داخلون في عموم خلق السماوات والأرض.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾: ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي، لنفي يقينهم وإيمانهم بأنّ الله هو ربّ السماوات والأرض، لأنّ حالتهم هي الشّكّ المريب في أمر الوحدانية لله والبعث، سادرون في اللعب واللهو، والله أعلم.

تهديد المشركين بالعذاب عاجلا أو آجلا.

أ)- النصّ:

فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا ٱكْشِفْ
عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ

وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَاتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾: ﴿فَارْتَقِبْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ في معرض تسليته بمعنى: انتظر. ﴿يَوْمَ﴾: مفعول به، ﴿تَاتِي السَّمَآءُ﴾: في موضع جرّ بالإضافة إلى: ﴿يَوْمَ﴾، والدّخان ما يتصاعد من النّار عند اشتعالها. قيل: جمعه دواخن، وأدخنة. والمبين: البيّن الظاهر. ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾: ﴿يَغْشَى﴾: أي يحيط بهم ويلفّهم فيقولون: هذا عذاب أليم. أو هو من كلام الله تعالى للتعجيب منه. ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: ﴿أَنَّى﴾: للاستفهام، وتستعمل بمعنى: أين وكيف، وهو هنا للإنكار والإحالة، أي: من أين تحصل لهم الذكرى. ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: في موضع نصب حال. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾: أي أعرضوا عن رسول الله واتّهموه بأنّ الذي يعلّمه القرآن هو فتى رومي حدّاد. ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾: ﴿كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾: أصله: كاشفون، حذفت نونه تخفيفا. قليلا: نعت لظرف، أي: زمنا قليلا. ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾: النعت إلى خطاب المشركين، أي عائدون إلى الكفر. ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾: التقدير: اذكروا يوم نبطش، أي الأخذ بقوة، والبطشة الكبرى على احتمال العذاب العاجل هي يوم بدر، وعلى الاحتمال الآجل هو يوم القيامة.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد بيان موقف المشركين من دعوة رسول الله بأنهم في شكّ من القرآن

وما دعا إليه من توحيد الله والبعث، حذّرهم الله هنا من عذاب عاجل أو آجل يحلّ بهم، فيلجئهم ذلك إلى الوعد بالإيمان، ولكنّهم لا يوفون بوعدهم، فيعودون إلى الكفر بعد كشف العذاب عنهم، فينتقم الله منهم ببطشة كبرى في الدنيا أو في الآخرة قال الله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَاتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ﴾: الخطاب لرسول الله تثبيتا له، وتسلية مما يعانيه من عنت المشركين، والأمر بالارتقاب وهو الانتظار لحصول شيء عما قريب، جاء مفرّعا على قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾، والمرتقب هو اليوم الذي تأتي فيه السماء بدخان مبين، والدّخان هو ما يتصاعد من النّار إذا اشتعلت وهو واضح للعيان بقوة انتشاره في الفضاء، فهو يوم مميّز عن بقية الأيام الأخرى بوجود هذه الظاهرة. على أن: ﴿يَوْمَ﴾ يطلق على الزمان مطلقا، وليس القصد منه المدة المحددة بأربع وعشرين ساعة.

وقوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي يحيط بهم ويشملهم من كل الجهات فيقولون: ﴿هَذَا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾، ويحتمل أن يكون القائل هو الله تعالى، تقريعا وتوبيخا لهم ومثل هذه الإشارات كثيرة في القرآن تكون من الله مثل:

- ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (الرحمان:٤٣).
- ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالاَوَّلِينَ﴾ (المرسلات:٣٨).

وهذه الظاهرة من ظهور الدّخان في السّماء قد اختلف المفسّرون في زمن حصولها في الحاضر في وقت التنزيل كعذاب عاجل للمشركين أم هي إحدى علامات قرب الساعة مثل العلامات الأخرى المذكورة في القرآن والسّنّة، ولكلّ من الاحتمالين قائلون من الصّحابة والأئمة من بعدهم ومن

أقطاب الصحابة ممن رجّحوا الاحتمال الأول: عبد الله بن مسعود، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: "إن قريشا لما استعصوا على النبيء ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف فأصابهم قحط حتى أكلوا الجيف والعظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾. فأتوا رسول الله فقالوا: يا رسول الله استق الله لمضر، فإنها قد هلكت، فاستسقى فسقوا فنزلت، وفي تتمة للبخاري: فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: فانتقم الله منهم يوم بدر".[1]

وأما الاحتمال الثاني: فعليه ابن عباس وجماعة من الأصحاب والتابعين يقول عنه الدكتور الزحيلي: "وأما بالنسبة للمستقبل فهو أمارة وعلامة من أشراط الساعة ينكث في الأرض أربعين يوما، حيث يظهر في الفضاء غبار ذرّي أو غيره كالدخان يجعل الجوّ مظلما وهذا ما أكده العلماء في نهاية العالم، حيث تضعف الطاقة الشمسية، وصفة ذلك الدخان العموم والشمول كما قال تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾".[2]

ويقول الشيخ محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي، يقول بعد سوق للرأي الأول في العذاب العاجل يقول: "وهناك رأي آخر أنا إليه أميل، ربما كان الدخان آية يكشف عنها الغد، وكما يوجل العالم الآن من ثقب "الأزون" وخطره على الناس، قد تتمخض الآفاق عن مصيبة داهمة وعذاب أليم لما شاع في الأرض من إلحاد وفسوق، ولما يلقاه الإسلام من خصومة

١- رواه البخاري من حديث ابن مسعود، كتاب (٦٨) التفسير، باب سورة حم الدخان، رقم ٤٥٤٤: ٤/١٨٢٣.

٢- التفسير المنير: ٢٥/٢١٢.

وجفاء، ولما يوجّه إلى شخص الرسول من مفتريات. عندئذ يجأر الناس إلى الله طالبين الرحمة ونادمين على موقفهم الخائن من الرسالة الخاتمة، فهل يصدّقون؟. أيّا ما كان الأمر، فإن الحساب الجامع عند اللقاء الأخير، يومئذ توفّى كل نفس ما قدمت وأخّرت".[1]

قلت: وقد مال إلى هذا الرأي الأخير طائفة من العلماء القدامى كابن كثير، وغيره ومن المحدثين، كسيّد قطب والإمام الحاج إبراهيم بيوض، ويبدو -والله أعلم- أنه الأنسب لسياق السورة في التركيز على بيان قدرة الله في البعث والنشور، وقد دعّموا اختيارهم بأدلّة أخرى من القرآن.

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُومِنُونَ﴾: أي عندما يرى الناس ذلك الدّخان يستغيثون بالله قائلين: أي يقول الكافرون حين يرون العذاب بأعينهم، أيّا ما كان ذلك العذاب عاجلا أو آجلا -كما تقدم- يقولون: يا ربّنا اكشف عنّا هذا العذاب، ويَعدون إن كشف عنهم بأنّهم يؤمنون بالله ورسوله، وهذا نظير قول قوم فرعون لموسى عندما وقع عليهم الرّجز: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٤٩). وقوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَاتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ (إبراهيم:٤٤).

ولكنّه تعالى ينفي صدق وعدهم هاهنا فيقول: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

أي كيف لهم أن يتذكروا ويتّعظوا بعد كشف العذاب عنهم، وقد أقمنا عليهم الحجّة بإرسال رسولنا إليهم مؤيّدا بالآيات البيّنات تدلّ على صدقه

١- نحو تفسير موضوعي، ص ٣٨٥.

فأعرضوا عنه، وقالوا: إنّما يعلّمه هذا القرآن بشر، وهم يريدون الفتى الرّومي الحدّاد، الذي كان الرسول يتردّد إليه ببعض حاجاته ووصموه بالجنون.

ثم قال تعالى التفاتا إلى المخاطبين: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾، وقد رأى أصحاب القول الأول في هذا الإخبار إشكالية بالنسبة للقول الثاني، إذ لا يمكن كشف العذاب بعد نزوله يوم القيامة، ولكن الإمام ابن كثير يردّ عليه بقوله: يحتمل معنيين:

أ)- أحدهما: أنه تعالى يقول: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (المؤمنون:٧٥). ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام:٢٨).

ب)- والثاني أن يكون المراد: إنّا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرّون في ما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون قد باشرهم.[1]

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، ولئن فسّر ابن مسعود البطشة الكبرى بما حدث للمشركين في غزوة بدر -وهو محتمل كما تقدم- غير أنّ البطش الشّديد والأخذ الأليم هو أنسب بعذاب يوم القيامة في هول الموقف وعذاب النار، كما قال تعالى في شأنه بعد ذكر جزاء الكافرين والمؤمنين في سورة البروج: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢)، والله أعلم.

١- أنظر: في ظلال القرآن: ٢٥/١١٠.

الاعتبار بإهلاك قوم فرعون، وإنجاء بني إسرائيل.

أ)- النصّ:

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: اللاّم مشعرة بالقسم، و"قد" للتحقيق ﴿فَتَنَّا﴾: أي اختبرنا، ﴿قَبْلَهُمْ﴾: الضمير يرجع للمشركين، والجملة معطوفة على جملة: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ، أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ﴾: الرسول الكريم هو موسى عليه السلام. ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ﴾: في موضع نصب، و﴿عِبَادَ اللهِ﴾ منصوب بوقوع الفعل عليهم، أي: أطلقوا معي بني إسرائيل، ويجوز أن يكون: ﴿عِبَادَ اللهِ﴾ منصوبا على النداء المضاف، والمعنى: أدّوا إليّ ما أمركم الله به يا عباد الله، وخطاب الجمع لقوم فرعون. ﴿وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّيَ ءَاتِيكُم

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: الجملة معطوفة على جملة: ﴿أَنَ اَدُّوا﴾، والسّلطان المبين أي الحجّة الواضحة وهي معجزتا العصا واليد. ﴿أَن تَرْجُمُونِي﴾: بتقدير حذف حرف جرّ، أي: عذت بربي وربكم من أن ترجموني، وعذت بربي، بمعنى التجأت إليه وتوكلت عليه. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾: أي توجّه موسى بالدعاء إلى ربه، ومضمون دعائه هو قوله: ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، أي كسر همزة: ﴿أَنَّ﴾، يكون بتقدير: قال. ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾: ﴿رَهْوًا﴾: منصوب على الحال، بمعنى ساكنا حتى لا ينفروا منه، وأصل الرهو: الفجوة الواسعة. ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، كَذَٰلِكَ﴾: ﴿كَمْ﴾: اسم عدد يفيد التكثير، ﴿مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: تمييز. ﴿كَمْ﴾: وهي في موضع نصب مفعول: ﴿تَرَكُوا﴾، والمقام الكريم: مكان القيام، أي المنازل الحسنة المريحة. ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ -بفتح النون- أي التنعّم بمجموع من أنواع النعيم. وفاكهين: أي فكاهة ولعب ومرح أدّى بهم إلى البطر. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف إمّا في موضع رفع، والتقدير: الأمر كذلك، أو في موضع نصب، أي يفعل الله كذلك بمن يهلكه. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾: أي ذهبوا و لم يرث لحالهم أحد، وذلك على سبيل التمثيل للتحقير من شأنهم وعدم الاكتراث بهلاكهم، و لم تعط لهم المهلة للندم والتوبة، بخلاف موت من له شأن وقدر. يقال فيه: بكت عليه السماء والأرض. ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، مِن فِرْعَوْنَ﴾: ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾: هو استعباد فرعون وقومه لهم باستحياء نسائهم وقتل أبنائهم واستخدامهم في الأعمال الشاقة. ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾: بدل. ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: ﴿اخْتَرْنَا﴾: بني إسرائيل على عالمي زمانهم على علم منا بحالهم. ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاؤٌ مُّبِينٌ﴾: الآيات هي المعجزات التي جرت على يد موسى عليه السلام لتمحيصهم واختبارهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾، ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾: قرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف، وكذلك ورش في الوقف فقط، وقرأهما باقي القرّاء بحذف ياء المتكلم وصلا ووقفا. ﴿فَاسْرِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بهمزة وصل، أمر من فعل سرى، وقرأه الباقون بهمزة قطع من فعل: أسرى. ﴿فَاكِهِينَ﴾: قرأ الجمهور بصيغة اسم الفاعل، وقرأه حفص وأبو جعفر: ﴿فَكِهِينَ﴾ بدون ألف، على أنّه صفة مشبّهة.

د)- البيان والتّفسير:

مثل الله لحال المشركين مع رسول الله في تكذيب دعوته بحال قوم فرعون مع موسى عليه السلام وبني إسرائيل كيف أنجاهم الله وأهلك فرعون وقومه غرقا في البحر وجعلهم عبرة للمعتبرين فقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ، أَنَ اَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ، وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّيَ ءَاتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ، وَإِن لَّمْ تُومِنُوا لِيَ فَاعْتَزِلُونِ﴾**.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، يشعر بما يسلّط الله على قريش من أنواع الفتنة كما فتن قبلهم قوم فرعون، والفتنة هي الاختبار والابتلاء، والله تعالى يبلو عباده بالخير والشرّ كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(الأنبياء:٣٥). ولعل الفتنة بالخير هي أقوى محكّ لطبائع الناس ومدى تقديرهم للنّعم التي يتمتّعون بها، فمشركو مكّة في حياتهم المعيشية، سيما طبقة الرؤساء والكبراء، يشبهون قوم فرعون وقومه في الجاه

والسلطة والمال، مما جعل منهم طغاة مستبدين، فأراد الله تسلية رسوله وتأييده بنصره المبين فشبّه حالة قومه معه في الطغيان والجبروت بحالة فرعون وقومه مع موسى عليه السلام إذ وصفه الله بقوله: ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾.

ويبدو كرم موسى في أصل محتده وفي أساس نشأته، إذ صنعه الله على عينيه، وشرّفه بكلامه، وأيّده بمعجزاته، فهو جامع لكلّ خصال الخير، أرسله الله إلى فرعون وقومه يطلب منهم شيئين:

أ- ﴿أَنَ اَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ﴾: أي قال لهم موسى: أطلقوا سراح بني إسرائيل. ولكن التعبير: بـ﴿اَدُّوا إِلَيَّ﴾ تمثيل لوضعية بني إسرائيل تحت رعاية فرعون بأنهم كالأمانة التي يجب أن يحافظ عليها لأنهم ليسوا من جنس الأقباط -قوم فرعون-، وهذا كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾ (طه:٤٧). وهذا المعنى بناء على أن ﴿عِبَادَ اللهِ﴾ مفعول لـ﴿اَدُّوا إِلَيَّ﴾ ، وأمّا على تقدير أن يكون: ﴿عِبَادَ اللهِ﴾، نداء، فيقدّر مفعول ﴿اَدُّوا﴾ بما يتلاءم معه من أداء الحقوق التي كلّفه الله بها.

ب- ﴿وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّيَ ءَاتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، الجملة معطوفة على سابقتها: ﴿أَنَ اَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ﴾، طلب منهم الانقياد والخضوع لله، والاستجابة لدعوة رسله، ثمّ علّل مطالبه منهم بأنه يأتيهم بسلطان مبين، أي بحجة واضحة تؤيده وتدلّ على صدقه، وتلك هي معجزة العصا واليد، يأتي بها في الحال مقرونة بدعوته.

وبما أنّ موسى كان يتوقّع من فرعون ردود فعل عنيفة، إذ مسّهم في كبرياءهم وغرورهم، فقد أرفق في مضمون دعوته تحذيرهم من أن ينالوه بسوء.

ويلاحظ التعبير بـ"أَن تَرْجُمُونِي"، عوض: أن تقتلوني، لأن فرعون كان يخشى نقمة ربّ موسى إن هو تفرّد بقتله، وقد أرعبه ثعبان العصا، فترك ذلك إلى القتل الجماعي بالرجم بالحجارة حتى الموت، وفي إخبار موسى بأنه إزاء ذلك عائذ بربّه وربهم ملتجئ إليه أن يحميه منهم، فلا أقلّ من أن يتركوه وشأنه إن لم يؤمنوا بدعوته حتى يحكم الله بينه وبينهم.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾: طوى النّصّ ما كان من إجابة القوم لطلب موسى، ولكن التفريع المستفاد من التعقيب يدلّ على أنّه قد يئس من إيمانهم فدعا ربّه بما ستوجب عليهم العذاب، سيما أن بقتله، فخرج من مدينتهم خائفا لاجئا إلى مدين، وقد استجاب الله لدعاء موسى إذ أمره أن يخرج ببني إسرائيل من مصر ليلا متجها إلى بحر "فلزوم".

﴿فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ، وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾: جاء الأمر الإلهي لموسى بالسّرى ليلا، وزيادة: ﴿لَيْلاً﴾ لفعل"أس" لإفادة التّحرك من أوّل الليل لإيجاد فسحة من الوقت، وقد علل الأمر بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي من فرعون وجنوده، وقد طوى النصّ حدث ضرب موسى البحر بعصاه وانفلاقه عن طريق يبس، فاقتصر هنا على أمر الله موسى أن يترك البحر ساكنا منفرجا مفتوحا كما دخله هو وقومه ليدخله فرعون وجنوده، ثم تنطبق عليهم أمواج البحر فيكونون من المغرقين، وهكذا نجّى الله موسى ومن معه وأهلك عدوّهم تاركين وراءهم ما خلفوه من كنوز وخيرات ونعم، قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، كَذَلِكَ﴾.

هذا الاستئناف جاء للعبرة مما آل إليه قوم فرعون من تركهم لتلك الخيرات الكثيرة من وسائل الرفاهية والترف بما أقاموه على ضفاف النيل من

بساتين ومنازل أنيقة وقنوات للرّيّ، كانوا يتفيأون ظلالها مرحين رافلين في نعمها ملتذين فاكهين.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، اعتبر الكثير من المفسّرين أن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مستقلة عما قبلها، تأسيسا لا تأكيدا، ومعناها: أمرنا كذلك في الانتقام من الظلمة الطغاة، وفي ذلك تحذير لطغاة قريش.

﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾: أي ذلك الملك العريض مما تركه فرعون وقومه في أرض مصر صار ميراثا لقوم آخرين، ولم يحدّد النصّ هنا نوعية القوم الوارثين لتلك الخيرات، ونقرأ في آية الشعراء قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ (٥٧-٥٩). فهل نحمل المقيّد هناك على المجمل في آية الدخان. ورواية التاريخ لبني إسرائيل تقول: إنهم لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها، ولهذا أوّل المعنى بعض المفسّرين بأن قالوا: ﴿أَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ بأنه لم يقصد أنواع تلك الأشياء في خصوص أرض فرعون بل رزق بنو إسرائيل مثلها في أرض فلسطين بعد أن دخلوها، والله أعلم بمراده.

والتعقيب بأنه ﴿مَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ﴾، هو لتحقير شأن هؤلاء مهما عظم سلطانهم، فهم ليسوا بشيء عند الله يستحقّ الرّثاء والحزن، إذ هم صفر في ما يستحقّ الخلود من الخصال الحميدة، فعندما حقّ عليهم العذاب بأمر الله ما كانت لهم مهلة من الوقت للتوبة والندم.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾: ومقابل نقمة الله من فرعون وقومه بالهلاك والدمار يذكر نعمته ورحمته ببني إسرائيل، إذ نجّاهم مما كانوا يعاينونه من العذاب

والإهانة تحت حكم فرعون الذي استكبر واستعلى في الأرض حتى ادّعى الألوهية والربوبية وتحدّى الله في كبريائه وعظمته فحقّق الله وعده بأن يمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، فاختار بني إسرائيل في تلك الحقبة من الزمن ليرفعوا لواء التوحيد على يد موسى عليه السلام فقال: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَؤٌ مُّبِينٌ﴾.

لقد اختار الله بني إسرائيل على عالمي زمانهم على علم منه تعالى بموجبات ذلك الاستحقاق، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الأعراف:١٣٧). فليس ذلك الاختيار من الله عفويا، فهو يختار لنصرة رسله النخبة المؤمنة التي تكون من حولهم مؤمنة موفية بعهد الله، كما اختار لأمة محمد صحابته الكرام ممن آمنوا به وعزّروه ونصروه. وقد أيّد الله موسى بكثير من المعجزات عايشها قومه معه بعد خروجهم من مصر، وكان ذلك من عناية الله بهم ليزدادوا يقينا وإيمانا، وكان ذلك قبل دخولهم إلى أرض فلسطين، حيث علا شأنهم وقويت شوكتهم على عهد داود وسليمان، ثم كان ما كان منهم من طول الأمد ونقض العهد وتضييع أمانة الله، فمزّق الله شملهم وسلّط عليهم أعداءهم، وفي ذلك عبرة لأمة رسول الله، والله أعلم.

إنكار المشركين البعث، والردّ عليهم وتهديدهم.

أ)- النصّ:

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا

خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾: الإشارة إلى مشركي قريش المنكرين للبعث، وهي للتحقير من شأنهم، ﴿لَيَقُولُونَ﴾: أي أصبح ذلك القول منهم كالعادة يرددونه بغير حجة. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾: ﴿إِنْ﴾: نافية هي مبتدأ، ﴿مَوْتَتُنَا﴾: خبره، والمقصود بالموتة الأولى الموتة التي تعقب الحياة الدنيوية ولا يكون شيء بعدها، ولهذا نفوا البعث بعدها، لأن الإنشار هو الإحياء بعد الموت، يقال: نَشر وأنشر، بمعنى أحياه بعد الموت. ﴿فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: ﴿فَأْتُوا﴾: الأمر للتعجيز، وهي مغالطة منهم؛ لأن البعث لا يكون إلا بعد نهاية الحياة الأولى لكل الخلائق. ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾: ﴿تُبَّعٍ﴾: هو لقب لكلّ من ملك اليمن وحضر موت والسحر، يجمع على "تبابعة"، وهو كفرعون لكلّ من ملك مصر، ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾: الضمير لمشركي مكة، والاستفهام إنكاريّ، أي هم يعرفون أنّ قوم تبع أعزّ منهم، ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: إمّا مرفوع بالعطف وإمّا مرفوع بالابتداء وما بعده خبر، وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، قيل: إن ضمير ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ راجع إلى قوم تبع والذين من قبلهم، وأما هو فلم يشمله الهلاك إذ كان مؤمنا كما جاء في مسند أحمد: «**لا تسبّوا تبّعا فإنه كان مسلما**».[1] ﴿لَٰعِبِينَ﴾: منصوب على الحال.

١- رواه أحمد في المسند من حديث سهل بن سعد، رقم ٢٢٩٣١: ٥/٣٤٠.

ج)- مَن هو تُبَّع؟.

تُبَّع: لقب لمن ملك اليمن، كفرعون لمن ملك مصر، وتُبّع يُجمع على تبابعة، وهم كثيرون في عائلات متتابعة، دام ملكهم طويلا، قيل: تجاوز ألفي عام. وتُبَّع المذكور في القرآن في هذه الآية لم يحدّد الرّواة فترة حكمه في الملوك المتتابعة، كما لم يتّفقوا على تحديد رقعة حكمه، ولكنهم أجمعوا على أنه يسمّى "أبا كرب" وهو الذي أخبر عنه النبي ﷺ أنه مؤمن، ونهى عن سبّه وشتمه، توسّعت فتوحاته إلى بلد الحجاز والشام، وبلاد العجم، وقيل: إنه أول من كسا الكعبة وطاف بها وصلّى، وذبح، وعظّم البيت الحرام تعظيما كبيرا.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذكره تعالى لقصّة فرعون وقومه مع موسى عليه السلام ليتّعظ بها كفار قريش، وأنّهم ليسوا في منأى عن الإهلاك إن هم أصرّوا على كفرهم وعنادهم، عاد فأعقب هنا بأنّ إصرارهم على إنكار البعث هو الذي جعلهم يستبعدون ما توعّدهم الله به من سوء المصير، ثم جاء الرّد الإلهي ببيان قدرته في خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأنه قادر على إهلاكهم كما أهلك من قبلهم ممن هم أعزّ منهم وأشدّ بطشا قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ، فَأْتُوا بِئَابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

عاد نسق الحديث إلى منكري البعث من كفار قريش بعد تهديدهم بالبطشة الكبرى والانتقام منهم، وضرب المثل لهم بعاقبة قوم فرعون، فجاءت هذه الإشارة التحقيرية بـ﴿هَؤُلَآءِ﴾، وهم لا يتردّدون في إنكار البعث، وبالتالي هم لا يؤمنون بما يجري عليهم من الحساب وفصل القضاء، وهم يصرخون بذلك الإنكار في أساليب مختلفة ذكرها الله تعالى في سور مختلفة.

فقولهم هنا بصيغة القصر: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، فهم يعنون بذلك أن لا تأتيهم حياة ثانية بعد ذلك الموت الأول، كما صرّحوا بذلك في قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، أي ليس هناك نشور للموتى يبعثون لحياة ثانية، ثم إنهم ساقوا حجّتهم على نفي ذلك بأن قالوا: إن كان ذلك حقًا كما تقولون فعجّلوا لنا بإحياء من مات من آبائنا، وتقول الرواية بأنهم تحدّوا رسول الله بأن يدعو الله حتى ينشر جدّهم قصي بن كلاب ليشهد على صدق ما يدّعيه رسول الله، وهذه الحجّة ساقطة من أساسها إذ أنّ الدعوة للإيمان بالبعث يوم القيامة، لا يكون إلاّ كما خبّر الوحي به بأنه يكون بعد إنهاء ظروف الحياة الدنيا لجميع الخلائق عند نفخة الصّعق، فليس في دعوة الرسل جميعهم ما يشعر ببعث الأموات ضمن ظروف الحياة الدنيا، وبما أنّ هذه الشبهة لا تحتاج إلى ردّ لسخافتها فإنّ الله تعالى قد هدّدهم مباشرة بضرب مثل آخر بقوم هم أقرب إليهم من قوم فرعون، وهم قوم تبّع فقال تعالى: **﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾**.

ضمير: ﴿هُمْ﴾ عائد إلى اسم الإشارة -أي كفار قريش-، والاستفهام للإنكار، والمراد بالخيرية الأفضلية في القوة والبطش، فكفّار قريش يعرفون أن قوم تبّع ومن قبلهم من الأمم كانت أشدّ منهم قوّة وأكثر جمعا، وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، فقد علّق الله الإهلاك بقوم تبّع دونه هو، مما يدلّ على أنّه كان على غير توجّه قومه في الكفر بالله ولذلك لم يشمله الذمّ في الآية الكريمة.

ثم علّل الله ذلك الإهلاك بأنهم كانوا مجرمين، وصفة الإجرام غالبا ما تكون قرينة للطغيان والجبروت فليس قومك -أيها الرسول- بخير من أولئك

الذين نالتهم من الله البطشة الكبرى في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، ونظير معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (القمر:٤٣).

وبعد ذلك التهديد أقام الله الدّليل على قدرته في الخلق والإيجاد للاستدلال على قدرته على البعث فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

تعتبر الآيتان ردًا على قول المنكرين للبعث: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، وبما أن دوافع ذلك الإنكار كانت لاستبعاد ذلك بل لاستحالته في اعتقادهم، فإنّ الله تعالى قد ركّز في الرّدّ على شبهتهم تلك على بيان قدرته العظيمة في خلقه بالآفاق مما لا يستطيعون إنكاره، فجعل الحكمة والحقّ والعدل وغيرها من القيم الإلهية المنبثة في هذا الوجود جعلها لا تتمّ ولا تتحقّق إلاّ بتقدير الحياة الثانية للحساب والجزاء، وإلاّ أصبح إيجاد الخلائق المكلّفة من الأنس والجنّ عبثا ولهوا، ﴿أَفَمَن كَانَ مُومِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ (السجدة:١٨). ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم:٣٥-٣٦). فالله تعالى يجلّ عن العبث واللهو: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (المومنون:١١٥). وهكذا يتأكد هذا المعنى بأساليب مختلفة في القرآن الحكيم، فنجد هناك النفي والإثبات لتأكيد المعنى.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، الاستدراك يفيد أن هذه القضية الوجودية من حتمية البعث والجزاء في تأصيل الحق والعدل الإلهيين هي مما لا يمكن أن يخفى على عاقل، ولكن جهل المشركين هو الذي شوّش عليهم التفكير، وحملهم على سوء التقدير، والله أعلم.

يوم الفصل، ومآل المتّقين والكفّار، والآمنين.

أ)- النصّ:

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ
يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ
مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ
﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ
إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على أنه اسم: ﴿إِنَّ﴾. ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾: خبرها. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد ضمير ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾، وأجاز بعض اللغويين أن يكون: ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، فينصب: ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾: على اسم: ﴿إِنَّ﴾، ويكون التقدير: إن ميقاتهم في يوم الفصل. وسمّي كذلك لأنه يفصل فيه بين الناس ما بين محقّ ومبطل. ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾: ﴿يَوْمَ﴾: بدل منصوب من يوم الأول، والمولى في الأصل يطلق على السيد والعبد، والمراد به هنا القريب والحليف، والتنكير لإفادة العموم.

﴿لاَ يُغْنِي﴾: لا يفيد ولا ينفع. ﴿شَيْئًا﴾: نائب عن المفعول المطلق. ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾: إمّا هو استثناء متصل من المولى الأول، أو الثاني، أو ضمير: ﴿لاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾، وإما منقطع، والتقدير: لا يشفع إلا من رحمه الله. ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾: ﴿شَجَرَةَ الزَّقُّومِ﴾: تقدم ذكرها فهي معلومة للسامعين. ﴿الأَثِيمِ﴾: الكثير الآثام والمراد به الكافر الجاحد، ﴿كَالْمُهْلِ﴾: خبر ثان للشجرة، هو دردي الزيت الأسود تغلي. ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾: الماء الساخن الشديد الحرارة. ﴿خُذُوهُ فَاعْتُلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾: ﴿فَاعْتُلُوهُ﴾: من العتل، وهو السوق بعنف وشدة، و﴿سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾. هو وسطه. ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾: الذوق مستعار للإحساس، والأمر للإهانة. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾: يقال ذلك للأثيم على وجه التهكم والتحقير. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾: المُقام، بضمّ الميم، مكان الإقامة، وبفتح الميم هو لمكان القيام، وصف بالأمين مجازيا، بمعنى: يأمن ساكنوه من كل سوء كما يأمنون الخروج منه. ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: السندس هو الديباج الرقيق، قيل: إن اللفظ معرّب من الفارسية، والإستبرق: هو أيضا الديباج القويّ، و﴿مِن﴾: لبيان الجنس. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: منصوب على الحال، أي يتقابلون في مجالسهم للمؤانسة. قيل: لا ينظر بعضهم قفا بعض. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف إمّا في موضع رفع، أي الأمر كذلك، وإمّا في موضع نصب، أي يفعل بالمتقين كذلك. ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾: الاستثناء منقطع، وهو بمعنى: لكن. والمراد المبالغة في تعميم النفي، وامتناع الموت عن أهل الجنة. ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾: حال من المذكورات كلها، والخطاب لرسول الله. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾: الهاء تعود إلى الكتاب، سهلنا تلاوته حيث أنزلناه بلغتك، فالباء للسببية. ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾: أي ارتقب حكم الله بينك وبينهم بالنصر

لك، وهم يرتقبون العذاب الذي هدّدوا به.

ج)- أوجه القراءة:

﴿تَغْلِي﴾: قرأه الجمهور بالتاء الفوقية، على أن الضمير لشجرة الزقوم، وقرأه ابن كثير وحفص بالتحتية على رجوع الضمير إلى الطعام. ﴿فَاعْتُلُوهُ﴾: قرأه نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب بضمّ التاء، وقرأه الباقون بكسرها. ﴿ذُقْ إِنَّكَ﴾: قرأ الجمهور بكسر همزة: ﴿إِنَّكَ﴾، وقرأه الكسائي بفتحها، على تقدير لام التعليل. ﴿فِي مُقَامٍ﴾: قرأه نافع وابن عامر وأبو جعفر بضمّ الميم، من فعل: أقام، وقرأه الباقون بفتحها، من فعل: قام.

د)- البيان والتّفسير:

كنتيجة لبيان قدرة الله في خلق السماوات والأرض وما بينهما يأتي ذكر يوم الفصل لأجل الجزاء وفيه عرض لمشهدين، يتضمّن الأول وصفا مهيبا لعذاب الكافر الأثيم، ويتضمّن الثاني بيان أنواع من نعيم الجنة للمتقين، ثم يتبع ذلك ختام السورة بما يناسب مفتتحها امتنانا من الله للمخاطبين بنزول القرآن بلسانهم لتيسير التذكير به، فوعد الرسول بارتقاب النصر كما توعّد خصومه بالعذاب والهلاك فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ، يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾**.

يوم الفصل هو القيامة، سمّي كذلك لأنّه تعالى يفصل فيه بين الخلائق جميعهم، فيحكم بينهم بالحقّ والعدل ليثيب المؤمنين ويعذّب الكافرين والمنافقين. والميقات: اسم زمان التوقيت للحساب والجزاء، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾(النبأ:١٧). وفي هذا اليوم تتعدّد أنواع الفصل، فيفصل الله بين الحقّ والباطل، وبين المؤمنين والكافرين، وبين أواصر القرابة والأنساب...إلخ، والتوكيد بـ﴿أَجْمَعِينَ﴾، هو للإحاطة والشمول.

﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾: جيء بالبدل ليوم الفصل لبيان عموم النفي لكلّ ما ألفه الناس في حياتهم الدنيا من التآزر والتناصر، فهم يأتون يومئذ مجرّدين من كلّ سند ومن كلّ قربى أو تحالف، إذ يعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم أوّل مرة، فلا نصير ولا حليف إلاّ من ينال رحمة ربّه العزيز الرحيم، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾(الممتحنة:٣). فليس ثمت إلاّ رحمة الله للخلاص والنجاة، فهو العزيز الغالب على أمره لا ينازعه في قضائه أحد، وهو الرحيم لمن يشاء من عباده وفق ما جرى بذلك علمه وحكمته.

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ، خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ الْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَاسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ، ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

بعد التّقرير بإقامة الدّليل على أنّ القيامة حقّ أعقب الله ذلك بعرض مشهدين متقابلين، بما تكون عليه حالة العصاة الأشقياء والطائعين الأوفياء، من عذاب وشقاء، أو نعيم وهناء، فبدأ بالمشهد العنيف المخيف الذي يتناسب مع جوّ السورة في تقريع الكافرين الجاحدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾.

ذكر الله شجرة الزّقوم على وجه الإخبار بأنّها طعام الأثيم، وهو المتوغل في آثامه؛ ذلك لأنّ هذه الشجرة الملعونة هي معروفة لدى السّامعين،

وقد ورد ذكرها في سورة الواقعة وسورة الصافات، والتّنصيص على كون شجرة الزقوم طعاما للآثمين في جهنم -والعياذ بالله- يذكّرهم بما ورد في أول السورة من وصف حالتهم في السّنين العجاف التي مرّت حتى أكلوا العظام والجيف وغشيت أبصارهم فرأوا على السّماء دخانا بتأثير لوعة الجوع، فها هم في يوم الجزاء يجدون ما هو أشدّ وأقسى من تلك الحالة الدنيوية التي مرت عليهم، وقد وصف الله تلك الشجرة بأوصاف مرعبة فشبّه مفعولها في البطون بدردي الزيت وعكر القطران وبالماء الساخن يقطع الأمعاء، ومع ذلك العذاب المادي الأليم الإهانة المعنوية إذ يقال لملائكة العذاب: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾، خذوا هذا الأثيم بعنف وشدة وجرّوه وادفعوه إلى وسط النار، وهو أشدّها احتراقا ولهيبا، ويقال: ﴿صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي، لإفادة أنّ صبّ الماء الحارّ فوق الرأس هو لإتمام عملية التعذيب باطنا وظاهرا، وقد جمع الله ذلك في قوله: ﴿يُصْبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (الحج:١٩-٢٠).

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾: هذه الجملة هي مقول قول من ملائكة العذاب للكافر الأثيم، جيء به بصيغة المفرد، ويراد به التهكم والتحقير، والمقصود به عكس مدلوله، أي أنت الذليل اللئيم، وإن كان الحكم ينطبق على كلّ أثيم في جهنّم، فإنّ سبب النزول يعزي ذلك الادّعاء إلى أبي جهل في ما رواه عكرمة عن أنّه قال: لقي رسول الله أبا جهل فقال: إنّ الله أمرني أن أقول لك: أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى، فترع يده من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علمت أنني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله الله يوم بدر وأذلّه وعيّره بكلمته إذ نزل فيه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

وهذا جزاء كلّ من يتكبّر ويتعالى بحظوظه الدنيوية حتى ممن يدّعي الإيمان، ولكنّه بتصرّفاته وأفعاله الذّميمة وبإصراره عليها من غير توبة من ذنوبه، لاشكّ أنه يسلك كذلك في عداد الشّاكّين من جزاء يوم القيامة ممن يقال لهم مع الكفار: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾، أي تشكّون في وقوعه، فليحذر الذين يخالفون عن أمر الله من مثل ذلك المصير، وقد قال تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (التكاثر:٥-٧).

وقد قال الشيخ أبو نصر في رائيته الدينية:

نرى الأمر عن علم اليقين تيقّنا ونعمل أعمال الذي شكّ في الأمر

وفي مقابل ذلك الشّقاء الأبدي للمجرمين يذكر الله أنواعا من نعيم الجنة للمتقين الأبرار فيقول: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مُقَامٍ أَمِينٍ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾**.

انتقل السياق من وصف عذاب الأثيم إلى بيان أنواع من نعيم الجنة للمتقين، وذلك على عادة القرآن في تعقيب الوعد أو العكس، وقد قابل الأثيم بالمتقين، وهم الذين اتّقوا الشرك والمعاصي فكان ذلك وقاية لهم من غضب الله وسخطه، فهؤلاء جزاؤهم في ذلك الفزع الأكبر أنهم في مقام أمين، والمقام -بضم الميم- هو مكان الإقامة، ووصفه بالأمين، من الأمان، وهو الوصف الأنسب لهول الموقف، فلا خوف عليهم من شيء ولا هم يخافون على شيء، فإذا توفّر الأمن واطمأنت النفوس فإنّ جمال المحيط يكتسب رونقه وبهاءه، فهو جنّات تجري من تحتها الأنهار لا يُخشى عليها قحط ولا جفاف ولا ندرة في الخيرات والثمرات: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾(الرعد:٣٥)، وهم يلبسون من الحلل الحريرية ما يناسب ذلك التّرف والنعيم. وقد تعدّدت أصناف الحرير ما

بين ليّن رقيق وغليظ قويّ، ذلك في الجانب الماديّ الذي يصفه الله بما ألفناه من أسماء النّعيم الدنيويّ، ولكن ما في الجنّة هو أنفس من ذلك وأغلى كما يقول ابن عباس ﷺ: ليس في الدنيا مما في الجنّة إلا الأسماء.

وقوله تعالى: ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾، إشارة إلى المؤانسة والمحبة التي تكون بين أهل الجنة، إذ أنّ مجالس الأنس بين الأصدقاء من ألذّ متع الحياة فهم على عكس الكفّار كما قال عنهم ربنا: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧). على أنّ نعيم الجنة متفاوت، إذ هو متفاضل على درجات بحسب التفاضل بين نزلائها، فالأمر في شأن هؤلاء كذلك المتقدم ذكره.

ومع ذلك: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: والحور: جمع حوراء، وهي البيضاء من النساء، وعين: جمع عيناء، وهي ذات العين الواسعة، أي إن المتقين كما أنسوا بمجالسة الأصحاب فهم يأنسون بأزواج مطهّرة من الحور العين، فتكتمل لهم بذلك المتعة الجسمية والمتعة النفسية، وقد قلت في شبابي في هذا المعنى:

إنّ السّعادة للمحبّ حبيبه ... فإذا نأى فبصحبة الإخوان
فكلاهما حلوٌ لديّ فكيف من ... تلك الحلاوة حين يجتمعان

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ، لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: ثمرات الجنّة لا حصر لها نوعًا وكمًا، والفاكهة من ألذّ وأطيب أنواع الأطعمة التي لا تتوفّر لكلّ الناس، ومعنى: ﴿يَدْعُونَ﴾ أي يأمرون أن تحضر لهم، وإضافة: ﴿كُلِّ﴾ إلى "فاكهة" للدلالة على الوفرة والكثرة مع

التنوع. ﴿-امِنِينَ﴾: هو أمن من انقطاعها ومنعها، وأمن من الأوجاع والأسقام التي تنجرّ عن أكلها كما يحدث ذلك في الدنيا. وعلى ما يتمتّعون به من تلك الأنواع من النّعيم فإنّ ما يزيدهم بها سعادة وهناء أنّ حياتهم باقية دائمة لا يخشون موتا ولا فناء أبدا، ولتأكيد نفي وقوع الموت جيء بالاستثناء: ﴿إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾، التي ذاقوها في الدنيا انتهى أمرها، ثم إنّ التأمين الرّبّاني لهم وضمان ذلك النعيم هو وقايتهم من عذاب النار.

﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: أي ينال أهل الجنة ذلك الجزاء تفضّلا من الرّبّ الرحيم، وفي اختيار هذه الصفة للذّات العليّة معنى الرّعاية، وإضافة إلى كاف الخطاب لرسول الله تشريف وتعظيم له، لإيمانهم به، ثم ذيل ذلك الإنعام بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، زيادة تعظيم لذلك الفضل.

ثم يأتي ختام السورة تنويها بشأن القرآن كما بدأت به لتأطير مضامينها فقال تعالى: **﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾**، الضمير يرجع إلى القرآن، وهو مفهوم من المقام، أي جعلناه سهلا ميسّرا لمن يتدبّر معانيه، إذ أنزلناه بلسانك جليّا واضحا بأفصح اللّغات وأجلّها، كي يتذكّر به قومك ويتّبعوا هديه، فذكّرهم به -أيها الرسول-، ولا تقنط من إعراضهم، وارتقب النّصر الذي وعدناك به، كما يرتقبون هم ما توعّدناهم من الإهلاك إن هم أصرّوا على عنادهم، وسيعلمون لمن يكون النّصر والغلبة في نهاية المطاف، كما قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ (القمر:٢٧). وقال في أواخر السجدة: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ (٣٠)، والله أعلم.

تمّت

سورة الجاثية، مكيّة، وآياتها ٣٧

بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بسورة الجاثية معرّفة باللاّم لما ذكر فيها دون غيرها من سور القرآن من قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨). وقد يضاف لاسمها الحرفان المقطّعان في أوّلها فيقال: حم الجاثية. وهي مكية في أسلوبها ومضمونها، وإحدى الحواميم السبع التي تقدم فضلها، وعدد آياتها سبع وثلاثون، وتظهر مناسبتها للسورة التي قبلها في التنويه بشأن القرآن الذي ختمت به السورة السابقة، وافتتحت به هذه السورة، وفي محاجة المشركين في عقائدهم الفاسدة.

وهي السورة الرابعة والستون في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة الدخان، وقبل الأحقاف، أمّا في ترتيب سور المصحف الشريف فهي الخامسة والأربعون.

بعض محاورها:

تشترك مع السّور المكّية في تأصيل العقيدة الإسلامية من الإيمان بوحدانية الله تعالى واليوم الآخر والاعتقاد بصدق الوحي والرسالة.

- افتتحت بالتنويه بشأن القرآن وتحدّي المشركين بإعجازه ثمّ الحثّ على دراسة الكون واكتشاف آياته الدّالة على عظمة الله وقدرته، والسعي لاستغلال خيرات الكون لمصلحة الإنسان.

- التنديد على المشركين بإصرارهم على الكفر وإعراضهم عن تدبّر آيات

القرآن: ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾(٨).

- إرشاد المؤمنين للإعراض عن الإساءة للكفار لأنّ الله هو الذي يجـزيهم على ما يفعلون: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾(١٤)

- التنظير بين الذين أهملوا النظر في آيات الله وخالفوا على رسولهم في ما فيه صلاحهم بحال بني إسرائيل في اختلافهم بعد أن جاءهم العلم، تحذيرا لهم مـن أن يقعوا في ما وقع فيه بنو إسرائيل.

- تثبيت رسول الله على ما جاءه من الحقّ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ (١٨).

- لا خير في علم لا يورث الصدق والإنصاف لصاحبه، فيبقى عبـد شهواته ونزواته: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾(٢٣)

- جاء ختام السّورة تهديدا بالبعث والحساب ووصفها لموقف النـاس أمام ربهم مع تمجيد الله بالحمد.

مصدر القرآن هو خالق السّماوات والأرض بالحقّ.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حٰمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ
مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ
مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ اللهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَءَايَٰتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿حم، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾: مرفوع باحتمالات ثلاثة: مرفوع بالابتداء خبره: ﴿مِنَ اللهِ﴾، أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف: هذا تنزيل، أو مرفوع على أنه خبر عن: ﴿حم﴾. ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: نعت لمدح الذات العلية. ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤمِنِينَ﴾: ﴿لآيَاتٍ﴾: أي علامات دالة على قدرة الله وهي في موضع نصب اسم لـ"إن". ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ -ايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾: أي ما ينشره ويفرقه في أجزاء الأرض مما يدبّ من الناس وغيرهم. ﴿-ايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: ﴿-ايَاتٌ﴾: إما بالرفع على الابتداء، ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾: خبره، أو بالنصب بالعطف على موضع إن واسمها وخبرها. ﴿وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: ﴿اخْتِلاَفِ﴾: يقرأ بالكسر وبالضمّ على الأوجه السابقة. ﴿وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾: أطلق الرزق على المطر على طريقة المجاز لأنه سبب توفّر الأقوات. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَءَايَاتِهِ يُومِنُونَ﴾: الاستفهام للتأييس والتعجيب، والمراد بالحديث القرآن لقوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ (الزمر:٢٣). والمراد بالآيات دلائل القدرة الإلهية في الأنفس والآفاق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿-ايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ﴿وءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿وءَايَاتٌ﴾ في الموضعين برفع ﴿وءَايَاتٌ﴾ فيهما على أنهما مبتدءان خبراهما المجروران، وتقدّر "في" محذوفة في قوله: ﴿وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. وقرأهما حمزة والكسائي وخلف: ﴿وءَايَاتٍ﴾ في الموضعين بكسرة نائبة عن الفتحة؛ لأنه جمع

مؤنث سالم، وقرأ يعقوب: ﴿ءَايَاتٌ﴾ الثانية فقط بكسر التّاء، على أنّه حال متعدّد. ﴿الرِّيَاحِ﴾: قرأ الجمهور بالجمع مراعاة لأنواعها، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالإفراد، والمراد جنس الريح. ﴿يُومِنُونَ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر وروح عن يعقوب، قرأوا بالتحتية. وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ورويس عن يعقوب، قرأوا بالتاء الفوقية للالتفات.

د)- البيان والتّفسير:

﴿حم﴾: تقدّمت نظائر هذه الافتتاحية بالحروف المقطعة في أوائل بعض السّور، وأجمعت كلمة المفسّرين على أنّها لتحدّي المشركين بإعجاز القرآن الكريم، والله أعلم بالمراد منها، و لم يصحّ عن رسول الله أي بيان لمعانيها.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: المراد بالكتاب هو القرآن العظيم، هذا الكتاب الذي يماري فيه المشركون ويتّهمون رسول الله بتقوّله من عنده على أنّه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، فبعد تحدّيهم أن يأتوا بأصغر سورة من مثله، وهو مؤلّف من الحروف التي ينطقون بها، يثبت الله تعالى بأنّه منزّل من عنده إلى رسوله، ويصف ذاته العليّة بأنّه العزيز الحكيم، فهو القويّ الغالي لا يملي عليه أحد من خلقه ما يقضي به في شؤون ملكه، وهو الحكيم في بديع صنعه، إذ خلق كلّ شيء فقدّره تقديرا، فإنزال هذا الكتاب على رسوله كان بمقتضى رحمته وفضله لعباده، إذ هم في أمسّ الحاجة إلى التّوجيه والإرشاد الرّبّاني بمقتضى ضعفهم النّفسي واختلاف طبائعهم وأفكارهم، فلا يهتدون إلى سواء السبيل إلاّ بذلك التّنزيل الرّبّاني الذي يرسم لهم الطريق الأقوم.

ولبيان دلائل العزّة والحكمة في ذاته العليّة ذكر الله بعض آيات قدرته في

الآفاق وفي الأنفس فقال: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

إنّ الآيات الكونية في السّماوات والأرض معروضة للأنظار تراها الخلائق العاقلة بل تعيش في حيّزها الزّمانيّ والمكاني، ويقرّ الكافرون بأنّها من خلق الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ (لقمان:٢٥). وفيها دلائل قاطعة على قدرة الله وعظمته وعلى وحدانيته التي تتمثّل في ذلك التناسق العجيب، وفي وحدة الصنع في الشيء الدقيق الصغير وفي الجرم الضخم الكبير: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء:٢٢). فالخطاب في الآيات موجّه للجميع. غير أنّ الذين ينتفعون بتلك الدّلالات إنّما هم المؤمنون والموقنون وحدهم، لأنّ الإيمان هو الذي ينير البصائر ويفتح القلوب لتتملّى عجائب تلك المخلوقات، وتتجاوب مع إيحاءاتها الخفية والظاهرة لقدرة اليد الصانعة التي أبدعت ذلك الكون العجيب:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد
ولله في كلّ تحركة وتسكنة أبدا شاهد

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: عطف الله على الخلق الخاصّ في أقطار السماوات والأرض، عطف الخلق الخاصّ بذواتنا لما في ذلك من التذكير بنعمة إيجادنا نحن بشرا سويًا على تلك المراحل العجيبة ونحن أجنّة في بطون أمّهاتنا، إلى أن نبصر نور الحياة كاملي الخلقة، فنقطع رحلة العمر في أطوار الضعف والقوة حتى نهاية الرحلة وفق ما قدّره الله لنا من آجال، وقد أحسن صورنا وزوّدنا بالطاقات البدنية والنفسية والعقلية بما يؤهّلنا

لتحمّل أمانة التكليف، فعجائب التكوين البشري في مجالاته المختلفة ما تزال محلّ أبحاث علمية دقيقة سيما النواحي النفسية للإنسان.

وتحسب أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وحسب الإنسان شرفا أن يكون في قمّة الكائنات الأرضية ولكن مظاهر الحياة حول الإنسان على وجه الأرض لا تقلّ غرابة، ولا هي أقلّ دلالة على قدرة الخالق، فلغز الحياة المحيّر يتمثّل في أبسط كائن من الجراثيم والفيروسات إلى أضخم مخلوق برّي أو مائي ممّا يدبّ أنواعا وأشكالا لا يحصيها إلاّ الله، وكلّ لها خصائصها ونظام حياتها مما علمناه وممّا لا نعلمه.

في كلّ ذلك آيات ودلائل على عظمة الخالق لقوم يوقنون، واليقين هو اطمئنان النفس إلى ما تحسّ به وتتأثر فلا يبقى لها من حيرة ولا قلق في ما آمنت به وهو ما عبّر عنه سيّدنا إبراهيم في إجابته على سؤال ربه إذ قال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: الجملة معطوفة على ما سبق، وظاهرة اختلاف الليل والنهار على سطح الأرض من أعظم الدّلائل على بديع صنع الله تسترعي الانتباه والتّأمّل بنظر العقل، وإن كنّا في حصيلة معارفنا البشرية قد أدركنا سبب تلك الظاهرة بدوران الأرض حول محورها حول الشمس مرة في كلّ أربع وعشرين ساعة، بسرعة دقيقة لا زيادة فيها ولا نقصان، حتى أصبح ذلك مألوفا عندنا.

ولكن هذه المعرفة العلمية المحدودة لا تحجب عن المؤمن الإيحاء الإيماني والاطمئنان اليقيني للقدرة الإلهية التي أوجدت تلك الظاهرة لضمان سير الحياة

على ظهر كوكبنا ثم توفير الأرزاق وعلاقة ذلك بإنزال الماء من السماء وتأثير الضوء والحرارة على الكائنات الحيّة، وما في تصريف الرياح المختلفة الاتجاهات والأنواع من المنافع المختلفة في سوق السحب وتلقيحها وفي تطهير المحيط يصرّفها الله كيف يشاء تارة نافعة وأخرى ضارّة.

في كلّ ذلك دلالات واضحة وبراهين قاطعة ينتفع بها ذوو العقول النيّرة الذين ينتظرون النّظر الصحيح إلى تلك المخلوقات فيدركون أنّ وراءها قوّة الخالق المبدع واحد لا شريك له، ونظير هذه الآيات جاءت في سورة البقرة بإضافة بعض الظواهر وتوحيد التّعقيب في آخرها بقوله: ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم في صيغة التعجيب بذكر الله من لم يؤمن بهذه الآيات الكونية الصامتة ولا بآيات القرآن الناطقة فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

هذه حجج الله وبراهينه الناطقة في القرآن تنبّه إلى تلك الظواهر الكونية الموحية بعظمة الخالق، تتلى عليك -أيها الرسول- بالحقّ لتبلّغها إلى الناس، وهي توقظ القلوب الغافلة وتخاطب العقول بلغتها الميسّرة، فمن لم يؤمن بها فرجاء أن يؤمن بسواها، فقد استكمل التبليغ كلّ وسائل الإقناع وبلغ مداه في إقامة الحجة وتوضيح الدلائل.

فمن لم يخضع لما يلقى عليه فهو ميؤوس من إيمانه إذ ليس بعد كلام الله وآياته المجلوّة في الآفاق وفي الأنفس، ليس بعد ذلك من وسيلة صادقة نافعة تؤثر على الإنسان السليم الفطرة.

والله أعلم.

وعيد المكذبين بآيات الله، وبيان نعمه على عباده.

أ)- النصّ:

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: ﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، دعاء بالشرّ، والأفّاك: مبالغة في الإفك أي الكذب، والأثيم: المبالغ في اقتراف الآثام. والمراد به كلّ المشركين المكذّبين لرسول الله. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: الإصرار: ملازمة الشيء، ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي الرّتبي لاستبعاد تأثّره بسماع آيات القرآن. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: الجملة في موقع الحال، شبه عدم الانتفاع بالآيات بعدم سماعها مبالغة. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: يراد بالتبشير التهكم. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾: أي إذا ألقى سمعه لفهم شيء من

القرآن سخر بما سمعه، فيلوكون الآيات بألسنتهم. ﴿مِنْ وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾: بعد أن هدّدهم بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: بيّن نوعية ذلك العذاب بأنه جهنم حيث لا ينفعهم ما كسبوه من مال أو جاه شيئا. ﴿هَذَا هُدًى﴾: الإشارة إلى القرآن على وجه التّعظيم وصف بأنه هدى بالمصدر للمبالغة. ﴿اللهُ الذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾: ﴿اللهُ الذِي﴾: مسند ومسند إليه، يفيد الحصر، أي الله لا غيره. ﴿سَخَّرَ﴾: بمعنى هيّأ وذلّل، ﴿الْفُلْكُ﴾: السفن، و"أل" للجنس، أي تجري لأسفاركم ونقل بضائعكم لتشكروا الله على نعمه. ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾: ﴿يَغْفِرُوا﴾: قيل: مجزوم في جواب الأمر. ﴿قُل﴾: وقيل: بتقدير لام الأمر محذوفا، أي: قل لهم ليغفروا. و﴿أَيَّامَ اللهِ﴾: أي أيام نصره ووقائعه بأعدائه، و﴿الذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾: هم المشركون بصفة عامة، ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمَاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: المراد بهم المؤمنون الذي صبروا على أذى المشركين يجزيهم الله على صبرهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمَاً﴾: قرأه الجمهور بتحتية في أوّله، والضمير المستتر عائد إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿أَيَّامَ اللهِ﴾. وقرأه أبو عامر وحمزة والكسائي وخلف بنون العظمة في أوّله على الالتفات. وقرأه أبو جعفر بتحتية في أوله مضمومة، وبفتح الزاي على البناء للمجهول، ونصب: ﴿قَوْمَاً﴾ على أنّ نائب الفاعل مصدر مأخوذ من فعل: يَجْزِي، والتقدير: ليجزى الجزاء. و﴿قَوْمَاً﴾: مفعول ثان لفعل ﴿يَجْزِيَ﴾، من باب: كسا، وأعطى. ﴿تُرْجَعُونَ﴾: قرأه الجمهور بالبناء للمجهول، وقرأه يعقوب بالبناء للمعلوم.

د)- البيان والتّفسير:

بعد وصفه تعالى للمنتفعين بدلالة آيات الله بالمؤمنين الموقنين العاقلين، والتحريض بالذين لم ينتفعوا بها، أتبع ذلك بالوعيد العظيم لكلّ من كذّب بآيات القرآن واستهزأ بها يوم لا تنفعهم أصنامهم ولا تغني أموالهم، ثم أورد الله بيان بعض نعمه على خلقه بتسخير السّفن الجواري في البحر وتسخير كلّ ما في السماوات والأرض لمنفعة الإنسان، وأرشد المؤمنين إلى تخفيف الضغط على الكفّار بالعفو والصفح، لأنّ جزاء العمل صالحا أو سيّئا يعود على نفس العامل. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ اَثِيمٍ، يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ، وَإِذَا عَلِمَ مِنَ -ايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا اُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

الويل: دعاء بالهلاك، وتنكيره للتفخيم والتهويل، حكم الله بذلك، وهو القويّ العزيز، على كلّ من اتّصف بصفتين ذميمتين:

أ)- ﴿أَفَّاكٍ﴾: صيغة مبالغة، من الإفك، أي الكذب؛ لأن مضارّ الكذب متفاوت على مقدار نوعية ذلك الكذب، ولذلك اعتبر الله قذف المحصنات إفكا، لما ينجرّ عنه من الشرّ والفساد، وكذا المكذّبُ بآيات الله الواضحة.

ب)- ﴿اَثِيمٍ﴾: أي المسرف في ارتكاب الآثام مما نهى الله عنه، ثم ذكر الله للأفاك الأثيم حالتين:

أ)- ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾، يسمع آيات الله في تجدّد واستمرار، وآيات الله المسموعة هي القرآن الكريم، يسمعها ويفهم معانيها، ولكنّه يعرض عنها

مستكبرا فلا تترك في نفسه أثرا بحيث يكون كمن لم يسمعها قطّ، ودوافع ذلك هو الإصرار والاستكبار، فالإصرار على الكفر والاستكبار يورثه الإعجاب بنفسه فيتعاظم على آيات الله بحظوظه الدنيوية.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: والتعبير بالبشرى في مثل تلك الحالة إنما هو للتهكّم والاحتقار بأن جزاءه عند الله يوم الدين هو العذاب الشديد في نار جهنم.

ب)- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ -ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾: هذه هي الحالة الثانية للأفاك الأثيم، وهي أنه لا يكتفي بالموقف السّلبي من التّكذيب والإعراض بل يتّخذ آيات هزؤا وسخرية، يتندر بها في الأوساط ويحطّ من قيمتها كما فعل أبو جهل اللّعين بكثير من آيات القرآن في مثل لفظ الزّقوم عندما دعا بثمر وزبد وقال لأصحابه: تزقّموا من هذا، ما يعدكم محمد إلا شهدا. وكذا النّضر بن الحارث الذي نزلت الآية في شأنه، وكذا آية سورة السّجدة، وهو يشغل الناس بقصصه الفارسية عن سماع القرآن الكريم.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ، مِنْ وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

و﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: كرّر الله الوعيد بعذاب مهين لأولئك المستكبرين المستهزئين، وهو جزاء وفاق لكلّ مستكبر جبّار، فليس أمامهم يوم القيامة إلاّ نار جهنم لا يقيهم من حرّها ما كانوا يتعالون به في الدنيا من الأموال والأولاد والأتباع كما لا تنفعهم الأصنام التي عبدوها من دون الله واستشفعوا بها يرجون منها النّفع ودفع الضرّ، ففي مستقرهم بجهنم يجدون العذاب العظيم.

ويلاحظ تكرار التهديد بأنواع من العذاب، إذ وصفه الله أوّلا بالأليم ثم بالمهين، وذلك خلال بيان أحوال المستكبرين المستهزئين، ولعلّ المراد -والله أعلم- هو ما يعاجلهم الله به من العذاب الدّنيويّ بالأسر والقتل، ثمّ العذاب الذي ينتظرهم في البرزخ قبل موعد البعث والنشور، وبعدهما يأتي العذاب العظيم في قعر جهنم، والعياذ بالله.

وبما أنّ الكلام يتناول موقف المشركين من القرآن، وقد نوّه الله بشأنه بكونه منزلا من عند الله وأنّه من آياته الناطقة بوحدانيته وعظمته، فقد أردف هنا فوصفه بأعظم الصفات فقال:

﴿هَذَا هُدًى وَالذِينَ كَفَرُوا بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ اَلِيمٌ﴾: جاءت الجملة على الاستئناف الابتدائي مكوّنة من مبتدأ وخبر، ولمّا كان القرآن في حال النزول والتلاوة فقد أشير إليه كالشيء الحاضر المشاهد إشارة تعظيم وإجلال، ووصفه بالمصدر: ﴿هُدًى﴾ للمبالغة، فهو مصدر الهداية للخلق منزّل من ربّ العالمين رحمة بهم وتحقيقا لما تقتضيه مصلحتهم من الرعاية والتربية، ومع آيات الله المتلوّة في القرآن آيات الله المجلوّة في الأكوان يكرّر الله وعيد المعرضين الكافرين بعذاب الرجز، وهو أشدّ العذاب. وبمثل هذا التفصيل لألوان من العذاب تكون الإجابة الكاملة للسؤال التعجبي في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَءَايَاتِهِ يُومِنُونَ﴾.

وبعد استيفاء الأدلّة لوجود الله ووحدانيته ينتقل النّصّ إلى بيان بعض نعمه على خلقه وما سخّر لهم في أرجاء ملكه لينتفعوا به وليشكروا تلك النعم فقال: **﴿اللهُ الذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**. والتذكير بنعم الله بعد التذكير بجلاله وعظمته، من شأنه أن يربط ضمير الإنسان في التدبّر والتأمّل لطلب الشكر وتعظيم

المنعم، فقد يتبلّد الحسّ الإيماني لدى الإنسان بحكم الإلف والعادة فلا يلتفت إلى يد الله وألطافه الخفية وهو يسعى لاستغلال كلّ طاقاته لضمان رزقه وإسعاد حياته.

وللبحر إيحاءاته القويّة في وجدان الإنسان نظرا لضخامته وقوّته من جهة ولتعدّد منافعه من جهة أخرى، فمَن غير الله يسخّره ويذلّله لخدمة الإنسان، ولهذا جاء التعبير يفيد الحصر بتعريف الجزأين في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾، ولا شكّ أنّ وسائل ذلك التسخير تتمثّل في كثير من الأشياء هي كلّها من خلقه، بل حتى تمكين الإنسان وإقداره لتسخيرها هي من فضل الله، وقد أجمل تلك المنافع في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾، بسفركم عليه ونقل بضائعكم واستخراج الأرزاق ووسائل الزينة من بطنه...إلخ.

ثم عمّم الله نعمته في تسخير كلّ ما في السماوات والأرض وذلك هو المجال الواسع الذي يستوعب كلّ الطاقات البشرية في البحث والاكتشاف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فقال: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾. جاء التعقيب بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، جاء مناسبا للإرشاد إلى حسن التّفكّر والتّأمّل لقدرة الله المنعم المسخّر لتلك الآيات، وحسن التأمل يقتضي الشكر والحمد.

﴿**قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾: الخطاب لرسول الله في معرض توجيهه لأصحابه المؤمنين ليستثير عاطفتهم للرحمة التي يقتضيها الإيمان فيكظمون غيظهم أزاء ما يتعرضون له من أنواع الأذى من طرف خصومهم من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب،

سيما في الاحتكاكات الشخصية -أحيانا- وقد نبّههم الله إلى ذلك في قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦). وقد وصف الله أولئك الخصوم بأنهم لا يرجون أيام الله، وهم بالدرجة الأولى مشركو مكة.

وأيّام الله هي الأيام المشهودة، بتحقيق نصره لأوليائه وإيقاع الهلاك بأعدائه، وهي المرادة بقوله تعالى على لسان موسى لقومه في سورة إبراهيم: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَآ أَنَ اَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيـــَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٥). وإذا توسّعنا في المعنى نقول: ﴿لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾، أي لا يؤمنون بأيام حسابه وجزائه في اليوم الآخر، على معنى قوله: ﴿وَقَالَ الذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ (الفرقان:٢١). ومعنى الآية أنّ المؤمنين أمروا بالعفو والصفح عن أذى المشركين كما تكرّر هذا التوجيه في القرآن سيما في الفترة المكّية توفيرا لمناخ الهدوء والمتاركة بين المسلمين والمشركين.

وقد نقل الإمام ابن عاشور عن الإمام القرطبي قوله في الموضوع: "وقد تكرّر في القرآن مثل هذا الأمر بالصّفح عن المشركين والعفو عنهم والإعراض عن أذاهم، ولكن كان أكثر الآيات أمرا للنبي ﷺ في نفسه، وكانت هذه أمرا له بأن يبلّغ للمؤمنين ذلك يشعر بأنّ الآية نزلت في وقت كان المسلمون قد كثروا وأحسّوا بعزّتهم، فأمروا بالعفو وأن يكلوا أمر نصرهم إلى الله تعالى".[1]

قلت: تذكر الروايات عدّة أسباب للنزول تتعلق بسيدنا عمر حين شتمه

١- التحرير والتنوير: ٣٣٨/٢٥.

أحد المشركين فهمّ بقتله، فنزلت الآية، مما يدلّ على أن هذا التوجيه الإلهي إنما يكون في القضايا الفردية بين الأشخاص، لا تقابل فيها السّيئة بمثلها، أما القضايا العامّة التي تهدّد كيان الإسلام فلا بد فيها من الرّدّ الحازم كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾(التوبة:٣٦).

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، تعليل للأمر بالعفو والمغفرة، أي إنّه تعالى يجزي المؤمنين على صبرهم وتحمّلهم، يجزيهم بالنصر ودحر أعدائهم. وجيء بلفظ: ﴿قَوْماً﴾ بصيغة التنكير للتعظيم وأنهم لهم حرمتهم عند الله. ثم أوضح الله في حكم عام أنّ الإحسان والإساءة في المعاملة تعود على المحسن والمسيء بالخير أو بالشّرّ ثم يصير الجمع إلى الله للجزاء الأخروي، أمّا الجزاء الدنيوي العاجل فهو مرهون بمشيئة الله، فمن أمهله الله ولم يعجل بجزائه في الدنيا فلا ينفلت من الجزاء الأخرويّ الذي لا ظلم فيه، والله أعلم.

اختلاف بني إسرائيل على نعم الله، واصطفاء الأمّة المحمّدية بالرّسالة الإنسانية.

أ)- النصّ:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ

أَللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ﴾: آتى: يتعدّى إلى مفعولين. ﴿الْكِتَابَ﴾: التوراة. ﴿وَالْحُكْمَ﴾: يحتمل أن يراد به الحكمة في فهم الدين ومحاسن الأخلاق، ويحتمل الحكم، أي السيادة والفصل في أقضية الناس؛ لأنهم كانوا ملوكا وحكاما. ﴿وَالنُّبُوءَةَ﴾: أي كثرة الأنبياء فيهم. ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: أفاض الله عليهم من خيرات بلا الشام وما جاورها، أما تفضيلهم على العالمين، فهو بمعنى أمم زمانهم بأن جمعوا بين استقامة الدين وبين استقلالهم بسيادتهم. ﴿وَءَاتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾: البيّنة الحجة الظّاهرة للحقّ والعدل فيما ينصّ عليه كتابهم. ﴿مِنَ الأَمْرِ﴾: أي في شأن من شؤون ملكهم مما وضحه رسلهم وأنبياؤهم. ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾: البغي: الظلم. أي إن اختلافهم كان عن عمد ومكابرة، ﴿بَغْياً﴾: منصوب على المفعول لأجله. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾: ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي الرتبي. ﴿عَلَى﴾: للاستعلاء. وتنكير شريعة للتعظيم، وهي أحكام الدين من حلال وحرام. والشرع: هو الطريق لورد الماء، استعير لدين الله. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في موقع الرفع خبر: ﴿إِنَّ﴾. ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾: الإشارة إلى القرآن، ﴿بَصَائِرُ﴾: جمع بصيرة، وهي قوة الإدراك للأمور على حقيقتها فهي للنفس كالنور للعين.

ج)- البيان والتفسير:

على تكرار التهديد والوعيد لكل أفّاك أثيم وذكر الإرشاد الإلهيّ

للمؤمنين للترفّق بالمشركين في المعاملة وأن يكلوا أمر جزائهم إلى الله، وبعد أن ذكّر الله بنعمته العامّة على خلقه، أعقبها هنا بذكر نعمه الخاصّة على بني إسرائيل واختلافهم عليها ليمهّد بذلك إلى ذكر نعمته العظمى على الإنسانية جمعاء بإنزال الشريعة الإسلامية التي كانت هدى ورحمة للناس وأمر رسوله بالثبات عليها والالتزام بها، فقال جلّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَءَاتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

كثيرا ما يأتي التنظير بين أحوال المشركين في وقت التنزيل أزاء الدعوة الإسلامية وبين أحوال بني إسرائيل ومواقفهم من رسلهم وأنبيائهم، لما في ذلك من التسلية لرسول الله، والاعتبار بأحوال الأمم السابقة، فجيء بخبر بني إسرائيل مؤكّدا بلام القسم و"قَد" المفيدة للتحقيق لبيان ما آتاهم الله من النعم الخاصة والميزات التي تؤهلهم يومئذ لحمل رسالة الله إلى النّاس، ولكنهم اختلفوا فحرّفوا وبدّلوا وفق أهوائهم وبدافع الظلم والحسد بينهم.

وقد فصّل الله تلك النعم الخاصّة؛ وهي تتمثّل في نعم دينية ونعم دنيوية فبدأ بالأولى، أي الدينية؛ لأنّها هي أساس الصلاح والعمران فقال:﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ﴾.

أ)- ﴿الْكِتَابَ﴾: وهو التوراة المنزلة على موسى فيها هدى ونور كما وصفها الله تعالى.

ب)- ﴿وَالْحُكْمَ﴾: إمّا من الحكمة، وتعني كمال العقل والرشد في فهم حقائق الأشياء، وإمّا بمعنى السّيادة والقضاء للفصل في قضية النّاس، لأنّ

بعض رسلهم جمعوا بين الرّسالة والملك كداود وسليمان، قال تعالى في شأنهما: ﴿وَكُلاًّ اتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء:٧٩).

ج)- ﴿وَالنُّبوءَةَ﴾: وهي الوحي المنزل من الله على رسلهم وأنبيائهم والمتمثّل بالخصوص في التوراة والإنجيل، وقد قدّر الله في تلك الحقبة من الزمان أن اختارهم لحمل رسالة التوحيد إلى الناس، فحباهم ببعض المنن تؤهلهم إلى ذلك فقال تعالى:

أ)- ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: وذلك ببسط نفوذهم على خيرات بلاد الشام في ما بين الفرات والنيل، وهي أرض مباركة تفيض بالخيرات، ومن ذلك الأنعام عليهم بالمنّ والسلوى.

ب)- ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: هم مفضّلون على عالمي زمانهم على اعتبار كثرة أنبيائهم، وعلى قدر تطبيقهم لشريعة الله والتزامهم بأحكامها ولكنّهم عندما خاسوا بعهد الله.واختلفوا وقتلوا رسله، زحزحهم الله عن قيادة الأمم، فقطّعهم في الأرض أمما وضرب عليهم الذّلة والمسكنة.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾، معناه أنّه تعالى أقام عليهم الحجج والبراهين بما بيّنه لهم من أحكام الدّين، يرسم لهم طريق الحقّ والهدى، فلا يتخبطون في الشك والارتياب.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُم﴾: فرّع الله على ما خصّهم به من المنن والمزايا، سيما تلك البينات التي تصلح شأنهم وترفع قدرهم، وكان من المفروض أن توحّد غايتهم وتزيل أسباب التفرق بينهم، ولكنهم كانوا على العكس من ذلك إذ تجبّروا وطغوا وتنافسوا على الرئاسة، فدبّ الخلاف بينهم، وتمكنت الحظوظ الدنيوية من نفوسهم، فحسد بعضهم

بعضا كما حسدوا العرب عندما بعث فيهم النبي الخاتم، بل اختلفوا حتى على عيسى وهمّوا بقتله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: وتوجيه الخطاب إلى الرسول في إخباره بما سيكون من قضاء الله بينهم يوم القيامة، فيه تحذير للأمة الإسلامية من مغبة الاختلاف، لأنّه تعالى قد اصطفاها وآتاها من الفضل بأعظم مما آتى بني إسرائيل فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

ما أروع التعبير بالجعل على الشريعة، فهو أدلّ على التمكين والاستعلاء، والعطف بـ"ثم" للدلالة على التراخي الرّتبي، حتى لكأنه تعالى قد طوى صفحة بني إسرائيل من دور القيادة البشرية بعد بغيهم واختلافهم، فعوّضهم بمن هم أصلح لتلك القيادة على منهاج الحقّ والهدى المنزل من ربّ العالمين، والتعبير بالشريعة بصيغة التنكير ينمّ عن التعظيم، وشبّهت بالطريق الموصلة إلى الماء، لما فيها من حياة النفوس وتطهيرها، فرّع الله عليها أمره لرسوله بقوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾، أي الزم السير عليها على الدوام بتنفيذ أحكامها كما أمرك الله.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: التأكيد بالأمر والنهي، و﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم كلّ المشركين، إذ يحكّمون أهواءهم في ما يعبدون من دون الله، مما يدلّ على أنّ كلّ اتّباع لغير ما أنزل الله فهو خارج عن شريعة الله وصراطه المستقيم، إذ لا يعني إرشاد الله للمؤمنين بالصفح للذين لا يرجون أيام الله -كما تقدم- لا يعني ذلك مداهنتهم أو مصانعتهم في أمور الدين، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟. فالجهل بأحكام الشريعة وأمور الدين لا يتولّد

عنه إلا اتّباع الهوى، فليس ثمت إلاّ أمران:

أ)- التزام بشريعة الله اعتقادا وعملا وسلوكا كما شرعه الله، وهو أعلم بما يصلح لعباده، وفي ذلك ضمان معيّة الله ونصره، وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.

ب)- جهل بأحكام الدّين أو غرور ببعض المكتسبات العلمية المادية تفتن صاحبها فيسخر بكل ما يتعلق بالوحي والنبوءة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ (غافر:٨٣).

فهذا الإرشاد الإلهي موجّه إلى الأمة الإسلامية من خلال رسولها، كي تلتزم شريعة ربها، حتى لا يفتنها أصحاب الأهواء على مختلف أصنافهم، لأنّ هؤلاء لن يستطيعوا مهما أوتوا من قوة ونفوذ، أن يصرفوا عنها من عذاب الله شيئا، إذا ما أراد تربيتهم بنوائب الدّهر، وأشدّها أن يذيق بعضهم بأس بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، تعليل ثان وصفوا فيه بالظلم، وهو ما يدفعهم إلى التناصر والتآمر ضدّ من لا يكون على شاكلتهم، فلا يجوز للمؤمنين أن يستنصروا بأعدائهم ضدّ بعضهم بعض كما تصرّح بذلك كثير من الآيات الأخرى، والله وليّ المتقين، الذين يتّقون كلّ ما يغضب الله، ينصرهم ويتولّى جميع أمورهم في الدنيا والآخرة.

﴿هَذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: عود إلى التنويه بشأن القرآن، وجاءت الإشارة بالمذكّر، إذ القرآن حاضر في ذهن السامع، وقد قيل عنه في ما سبق: ﴿هَذَا هُدًى﴾.

و﴿بَصَآئِرُ﴾: جمع بصيرة، وهي كمال العقل في إدراك حقائق الأشياء، وقد أودع الله تلك القوة الروحانية في أصل فطرة الإنسان، فهي من الحواسّ

الباطنة طوع كلّ إنسان، ولذلك عدّي إلى "الناس" بصفة عامة، بينما جعل الهدى والرحمة خاصّين بقوم يوقنون، أي الذين تمكّن الإيمان من قلوبهم فلا أثر فيها للشكّ والارتياب، فهؤلاء هم الذين ينتفعون بسماع القرآن وتدبّره كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (القتال:١٧). فاللّهم نور بصائرنا بهدى كتابك وزدنا به هدى ورحمة، والله أعلم.

التعجيب من أحوال عبيد أهوائهم، ومن الدّهريين في إنكارهم للبعث.

أ)- النصّ:

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾: ﴿أَمْ﴾: للاضراب الانتقالي، والاستفهام المقدّر بعده إنكاري. و﴿الذِينَ﴾: في موقع رفع بـ:﴿حَسِبَ﴾. ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾: "إن" وصِلتها بمعنى المفعولين لـ﴿حسب﴾، ومعنى: ﴿اجْتَرَحُوا﴾: اكتسبوا، ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ﴾: مبتدأ وخبر، ومن قرأ: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب فهو في موضع نصب حال. ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: الاستفهام للتعجيب والخطاب فيه لغير معيّن، ﴿مَنِ﴾: في موضع نصب، ﴿إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾: مفعولي ﴿اتَّخَذَ﴾، والهوى ما تهواه النفس. يقول ابن عباس: ما تحت أديم السماء إله يعبد من دون الله الهوى إلا ذمّه. ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾: ﴿أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: أي أحاطه بأسباب الضلالة مع أنهم بلغهم من القرآن ما يهديهم. ومعنى الختم على السمع والقلب هو الطبع عليها فلا يسمع الحقّ ولا ينفذ نوره إلى قلبه، والغشاوة على العينين بمعنى الغطاء والظلمة. ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدَّهْرُ﴾: أي أنهم يحصرون الحياة والموت في العالم الدنيوي بطول السنين ومرّ الأيام والليالي، ويسمّى هؤلاء بالدهريين. ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِئَابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾: خبر "كان" مقدّم. ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا﴾: اسمها. ﴿ائْتُوا بِئَابَآئِنَآ﴾: أي أحياء.

ج) - أوجه القراءة:

﴿سَوَآءً﴾: قرأه الجمهور مرفوعا فيكون موقع جملة: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ﴾ موقع البدل من كاف التشبيه التي هي بمعنى: مثل، أو على أنه خبر مقدم، و ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف منصوبا، على أنه مفعول ثان لـ﴿نَجْعَلَهُمْ﴾. ﴿غِشَاوَةً﴾: قرأ الجمهور بكسر الغين وفتح الشين بعدها ألف، وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿غَشْوَةً﴾ بفتح الغين وسكون الشين، أي من التسمية بالمصدر. ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾: قرأ

الجمهور بتشديد الذال، وقرأه عاصم بتخفيف الذال، وأصله عند الجميع: تتذكّرون.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تهديد الله للمشركين على استهزائهم بآيات الله، وأمره للمؤمنين بالتلطف في معاملتهم، وتثبيته لرسول الله على ملازمة الشريعة الإسلامية انتقل النّصّ إلى وصف نوع آخر من ضلال المشركين في تسويتهم بينهم وبين المؤمنين الصادقين بأن يكون عظيمهم في الدنيا عظيمهم في الآخرة، وإحالتهم الحياة بعد الموت والجزاء على الأعمال، ثم الرّدّ على شبهاتهم بالتعجيب من حالهم كيف اتخذوا آلهتهم أهواءهم، وجعل الجزاء منوطا بالكسب والعمل، وأنّه تعالى تامّ القدرة على الإحياء والإماتة وجمع الناس ليوم الفصل.

﴿أَمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ، وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾:

يعقّب الله على ما تقدم من بيان ولاية الظالمين لبعضهم بعض، وأن الله وليّ المتقين، وكيف يكون القرآن هدى ورحمة يرفعهم إلى درجة اليقين، وقد كان فريق من المشركين -كما تذكره روايات أسباب النزول- أنهم كانوا يقولون لبعض المؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقا لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أننا أفضل حالا منكم في الدنيا. فأنكر الله عليهم ذلك، إذ نزلت هذه الآية بصيغة الإضراب الانتقالي المتضمن للاستفهام الإنكاري، ينكر الله به أن يسوّي في المنزلة والقدر بين أولئك الذين

اقترفوا الآثام والمعاصي في الدنيا، وبين الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات بامتثال الأوامر واجتناب النواهي. فليس ذلك من العدل والقسط الذي قامت عليه السماوات والأرض، بل قام عليه كلّ ما في الكون، وهو ما تقوم عليه قيم العباد في ميزان الله، سواء في الحياة أو في الممات، وذلك أنه تعالى أناط الجزاء بالكسب والعمل، فلا تظلم نفس شيئا.

وهذا المعنى تقررت قاعدته في القرآن الكريم؛ لأنه أصل من أصول العقيدة والشريعة إذ قال تعالى:

أ)- ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم:٣٥- ٣٦).

ب)- ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ (السجدة:١٨).

ج)- ﴿أَمْ نَجْعَلُ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص:٢٨).

وربما كان أهل الكتاب من أكثر الناس تعاظما على النّاس في أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنّ الجنّة خاصة بهم.

ودرءا لهذه المزاعم أن يغترّ بها المسلمون قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَّعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ (النساء:١٢٣).

وقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، تذييل لما قبلها من الإنكار، وفعل: ﴿سَآءَ﴾ للذّمّ، أي قبح قبحا شديدا ما يحكمون به على الله من ذلك الحيف في أحكامه تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ

﴿سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: يرسم الله تعالى في تعجيب صورة مثيرة لنموذج من الناس يعبد هوى نفسه تاركا القيم الثابتة التي يبيّنها الدين وتنسجم مع العقل السليم والفطرة الطاهرة، فهو يتحرّك ويتقلّب مع هواه، خاضعا لما يمليه عليه سلطانه جاعلا هواه إلها من دون الله، يصدر عنه تصوّراته وأحكامه، يتلقّى إيحاءاته بالطّاعة والتسليم، إذا أصبح فهمّه بطنه وفرجه وأمر دنياه، كما ورد في الحديث، فمثل هذا النوع من الناس يستحقّ الاستغراب والتعجيب.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾، بمعنى: أخبرني عن حال هؤلاء وقد جازاه الله بما يستحقّ وفق اختياره الحرّ، إذ حكم عليه بأشياء لا ينفكّ عنها ولا تزيده إلا تيها وضلالا، فقال:

أ)- ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: فإضلاله كان بعلم الله لأنّ ذلك ما يستحقّه بكسبه واختياره، ولأنه كان على علم بوجه الحقّ والهدى بعد قيام الحجّة عليه.

ب)- ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾: والختم على الشيء هو سدّ ما ينفذ إليه سدّا مانعا، فقد انطمست لديه منافذ النور من حاستي السمع والبصر، وبالتالي تتعطّل فيه أدوات الإدراك في قلبه وعقله.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ﴾: والهدى هدى الله، فمن غيره يوفّقه للحقّ والصواب، ويفتح له منافذ الهداية؟. لا أحد غيره، فالاستفهام للنفي: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، استفهام إنكاريّ مفرّع عما سبق، فيه لوم عن عدم تذكّر المخاطبين لتلك الحقائق الحتمية في نظام الله التكوينيّ لنفس من يتخذ إلهه هواه كيف نسوها وطمعوا بهداية أولئك الضالين. والآية -وإن كانت في الأصل للكافر الجاحد- فإنها أيضا تحذير للمؤمنين من غلبة الهوى على أعمالهم بأيّ

دافع من دوافع العنصرية أو المذهبية أو غيرهما من محبطات الأعمال حتى يتركوا اتّباع أدلّة الحقّ في ما ثبت من المصادر الشرعية المعتمدة.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ، وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِئَابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾:

﴿وَقَالُوا﴾: أي المشركون المنكرون للبعث وعلى شاكلتهم من يسمّون اليوم بالدهريين أو الطبيعيين الذين قصرت نظرهم على المشاهد المحسوس، وينكرون ما وراء ذلك من أمور الغيب، فيعتقدون أنّ الموت الذي ينتابهم إنما يحدث بمرور الأيام والليالي، أو ما عبّروا عنه بالدّهر ويقولون: الأرحام تدفع والأرض تبلع، وليس وراء ذلك شيء. وفي ذلك إنكار صريح لقدرة الإله الفاعلة في تدبير تلك الأسباب، وكان العرب في الجاهلية إذا أصابهم ضرّ أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر، وربما سبّوه وشتموه، فنهى الرسول عن ذلك إذ ورد في الصحاح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «**يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار**»[1].

وقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: أي في الحياة الدنيا، أي في الحاضر المعيش، فمن مات فقد انتهى أمره، ثم ردّ الله شبهتهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾، أي ليس لهم أي دليل من نقل أو عقل يعتمدون عليه، بل هو الظّنّ الذي لا يغني من الحقّ شيئا، فكلّ قول لا يستند إلى دليل معقول

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٦٨) التفسير، باب (٣١٥) تفسير سورة حم الجاثية، رقم ٤٥٤٩: ٤/١٨٢٥.

فهو باطل وقائله في ضلال، يقول أبو العلاء المعرّي:

خلق الناس للبقاء فضلّت أمّة يحسبونهم للنّفاد
إنما ينقلون من دار غرو ر إلى دار شقوة أو رشاد
فاللبيب اللبيب من ليس يغـ ـترّ بكون مصيره للفساد

وهم في إنكارهم للبعث يستندون إلى حجة واهية أخرى لا تقلّ غرابة وسطحية عن سابقتها، وذلك عندما يطلبون إحضار آبائهم الميّتين كلّما واجهتهم آيات القرآن بأخبار القيامة والبعث. وهي مغالطة مفضوحة، إذ الحياة الأولى ما تزال مستمرة في الخلق، وإنما الحياة الثانية للبعث والنشور لها ميقاتها المعلوم عند الله وفق ما قامت عليه نواميس الوجود، فهي لا تتغيّر لمقترحات البشر المغرضة الساذجة، وإلاّ فإنّ في توفير أسباب الحياة الأولى مجالا للتّدبّر والنّظر في قدرة الله، فهل عرفوا لغز الحياة الأولى وهي تتحرك في أنفسهم وبين أيديهم؟. فلو علموا ذلك لما ارتابوا في قدرة الخالق لإنشاء الحياة الثانية، ولكنّه الجهل وعمى البصيرة.

﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾:

أمر الله رسوله أن ينبّه منكري البعث إلى واقعهم في الحياة كيف متّعهم الله بكلّ ما تتمّ به حياتهم من مختلف النّعم والأسباب، وقد قدّر لكلّ واحد أجله، ثم يموت بعد انقضاء أجله، ثم يجمع الخلائق كلّها ليوم لا ريب فيه للحساب والجزاء، وذلك مقتضى عدله وحكمته، لأنّه منزّه عن الظّلم والجور، كما تقدّم ذلك في الآيات السابقة، وفي التعقيب على هذه الحقيقة الوجودية الكبرى يقول تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، إذ يفترق الناس في

الإيمان بتلك الحقائق الغيبية على قدر إيمانهم بالغيب حتى ولو كانوا مؤمنين، وقد علّق الإمام القرطبيّ على شريحة من هؤلاء فقال: "وحدث في الإسلام أقوام ليس بمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين فيتأوّلون، ويرون القيامة موت البدن، ويرون الثواب والعقاب خيالات تقع للأرواح بزعمهم، فشرّ هؤلاء أضرّ من شرّ جميع الكفار، لأن هؤلاء يلبسون الحقّ ويغترّ بتلبيسهم الظاهر، والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم".

قلت: وفي هذا المعنى يقول تعالى:

- ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج:٦-٧).
- ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (الشورى:١٨).

والله أعلم

مشاهد من يوم القيامة لبيان أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين، وأنّ الله هو الكبير المتعالي.

أ)- النصّ:

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾
وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾: ﴿تَرَى﴾: الخطاب لكلّ من يصلح له، والأمة: الجماعة العظيمة من الناس، ﴿جَاثِيَةً﴾: باركة على رُكبها في هيئة ذلّة وخضوع كالجاني. ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾: قيل: إنّ الكتاب هو كتاب نبيّها تحاسب هل عملت به. وقيل: صحيفة أعمالها. و"أل" للجنس، ﴿كُلُّ﴾: الثاني إمّا مرفوع على أنه مبتدأ. ﴿تُدْعَىٰ﴾ خبر، وإمّا منصوب على البدلية من ﴿كُلُّ﴾ الأول. ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: الإشارة إلى الكتاب على الاحتمالين السابقين، وإضافته إلى لفظ الجلالة لأنّه تعالى مصدر التكليف، ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾: أي يكون شهيدا على أعمالهم، ﴿نَسْتَنسِخُ﴾: أي نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم. ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ - آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: الاستفهام للتوبيخ، والآيات المتلوة هي القرآن وغيره من الكتب السماوية الأخرى. ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾: ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي﴾: في موضع نصب مقول القول، ﴿مَا السَّاعَةُ﴾: ﴿السَّاعَةُ﴾: مبتدأ، و﴿مَا﴾: خبره، وإذا قرئت ﴿السَّاعَةَ﴾ بالنّصب فهي مفعول لـ﴿نَدْرِي﴾ وتكون: ﴿مَا﴾ زائدة، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾: أي إنّ هذه الأخبار عن الساعة لا

تفيدنا إلا ظنّا احتماليا لا يصل إلى درجة العلم اليقيني، كما أكّدوا ذلك بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾. ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾: استعارة تمثيلية، شبّه تركهم في العذاب بمن سجن في مكان فنسيه السّجان وتركه من غير طعام وشراب. والمعنى: نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي. وفيه مشاكلة لفظية، لأنه تعالى لا ينسى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾(مريم:٦٤). ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: من الإعتاب، وهو إعطاء الرّضى، أي لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم بأن يرضوه بالتوبة. ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَآءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾: ﴿الْكِبْرِيَآءُ﴾: العظمة والسلطان لله وحده.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾: قرأ الجمهور برفع: ﴿كُلُّ﴾ على أنه مبتدأ، و﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾: خبره، وقرأه يعقوب بالنصب على البدلية من قوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾، فتكون جملة: ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ حالا. ﴿وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾: قرأ الجمهور برفع ﴿وَالسَّاعَةُ﴾، عطف على جملة: ﴿إِنْ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾، وقرأه حمزة وحده بالنصب، عطفا على: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾. ﴿لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾: قرأ الجمهور بضمّ الياء وفتح الراء بالبناء للمجهول، وقرأه حمزة والكسائي بفتح الياء وضم الراء بالبناء للمعلوم.

د)- البيان والتّفسير:

على ذكر قدرته تعالى في الإحياء والإماتة أثبت لذاته العليّة ملكيته السماوات والأرض، فهو وحده المتصرّف في أحوالها، ومن ذلك تحديد ميقات فنائها لقيام الساعة: وأنذر بسوء العاقبة الذين أنكروها، ثم عرض لقطات من أحوالها، مركّزا على ترهيب المجرمين بما يحيق بهم من عذاب جهنم وبمعاملتهم معاملة المسيء المنبوذ، ثم يأتي ختام السورة منسجما مع بدايتها في تمجيد الله

وتعظيمه وتفردّه بالكبرياء والسلطة قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ، وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أثبت الله ملكية السماوات والأرض لذاته العليّة وحده بصيغة القصر بتقديم الخبر على المبتدأ ترسيخا للعقيدة الإيمانية في وحدانية الله وتمهيدا للحديث عن قيام الساعة، وهي مربط الفرس في محاجّة المشركين، إذ أعقب ذكر يوم القيامة بالحكم على منكريه بالخسران، وجاء وصفهم بالباطل لاختيارهم طريقه بعد أن تبيّن لهم الحق وعرفوه ولم يذكر متعلّق الخسارة، لتكون شاملة لكلّ جوانب حياتهم.

ولتهويل ذلك اليوم أكّده بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَتَرَى﴾: الخطاب لغير معيّن، والأمة: الجماعة من الناس، وكونها جاثية على ركبها أو قائمة على أصابع أرجلها هو لتشخيص خضوعها أمام المحكمة الإلهية لفصل القضاء فيعرض عليها كتابها، وهو يحتمل معنيين:

أ)- أي الكتاب المنزل من عند الله على رسول تلك الأمّة لمحاسبتها على مدى تنفيذها لأحكامه وتوجيهاته وهذا على معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٨٩).

ب)- أو يكون المقصود كتاب الأعمال المسجّلة في صحف الخلق، فتكون الإضافة إلى الأمّة يراد بها الجنس على التوزيع، وهذا على معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا

يـــلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (الإسراء:١٣).

وقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي أنتم في موقف الجزاء على الأعمال التي قدّمتموها في دار التكليف، توفون أجوركم عليها إن خيرا أو شرّا. ويقال لهم: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾، والإشارة إلى الكتاب على التأويلين السابقين، والإضافة إلى نون العظمة ووصفه بالنطق بالحقّ مجازا لإثبات الشهادة لهم أو عليهم، ولكن الاكتفاء بـــ"على" هو لتغليب جانب التهديد للمجرمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ استئناف بياني لإزالة الحيرة والشّكّ في أي لُبس أو ظلم في المحاكمة والمحاسبة، والتعبير بالاستنساخ فيه معنى التوثيق والتّثبيت لكلّ الأعمال المسجّلة صغيرها وكبيرها حتى إن المجرمين ليفزعون مما تعرضه صحائفهم ويقولون: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف:٤٩).

وبعد تلك المقدّمة الرهيبة بوصف وضعية الخلائق في موقف الحساب وشهادة الكتب عليهم بعرض أعمالهم يفصّل الله أحوال المؤمنين الصادقين وما أعدّ لهم من الرحمة والثواب، وأحوال الكافرين وما أعدّ لهم من التقريع وألوان العذاب، فبدأ بأحوال الناجين، مع أنّ السياق يركّز على تهديد المجرمين أولا للتنويه بشأن المؤمنين وبشارتهم بما ينتظرهم من النعيم الأبديّ، وفي ذلك زيادة إغاظة للفريق المجرم المقابل، فقال تعالى: **﴿فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾**.

والإدخال في رحمة الله شامل لكلّ أنواع التكريم المادّي والمعنوي في تشبيهه بمكان تامّ التجهيز بألوان من وسائل الرفاهية والنعيم يأويهم، ثم أشار

بما يفيد القصر إلى الفوز المبين الذي ينالونه بفيوض تلك الرحمات.

﴿وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ -ايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ، وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾:

إنّه الفريق المقابل الملوّث بأدران الكفر بوحدانية الله وبيوم البعث والجزاء، افتتح الله بيان حالهم بالتوبيخ والتقريع والتشهير بسوء أقوالهم وأفعالهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ -ايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾، أي يقال لهم من قبل الله تعالى بالاستفهام التوبيخي: أما تليت عليكم آيات الله تدعوكم إلى العقيدة الصحيحة إيمانا بوحدانية الله وتصديقا بيوم الجزاء فأعرضتم عن سماعها عنادا واستكبارا، وبقيتم على إجرامكم بارتكاب المعاصي، وإمعانا في التقريع، يقال لهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾: هكذا بالبناء للمجهول، ليشمل كلّ داعية إلى الله، الرسول في وقت التنزيل وغيره من دعاة المومنين، وتخصيص التذكير باليوم الآخر وأنّه وعد الله الحقّ الذي لا ريب فيه هو من مقاصد السورة الكريمة في التركيز على أسس العقيدة، فهم يردّون في سخرية واستهزاء: لا نعرف ما هي القيامة. فهو نفي قاطع وإحالة لوقوعها. أما قولهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، أي يتوهمون وقوعها توهّما مرجوحا أي بظنّ لا يقين فيه، كما أكدّوا ذلك بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، وقد ذهب بعض المفسّرين ومنهم الفخر الرازي وقطب الأئمة إلى اعتبار الجاحدين ليوم القيامة على فريقين فقال الفخر: "إن القوم كانوا على فريقين، وأن الذين قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾ فريق كانوا قاطعين بنفي البعث والقيامة وهم الذين ذكرهم الله في

الآية المتقدمة بقوله: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾(٢٤). ومنهم من كان شاكا متحيّرا فيها، وهم الذين أرادهم الله بهذه الآية".

قلت: ويقول القطب: "فالكفرة قسمان: جازم بالنفي وظانّ، إذا سمع ما يتلى ظنّ، وإذا وسوس إليه نفى، أو قسم واحد، تارة يجزم بالنفي وتارة يظن".[1]

قلت: وقد قدّمت القول بأنّ هذه الحالة من الشّكّ والارتياب باليوم الآخر تعتري حتى المؤمنين السّطحيين ممن استحوذت عليهم الثقافات المادية الدخيلة، والقرآن يشخّص أحوال البشر على اختلاف توجّهاتهم في كل زمان ومكان.

وبعد سماع ذلك التوبيخ يعرض عليهم قضاء الله وحكمه بعد الإطلاع على قبائح أعمالهم: **﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾**، إنها الإدانة الإلهية بعد استكمال التحقيق والإشهاد، فأحاط بهم عذاب جهنم التي كانوا يسخرون بها في دنياهم.

وقطعا لكلّ رجاء في النجاة يقال لهم من قبل الله تعالى: **﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ، ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾**.

﴿وَقِيلَ﴾: هكذا بالبناء للمجهول؛ لأنهم أحقر من أن يشرّفوا بلفظ الجلالة، فالقائلون هم ملائكة العذاب يبلّغون لهم عن ربّهم بأنهم منسيّون في دار العذاب وأنهم يعاملون بالمثل، إذ نسوا لقاء الله لهذا اليوم الموعود، وكذبوا

١- تيسير التفسير: ١٣/٢٠٤-٢٠٥..

الآية المتقدمة بقوله: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾(٢٤). ومنهم من كان شاكا متحيّرا فيها، وهم الذين أرادهم الله بهذه الآية".

قلت: ويقول القطب: "فالكفرة قسمان: جازم بالنفي وظانّ، إذا سمع ما يتلى ظنّ، وإذا وسوس إليه نفى، أو قسم واحد، تارة يجزم بالنفي وتارة يظن".[1]

قلت: وقد قدّمت القول بأنّ هذه الحالة من الشّكّ والارتياب باليوم الآخر تعتري حتى المؤمنين السّطحيين ممن استحوذت عليهم الثقافات المادية الدخيلة، والقرآن يشخّص أحوال البشر على اختلاف توجّهاتهم في كل زمان ومكان.

وبعد سماع ذلك التوبيخ يعرض عليهم قضاء الله وحكمه بعد الإطلاع على قبائح أعمالهم: **﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾**، إنها الإدانة الإلهية بعد استكمال التحقيق والإشهاد، فأحاط بهم عذاب جهنم التي كانوا يسخرون بها في دنياهم.

وقطعا لكلّ رجاء في النجاة يقال لهم من قبل الله تعالى: **﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ، ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾**.

﴿وَقِيلَ﴾: هكذا بالبناء للمجهول؛ لأنهم أحقر من أن يشرّفوا بلفظ الجلالة، فالقائلون هم ملائكة العذاب يبلّغون لهم عن ربّهم بأنهم منسيّون في دار العذاب وأنهم يعاملون بالمثل، إذ نسوا لقاء الله لهذا اليوم الموعود، وكذبوا

١- تيسير التفسير: ١٣/٢٠٤-٢٠٥..

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَآءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: له وحده تعالى الكبرياء والعظمة والهيمنة والسلطان على ما في الكون علويّه وسفليّه، وهو القاهر فوق عباده فلا ينازعه أحد ولا يغالبه في حكمه وسلطانه، وهو الحكيم في تدبير شؤون ملكه، يشرّع لخلقه ما تصلح به أمور معاشهم ومعادهم، وقد جاء في الحديث القدسي: «**يقول الله تبارك وتعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما أسكنته ناري**».[1]

والله أعلم.

١- رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، كتاب (٣٣) اللباس، باب (٢٨) ما جاء في الكبر، رقم ٤٠٩٢: ٤/١٠٢.

سورة الأحقاف، مكّية، وآياتها ٣٥

بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في جميع المصاحف وفي كتب السنة سورة الأحقاف، لورود لفظ الأحقاف فيها دون غيرها من سور القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾(٢١). والأحقاف هي مساكن عاد في اليمن، أهلكهم الله بريح صرصر عاتية بعد أن كذّبوا رسولهم هودا عليه السلام، وعاثوا في الأرض فسادا، وقد زادهم الله بسطة في أجسامهم.

والسورة مكّية، وآياتها خمس وثلاثون، وهي الخامسة والستون في ترتيب نزول السور، والسادسة والأربعون في ترتيب سور المصحف الشريف.

وهي آخر الحواميم السبع، ولها من الفضل ما لسائر الحواميم، وتشابهها في المضمون العام من التركيز على بيان المبادئ الأساسية للعقيدة الإسلامية من الإيمان بوحدانية الله وعظمته وقدرته، وصدق الرسالة والنبوءة والإيمان باليوم الآخر في جميع مراحله. وقد تطابق مطلعها بمطلع سورة الجاثية في التنويه بشأن القرآن الكريم، وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم.

بعض محاور السورة:

- افتتحت بالحديث عن كتاب الله وأنّه منزّل بالحقّ من ربّ العالمين، وهو آيات متلوّة لإقامة الدليل على عظمة منزله وصدق مبلغه.
- وفي خلق السماوات والأرض وما بينهما آيات مجلوّة تثبت القدرة الإلهية

في البعث ليوم الجزاء.

- إنكار ما كان عليه المشركون من الشّرك، إذ لا يقوم على أساس من واقع خلق الكون، ولا يستند إلى دليل عقلي أو نقلي.
- إثبات رسالة محمد بشهادة الله على صدقه، واستشهاد شاهد من بني إسرائيل.
- عرض تعلات الكفار ومعاذيرهم في إصرارهم بتعريضهم للمؤمنين ثم بادّعائهم أنّ القرآن سحر.
- الثّناء على المؤمنين المستقيمين، وتوكيد الوعد بأنّ جزاءهم الجنة.
- عرض نموذجين للفطرة البشرية المستقيمة والمنحرفة يتمثلان في الولد البارّ لوالديه والعاقّ لهما.
- ضرب المثل بقصة قوم عاد الطّغاة وكيف أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، كما أهلك القرى المجاورة.
- ذكر مبادرة الجن إلى الإيمان بما سمعوه من القرآن، ودعوة قومهم إلى إجابة داعي الله.
- اختتام السورة بالتأكيد على قدرة الله على البعث بقدرته على خلق السماوات والأرض، وتهديد الكافرين بعذاب النار.
- تثبيت الرسول بأن يتحلّى بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وألاّ يستعجل لأعدائه العذاب.

وأغلب هذه المحاور قد عالجتها سورة الجاثية، وإن اختلف أسلوب العرض.

الاستدلال على وحدانية الله وقدرته، والرّدّ على عبدة الأصنام.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ
مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ
مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي
مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا
أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ
لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً
وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿حم، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: في إعرابه الاحتمالات الثلاثة المتقدمة في إعراب مفتتح الجاثية، أي الرفع له: ﴿تنزيلُ﴾، على أنه مبتدأ خبره: ﴿مِنَ اللهِ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف مقدّر: هذا تنزيل، أو خبر و﴿حم﴾ مبتدأ. ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾: ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾: الباء للملابسة، أي لا يكون خلقهما عبثا أو باطلا. ﴿وَالذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾: الجملة في موضع النصب حال. وعطف: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ هو من عطف الخاصّ على العامّ، وفيه دليل على تعرّض السماوات والأرض للفناء

مما يدلّ على قيام البعث لعالم آخر. ﴿قُلَ اَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الاَرْضِ﴾: ﴿اَرَأَيْتُم﴾: بمعنى أخبروني، ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الاَرْضِ﴾: الاستفهام للتعجيز. ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾: الاستفهام للإنكار، والجملة مفعول ثان لـ "أروني". ﴿ايتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَآ أَوَ اَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: طلب منهم على وجه التحديّ أن يأتوا بحجة عقلية على ما يدّعونه، فقوله: ﴿بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾، أي بكتاب منزل من قبل القرآن أو بحجة عقلية، وهو قوله: ﴿أَوَ اَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، أي بقية من علم. ﴿وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ يَّدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَستَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: ﴿مَنَ اَضَلُّ﴾: الاستفهام للنفي، أي لا أحد أظلم. ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَستَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: أي يعبد الأصنام من دون الله، وهي لا تسمع ولا تستجيب. ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً﴾: أي تكون لهم تلك المعبودات الباطلة أعداء لهم يوم القيامة.

ج)- البيان والتّفسير:

﴿حم، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: لقد تكرّرت في افتتاحية سورة الأحقاف نفس الافتتاحية التي تقدمت لسورة الجاثية، تنويها بشأن القرآن الكريم، وأنّه منزّل من عند الله العزيز الحكيم، فإنّ القول في تفسيرها هو نظير ما تقدم.

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾:

يبدو من النظم البديع في مفتتح هذه السورة تلك العلاقة الكبيرة بين إنزال القرآن آيات متلوّة تقرر وحدانية الله وتثبت عظمته وحكمته، وبين خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحقّ لتكون آيات مجلوّة للنّاظرين يدركون

من خلالها تلك العظمة ويتبيّنون تلك الحكمة، ورتّب على خلقهما ملابسة الحقّ في أوسع معانيه، أي لم يقدّر الله ذلك عبثا، وبالتالي فإن المشيئة الإلهية اقتضت أن يجعل لهما أجلا مسمّى، ليعقبهما بعد ذلك عالم آخر يكون فيه البعث والجزاء على ما تفعله الخلائق؛ لأن ذلك من مقتضيات العدل الإلهي.

فكلّ من الكتاب المنزل المتلوّ من القرآن والكتاب المجلوّ لآفاق الأكوان معروض على الأسماع والأنظار.

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملإ الأعلى إليك رسائل

إنّهما حجّة الله على خلقه في الإنذار والتبشير، ومع تلك الأدلة الدامغة فإنّ الذين كفروا يعرضون عنها، فيتخذون آلهة باطلة يعبدونها من دون الله، إذ هم لا يصدّقون بما أنذروا به من جزاء يوم القيامة فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ايتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَآ أَوَ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

جاء الاستدلال على طريقة الحوار والمناظرة، يرشد الله رسوله أن يقول لعبدة الأوثان في طلب تعجيزي أن يدلّوه على أي جزء بسيط من الأرض التي يعيشون عليها ويشاهدونها، قد خلقته تلك المعبودات الباطلة على مختلف أنواعها، أو خلقت على الأرض أي شيء حقير مثل الذبابة، كما تقدم ذلك في سورة الحج، إنهم بالطبع لا يملكون أن يدّعوا ذلك لمعبوداتهم بل يعترفون بالخالقية لله وحده: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف:٩).

ولا كذلك يملكون أن يقولوا إن لتلك المعبودات شراكة في ملكية

السماوات، وما أروع اختيار نفي الشركة في خلق السماوات واختيار نفي الخلق بالنسبة للأرض، وذلك جريا مع الواقع لما يقدر عليه الإنسان من المشاهد المحسوس من حياته على الأرض، ولما هو مغيّب في السماوات العلا لا يتطاول إليه.

ثم انتقلت المناظرة من الاستدلال بالمشاهد إلى الاستدلال بالأخبار الصادقة الموثوقة فقال: ﴿**ايتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَآ أَوَ اَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، فالأخبار الموثوقة، إمّا نقلية أو عقلية، فهؤلاء الجاحدون لوحدانية الله لا يملكون قبل القرآن أي دليل من الكتب المنزلة الأخرى يدلّ على خرافة الألهة المتعدّدة، بل كلّها تشهد وتدعو لوحدانية الله، كما لا يملكون أي بقيّة من علم ثابت مستيقن تشهد على باطلهم، وهكذا يسدّ عليهم طريق الادّعاء الباطل فهم غير صادقين.

ثم يبيّن الله حقيقة تلك الإلهة المدّعاة فيقول: ﴿**وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ يَّدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ، وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾.

﴿وَمَنَ اَضَلُّ﴾: استفهام يفيد النفي، أي لا أحد أضلّ ممن يتوجّه بدعائه إلى أصنام لا قدرة لها على شيء، إذ لا تسمع من يخاطبها فكيف تردّ وتجيب؟.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي إن تلك الحالة من الغفلة وعدم الاستجابة تلازمها إلى يوم القيامة. وجيء باسم الموصول: ﴿مَن﴾ الخاصّ بالعقلاء للأصنام الجامدة جريا على معتقد عابديها أنها رموز لأسلافهم أو للملائكة والجنّ بل حتى المعبودات الحيّة العاقلة كالملائكة والجنّ والمسيح لا تستجيب هي الأخرى؛ لأنها تتبرّأ من عابديها.

والكلّ يتبرّأ من عابديه يوم القيامة عندما يحشر الناس إلى ربّهم، بل يكون له عدوّا يلعنه ويكفر به وذلك على ما يخلق الله في تلك الجمادات من وعي وإحساس فيتواجه العابدون والمعبودون بالعداء والخصومة في ذلك الموقف قبل أن يصير الجميع حصب جهنم، حاشا من سبقت لهم من الله الحسنى كالملائكة والرسل.

وقد تكرّر هذا المعنى في القرآن بأساليب مختلفة منها ما جاء على لسان سيّدنا إبراهيم لقومه في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (٢٥)، والله أعلم.

إثبات قضية النبوءة، والرّدّ على شبهات المشركين.

أ)- النصّ:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ

ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: تظهر روعة الإظهار في مقام الإضمار في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿قَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، أولا: سجّل الله عليهم صفة الكفر بقوله: ﴿قَالَ الذِينَ كَفَرُوا﴾ عوضا عن: قالوا. ثم في قوله: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾. فاللاّم لام العلة، فوصف الآيات بأنها حق من عند الله، فعدل عن الضمير. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلِ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: ﴿أَمْ﴾ للإضراب الانتقالي، بمعنى "بل"، وهو يتضمن همزة للاستفهام الإنكاري. ﴿افْتَرَاهُ﴾: أي الرّسول اختلق القرآن من عنده كذبا، ﴿فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾: أي لا تقدرون دفع عقوبات الله عني إن كذبت عليه، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: الجملة بدل من قوله: ﴿فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي﴾، أي إنّه تعالى يعلم ما يخوض فيه الكفّار من الطعن والقدح في أمر الرسالة. ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾: والشهيد هو الشاهد المخبر بالواقع، فهو يحكم بيني وبينكم، ﴿شَهِيداً﴾: منصوب على التميز. ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: البِدع -بكسر الباء وسكون الدال- معناه البديع، والمعنى: ما كنت محدثا شيئا لم يكن عليه الرسل، ومن أسماء الله الحسنى البديع، بديع السماوات والأرض، أي خلقهما على غير مثال سابق. ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾: بمعنى أنّ الرسول لا يعلم الغيب؛ لأنّ الكفّار كانوا يسألون عن أشياء غيبية تعجيزا واستهزاء. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾: ﴿أَرَأَيْتُم﴾: أخبروني إن كان القرآن من

عند الله. وشهد على ذلك شاهد من أهل الكتاب، أي شهد على اختيار الرسل من الله لإنزال الرسالات عليهم، فشهد على توافق ما في القرآن بما في التوراة، فآمن ذلك الشاهد بالقرآن واستكبرتم أنتم. ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾: وهذه شبهة أخرى للكفار تنمّ عن الغرور والتطاول على الذين آمنوا لكون أغلبهم من الموالي والمستضعفين، قالوا: لو كان في الإيمان بمحمد خير ما سبقنا إليه هؤلاء إذ هم من الطبقة الدنيا. ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾: مبتدأ. خبره: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾. ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: منصوبان على الحال، أي من قبل القرآن. ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾: ﴿هَٰذَا كِتَابٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾: حال.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِّتُنذِرَ﴾: قرأه نافع وابن عامر والبزّي عن ابن كثير ويعقوب بالمثناة الفوقية خطابا لرسول الله ﷺ وقرأه الجمهور: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ بالمثناة التحتية على أنه خبر عن الكتاب على وجه المجاز العقلي. ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾: قرأ الجمهور بالرفع مع التنوين، وقرأ يعقوب وحده بفتح الفاء.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تقرير الأساس الأول في العقيدة الإسلامية بمبادئ التوحيد لله، استدلالا بالآيات المتلوّة من القرآن الكريم وبالآيات الصّامتة المثبتة في أرجاء الكون. أعقب الله هنا تقرير أمر النبوءة والرسالة، وهي الركيزة الإيمانية الثانية في العقيدة، وقد ردّ الله على شبهات المشركين حولها مرشدا رسوله أن يجابههم بما يفحمهم من الحجج المقنعة بأسلوب حواري بديع فقال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ يَّدْعُو مِن دُونِ اللهِ﴾، وإذ كان القرآن يتلى عليهم مبيّنا لهم بكلّ وضوح ضلالهم في عبادة الأصنام وكيف أنها خالية عن مقومات الألوهية، ولكنّهم لا ينفكّون عن التّأثر بسحر بيانه مكرهين مرغمين ولكنّهم يتعامون عن الحقّ الذي يدعو إليه، مما لا لبس فيه ولا غموض، فيقولون عنه بهتانا وزورا: هذا سحر واضح مخادع.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ليبيّن أنّ هذا الادّعاء الباطل في حقّ القرآن يصدر عنهم فور سماعهم لآياته دونما إتاحة الفرصة للتأمّل والتّفكير فيه، ثم يذكر الله ما هو أشنع وأقبح في الحطّ من شأن القرآن بصيغة الإضراب الانتقالي ليرشد الرسول كيف يردّ عليهم فيقول: ﴿اَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلِ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ويقدّر بعد: ﴿اَمْ﴾ استفهام للإنكار على مقالتهم لما فيها من إسفاف وخبث لا يصدر من عاقل يحترم نفسه، إذ رموا رسول الله بصفة الكذب والافتراء على الله في ما يبلّغه من وحي السماء، وهم ما جرّبوا عليه كذبة قطّ قبل ذلك، وقد أمر الله رسوله بأن يردّ عليهم الرّدّ اللائق بأخلاقيات الدعوة ممزوجا بشعور الاعتزاز بحمى الله ورعايته وتأييده.

وجاء التعبير بـ"إن" الشرطية التي تفيد الشّكّ للتّدرّج مع الخصوم في الإقناع على سبيل الفرض، ثم يردّ عليهم بما يقوّض ذلك من أساسه بما يأتي في جواب الشرط من قوله: ﴿فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾، أي إنّكم لا تستطيعون أن تدفعوا عني شيئا مما يضرّني به الله إن كذبت عليه، فما جدوى أن تصدّقوني وأنا أكذب عليه، وأنتم لا تستطيعون الدفاع عني إن هو عاقبني،

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى:

- ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا، إِلاَّ بَلاَغًا مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ﴾ (الجن: ٢٢-٢٣).

- ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٧).

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: والإفاضة بمعنى تدبير المكايد والدسائس قولا وعملا، فالله مطلع عليها فمحاسبكم ومجازيكم، وكفى به شهيدا بيني وبينكم يفصل بحكمه العدل بيننا، ومع هذا التبكيت والتهديد فهو يرغّب ويتلطّف بهم إذ يقول بعد ذلك: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي يغفر ذنوبكم إن تبتم إليه ويرحمكم إن صدقتم بالقرآن، وهو التذييل الأنسب في مثل هذا المقام، لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال:٣٨).

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾:

لقد كانت قريش تعلم تمام العلم بأنّ رسلا كثيرين قد مضوا قبل محمد ﷺ وأنزلت عليهم كتب، وأنّ الله أهلك الكثير من الأمم التي كذّبت برسلها، فليس الرّسول محمد بدعا من أولئك الرسل، والبدع بمعنى البديع، وهو من أسماء الله الحسنى، أي خالق الأشياء على غير مثال سابق، وقد أمر الله رسوله أن يقول لمناوئيه، ما كنت محدثا شيئا لم يأت به الرسل من قبلي، فلماذا تنكرون رسالتي؟.

وبما أنّ المشركين كانوا يسألون الرسول عن مغيبات، ويطالبونه أن يأتي

بأشياء تعجيزا واستهزاء، فإنّ الله تعالى زاد فلقّنه أن يقول لهم: ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي إنّني لا أعلم الغيب، بل قصارى ما أعلمه هو ما يخبرني به الله عن طريق الوحي، وهو يشير بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ إلى مآل دعوته، لا يدري ما يكون من شأنها ولا من شأن قومه، بل يمضي في تبليغها وفق إرشادات ربّه مستسلما لإرادته، أما شأن الغيب فأمره إلى الله وحده.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام:٠٥).

وفي كلتا الآيتين جاء هذا التذييل: ﴿وَمَآ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بالقصر الإضافي، وحصر مهمّته في الإنذار؛ لأنّه الأنسب بمقام التخويف والتحذير.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَئَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

ارتقاء في الاحتجاج بواقعة حال لا يستطيع المشركون إنكارها، فالله تعالى يستدرجهم لمعرفة الحقّ فيكسر في نفوسهم حاجز الإصرار والعناد، وذلك بطرح هذه الفرضية بأداة "لو"، فقال: أخبروني إذا فرضنا أنّ هذا القرآن هو من عند الله، وقد كفرتم أنتم به، وقلتم إنه سحر، وأنّ محمدا قد افتراه من عنده، بينما شهد على حقيّته وصدقه شاهد من بني إسرائيل من الذين يعرفون طبيعة الكتب المنزلة من عند الله، فآمن به، واستكبرتم أنتم وأعرضتم، فكيف يكون شأنكم؟.

فما دام هذا القرآن قد يحتمل أن يكون من عند الله، فما بالكم لا تحتاطون لما يصيبكم من سوء العواقب لكفركم به؟، فمن العار أن يؤمن به بعض أهل الكتاب بينما تكفرون به أنتم الذين جاء القرآن لهم ولسانهم

وليرفع من ذكرهم.

وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ جاءت للتعليل في جواب الشرط المقدّر، وقد وصفهم الله بالظلم وهم محرومون من الهداية.

ولروعة أساليب الإقناع في هذا النّصّ يستمدّ منه الدّعاة إلى الله النموذج الحيّ للمناظرة والحوار لمواجهة الزيغ والانحراف ومعالجة القلوب المريضة. لم يعيّن الله ذلك الشاهد من بني إسرائيل، فأغلب المفسّرين يقولون إنه عبد الله بن سلام، غير أن ذلك سيبعده البعض لكون عبد الله بن سلام من يهود المدينة، والآية مكية، وأيا كان المقصود -والله أعلم به- فإن كثيرا من اليهود قد أسلموا كما قال الله تعالى في شأنهم:

- ﴿الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُومِنُونَ، وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (القصص:٥٢-٥٣).

- ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً اَن يَّعْلَمَهُ عُلَمَآءُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ (الشّعراء:١٩٧).

ثم يمضي السياق في استعراض مقولات المشركين في شأن القرآن بدافع العناد والاستكبار وهم يتعللون بمختلف الأعذار التافهة الواهية: **﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾**.

وهذه شبهة أخرى مما كان المشركون أو اليهود يردّده في إنكار رسالة رسول الله، وذلك على الاختلاف المرويّ في أسباب النزول.

فبعد أن برزت الجماعة المسلمة وتميّزت بتوجهاتها وسلوكاتها، وكان أغلب عناصرها في أول الأمر من المستضعفين الفقراء والموالي، وفي جانب المشركين المال والجاه والهيمنة الاجتماعية على كثير من أولئك الأتباع المستضعفين، فوجد هؤلاء السادة الكبراء في نوعية أتباع رسول الله مغمزا

للطعن والاحتقار، بدافع الإعجاب والغرور بأنفسهم وبما هم عليه من الزيغ والضلال فراحوا يقولون: لو كان هذا الدين الذي يدعو إليه محمد خيرا ما سبقنا إلى اتّباعه مثل هؤلاء الضّعفاء المنحطين في نظرهم، ظنّا من هؤلاء المغرورين بحظوظهم أنّهم هم السابقون إلى المكارم وأنهم أوسع إدراكا للأمور وأحسن تقدير لها، ولكنّهم مخطئون في معرفة حقيقة أنفسهم، إذ أنهم ما كانوا يشكّون في صدق دعوة رسول الله، ولكنّه التعاظم والكبر والحسد، والحفاظ على مراكزهم الاجتماعية ومنافعهم الاقتصادية، وأشنع من ذلك هو اختلاقهم للمعاذير لتبرير موقفهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

لقد كشف الله عن خيبة نفوسهم باختلاق ذلك الغيب فقالوا عن القرآن: ﴿هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، وهذا كقولهم: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. فقد دأبوا على ضلالهم وإعراضهم عن هدي القرآن في الماضي، فأخبر الله بأنهم سيشمرون على ذلك في المستقبل، ويبرّرون كفرهم بما يختلقونه من عيوب، وذلك من أخبث الطبائع عند المنحرفين الضّالين.

ولإبطال هذه المزاعم الخبيثة ذكر الله تعالى ما يؤيّد به حقّية القرآن وصدق رسول الله فقال: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

لقد تكرّر في القرآن بيان الصلة الوثقى بين القرآن والكتب السماوية الأخرى، سيما في تقرير أصول العقيدة الإسلامية، وخصّص بالذكر هنا كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة، فوصفه بأنه إمام ورحمة، إمام يقتدي به في الهداية والإرشاد، وهو رحمة لمن آمن به واتبعه، وكان المخاطبون من قريش وغيرهم من العرب يحترمون موسى وكتابه ويستأنسون بما يقوله أهل الكتاب في شأن محمد، وقد تقدمت الإشارة إلى شهادة شاهد من بني إسرائيل على حقية

القرآن، وهنا جاء ذكر التوراة بإضافة كتابها إلى موسى عليه السلام للتذكير ببشرية الرسول بمثل هذا التنظير. ثم نوّه بشأن القرآن العظيم، باسم الإشارة إليه للتعظيم وأنه كتاب منزل من عند الله بلسان عربيّ مبين، والتنصيص على عروبته هو لتحريك همّة العرب ونخوتهم عساهم يرتدعون لأنه شرف لهم ورفع لذكرهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(الأنبياء:١٠).

ثم بيّن الله التكامل في الأصول العقدية ما بين الشرائع السماوية، وحدّد المهمّة الأساسية لرسول الله المتمثلة في البشارة والنذارة فقال: ﴿لِّتُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، قابل الله به صفة الظلم، ومن أعظمه الشرك بالله، ينذر هؤلاء مما يستقبلهم من عذاب الخزي في الدنيا والآخرة، ويبشّر المحسنين، فما أروع المقابلة بين أحطّ دركات الكفر وأرفع درجات الإيمان، وهو الإحسان، واستعمال اسم المصدر: ﴿بُشْرَىٰ﴾ أقوى وأبلغ من فعل: ﴿لِّتُنذِرَ﴾.

ثم بين الله صفة تلك البشرى وحدّد ركني الإحسان فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**.

بعد ذكر البشرى للمحسنين الذين صدّقوا بالقرآن، إذ قابل الله بهم الذين ظلموا، تأتي هذه الآية بعد تلك الجولة التي ركّزت على محاجّة المشركين، تأتي لتلخّص أصول الدين وترسي قاعدته الأساسية على أمرين:

أ)- **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾**: والمقصود بالقول هنا ما يكون دافعه الاعتقاد القلبيّ الراسخ في الاعتراف بربوبية الله وحده، وهذه الجملة هي في معنى: لا إله إلا الله. فالرّبّ هو الخالق المالك، وفيه معنى الرعاية والتربية، وفي

اختيار اسم الموصل: ﴿إِنَّ الذِينَ﴾.

يقول الإمام ابن عاشور: "وتعريفهم بطريقة اسم الموصول لما تؤذن به الصّلة من تعليل كرامتهم عند الله لأنهم جمعوا أحسن معاملتهم لربهم بتوحيده وخوفه وعبادته، وهو ما دلّ عليه: ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ إلى حسن معاملتهم أنفسهم وهو معنى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾".[1]

قلت: أتمّ الله الأساس الإيماني بالقول والعمل فقال:

ب)- ﴿**ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾: عبّر بـ"ثمّ" للتراخي لما تقتضيه ممارسة العمل من إدمان المراقبة وضبط النفس وحملها على انتهاج منهج الله كما أمر دونما انحراف عن خطه المستقيم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام:١٥٣).

﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: لقد ضمن الله الوصول إلى الغاية المنشودة من السعادة الأبدية، فلا خوف يعتريهم في الموقف مستقبلا ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، الإشارة للتنويه والتعظيم لمن تحقّقت فيه تلك المواصفات من الجمع بين المعتقد الصحيح في الله والعمل الصالح وفق ذلك المعتقد مما أمر الله به.

وفي التذييل بقوله: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ما يؤصل قاعدة أنّ الإيمان قول وعمل، إذ بدأ الله الآية بالقول وختمها بالعمل.

يقول سيّد قطب رحمه الله: "ومن ثمّ ندرك أنّ الكلمات الاعتقادية في هذا الدّين ليست مجرّد ألفاظ تقال باللّسان، فشهادة أن لا إله إلا الله ليست عبارة ولكنّها منهج، فإذا ظلّت مجرّد عبارة، فليست هي ركن الإسلام

١- التحرير والتنوير: ٢٥/٢٦.

المطلوب المعدود في أركان الإسلام".[1]

قلت: يؤيّد ذلك ما جاء في الأثر: "ليس الإيمان بالتّمنّي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل"، والله أعلم.

الوصية ببرّ الوالدين، ورسم نموذجين: للولد البارّ والولد العاقّ.

أ)- النصّ:

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

١- في ظلال القرآن: ١٦/٢٦.

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَوَصَّيْنَا الانسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾: ﴿وَصَّيْنَا﴾: من الوصية، ويقال: التوصية والإيصاء، وهي الأمر المقترن بضرورة الاعتناء والاهتمام بتنفيذه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ (النساء:١٣١). ﴿حُسْنًا﴾: منصوب على المصدر، أي يحسن إحسانا. ﴿حَمَلَتْهُ كَرْهًا﴾: ﴿وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾: بين "حمل" و"وضع" طباق، "كرها": منصوب على الحال، أي بمشقة وتعب. ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾: حمله في بطن أمّه جنينا، وفصاله: أي فطامه عن الرضاع. ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنَ اشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾: ﴿أَوْزِعْنِيَ﴾: بمعنى ألهمني ووفقني إلى شكران نعمتك. ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾: اللام في: ﴿أَصْلِحْ لِي﴾ لام العلة والمعنى: أصلح في ذريتي لأجلي، والذرية تشمل الأبناء والأحفاد. و"فِي" تفيد تمكن الإصلاح من الذرية. ﴿وَيُتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ﴾: ﴿وَيُتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾: أي تغفر لهم بعد التوبة. ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾: في موضع الحال من اسم الإشارة. ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾: مصدر منصوب مؤكد لنفسه. ﴿وَالذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾: ﴿وَالذِي﴾: مبتدأ وخبره، ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، والجملة مفعول لفعل مقدر: واذكر الذي قال أفّ لكما. ﴿أُفٍّ﴾: اسم فعل بمعنى: أتضجّر. ﴿أَتَعِدَانِنِيَ أَنُ اخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾: الاستفهام للإنكار والتعجب. ﴿أَنُ اخْرَجَ﴾: بمعنى أن أبعث بعد الموت، و﴿الْقُرُونُ﴾: الأمم الخوالي التي طال عليها الزمن و لم تبعث. ﴿مَا هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾: الأساطير جمع أسطورة، أي القصة المتداولة، ويغلب عليها التلفيق والكذب. ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾: أي وجب عليهم عذاب النار. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾: يقابل الدرجات لعلوّ المنزلة

الدركات لانحطاطها، ولكن جاء هنا على التغليب، والتنوين في: ﴿كُلٌّ﴾ عوض عما تضاف إليه، والتقدير: ولكل من الفريقين المؤمن والكافر. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾: الكلام مقول قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار. والعرض هو تقديمهم إلى النار، أو كشف النار لهم. ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾: إذهاب الطيّبات إشعار لمفارقتها، بمعنى: استوفيتم كلّ الملذّات مما تشتهون من نعيم الدنيا. ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: الفاء تسمى الفصيحة، ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾: أي تلاقون الإهانة والذل بسبب كبريائكم في الدنيا وفسقكم بالشرك والمعاصي.

ج- أوجه القراءة:

﴿حُسْنًا﴾: قرأه الجمهور كذلك بضمّ الحاء وسكون السين، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿إِحْسَانًا﴾، والنصب على القراءتين إمّا بنزع الخافض وهو الياء، وإما بتضمين: ﴿وَصَّيْنَا﴾ ألزمنا. ﴿كَرْهًا﴾: قرأ الجمهور في الموضعين بفتح الكاف، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان وابن عامر ويعقوب: ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف في الموضعين، وهو منصوب على الحال. ﴿وَفِصَالُهُ﴾: قرآه الجمهور على وزن فِعال. وقرأ يعقوب: ﴿فَصْلُهُ﴾ بسكون الصاد. ﴿يُتَقَبَّلُ﴾: قرأ الجمهور مع: ﴿يُتَجَاوَزُ﴾ بالياء التحتية مضمومة مبنيتين لنائب الفاعل، وقرأهما الكسائي وحمزة وحفص عن عاصم وخلف قرأوا: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ بنونين مفتوحتين، ونصب: ﴿أحسنَ﴾. ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾: قرأ نافع وحفص عن عاصم بكسر الفاء منوّنا، وقرأه ابن كثير وابن عامر ويعقوب: ﴿أُفَّ﴾ بفتح الفاء غير منوّن، وقرأه الباقون: ﴿أُفٍّ﴾ بكسر الفاء غير منوّن، وهي لغات ثلاث.

﴿أَتَعِدَانِنِيَ﴾: قرأ الجمهور بنونين مفككتين، وقرأ هشام عن ابن عامر بإدغام النونين. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾: قرأ الجمهور بنون العظمة، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وهشام عن ابن عامر ويعقوب: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ بالتحتية، مرادا به العود إلى الله تعالى. ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾: قرأ الجمهور بهمزة واحدة، على أنّه خبر مستعمل في التوبيخ، وقرأه ابن كثير: ﴿أَأَذْهَبْتُمْ﴾ بهمزتين على الاستفهام التوبيخي.

د)- البيان والتّفسير:

حاول المفسّرون إيجاد وجه المناسبة بين ما تقدّم وما جاء في هذا النصّ الكريم، فقال بعضهم: لما ذكر الله التوحيد والاستقامة على نهجه عطف عليه الوصيّة بالوالدين كما هو المعهود بذلك في غير ما آية من القرآن، ذلك لأنّ أعظم حقّ على المؤمن بعد أداء حقّ الله عليه هو حقوق الوالدين؛ لأنّ آصرة الإيمان والدّين قبل آصرة الدّم والنّسب. ولكن ذِكر نموذجين متضادّين من الأولاد: البارّ والعاقّ، جعل بعض المفسّرين يرون وجها آخر من المناسبة ومنهم الإمام ابن عاشور الذي يقول في هذا الشأن: "ووجه المناسبة عندي أنّ هذا انتقال إلى قول آخر من أقوال الكافرين، وهو كلامهم في إنكار البعث وجدالهم فيه، فإنّ ذلك من أصول كفرهم بمحلّ القصد من هذه الآيات قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا...﴾ إلى قوله: ﴿كَانُوا خَاسِرِينَ﴾".[1]

قلت: إنّ وجهات النّظر -وإن اختلفت- فإنّ لكلّ منها اجتهادا لمعرفة أسرار كتاب الله، والنّكت لا تتزاحم كما يقول المثل، ويعجبني ما قاله الإمام القرطبي عن القشيري: "إنّ وجه اتّصال الكلام بعضه ببعض أنّ المقصود بيان أنّه لا يبعد أن يستجيب بعض النّاس للنبي ﷺ ويكفر به بعضهم كما اختلف

١- التحرير والتنوير: ٢٥/٢٨.

حال النّاس مع الوالدين". وهو ملحظ جميل.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾، فالتوصية والإيصاء والوصية تستعمل في الأمر المهمّ الذي يتعلّق بجلب نفع أو دفع ضرّ، وهي تأخذ أهميتها واعتبارها كلّما عظم ذلك الأمر، وعلى قدر مكانة الموصي، وعلى هذا المفهوم ندرك أهمية هذه الوصية، إذ هي من الخالق العظيم ليرفع من شأن الوالدين بصفة عامّة ومن شأن الأمّ بصفة خاصّة، وقد جاء الأمر بصيغة المصدر: ﴿إحسَانًا﴾ أو ﴿حُسْنًا﴾ للدّلالة على التأكيد والمبالغة، والمطلوب من الولد هو السعي لإرضاء والديه بما يحقّق لهما من النّفع والخير، سيما في حالة عجزهما كما ترشد إليه آية سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٣-٢٤).

كما يجب أن يكون ذلك الإحسان من الولد لوالديه بدافع الحبّ والرحمة، وفي هالة من الإجلال والتقدير. وقد تكرّر الأمر بالإحسان إلى الوالدين في عدّة سور من القرآن كما رويت أحاديث كثيرة تؤيّد ما في القرآن الكريم بسطنا القول فيها في كتابنا: (من أخلاق القرآن، الوصايا العشر ووصية لقمان).

ثم خصّص الله بالذّكر الأمّ وبيّن سبب تخصيص التوصية بها لزيادة التأكيد والعناية بها فقال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾، ففي هذه الآية الكريمة، وفي قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي

عَامَيْنِ أَنُ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(١٤). فهي أعظم حقًا من الأب لما تقاسيه من المتاعب والآلام في حمل الطّفل ووضعه وإرضاعه، ولكن هذا الامتياز الذي لها في ذلك الحقّ، لا يضعف من حقّ الأب لأنّه الرّاعي والكفيل للأمّ والأولاد جميعا، فقد ورد في السّنّة: «**أنّ رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحقّ النّاس بحسن صحابتي قال: أمّك، قال: ثم من؟. قال: ثم أمّك، قال: ثم مَن؟ قال: ثم أمّك، قال: ثم مَن؟ قال: ثم أبوك**».[1]

وفي قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ كما استنبطه الإمام عليّ كرم الله وجهه، وذلك من قوله تعالى في مدة الرضاع: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة٢٣٣). فإذا طرحنا أربعة وعشرين شهرا -وهو أكثر مدّة الرّضاع- من ثلاثين شهرا بقي للحمل ستّة أشهر، وذلك هو ما قضى به عثمان ﷺ وجماعة من الصحابة في امرأة تزوجت فولدت لتمام ستّة أشهر فألحق الولد بأبيه بعد أن عزم على رجمها بالزنى.

ثم قال تعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾.

وأمام الوصية بالوالدين والإشادة بتضحيتهما النبيلة فإنّ واقع الأولاد يختلف أزاء قيامهم بواجب الطاعة والامتثال لأوامر الله إيجابا وسلبا، فيعرض النّصّ الكريم نموذجين متضادّين من الأولاد في مجال البرّ بالوالدين أو عقوقهما، فبدأ بالنموذج الطيّب الصالح الذي يحمل في نفسه تلك العاطفة النبيلة ويزكو

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٨١) الأدب، باب (٢) من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم ٥٦٢٦: ٥/٢٢٢٧.

قلبه بتلك الخوالج الطيبة وهو في مرحلة الرشد والنضج التي تكتمل في سنّ الأربعين يقف ليتأمل ما مضى من عمره ويتدبّر ما بقي منه، فإذا بالنفس الصالحة تلتفت إلى الماضي لتستجلي نعم الله الضافية عليها وعلى والديها، وهي لا تكاد تقوى على شكرها وأداء حقها، فهي تستعين بربها لتنهض بواجب الشكر، لأنه واجب ثقيل: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

ثم تستشرف رضى الله بالعمل الصالح وترجو استمرارية ذلك الصلاح في العقب والذرية في أمل فياض وحسن ظنّ بالله تخشّعا وتذلّلا: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

فما هو جزاء هذا النموذج الصالح، إنه ما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

إنّه حسن القبول لصالح أعمالهم والعفو عن سيّئاتهم وذنوبهم، وهم في زمرة أصحاب الجنّة، كما وعد الله بذلك ووعده الحقّ وهو لا يخلف الميعاد، وفي مقابل هذا النموذج الطيّب يعرض النّصّ النموذج السيئ المنحرف العاقّ لوالديه في موقف نصح وإرشاد يتّصل بعقيدة الإيمان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وبقطع النّظر عمّا ورد في سبب نزول هذه الآية، فإنّ العبرة بعموم

اللّفظ لا بخصوص السّبب، فهذا النموذج المنحرف قد تبلى به كثير من الأسر.

فقد أنكر هذا الولد العاقّ أمر البعث والجزاء حين دعاه والداه إلى الإيمان باليوم الآخر، أنكر ذلك في تضجّر وتأفّف وعناد، وهو يردّد شبهة الضّالين أمثاله: ﴿أَتَعِدَانِنِيَ أَنُ اخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾، بدعوى أنّ الذين ذهبوا لم يعودوا، وأن ادّعاء البعث بعد الموت أسطورة قديمة لا يؤمن بها إلا المتخلّفون. والوالدان الصالحان يستغيثان الله في إشفاق ونصح: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنِ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾. وفي قولهما: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنِ﴾ تعبير عن الفزع من هول ما يسمعان، وقد قال مثل ذلك من قبله قوم سخروا برسلهم وأعرضوا عما جاءوهم به من البيّنات، فحقّت عليهم من الله كلمة العذاب، وكانوا من الخاسرين.

﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾: وأيّة خسارة هي أفدح ممّن خسر الدنيا والآخرة ومهما تكن رغبة الوالدين في صلاح ذرّيتهم، فإنّ للتربية الصالحة والقدوة الحسنة أثرهما في تنشئة الولد لقوله ﷺ: «**كلّ مولود يولد على الفطرة وأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**».[1]

ولذلك ذكر الله مراتب الفريقين فقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾، والتنوين في: ﴿كُلٍّ﴾ عوض عما يضاف إليه، والتقدير: ولكلّ من الفريقين: المؤمن والكافر، أي المكلّفين من الجن والإنس، مراتب عند الله، سواء كانت درجات العلوّ والقربى، أو دركات الرّفض والطرد. وغلّب جانب الدرجات للتنويه بأهل الخير والبرّ،

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٢٩) الجنائز، باب (٧٨) إذا أسلم الصبي، رقم ١٢٩٣: ٤٥٦/١.

فلكلّ منهما جزاؤه المقدّر عند الله وفق ما قدّموه من أعمال خيرا أو شرّا بتوفية وعدل لا يظلمون فيها شيئا، وفي هذا التعقيب ما يؤكد مسؤولية الوالدين إزاء تربية أولادهم بتوفير جوّ الصلاح لهم وإيفائهم حقوقهم.

وبعد ذلك الوعيد الخاصّ بإنكار البعث انتقل السياق إلى بيان الوعيد العامّ على الكفر بجميع أنواعه ليرسم مشهدا من أهوال القيامة فقال: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ**﴾.

وفي الكلام حذف، والتقدير: يقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار، ويرون منازلهم ومواقفهم فيها، يقال لهم وقد انكشف الغطاء: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾، أي يقال لهم في معرض التبكيت والتفريع: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾، أي استنفدتموها واستوفيتم كلّ الملذات باتباعكم شهواتكم في معصية الله دون إيمان بما جاءت به الرسل من الوعد والوعيد، وقد أمهلكم الله و لم يعجّل بعقوباتكم في الدنيا فاغتررتم بذلك فلم تبق لكم طيّبات بعدها، فأنتم اليوم تجازون بما فيه ذلّكم وإهانتكم بسبب تكبّركم عن عبادة الله والإيمان به وخروجكم عن طاعته بغير حق، والجزاء من جنس العمل.

وإن لحظة واحدة من العذاب تنسيهم كلما تمتعوا به من ملذات كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ، مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ (النمل:٢٠٥-٢٠٧). وكما قال المعريّ:

إنّ حزنا في ساعة المو ت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

والفسق يطلق على كلّ المعاصي كبيرها وصغيرها، حتى الكفر بالله، وأمّا الطيّبات المباحة فيجوز الاستمتاع بها للمؤمن والكافر، ولكن دونما تجاوز للحدود لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ للهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:١٧٢).

وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَالِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٢)، والله أعلم.

هلاك قوم هود بعد مجادلتهم له وتكذيبه عليه السلام.

أ) - النصّ:

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ تُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِئَايَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ قُرْبَاناً ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَاذْكُرْ اَخَا عَادٍ اِذَ اَنذَرَ قَوْمَهُ بِالاَحْقَافِ﴾: ﴿وَاذْكُر﴾: إما من الذكر -بكسر الذال-، وهو الذكر اللساني، أو من الذُّكر -بضمّ الذال-، وهو بمعنى التذكّر في النفس، والخطاب لرسول الله، ﴿اَخَا عَادٍ﴾: الأخ: هو المنتمي لنفس القبيلة، فيقال: أخا العرب، أو أخا بني فلان، وقد يراد به الملازم لشيء ما، فيقال: أخو السفر وأخو النوم، قال عمر بن أبي ربيعة:

أخا سفر جوّاب أرض تقاذفت به فلوات، فهو أشعث أغبر

وقد تقدّم التعريف بقبيلة عاد وبالأحقاف. ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾: الجملة: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ معترضة، وجملة: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾ جملة تفسيرية لفعل: أنذر، أي مضت النّذر من قبل هود ومن بعده، وجملة: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعليل للنهي: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾، ويرجّح أن يكون العذاب المنذر به هو عذاب الاستئصال بدليل قوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾. ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَافِكَنَا عَنَ -الِهَتِنَا﴾: الاستفهام للإنكار: ﴿لِتَافِكَنَا﴾، أي لتصرفنا عن عبادتها. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾: ضمير: ﴿رَأَوْهُ﴾ عائد إلى ﴿مَا تَعِدُنَا﴾، وهو العذاب، ﴿عَارِضًا﴾: حال. ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾: ﴿مُسْتَقْبِلَ﴾: نعت لـ"عارض"، أودية: جمع واد، ويطلق على محلة القوم، ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾: مبتدأ وخبر، و﴿مُمْطِرُنَا﴾: بمعنى يأتينا بالمطر، والعارض: هو السحاب العارض في الأفق. ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾: قيل: القائل هو هود عليه السلام قبل خروجه، وقيل: هو رجل منهم رأى في ذلك السحاب أمارات العذاب. ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾: التدمير: الإهلاك والتخريب، ﴿كُلَّ

شَيْءٍ﴾: أي الإنسان والحيوان والنبات وما إليها. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾: الباء سببية. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾: والتمكين إعطاء القوة والقدرة. ﴿فِيمَا﴾: "مَا" موصولة بمعنى: الذي و"إن" نافية، والمعنى: أعطيناهم من القوة والقدرة ما لم نعطه لكم في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الاَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ (الأنعام:٦). وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ (٢٦). أي هم يتمتّعون بكلّ ما يؤهّلهم لإدراك الحق لولا عنادهم. ﴿وَلَقَدَ اَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى﴾: الخطاب لمشركي مكة وزيادة في تخويفهم بذكر القرى التي أهلكها الله وهي قرية منهم كقرى ثمود ولوط. ﴿فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ قُرْبَانًا -اِلهَةً﴾: ﴿لَوْلاَ﴾: للتحضيض. ﴿قُرْبَانًا﴾: منصوب على المفعول لأجله. و﴿-اِلهَةً﴾: بدل منه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أُبَلِّغُكُم﴾: قرأ الجمهور بتشديد اللام، وقرأه أبو عمرو بتخفيف اللام من فعل: أبلغ. ﴿لاَ تَرَى﴾: قرأ الجمهور بالمثناة الفوقية مبنيا للفاعل وبنصب: ﴿مَسَاكِنَهُمْ﴾، وقرأه عاصم وحمزة وخلف بياء تحتية مبنيا للمجهول، وبرفع: ﴿مَسَاكِنُهُمْ﴾، وأجرى على الجمع صيغة الغائب المفرد؛ لأنّ الجمع مستثنى بـ"إلا"، وهي صلة بينه وبين الفعل.

د)- البيان والتفسير:

جاءت قصّة هود مع قومه عاد للتذكير والعبرة في سياق الحجج المتقدّمة لبيان أساس التوحيد والنبوءة، والتي كذّب بها المشركون وأعرضوا عنها كما أخبر الله عنهم في أول السورة بقوله: ﴿وَالذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾، واختيار قصة عاد دون غيرها يعود لسببين:

أ)- تماثل حال قوم عاد وحال مشركي مكّة في الطغيان المالي واستغراقهم في الملذات، عساهم يحذرون أن يصيبهم مثل ما أصاب عادا من الهلاك.

ب)- ولأنّ عاد هم أول قبيلة عربية جاءهم رسول من أنفسهم بعد الطوفان، وأشار الله إلى إهلاك القرى المجاورة التي يمرّ بها المشركون في تجارتهم.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَاذْكُرْ﴾: الخطاب لرسول الله، أمر بالذكر اللساني -وهو بكسر الذال-، أي يذكر لقومه قصة عاد مع رسولهم هود عليه السلام لعلهم يتّعظون بها، أو هو من الذكر -بضم الذال- أي يتذكّر ذلك في نفسه للتسلية والتثبيت حتى يصبر على أذى قومه، وقد ذكر الله هودا بصفته الأخوية لقومه بالانتماء القبلي، وفي التعبير بالأخوة استحاشة لعواطف القربى وتطبيق لحكمة الله في اختيار رسله من جنس أقوامهم لما في ذلك من إقامة الحجّة عليهم واستنزال طائرهم للطاعة والإذعان كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم:٤).

وقد يعبّر بالأخ للملازمة والاصطحاب للشيء فيقال: أخو النوم مثلا كما قال أبو نصر في رائيته رحمه الله:

وأمّا أخو النّومات لا مرحبا به ولا بالجشوم الرّاكد المتدثّر

وأما قبيلة عاد فهي من العرب البائدة تنتسب إلى جدّها الأعلى عاد بن إرم بن عوض بن سام بن نوح. ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾: الجملة بدل

الأولى، والإنذار من النذارة، وهي التخويف من شرّ متوقع. والأحقاف في المعنى اللغوي جمع حِقف، أي كثيب الرّمل الممتد، وهو اسم لمنازل قوم عاد تقع بين الحجاز في الشمال وعمان وحضر موت في الجنوب.

قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ جملة معترضة، الغرض منها بيان حكمة الله وسنّته في خلقه ببعث الرّسل لإقامة الحجّة عليهم، فقبيل بعثة هود إلى عاد كانت رسل كنوح عليهم السلام وبعده جاءت رسل قاموا بإنذار أقوامهم مثله، ثم بيّن الله وحدة دعوتهم إلى الله جميعا بقوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾، فهي جملة تفسيرية لمضمون ذلك الإنذار، أي الدعوة إلى وحدانية الله وعدم الإشراك به، ثم علّل ذلك النهي بقوله: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فهو عذاب موصوف بالعظمة لهوله وشدته، عاجلا دنيويا، أو آجلا أخرويا، فبماذا أجابه قومه الطغاة؟.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: جرت بين هود وقومه هذه المحاورة التي تجسّد الأدب النبويّ الرفيع في مجابهة قوم طغاة متجبّرين استعجلوا العذاب المتوعد به، مما ينمّ عن تكذيبهم لدعوة رسولهم، فكان ذلك الإنكار الصّارخ لما يدعوهم إليه من عبادة الله وحده، تشبّثا منهم بالآلهة الباطلة، وإنكارا لما يصرفهم عنها، وهم إذ يرمون رسولهم بالكذب تحدّوه بأن يأتي بالعذاب الذي هدّدهم به، وأمام ذلك التّحدّي السّافر تظهر حكمة هود في الإجابة ورزانته في استنزال طائرهم وكسر عنادهم فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

كانت الإجابة بصيغة الحصر: ﴿إِنَّمَا﴾، والتعبير بالعندية المجازية في انفراد الله بعلم ذلك إذ هو لا يدّعي علم الغيب، وإنما بعث مبلّغا عن الله بما

يأمره به، ﴿وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾: والجهالة هنا بمعنى الحماقة والبلادة هم متمكّنون منها حتى صارت سجية لهم، وقد جرت أحداث كثيرة وقامت حوارات أخرى بين هود وقومه فصّلها الله في سور أخرى، طواها النصّ هنا، ليذكر ما فيه العبرة والموعظة، ففرّع عمّا ذكر من القصّة ما كان لهم من العذاب المدمّر المستأصل فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ تُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

الضمير في: ﴿رَأَوْهُ﴾ يعود إلى العذاب المشار إليه في قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، وقوم عاد هم شبه بداة أصحاب إبل وأغنام ينتقلون ما بين المراعي والقصور التي بنوها، وقد أصابهم قحط شديد، وهم يتطلعون بشغف إلى المطر، وعندما رأوا ذلك السّحاب العارض على الأفق وهو على رؤوس أوديتهم ظنّوه مطرا مريعا يسقي زرعهم ومواشيهم، ولكن الواقع كان على خلاف ذلك، إذ تولّد عن ذلك السحاب وسيلة العذاب المهلك الذي استعجلوا به رسولهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولم يبيّن الله القائل من هو؟، فيجوز أن يكون من رسولهم أو من الله على الكيفية التي قدّرها هو.

ثم بيّن الله نوعية ذلك العذاب فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، وصف الله تلك الريح العقيم بأنّها تدمّر كلّ شيء بمعنى أغلب الأشياء، بدليل قوله: ﴿لاَ تُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾، فهي باقية لم تدمّر، ويبدو أن التدمير تسلط على مظاهر الحياة الحيوانية والنباتية. وقوله: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ حال، والباء سببية، فالله تعالى هو المتصرف في شؤون الكون بأمر

فيطاع ويقضي فيه بما يشاء فلا رادّ لحكمه، وجاء في سورة الذاريات بشأن تلك الريح المدمّرة قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (٤١-٤٢).

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾: أي إنّ ذلك العذاب هو الجزاء العادل لكلّ من أجرم في حقّ الرّسل، وفي ذلك تعريض بشركي مكة.

وقد زاد في تخويفهم بقوله: **﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِئَايَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾**.

التمكين في الأرض إعطاء القوة وأسباب القدرة والغلبة بالأموال والأولاد والجاه وغير ذلك من الحظوظ الدنيوية، والضمير في: ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ يعود إلى قوم عاد، فقد زادهم الله بسطة في أجسامهم وبسط لهم الأرزاق بما لم يعطه لأهل مكة في قوله: ﴿إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾، فـ"إن" نافية، فهم أكثر منكم عددا وأقوى مددا، وقد متّعهم الله بالحواسّ والعقل لإدراك الحقّ وفهم ما يدعوهم إليه رسولهم، ولكنّهم عطّلوا كلّ ذلك ولم يسخّروا تلك النعم في ما يستحقّه المنعم من الحمد والشكر؛ لأنّهم كانوا يجحدون بآيات الله طغيانا وكفرا، حتى أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزءون به.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ قُرْبَانًا -آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وخلاصة الموعظة لكفّار قريش أن ذكّرهم الله بمصارع كثير من الأقوام السالفة ممن يمرّون على قراهم المدمّرة في جنوب الجزيرة وشمالها من ثمود وقوم

لوط وأصحاب مدين وحضارة سبأ في اليمن، أهلكهم الله بعد أن أقام عليهم الحجّة بتصريف الآيات وتنويعها، لكي يرجعوا عن غيّهم وعنادهم، فماذا كان من واقعهم؟.

لقد كان الهلاك وعذاب الاستئصال، فما أغنت عنهم تلك الآلهة الباطلة التي كانوا يتقربون لها من دون الله ويستنصرونها؟. فماذا كان؟. لم يجدوا منها نصرا، بل تخلّوا عنهم تماما وتركوهم لمصيرهم المشؤوم، جزاء إفكهم وافترائهم على الله، فهلا تتّعظون يا أهل مكة بذلك؟، أم اتخذتم عند الله عهدا أن لا يهلككم، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣).

فيا له من تقريع وتوبيخ، اللهم نوّر بصائرنا بنور الإيمان، وقنا نوائب الزمان ومكائد الشيطان، والله أعلم.

الجن يستمعون القرآن ويؤمنون به.

أ) - النصّ:

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ﴾: الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف للزمان الماضي متعلق بـ﴿اذْكُرْ﴾. ﴿صَرَفْنَا﴾: يقيدنا وجوهنا نحوك، والنفر: جمع أنفار ما دون العشرة، وقيل: دون العشرين. ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ﴾: في موضع نصب حال. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾: ﴿حَضَرُوهُ﴾: الضمير يعود إلى القرآن أو إلى الرسول، ﴿أَنصِتُوا﴾: استمعوا إليه باهتمام. ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾: ﴿قُضِيَ﴾: بالبناء للمجهول أي فرغ النبي من قراءته، ﴿وَلَّوا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾: أي رجعوا إلى بني قومهم يخوّفونهم بالعذاب إن لم يؤمنوا. ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾: لم يذكروا الإنجيل؛ لأنّه متمّ للتوراة، أمّا القرآن فهو كتاب مستقل، وقيل: إنّ المستمعين كانوا يهودا فأسلموا. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي لما سبقته من الكتب السماوية الأخرى. ﴿يَا قَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: وتكرار نداء "يا قوم" لاستجاشة العواطف القومية وللاهتمام بما يجيء بعده، ﴿دَاعِيَ اللَّهِ﴾: هو سيّدنا محمد ﷺ ويجوز أن يكون هو القرآن مجازا لأنه يهدي إلى الإيمان بالله، ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾: ﴿وَيُجِرْكُم﴾: مجزومان في جواب الأمر: ﴿أَجِيبُوا﴾، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: يجير: من أجار، أي يحميكم ويمنعكم، و﴿مِنْ﴾: للتعدية. ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾: جواب الشرط مقرون بالفاء، لا يعجز الله: أي لا يفلت من عذابه، وهذا كقولهم في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾(١٢).

ج)- البيان والتفسير:

تأتي قصة سماع الجنّ للقرآن وإيمانهم به ودعوة قومهم إلى اتباع هديه،

تأتي في إطار تأييد الله لرسوله في مسيرته الدّعوية وأنه مبعوث للثقلين: الإنس والجنّ، رحمة للعالمين، مما لم يحصل عليه أحد الرسل من قبله، وفي معرض بيان النموذجين المتقابلين من الولد البارّ والعاق لوالديه جاء قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

في معرض ذلك تدرك حكمة ذكر قصة الجن مع رسول الله وسماعهم للقرآن، وقبل الشروع في تفسير النّصّ نذكر بسطة وجيزة عن الجن كما بينتها النصوص القطعية من كتاب الله، فمن هم الجنّ، وهل الإيمان بهم واجب؟.

وللإجابة عن ذلك نورد ما قاله الدكتور وهبة الزحيلي في مقدمة تفسيره للنصّ قال: "والملائكة والجنّ عالمان غيبيان غير مرئيين يجب أن يؤمن المسلم بهما، كما يجب أن يؤمن بأن النبي تلقى الوحي من طريق الملائكة، وأنه بلّغ رسالته إلى الجنّ، فبشّرهم وأنذرهم، أمّا كيفية التّلقي والتبليغ فغير معروفة لدينا، إلا بطريق الأخبار الدينية النقلية ولا مجال للعقل في ذلك".[1]

قلت: لقد جمع سيّد قطب رحمه الله أطراف الحديث عن الجنّ مما جاء في القرآن الكريم وفي الأحاديث الصحيحة المروية في شأنه، فقال في مقدمة حديثه: "إنّ هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار حافل بالقوى والخلائق المجهولة لنا كنها وصفة وأثرا، ونحن نعيش في إحدى هذه القوى، وهذه الأسرار، نعرف منها القليل ونجهل الكثير، فإذا كشف الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار وهذه القوى عن طريق كلامه لا عن طريق

١- التفسير المنير: ٢٦/٦٠.

تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه، فسبيلنا في هذه الحالة أن نتلقّى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم، نتلقّاها كما هي، فلا نزيد عليها ولا تنقص منها".[1]

ونلخص -بتصرف- حديثه عن الجن من خلال القرآن: هناك خلق اسمه الجن مخلوق من نار لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ، وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر:٢٦-٢٧). وفي كلام إبليس لربّ العالمين مبرّرا عدم سجوده لآدم قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص:٧٦). ورئيسهم الأكبر هو إبليس اللعين، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنَ اَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف:٥٠).

ونصّ القرآن أنّ الجن يروننا ونحن لا نراهم فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْسثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٧). فالإنس لا يرون الجنّ إلاّ في حالة المعجزة أو الكرامة، كما سخّر الله ذلك لسيّدنا سليمان يتحكم فيهم ويستخدمهم ويسجنهم إذا تمرّدوا لقوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ، وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ (ص: ٣٦-٣٨).

ويستدلّ من الآية السابقة من سورة الأعراف أنّ الجن جماعات وقبائل كبني آدم، وهم يسكنون الأرض كالبشر على الكيفية التي يعلمها الله، وإن اختصوا بقوة الصّعود إلى السّماء والغوص إلى أعماق البحار، وهم مكلّفون كبني آدم، ونبيّنا محمد مرسل إلى الإنس والجنّ بدليل قوله ﷺ: «**بعثت إلى**

١- في ظلال القرآن: ٣٢/٢٦.

الأحمر والأسود»، وفي رواية: «**إلى الجن والأنس**»[1]. وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (الأنعام: ١٣٠).

ونتيجة لذلك التّكليف فإنّ فيهم المسلمين والمجرمين، وبمقتضى ذلك التّكليف أرسل الله جماعة منهم إلى رسول الله لسماع القرآن والإيمان به ثم دعوة قومهم إلى هديه. ويذكر الله قدرة الجن على التّأثير في إدراك البشر وتوجيه الضّالين منهم غير عباد الله، وذلك في ذكر حوار إبليس مع الخالق تعالى بعد أن أنظر الله عقابه إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٢-٨٣).

وأما ما يدّعيه بعض الدجّالين من التّحكّم في بعض الجنّ ببعض رياضات شاقة ومعاناة وطلاسم سحرية...إلخ، فذلك باب واسع للادّعاء والكذب و الخرافات لا يخوضه إلاّ فاجر دجّال، وقانا الله شرورهم.

وبعد هذه الجولة التعريفية بالجن نأخذ في تفسير النّصّ، قال تعالى: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾**.

بعد أن جرت موعظة المشركين بتذكيرهم بحال أمثالهم من الأمم السابقة انتقل إلى تذكيرهم بحال الجنّ وهم أقوى من البشر، كيف أنهم وجّههم الله إلى رسوله ليستمعوا القرآن، ولما تيقّنوا أنّه من عند الله رجعوا إلى قومهم دعاة إلى هديه، بينما كان المشركون على الضّدّ من ذلك جحودا

١- رواه أحمد في المسند من حديث أبي ذر، رقم ٢١٣٣٧: ٥/١٤٥، والرواية الثانية منسوبة لمجاهد، تفسيرا للأحمر والأسود.

وتكذيبا وإعراضا عن سماع القرآن وصدّ الناس عنه. وفي هذا الإخبار الإلهي توبيخ كبير، أمر الله رسوله أن يقصّ عليهم الخبر بتقدير فعل: اذْكُر، المقدر قبل "إذْ"، وذلك بعد أن تقدّم ذكر الجنّ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالانسِ﴾ (١٨).

ذكر الله هذه الحادثة مجرّدة عن كلّ ما خاض فيه الرّواة من التعليقات والحواشي، التي تتعلق بالأسئلة التالية: أوقع ذلك على علم الرسول بحضروهم؟، أو كان يقرأ القرآن في صلاة أو غيرها و لم يشعر بهم؟، إذا كان قد التقى بهم فأين وقع ذلك، وكم مرة؟، ما هي الآيات التي تلاها عليهم؟.

وقد اختلف المفسّرون في الإجابة على هذه الأسئلة، وبناء على بعض الروايات الصحيحة فإنّ المحقّقين يرجّحون أنّ الرسول قد التقاهم وعلم بحضورهم وأسمعهم مما أنزل الله سورة العلق، وفي رواية سورة الرحمن، وأنّ ذلك حدث عندما رجع من الطائف إلى مكة في مكان يسمى: بطن نخل، وفي رواية أنه وقع هذا وهو في طريقه إلى سوق عكاظ قرب مكة، مما يدلّ أن ذلك قد تكرّر، والله أعلم.

وأيّا ما كانت الإجابة عن تلك الأسئلة، فإنّ هذه الحادثة تندرج في ما يعتبر معجزة لرسول الله، يجب الإيمان بها كما أخبر به الوحي السماوي.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ﴾: فالتوجيه كان من الله تعالى، والنفر: هم من الواحد إلى العشرة، وجملة: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ﴾ حال، فيكون الغرض من حضروهم هو استماعهم للقرآن.

ولتأكيد حسن تدبّرهم وتجاوبهم مع القرآن حرّض بعضهم بعضا على الإنصات وهنا تأتي المفارقة العجيبة بينهم وبين المشركين الذين كان يقول بعضهم لبعض: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

(فصلت:٢٦).

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾: الضمير يرجع إلى القرآن، أي لما فرغ الرسول من قراءة ما قرأه عليهم رجعوا إلى قومهم من الجنّ، والرجوع يقتضي أن يكون أولئك القوم في غير ذلك المكان. اقتصر الله على ذكر الإنذار من عذاب الله جريا على ما درج القرآن -غالبا- من الاقتصار على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٤). سيما في مواجهة مهاترات المشركين ومجادلتهم.

ثم بيّن الله مضمون ما جاء في ذلك الإنذار لقومهم فقال: **﴿قَالُوا يَاقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ، يَا قَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾**.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا﴾: بدأوا حديثهم لبني جنسهم بهذا النّداء التمهيدي استجاشة لعاطفة الانتماء القومي، مما يدلّ على أنّ لهم تقسيمات اجتماعية كما للإنس، أما نوعية الكلام بينهم فيكون بالطّرق المألوفة عندهم للاستفادة مما يلائم المحكي عنهم هنا باللفظ العربيّ وقد أحسنوا التمهيد بسماعهم كتابا أنزل من بعد موسى، وفي وصفهم إياه بأنه أنزل من بعد موسى دليل بأنهم كانوا يعرفون طبيعة الكتب السماوية المنزلة، ويعرفون أن مصدرها واحد، كما اهتدى إلى ذلك ورقة بن نوفل عندما قال لخديجة بنت خويلد بعدما سمع منها الآيات المنزلة على سيّدنا محمد فقال لها: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى. أما عن عدم ذكرهم لعيسى عليه السلام وهو أقرب بعثة من رسول الله فقد تأولته بعض الروايات بأن هؤلاء النفر من الجن كانوا يهودا، غير أن الأصوب

أن يقال: إن الأصل في شريعة أهل الكتاب هي التوراة ولم يكن الإنجيل في أغلبه إلاّ مواعظ ورقائق روحية هي متممة للتوراة.

ثم نوّهوا بشأن القرآن الذي سمعوه ببيان بعض صفاته:

أ)- ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي إن القرآن يصدّق بكلّ ما سبقه من الكتب المنزلة على الرسل والأنبياء السابقين.

ب)- ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: والمراد بهداية القرآن إلى الحق هو الاعتقاد الصحيح بوحدانية الله وعظمته وقدرته وغيرها من أصول العقائد الإسلامية الصحيحة، والتي تجسّدها الأعمال الصالحة وفق ما شرعه لخلقه من أحكام وآداب.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: كرّروا النداء لجلب الاهتمام لما يلقى بعده من الدعوة إلى استجابة لداعي الله والإيمان به، وهو المقصود بالذات بعد النّداء الأول، وداعي الله إضافة تشريفية تتحقّق في رسول الله وفي القرآن الذي تلاه عليهم، والاستجابة تكون بالطاعة والامتثال فهم إذ عرفوا الحقّ والتزموا به قد أدركوا ما يترتب على ذلك من الأجر والثواب عند الله، وأنّه طوق النجاة من عذاب اليوم الآخر فسارعوا إلى دعوة قومهم بما يفرض عليهم واجبهم الدّيني من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد اقتصر الجزاء في دعوة الجن لقومهم، اقتصر على مغفرة الذنوب وعلى الإجارة من عذاب النار، فذهب بعض العلماء إلى أنّ الجن المؤمنين لا يجازون بالجنة، وإنما يجارون فقط من عذاب النّار، وقال هؤلاء: يقول الله تعالى بعد محاسبتهم: كونوا ترابا.

يقول الإمام بيوض رحمه الله بعد تفسيره للآية: "ولكن لا دليل أضعف من هذا، فالإباضية والمالكية والشافعية يقولون: إنّ الجنّ يعذبون بالنار ويثابون بالجنة

كالإنس، ولا يقبل أن يكونوا متساوين للإنس في التكليف ثم يصيرون إلى تراب كالبهائم، فجمهور الأمّة على أنهم يثابون، وثوابهم الجنة، وقال بعض: ثوابهم صحراء الجنّة، وهذا باطل".[1]

﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَآءُ اوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾: الأرجح أنّ هذه الآية هي تتمّة كلام الجنّ، لأنها تكملة لإنذارهم مكفكفا لغلوائهم بأنّ المتمرّد منهم لا ينفلت من عذاب الله ولا يجد له نصيرا يمنعه من العقاب، ونظير ذلك قولهم في سورة الجن: ﴿وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تُعجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾(١٢). والتعقيب بقوله تعالى: ﴿اوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ بعد ذلك التهديد فيه تعريض للمشركين لإفادة تلبّسهم بالضلال الواضح بعدما تبيّن لهم الحقّ، فهل يكفكفون من ضلالهم بعدما سمعوا قصّة الجنّ؟، والله أعلم.

إثبات البعث، والأمر بالصبر لرسول الله ﷺ.

أ)- النصّ:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ
بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ
قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ
أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا
سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

١- في رحاب القرآن: ٣٩٨/١٨.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: الرؤية علمية، و"رأى" ينصب مفعولين، و"أن" مع معموليها سدّ مسدّ المفعولين، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، ﴿وَلَمْ يَعْيَ﴾: مضارع عيي، ومصدره العيّ -بكسر العين-، وهو العجز عن القيام بفعل أو قول، ﴿بِقَادِرٍ﴾: خبر "أنّ"، دخلت عليه الباء الزائدة للتوكيد. ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ﴿بَلَى﴾: جواب على الاستفهام الإنكاري، والتقدير: بلى هو قادر على أن يحيي الموتى. و﴿بَلَى﴾: يجاب بها على النفي بإبطاله وتقرير نقيضه، فهي لإثبات النقيض، أما "نعم" فهي لتقرير ما قبلها، جملة: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: تذييل لجملة: ﴿بَلَى﴾، لإفادة العموم بعد الخصوص؛ لأنّ إحياء الموتى داخل في خلق السماوات والأرض. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾: الجملة معطوفة على جملة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، وفيها تقديم وتأخير، والتقدير هكذا: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار، وتقديم الظرف: ﴿يَوْمَ﴾ على عامله للاهتمام بذكر اليوم، أي يعرضون على عذاب النار، ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾: الاستفهام للتقرير والتنديم، والإجابة بـ"بلى" لإبطال النفي وتقرير نقيضه كما تقدم. وزيادة القسم: ﴿وَرَبِّنَا﴾ لوما لأنفسهم وعتابا لها، واختيارهم في القسم به لصفة الربوبية للتذلل والتخشع. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾: ﴿فَاصْبِرْ﴾: تفريع على ما سبق من التكذيب والأذى لرسول الله، ﴿أُوْلُوا الْعَزْمِ﴾: هم نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد. ﴿لاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾: اللام للتعدية، ومفعول ﴿تستعجل﴾ محذوف، أي العذاب والهلاك، والضمير يعود للمشركين. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾: الجملة تعليل للنهي: ﴿لاَ تَسْتَعْجِل﴾، أي إن العذاب

واقع بهم لا محالة، فلا يؤثر في وقوعه تطويل أجله، ويوم يقع عليهم يظنون أنهم لم يقيموا في الدنيا إلاّ ساعة من نهار، و﴿بَلاَغٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هـذا بلاغ، ويجوز نصبه نعتا لـ"ساعة"، أو نصبه على المصدرية، وهو يحتمل معنيين: القليل من الشيء فيقال: ما معنا من الزاد إلا بلاغ، أو هو اسم مصدر بمعنى التبليغ. ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾: أي الخارجون عن طاعة الله، والاستفهام للنفي.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بِقَادِرٍ﴾: قرأ الجمهور بالموحدة، بصيغة اسم الفاعل، وقرأه يعقوب: ﴿بِقَدِرٍ﴾ بتحتية في أوله، على أنه مضارع، من القدرة، على أن تكون الجملة في محلّ رفع خبر لـ"أن".

د)- البيان والتّفسير:

يعتبر هذا النّصّ الأخير عودا على بدء من السورة الكريمة التي ابتدأت بإثبات وجود الإله وبيان قدرته في خلق السماوات والأرض وما بينها بالحقّ، وإثبات النبوءة بردّ شبهات المشركين وإبطال مزاعمهم الباطلة، ثم موعظتهم بمصير أمثالهم من الأمم، وتوبيخهم على الكفر والعناد مع أنّ الجن آمنوا بالقرآن ودعوا قومهم إلى الإيمان به. وبعد تلك الجولة عاد إلى الاستدلال بوقوع البعث وهو متّصل بقوله تعالى في شأن الولد العاقّ لوالديه: ﴿أَتَعِدَانِنِيَ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾. ثم أمر الله رسوله بالصبر في دعوته كما صبر أولو العزم من الرسل، ونهاه عن استعجال العذاب لقومه الظالمين، ثم علّل ذلك النهي بأن العذاب واقع بهم لا محالة فلا يؤثر فيه طول الأجل.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الاستفهام إنكاريّ، والضمير في: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ عائد لمنكري البعث من المشركين، والرؤية علمية وبصرية مما يشاهد من الكون ومما لا يشاهد منه، فكلّ من البصر والعقل يستدلاّن من عظمة خلق السماوات والأرض قدرة الله تعالى على ما هو دون ذلك بداهة. ومع عظمة ذلك الخلق، فإنّه تعالى لم يشك تعبا ولا عياء، بل قال لهما: كونا، فكانتا طائعين، أو لم يتفكر هؤلاء في ذلك المدلول العظيم ليعلموا أنّه تعالى قادر على كلّ شيء في أرجاء الكون، ونجد نظائر هذا الاستدلال في غير هذه السورة مثل قوله:

أ)- ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (غافر:٥٧)

ب)- ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (لقمان:٢٨)

ج)- ﴿وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم:٢٧).

د)- ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (ق:١٥)

بعد استدلاله تعالى على إمكان البعث أعقبه بذكر بعض أحوال الكفار يوم القيامة، وبيان اعترافهم بخطئهم فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وفي الآية تقديم وتأخير، وحذف فعل القول، فيكون التقدير هكذا: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار يقال لهم توبيخا وتقريعا: أليس هذا بالحقّ؟.

والإشارة إلى عذاب النار الذي يعرضون عليه، وإجابتهم المختصرة بـ"بلى"، لإبطال النّفي وتقرير نقيضه، أي يعترفون بأنّ العذاب الذي لاقوه هو حقّ وعدل، وقد زال شكّهم في وقوعه، وزيادة القسم بقولهم: ﴿وَرَبِّنَا﴾ للتعبير عن التندم والاعتراف في تذلّل وتخشّع، فرّع عليه قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، الأمر بذوق العذاب هو على سبيل المجاز للإهانة والتحقير بسبب كفرهم.

وبعد تلك الجولات التي تابعناها من أوّل السورة في بيان أسس العقيدة الإسلامية، فرّع الله في ختامها الأمر لرسوله بالصّبر في تبليغ دعوته متأسيا بأولي العزم من الرسل فقال تعالى: **﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾**.

قيل إن: ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، فيكون: ﴿أُوْلُوا الْعَزْمِ﴾ رسلا خاصّين ممن عرفوا بالثبات والعزم في مواقفهم مع قومهم، وممن لاقوا أذى كثيرا ومن جملتهم رسولنا محمد ﷺ وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد. وهذا أصح الأقوال عند الأئمة كلّهم، قال عمرو بن جميع صاحب العقيدة المشهورة:

أولو العزم نوح والخليل كلاهما وموسى وعيسى والنبي محمد

وهم الذين خصّصهم الله بالذكر بعد ذكر عموم النبيين فقال: ﴿وَإِذَ

اَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب:٧). وقيل: إن ﴿مِن﴾ بيانية، فيكون الأنبياء كلّهم أولى العزم.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، الضمير يعود إلى كفّار مكة، نهاه الله أن يستعجل لهم العذاب وذلك بأن يدعو عليهم، وقد قال تعالى لرسوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ (الأنفال:٣٣). فهو تعالى يمهل ولا يهمل فإنّ العذاب واقع بهم -لا محالة- على الكيفيّة التي يقدّرها الله وفي الوقت الذي يحدّده.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾: جاءت هذه الجملة تعليلا للنهي عن الاستعجال ليبيّن الله أنّ العذاب واقع بهم، فلا يؤثر في ذلك تطويل أجله، وهم حين يقع عليهم تبدو لهم المدّة التي مكثوها في الدنيا -وإن طالت أعمارهم- تبدو لهم كأنّها ساعة من نهار لما يلاقونه من الهول العظيم. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات:٤٦).

وقال الشاعر:

كأنك لم تسبق من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

وقال آخر:

كأن شيئا لم يكن إذا مضى كأن شيئا لم يزل إذا أتى

﴿بَلاَغٌ﴾: والتقدير: هذا بلاغ، فهو من الكناية أو التبليغ، أي في ما تقدم من السورة كفاية لموعظة النّاس مؤمنهم وكافرهم، أو يكون معناه: القرآن بلاغ كاف للناس. على طريقة ما يستعمل في الإعلام المهمّ من الدوائر

الرسمية، ولله المثل الأعلى، فيقال: بلاغ من رئيس الدولة مثلا، أو بلاغ من وزارة كذا، نظيره قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ (إبراهيم:٥٢).

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾: الاستفهام للنفي، أي لا يهلك بالعذاب إلاّ القوم الفاسقون، وهم الخارجون عن طاعة الله، ومن أعظمها الشرك بالله، والتعريف في: ﴿الْقَوْمُ﴾ يفيد العموم ومن ضمنهم المتحدّث عنهم من مشركي مكة، وقيل: إنّ هذه الآية من أقوى الآيات في رجاء رحمة الله، وقانا الله من كلّ سوء.

اللّهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسّلامة من كلّ إثم، والغنيمة من كل برّ، والفوز بالجنّة والنّجاة من النّار يا أرحم الراحمين، والله أعلم.

تم بحمد الله الجزء الثاني عشر،

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الثالث عشر،

من بداية سور محمد ﷺ.

الفهارس

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة 503
فهرس الأحاديث 510
فهرس الآثار 513
فهرس الأبيات الشّعرية 514

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة

تفسير سورة الزّمر

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السّورة الكريمة	5
04-01	التنويه بشأن القرآن والأمر بإخلاص العبادة لله	7
07-05	أدلّة الوحدانية ومعاني القهّارية	13
09-08	تذبذب الكفار، وثبات المؤمنين	22
20-10	نصائح، ووعد للمؤمنين، ووعيد للمشركين على لسان رسول الله	28
21	ضرب المثل للحياة الدنيا، واختلاف أحوال الناس	40
26-22	هداية القرآن، وأثرها في القلوب المؤمنة	42
31-27	ضرب الأمثال في القرآن	49
40-32	وعد المصدّقين، ووعيد المكذبين، وتسفيه عبدة الأصنام	54
48-41	الاستدلال على قدرة الله وتصرّفه في الأحوال، وتوضيح فساد مذاهب المشركين مع تهديدهم	62
52-49	فزع الإنسان إلى الله عند البأساء، وغروره عند النّعماء	71
61-53	أرجى آية في مغفرة الذنوب، وبيان حال المؤمنين والمشركين يوم القيامة	75

67-62 دلائل التوحيد، وإجماع الرّسل على الدعوة إليه 82
75-68 النفخ في الصور ليوم الفصل، ومصير المكلفين 89

تفسير سورة غافر

الآية	العنوان	الصّفحة
	بين يدي السّورة الكريمة	98
06-01	التنويه بشأن القرآن، وبيان حال المجادلين في آيات الله...	100
09-07	التنويه بشأن المؤمنين باستغفار أشرف الملائكة لهم	105
17-10	توبيخ الكفّار، واعترافهم بذنوبهم، والتذكير بقدرة الله ..	110
22-18	التخويف من عذاب الآخرة،والتحذير من عذاب الدنيا.	118
27-23	من الأمم الهالكة التي لم يشهد العرب آثارهم فرعون وقومه مع موسى عليه السلام	124
35-28	قصة مؤمن آل فرعون، ومرتكزات دفاعه عن موسى عليه السلام	129
46-36	تطاول فرعون على موسى، ومتابعة الرجل المؤمن لنصح قومه	137
50-47	أحوال أهل النّار في التّخاصم والمحاجّة	145
56-51	طمأنة رسول الله والمؤمنين بالانتصار، وحثهم على الصبر والاستغفار	149
65-57	من دلائل عظمة الله وقدرته في الخلق	155

68-66 متابعة بيان دلائل القدرة الإلهية لتركيز العقيدة..... 164
76-69 ترهيب المجادلين في آيات الله بالباطل 167
81-77 النّصر مع الصبر، وفي آيات الله ما يثبّت الصّابرين 171
85-82 التذكير بعبرة آثار الأمم التي أهلكها الله لما كذبت رسله، إذ لا ينفع إيمان عند رؤيته العذاب..... 178

تفسير سورة فصّلت

الآية	العنوان	الصّفحة
	بين يدي السّورة الكريمة.....	184
08-01	التنويه بشأن القرآن، وبيان بشرية الرّسول	186
12-09	توبيخ المشركين على إشراكهم، في حين وضوح الدلائل على انفراد الله بالخلق واتصافه بتمام العلم والقدرة.....	194
18-13	تهديد المشركين بمثل ما نزل بعاد وثمود	201
25-19	شهادة المشركين على أنفسهم في موقف الحساب	207
32-26	وعيد المعرضين عن سماع القرآن، وجزاء أهل الاستقامة.	214
36-33	الدّعوة إلى الله وآدابها	221
39-37	بيان الأدلّة على وحدانية الله وقدرته	226
46-40	تهديد الذين يلحدون في آيات الله وفي آيات القرآن، مع الإشادة بشأن القرآن وتعظيمه	230

48-47 بيان شمول علم الله لكلّ شيء، وعرض مشهد ليوم القيامة 239
51-49 الإنسان في تغير أحواله وتقلّب أطواره 243
54-52 الدعوة إلى إعادة النّظر والتّأمّل في دلائل صدق القرآن .. 248

تفسير سورة الشّورى

الآية	العنوان	الصّفحة
	بين يدي السّورة الكريمة	253
06-01	بيان حقيقة الوحي في مماثلة بعضه لبعض، والإشادة بعظمة الله، وتمكّن سلطانه	256
12-07	بيان المقصد الإلهي من إنزال القرآن	261
14-13	التنويه بدين الإسلام، وبيان وحدة الأديان في الأصول ..	269
19-15	الأمر بالاستقامة على دين الحقّ، ودحض حجّة المجادلين فيه وبيان موقف المؤمنين والكافرين من السّاعة	273
26-20	ذكر حظوظ الفريقين في شأن الإيمان بالآخرة وعدمه وبيان قبول التوبة	280
35-27	بيان حكمة الله في تدبير الأرزاق، وآيات قدرته في الآفاق	291
43-36	بيان صفات المؤمنين الأوفياء الكمّل	300
46-44	أحوال الظالمين في موقف الحشر يوم القيامة	307

50-47 واجب الاستجابة لداعي الله المالك الواهب 312
53-51 بيان كيفيّة نزول الوحي، وأنّه نور وهدىً من الله تعالى . 318

تفسير سورة الزّخرف

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السّورة الكريمة	325
08-01	الإشادة بعربيّة القرآن، وبيان عقاب المستهزئين	327
14-09	إقرار المشركين بالخالقية لله، وتذكيرهم ببعض نعمه.....	331
25-15	تناقض المشركين في معتقداتهم؛ لأنها مبنية على التقليد، والرّدّ عليهم	337
35-26	من الخطأ تقليد الآباء على الباطل، ومن الباطل الجدال في آيات الله وحكمته	344
45-36	التنبيه على آفات الدنيا، وتثبيت رسول الله على دعوته..	352
56-46	تنظير حال الرسول مع قومه بحال موسى مع فرعون	360
66-57	الرّدّ على شبهة الكفّار في عبادة عيسى عليه السلام	367
80-67	بيان أحوال القيامة من نعيم المتّقين وعذاب المجرمين	375
89-81	تنزيه الله عن الولد والشّريك، وبيان تناقض المشركين بين ما يقرون به وما يفعلون	383

تفسير سورة الدّخان

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السّورة الكريمة	389
09-01	بدء إنزال القرآن في ليلة القدر، وبيان عظمة منزّله	390
16-10	تهديد المشركين بالعذاب عاجلا أو آجلا	394
33-17	الاعتبار بإهلاك قوم فرعون، وإنجاء بني إسرائيل	400
39-34	إنكار المشركين البعث، والرّدّ عليهم وتهديدهم	406
59-40	يوم الفصل، ومآل المتّقين، والكفّار، والآثمين	411

تفسير سورة الجاثية

الآية	العنوان	الصّفحة
	بين يدي السّورة الكريمة	419
06-01	مصدر القرآن هو خالق السماوات والأرض بالحقّ	420
15-07	وعيد المكذبين بآيات الله، وبيان نعمه على عباده	426
20-16	اختلاف بني إسرائيل على نعم الله واصطفاء الأمّة بالرسالة الإنسانية	433
26-21	التعجيب من أحوال عبيد أهوائهم، ومن الدهريين في إنكارهم للبعث	439
37-27	مشاهد من يوم القيامة لبيان أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين، وأنّ الله هو الكبير المتعالي	446

تفسير سورة الأحقاف

الآية	العنوان	الصّفحة
	بين يدي السّورة الكريمة	455
06-01	الاستدلال على وحدانية الله وقدرته، والرّدّ على عبدة الأصنام	457
14-07	إثبات قضية النّبوءة، والرّدّ على شبهات المشركين	461
20-15	الوصية ببرّ الوالدين، ورسم نموذجين: للولد البارّ والولد العاقّ	471
28-21	هلاك قوم هود بعد مجادلتهم له وتكذيبه عليه السلام	480
32-29	الجنّ يستمعون القرآن ويؤمنون به	487
35-33	إثبات البعث، والأمر بالصبر لرسول الله ﷺ	495

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصّفحة
أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس	321
إذا آوى أحدكم إلى فراشه	67
إذا دخل النور القلب انشرح	45
إذا كان العبد يعمل	193
اذهبوا فأنتم الطلقاء	225
أطّت السماء وحقّ لها أن تطّ	259
اعملوا ولا تغترّوا	312
افترقت اليهود على	374
أكبر الجهاد كلمة حق	132
ألا وإن في الجسد مضغة	44
التمسوها في العشر الأواخر	392
أن أناسا من أهل الشرك	78
أن تعبد الله كأنك تراه،	241-58
أنّ رجلا جاء إلى رّسول الله ﷺ،	476
أنّ رسول الله ﷺ كان لا ينام	186
أنّ رسول الله ﷺ كان يقول	115
إنّ في الجنة ما لا عين رأت	379-33
إن قريشا لما استعصوا	397

إن الله تجاوز عن أمتي..... 121
إنّ من عبادي من لا يصلحه 295
أنّ النبي كان إذا سافر 336
أنت أحبّ بلاد الله إليّ 32
بعثت إلى الأحمر والأسود 490
بعثت والساعة كهاتين..... 371
الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي 161
ذكر رسول الله رجلا 149
والذي نفسي بيده إنه ليختصم 54
والذي نفسي بيده ليوشكن..... 372
الرّؤيا الحسنة 320
عليكم بقيام الليل 26
القبر روضة من رياض الجنة 144
قلت: يا رسول الله،..... 219
كان رسول الله إذا قام 69
كان رسول الله ﷺ يصوم..... 08
كحلقة في فلاة 115
كلّ مولود يولد على الفطرة 478
كنّا عند رسول الله ﷺ،..... 210
لا تسبّوا تبّعا 407

لا تماروا في القرآن 103
لا يموتنّ أحدكم 212
لا ينام الرسول حتى يقرأ 186
لم يكن في الوجود 199
لو أنّ أوّلكم وآخركم 117-19
لو كانت الدنيا تعدل 352
ليس من بني سلمة 10
من قرأ آية الكرسيّ 99
هو لكم ولآلهتكم 369
يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر، 444
يقبض الله الأرض يوم القيامة، 88
يقول الله تبارك وتعالى 454

فهرس الآثار

طرف الأثر	الصّفحة
استقاموا والله على الطريقة (عمر)	218
آل حم القرآن (ابن مسعود)	98
إنّ قوما ألهتهم الأماني (الحسن البصري)	212
أنا لا أحمل همّ الإجابة (عمر)	160
أنّهم يعنون بهما الوليد بن المغيرة (ابن عباس)	349
تدخلونها برحمة الله (ابن مسعود)	380
الحواميم ديباج القرآن (ابن مسعود)	253-186
الحواميم نزلت عقب الزمر (ابن عباس)	98
عجلت، إنما معناها (ابن عباس)	288
اللهم إنك أمرتنا (حذيفة)	27
ليس الإيمان بالتّمنّي (الحسن)	471
ليس في الدنيا مما في الجنّة إلا الأسماء (ابن عباس)	417
المراد به الجزاء الأخروي (ابن عباس)	215
المراد بالعذاب الشديد (ابن عباس)	217
من قال: لا إله إلا الله (ابن عباس)	164
نحن قوم كان عزّنا (عمر)	359
نزلت في ثلاثة أحياء (ابن عباس)	12

فهرس الأبيات الشّعرية

صدر البيت	الصّفحة
أبي الإسلام لا أب لي ســـواه	223
أخا سفر جوّاب أرض تقاذفت به	481
وادن إلى القربى المقرّب نفسه	304
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته	180
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن	304
وإذا حلت الهداية قلبا	44
إذا صحّ منك الودّ فالكلّ هيّن	106
وإذا فاتك التفات إلى الماضي	331-180-123
إذا وصف الطائي بالبخل مادر	129
وأغض الطرف إن بدت لي جارتي	121
اصبر على كيد الحسود	154
أولو العزم نوح والخليل كلاهما	499
وأمّا أخو النّومات لا مرحبا به	483
الأماني حلم في يقظة	66
إنّ حزنا في ساعة الموت	479
إنّ السّعادة للمحبّ حبيبه	417
إنما ينقلون من دار غرور	445

تأمل سطور الكائنات فإنها 459

وتحسب أنك جرم صغير 424

الجهل لا تحيا عليه جماعة 28

خطرات النسيم تجرح خدّيه 341

خلق الناس للبقاء فضلّت 445

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به 304

والظلم من شيم النفوس فإن تجد 307

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه 214

العيش نوم والمنية يقظة 66

فكلاهما حلوٌ لديّ فكيف من 417

فاللبيب اللبيب من ليس يغتر 445

فليس يصح في الأفهام شيء 278

وفي كلّ شيء له آية 423

وقال السّها للشمس أنت خفيّة 129

كأنّ ربك لم يخلق لخشيته 170

كأن شيئا لم يكن إذا مضى 500

كأنك لم تسبق من الدهر ليلة 500

كالنار تأكل بعضها 154

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة 304

لا تسأل المرء عن خلائقه 48

لا تنكر الوحي من رؤياه إن له 320
ولا خير في حلم إذا لم تكن له..... 225
ولست أبالي حين أقتل مسلما 223
ولست بصائم رمضان يوما 71
ولست بقائم في الصبح أدعو 71
لكنّ قومي وإن كانوا على عدد..... 170
ولكنني سأشرها شمولا..... 71
ولله في كلّ تحركة 423
ولولا كثرة الباكين حولي..... 357
وما يبكون مثل أخي ولكن..... 357
ومن البلية عذل من لا يرعوي 277
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه 307
النّاس للنّاس من بدو وحاضرة..... 351
نرى الأمر عن علم اليقين تيقّنا 416
ولد المعزّى بعضه، فإذا مشى 338
فيا موتُ زُر إنّ الحياة ذميمة..... 129

تعريف مختصر بالمؤلف

هو محمد بن ابراهيم سعيد المعروف بـ(كعباش)، من مواليد بلدية العطف ولاية غرداية، من الجمهورية الجزائرية، وآل سعيد فرع أصيل من عشيرة أولاد بكّة في بلدة العطف (تجنينت).

أبصر نور الحياة خلال 1929م في حضن أبوين كريمين: سعيد ابراهيم بن باحمد، وهمون شيخة بنت الحاج محمد. تركه والده فقيراً يتيماً لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفّيت إحداهما فأصبح وحيد أمّه وقرّة عين لها، فاعتنت بتربيته على حبّ الله ورسوله وعلى حفظ كتاب الله في سنّ مبكّرة، وقد وهبه الله ذاكرة قويّة وذكاءً لامعاً، ولم يكن كتّاب قريته ليُقْنِع طموحه في التّعلم، فارتحل إلى معهد القرارة عند الإمام الشيخ بيّوض الحاج ابراهيم بن عمر، ثم إلى تونس الخضراء حيث درس العلوم العربية والشرعية في الجامع الزيتوني ودرس العلوم التطبيقية في المعهد الخلدوني.

بدأ العمل في مجال التربية والتعليم أستاذاً ومديراً في القطاع الدّيني الحرّ في فترة الإستعمار، ثم في القطاع العمومي بعد الإستقلال الوطني حتى تقاعده عن العمل سنة 1990م.

انتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينيات فحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي، وانخرط عضوا رسميّاً في حلقة العزابة للمسجد الجامع بالعطف في سنة 1958م، ثم عيّنته الحلقة إماماً ومرشداً في سنة 1970م، وهو ما يزال يقوم بمهمّته النّبيلة في الإصلاح الديني والاجتماعي نصحاً وإرشاداً وتجليةً لمعاني كتاب الله وسنّة رسوله على منبر المسجد، بعد أن حدا بصفوف الأجيال على مقاعد الدّراسة لما يقرب من خمسين سنة في مسيرة

مهنية متواصلة لم تنقطع بفترة مرض أوانحراف عن الخط لوجهة أخرى، وذلك بفضل الله تعالى.

وقد أسهم المؤلف بقسط وافر من التّضحية والجهد في صفوف جبهة التحرير الوطني ويتشرّف بعضوية منظمة المجاهدين دون منّ ولا غرور، وهو متزوّج وأب لتسعة أولاد، وفّقه الله تعالى إلى مواصلة مسيرته في نصرة دينه وخدمة كتابه، وجعل عمله خالصاً مخلصاً لوجهه الكريم، آمين.

محتوى أجزاء التفسير

- **الجزء الأول:** من بداية سورة الفاتحة إلى الآية 203 من سورة البقرة.
- **الجزء الثاني:** من الآية 204 من سورة البقرة إلى الآية 175 من سورة آل عمران.
- **الجزء الثالث:** من الآية 176 من سورة آل عمران إلى الآية 26 من سورة المائدة.
- **الجزء الرابع:** من الآية 27 من سورة المائدة، إلى آخر سورة الأنعام.
- **الجزء الخامس:** من بداية سورة الأعراف إلى الآية 33 من سورة التوبة.
- **الجزء السادس:** من الآية 34 من سورة التوبة، إلى آخر سورة هود عليه السلام.
- **الجزء السابع:** من بداية سورة يوسف عليه السلام إلى آخر سورة النحل.
- **الجزء الثامن:** من بداية سورة الإسراء إلى آخر سورة طه.
- **الجزء التاسع:** من بداية سورة الأنبياء إلى آخر سورة الفرقان.

- **الجزء العاشر**: من بداية سورة الشعراء إلى آخر سورة لقمان.
- **الجزء الحادي عشر**: من بداية سورة السّجدة، إلى آخر سورة ص.
- **الجزء الثاني عشر**: من بداية سورة الزّمر، إلى آخر سورة الأحقاف.

أيها الأخ المسلم :

لاشك أنك تتعرض لنفحات الرحمن وأنت تناجيه في صلاتك، أو تهيم في جلاله وأنت في خلواتك، أو تتلو كتابه في تدبر وإمعان، فتزيد إيمانا على إيمان . . .

لقد من الله علي بتلك النفحات، وأنا أرتع في رياض كتابه، وأستجلي مكنونات أسراره وعجائبه تحقيقا وتسجيلا على صفحات الدفتر ووعظا وإرشادا على خشبات المنبر، فها أنذا أُهديكها "أيها الأخ المسلم" خالصة نقية، وأنت الأخ الوفي، فتقبل مني هذه الهدية.

المؤلف

ردمك: 5-58-845-47-978 :I.S.B.N